كيف ترد الشبهات بالحوار العقلي وحده ؟!

(محاورات عقلية مبسطة للوصول إلى حقائق الإسلام بلا تنظيمات ،

وحقيقة التاريخ بلا مؤثرات)

محمد جاد الزغبي

اسم الكتاب: كيف ترد الشبهات بالحوار العقلي وحده ؟!

تأليف: محمد جاد الزغبي

رقم الإيداع:

الترقيم الدولى:

كيف ترد الشبهات بالحوار العقلي وحده؟!

تألیــف

محمد جاد الزغبي

الإهــداء

فليسمح لى القارئ العزيز فى تطويل فقرة إهداء هذا الكتاب ..

إلى والدي الحبيب رحمه الله ، الأستاذ والمثل الأعلى .. وإلى جيله كله الذي تعتبر حرب أكتوبر بكل مجدها أحد أعمالهم الصالحة ، هذا الجيل المتدفق بالعطاء الذي أعطى كل ما لديه في مجالات العلم والتعليم وأداء وظائفهم بمنتهى التفاني ، ولم يلتفتوا إلى مكسب أو شهرة بعد أداء واجبهم .. وفوق كل هذا استقبلوا أجيال الشباب التى لجأت إليهم بحثاً عن العلم والفكر ، وأعطوهم خلاصة النصح والتجربة ومعاني الثقافة والانتماء الوافر .. وأخص بالذكر ممن تشرفت بأن تلقيت على أيديهم المعرفة فى شتى المجالات ، من الثقافة الإسلامية والآداب العربية والعلوم السياسية والتاريخ المعاصر، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر أساتذتى : سيد أحمد تمام ، وسعد برنجى أساتذة الطفولة والشباب .. الأستاذ الدكتور البدراوي زهران والأستاذ الدكتور أحمد أبو رحاب فقهاء اللغة العربية الأفذاذ والمهندس أحمد عبد الباقي عاشور مدير منتديات العز الثقافية تقديراً وعرفاناً بتوجيهاتهم وحرصهم على فتح نافذة حقيقية للإبداع أمام آلاف الشباب اللواء أحمد سعد الدين ، واللواء أحمد مأمون ، واللواء خليفة إسماعيل خبراء الأمن القومى والتاريخ المعاصر الذين أفسحوا لي الوقت للتلقي عنهم ولم يبخلوا معي بوقت أو جهد

محمد جاد الزغبي

مقـدمــة للكتــاب

من إعداد / الدكتور ناجح إبراهيم المفكر الإسلامى الكبير ـ **والأستاذ هشام النجار** الباحث فى الشئون الإسلامية والصحفي بالأهرام.

إنتظرنا حتى ينتهى المهاجمون الجدد للإسلام من مهمتهم ويفرغوا كل ما فى جعبتهم لأرى مدى إبداعاتهم الجديدة ، وهل أتوا بجديد لم يأت به الأوائل فى هذا الميدان ، وكل يوم يمر ومع كل مقال وطلة إعلامية أبتسم إبتسامة الواثق وأشفق على العقول التي تلعب خلف المرمي ولا تكاد تحرز ولا ربع هدف بين الثلاث خشبات .. فى ملعب يكاد يكون خال أمامهم ، فلا أحد يدافع ولا أحد يرد عليهم أو تتاح له المساحة والوقت ليرد .

لكننا عثرنا على من يرد بفهم راق وفكر مستنير وتحليل وإستقصاء منهجى عميق ، حيث إطلعت على هذه الصفحات المشرقة للكاتب والباحث المتميز . محمد جاد الزغبى ،الذى سعي لأن نفهم أولاً القضية وأبعادها وأن نتعرف على أسباب هجوم بعض الكتاب والإعلاميين على الثوابت ، وسعي أيضاً لوضع منهج عقلانى لكيفية الرد عليهم وذلك لأن المهاجمين يستغلون صعوبة الردود العلمية المتخصصة على الناس ، فجاء هذا الكتاب ليرد على الشبهات بأسلوب حوارى مبسط يوصل الفكرة دون إخلال بالمضمون

الأستاذ العقاد عليه رحمة الله فى كتابه القيم " الإسلام في القرن العشرين " يضعنا أمام القضية ببعديها الخارجي والداخلي ، فيؤكد أن خصوم الإسلام حددوا عناصر القوة فيه لإستهدافها تمهيداً لإسقاطه ،

وهي كما حددوها فى أوربا " القرآن و السنة وشخصية الرسول " ،

وهم فى الظاهر قد يحيدون القرآن أو لا يقربوه بالطعن فالنيل منه وإدعاء تزويره أو تحريفه مستحيل ويثير عليهم مشاكل ويعجل بهزيمتهم ، فيعمدون إلي الأركان التى يتكامل معها القرآن في هرمية التشريع وتشكيل بنيان الإسلام القيمي الشامل وهما السنة وشخصية الرسول لمحاولة هدمهما فى وجدان المسلمين والأمة ، فيسقط بسقوطهما القرآن – كما يتوهمون - .

بالعودة إلي إنطلاقة قضية الرسوم الكاريكاتيرية المسيئة للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بإعتبارها مرحلة تصعيدية جديدة ضد الإسلام والمسلمين عموماً إثر أحداث الحادى عشر من سبتمبر 2001م ، فهى ليست حدثاً منعزلاً عن جهود متكاملة

فى سياق منظم تتعمد إستهداف الإسلام من خلال تشويه الصورة العملية والنموذج الإنسانى المجسد له وهو شخصية الرسول ، كما يحدث في الغرب ، ومن جهة أخري إستهداف البيان النظري والمفاهيمي والمعرفي الذى تركه مكملاً ومفصلاً وشارحا للقرآن ، وهي سنته الشريفة.

المجهودات الحديثة هناك فى الغرب عموماً التي تستهدف شخصية الرسول بالتشويه – كونه النموذج الانساني الكامل المعبر عن الإسلام – فجة وسطحية ومتشنجة وإنفعالية ومباشرة ، ولا تكاد تستحق الرد إلا من خلال مشروع منهجي واضح لإيصال الصورة المتكاملة الصحيحة بالأدوات العصرية وبالاحترافية العقلانية المطلوبة ، أي فى سياق أفعال وأفكار وأطروحات علمية مدروسة وليست ردود أفعال متشنجة تضر أكثر مما تنفع

وهى تصرفات وإساءات فجة لا تكاد ترقي لما كان يفعله ويقوم به الإستشراق القديم من دراسات تتميز بالعمق والإحاطة والتحليل – رغم خبثها - ، وكذلك ما يقوم به هؤلاء الكتاب والإعلاميون المحليون بكتابات ومقولات تجعلنا عند النظر إليها نترحم على مجهودات من سبقوهم فى هذا المجال – وهى لا تستحق الترحم عليها بالطبع - ورغم ضخامة ما بذلوه من جهد للإنكار والطعن برؤى تبدو متماسكة بعض الشئ بالمقارنة بما يتسلون به اليوم ، فقد إنهارت سريعاً بدفاع علمائنا ومفكرينا الكبار ، وإندثرت وبقيت الدين الصحيح ومكانته ودوره

كذلك تأتى هذه النشاطات المحمومة في سياق الوضع الثقافي والسياسي والاجتماعي العام ، كما جاءت الإساءة للإسلام ولرمزه الإنسانى المجسد له فى الغرب ضمن توجه عام يكشف عن مرحلة جديدة في التعامل مع الإسلام وقضاياه بشكل صريح ومباشر ويتعمد الإساءة والحاق الأذى والضرر المعنوى ضد الدين وأهله علي خلفية قضايا سياسية وإجتماعية داخل المجتمعات الغربية متعلقة بالهجرة العربية وتزايد أعداد المسلمين وبشعور اللوبيات المرتبطة بإسرائيل بخطورة هذا النمو .. إلخ .

ولما ظهرت الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم فى شهر أكتوبر 2005م فى الدنمارك كان حزب الشعب الدانماركى اليمينى المتطرف يحتفل بمرور الذكرى العاشرة على تأسيسه ، وكان يسعى للحفاظ علي أغلبيته النيابية ، وكذلك ظهرت في وقت شددت فيه الحكومة الدانماركية فى قوانين الهجرة والتجمع العائلي وطلب الحصول على الجنسية الدانماركية ، فضلاً عن ضرورة الإلمام باللغة الدانماركية

وتزامنت مع قرار الحكومة سحب الدعم المالي عن أى جمعية تدافع عن حقوق المهاجرين

كذلك تأتى هذه الحملة أيضاً فى سياق أحداث سياسية وإجتماعية يطول شرحها ، وقد يعتقدون أنها داعمة لصراعهم السياسي مع قوي بعينها .. أو يظن بعضهم أن هذا النهج كفيل بتقويض التطرف والإرهاب وكلا النهجين ضار بالإسلام وبالمنهج فضلاً عن سوء تقدير وفهم لطبيعة هذا الدين والقوي الحقيقية الحاضنة والحافظة له ، وإذا كان تطرف البعض وتطبيقاته الشوهاء للمنهج ضارة بالدين ، فالتطرف المقابل وجهود الطعن وإبطال ثوابت الإسلام ضررها أشد ، ونحن مأمورون بمواجهة هذا وذاك وإنقاذ منهجنا منه

"يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه ، تحريف الغالين ، وإنتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين" ،

ونرى أن الأخ الحبيب والصديق الدكتور محمد جاد الزغبى قد حرس ثغرة على حصون الإسلام الفكرية المنيعة بهذه الصفحات والكتابات التى دافع بها بثبات ودأب وعقلانية ورشد عن ثوابت الدين ومناهجه ورموزه .. فجزاه الله خيراً وجعل ما كتبه فى ميزان حسناته .. وحفظ الله أمتنا وأوطاننا وحماها من كل سوء.

د / ناجح إبراهيم

أ / هشام النجار

تمهيـــد ..

بعد أن قارنت مقارنة سريعة بين الإسلام عندنا نحن العرب فى العصر الحالى ، وبين إسلام أهل الشرق والغرب ، فى آسيا وإفريقيا وأوربا وأمريكا ، خرجت من فمى عبارة تلقائية وهى:

إذا أردت أن تجد الإيمان غضا كما نزل ، فابحث عنه فى غير أرض العرب فالذى يشاهد مثلا الداعية أحمد ديدات رحمه الله ، وتلميذه الدكتور ذاكر نايك ويلحق بهم على منهجهم الداعية الكويتى الأشهر عبد الرحمن السميط وغيرهم من آلاف الدعاة ويري فيهم مدى العزة والفخر الذى تنبض به كلماتهم عن الإسلام ، لا فخرا بأنفسهم بل فخرا بالإسلام واستصغارا لشأن أشخاصهم أمامه ويري فيهم الحرقة والهمة العالية والتضحية ثم يقارن هذا بميوعة ووجل وضعف المصالح عند بعض المنتسبين إلى الإسلام عندنا ، يدرك بالفعل أن تيارات المهاجمين للإسلام الآن كادت أن تنجح فى أن تجعل المسلم العربي يخجل من ثوابت دينه إما كراهية لأفعال عملاء الغرب من جماعات الإرهاب ، أو انسحاقا أمام دعاة التغريب من العلمانيين، وبالطبع لا يعنى هذا أن كل من عندنا كذلك ، ولكن المشكلة أنك عزيزى القارئ إذا قارنت عدد الدعاة اليوم بعدد المخلصين الظاهرين المتجردين حقا ، فستجد أن المتجردين استثناء وقلة بعكس أولئك المنضمين للإسلام فى غير أرضنا.

المقارنة مؤلمة وموجعة حقا ..

والذى يشاهد مدى القوة والإخلاص والتجرد فى مسلمى أقاصي الأرض يتخيل أنه يشاهد مثالا حيا على ما كان عليه الصحابة ! ، والكارثة المخجلة لنا ــ نحن العرب فى العصر الحديث ــ هى النظرة التقديسية التى ينظر بها هؤلاء الأكابر لنا نحن ، فمسلمى ماليزيا وآسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية وتلك المناطق يظنون أن العرب جميعا هم أحفاد الصحابة ، ويظنونهم نسخة من أجدادهم !!

وبالتالى ينظرون لهم نظرتهم إلى الصحابة ، وربما ظلت تلك النظرة قائمة لولا التطور الهائل الذى حدث فى وسائل الإتصال والتواصل فجعل مسلمى الشرق والغرب يروننا على حقيقتنا ، ووسائل الإتصال ذاتها هى التى جعلتنا نرى هؤلاء الناس ! ، وكيف أن إسلامهم ممزوج باللحم والعظام فتشعر أنهم يتنفسون بالعقيدة الغضة ، لا يهتمون

بالمظهر الخارجى إطلاقا مثلما نفعل نحن ونفتخر على بعضنا البعض بطول اللحية أو قصر الجلباب أو بصلاتنا وصيامنا أو أعمالنا القليلة التى نُفسدها دوما بالرياء سواء كان رياء معلنا أو مكتوما بين المرء ونفسه، وترى الداعية منّا يظن نفسه نبيا جديدا لمجرد أن يخرج على الشاشات فلا يدرى هل أصلح الناس أم أفسدهم ؟!، هل دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، أم بغّضهم بالفرقة والتفرق لأن معظم الدعاة ـ حتى من حسنى النوايا ـ وقع فى فخ التبغيض من حيث لا يدرون ، فالشدة والغلظة والمواجهة المتحمسة لا تكون فى مواجهة عوام الناس المضللين فى أى فرقة أو ديانة ، بل تكون تلك الشدة فى مواجهة دعاتهم الذين تسببوا فى إضلالهم ، لأن هؤلاء الدعاة غالبا ما يعلمون أنهم على باطل ويدعون إلى باطل[1]وهم منافقون يكيدون للإسلام عامدين رغم إقامة الحجة عليهم أما عوامهم فينبغي لنا التيقن من أن الغالبية العظمى منهم قد تلقت الدين من أكابرهم بصورته المبتدعة على أنها الصورة الحقيقية للإسلام ، ومعظم العوام معذورون قطعا بالجهل مهما فعلوا ومهما بدت منهم الكراهية تجاه أهل السنة لأنهم تعلموا من نعومة أظفارهم أن المسلمين السنة هم أعدى أعدائهم ، وكذلك الحال بالنسبة لعوام الديانات الأخرى ، بل حتى لبعض المضللين من المثقفين الذين غرتهم العلمانية.. فإذا قمنا باستخدام الشدة والغلظة والتجريح والمعايرة مع عوام الناس فسيثير هذا فى قلوبهم عصبية الجاهلية ، وسيكرهون الوجه الصحيح للإسلام بسبب كراهيتهم للداعين إليه ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يفعله داعية! ناهيك بالطبع على أن الكثير من دعاتنا فى أرض العرب يعتبر الدعوة لمذهبه الخاص أو قناعاته الخاصة أو رؤيته الخاصة أو جماعته أو حزبه أو منهجه فى الفتاوى هى الممثل الرسمى للإسلام وبالتالى يستكبر على غيره وتأخذه العزة بنفسه وبالإثم فيجمع حوله أنصارا وأتباعا ليضيف إلى حلقة التفرق والتحزب فرقة جديدة! فأين هذا من الإسلام ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ؟! فهل يعنى هذا ألا يغضب الداعية أبدا مهما رأى من الكفر والنفاق ، كلا بالطبع .. ولكن يظل الغضب هو الإستثناء ، والرفق هو القاعدة ، وللغضب نفسه قاعدة لا تنقدح أبدا ، وهو ألا يغضب المرء لنفسه أبدا وهو فى مجال الدعوة ، وللأسف ما نراه اليوم متحققا و أكثر ما يكون مطابقة لواقع هذا الحال ، فَضيّق البعض ما وسع الناس من رحمة الله حيث لم يغضب النبي عليه الصلاة والسلام قط إلا فى أمر الله

(١) رجاء مراجعة كتاب سفراء جهنم ـ الجزء الأول للكاتب ـ مكتبة صيد الفوائد

عز وجل، رغم أنه النبي وصاحب الرسالة وهو بشخصه حجة فى الدين ، والعدوان عليه ولو بشطر كلمة عدوان على الدين ، ورغم هذا فلم يغضب لنفسه قط ، مهما تلقي من أذى أو هجوم وجعل الغضب محصورا فقط فى الشدة على المنافقين والمكابرين ، وحتى فى هذا لم يشتد ولم يغضب إلا بعد استنفاذ وسائل الرفق والدعوة مرارا وتكرارا ..

كما أن للغضب فلسفة عميقة فى منهج النبوة ، فقد رأينا النبي عليه الصلاة والسلام يترفق بالجاهل والعامى ولو كان كافرا ، مهما صدر منه من أفعال ، لأنه معذور بفعله، بينما وجدناه أشد ما يكون غضبا مع الصحابة رضي الله عنهم إذا صدر من آحادهم تصرف أو عبارة يفترض ألا تخفي دلالتها ، وقوة النبي عليه السلام فى البيان عند تلك الحالة نابعة من أهمية البيان ذاته حتى ينتبه الصحابة ـ وهم ورثة الدعوة ـ لخطورة الأمور وترتيب الأولويات ولهذا غضب النبي عليه السلام فى حادثة قتل أسامة رضي الله عنه لأحد الكفار المحاربين بعد نطق الشهادة ، وكذلك غضب عندما جاءته شفاعة فى حد من حدود الله .. وهكذا لكننا ما رأيناه غاضبا وهو يواجه غلظة الكفار وأفعالهم وحربهم ، بل ما غضب حتى من آحاد الناس من المسلمين ممن فيهم جلافة الطبع والتصرف وعذرهم .. فعليه أفضل الصلاة والسلام وهذا هو منهج الأنبياء ، والعلماء من بعدهم ، فابن تيمية ـ الذى ظلمه أتباعه وأعداؤه معا ـ حذر أشد التحذير من أن يتخذ المرء شيخا أو شخصا يوالى ويعادى عليه ، مهما كانت مكانة هذا الشخص لأن التولى التام والموالاة والمعاداة إنما تكون فى سبيل الله وحده والحجة الوحيدة هنا النبي عليه الصلاة والسلام ومجموع الصحابة من بعده ، فإن جعلها المرء لشخص داعية أو شيخ أو جماعة أو حزب فهذا هو طريق الشرك والعياذ بالله!

فإذا نظرت إلى واقع أحوالنا نحن العرب .. وجدت عجبا ، بالقطع لا عتب ولا عتاب عمن يدافع عن أشراف العلماء والصحابة من قبلهم ، فالدفاع عنهم دفاع عن الدين ، لأنهم هم حَمَلته إلينا ، ولكن هذا الأمر مشروط بالضوابط السابقة وأولها أن يكون الغضب لكل عالم ولكل صحابي بل لكل إنسان تم انتهاك سيرته أمامك بغير حق ، بمعنى ألا نفرق بين المسلمين والأئمة فى الدفاع ضد الظلم ، ولا يكون الغضب والعصبية رهنا بشخص واحد أو مجموعة معينة ، فضلا على وجوب أن يكون غضبا خالصا لله ، وليس لنصرة النفس أو غلبة الخصم أو لمجرد الرغبة فى الظهور ، كما أنه ليس من الغضب المشروع رفض الإقرار بالحق وترويج الباطل أو الدفاع ضد الشتائم بالشتائم ، وألا يكون الغضب نابعا

عن الكراهية إلا كراهية أفعال الأشخاص لا كراهية ذواتهم ، وبالتالى ففرحة الداعى للحق بالهداية التى يكتبها الله على أى ضال يجب أن تكون أكبر وأعلى من فرحة النصر على أهل الباطل لو ظلوا على باطلهم ولا أجد فى عالمنا المعاصر من حقق هذه الفضيلة أكثر من دعاة الإسلام فى الخارج تجد دعاة الإسلام فى تلك البلاد النائية يتعامل مع المسلمين كأنه خادمهم ويتعامل مع نفسه وكأنه ما أدى واجبه بعد ، وربما كان من بعض أعماله فقط إدخال الملايين ـ لا أقول الآلاف ـ بل الملايين إلى الإسلام ويتعامل مع هذا الأمر فى بساطة مذهلة وكأن هذا الإنجاز هو الحد الأدنى من واجب كل مسلم ـ وهو كذلك بالفعل لكننا نحن من ينسي ـ ، لكن هؤلاء الدعاة يطبقون ـ وياللمفارقة ـــ ما كان عليه حال آبائنا نحن بينما جئنا نحن بعدهم فمشينا على الخط العكسي، ولقد استمعت إلى دعاة العرب ، ودعاة البلاد القاصية فما وجدت والله مجالا للمقارنة، فرغم أن دعاتنا أغزر علما بمراحل ، إلا أن الدعاة من غير العرب تعلموا القليل فكثر فى أيديهم بالتطبيق العملى ، فلم أجد منهم داعية غليظ القلب أو مكفهر الوجه ، بل ما وجدت أحدهم غاضبا قط لنفسه ـ حتى لو تعرض لأقسي الهجوم ـ بل وجدتهم غاضبين مهاجمين فقط فى الدفاع عن الدين ، وحتى فى غلواء غضبهم لم أعثر لواحد منهم على كلمة أو لفظ بذئ ، فكان من الطبيعى جدا أن يؤمن على أيديهم أشد المعادين المتطرفين للإسلام ! أو على الأقل تجد المتعصب من هؤلاء ينزوى خجلا ويخاف مواجهة الجماهير الحاضرة سمعت وقرأت لذاكر نايك وأحمد ديدات وعبد الرحمن السميط ، ومن قبلهم من العرب من كانوا حقا على منهجهم ، ما وجدت أحدهم ثائرا أو متأثرا بما يسميه الهجوم على شخصه حتى لو كان هجوما فى حق أو انتقادا فى خطأ !

كما يفعل دعاة اليوم فيصرخ فى الناس بأن الحاقدين كثير وأن لحوم العلماء مسمومة !

رغم أن معظم الانتقادات الموجهة لدعاة اليوم بعضها يعتبر من الجرائم والطوام ، وحتى بغض النظر عن الإتهامات فيكفي أن يشاهد الجمهور كيف يتناطح هؤلاء الدعاة كالديكة ويرمون بعضهم البعض بأفظع التهم صراعا على كعكة الدنيا ثم يخرجون للناس مرددين بأن الحرب عليهم هى حرب على الدعوة وعلى الإخلاص !

وسمعت وسمع العالم كله قصة المناضل الإفريقي المسلم مالكوم اكس ..

هذا الرجل بالتحديد يعتبر هو الحجة الواضحة على دعاة اليوم وعلى العلمانيين فى نفس الوقت !

فتجربة الرجل تعد حجة بالغة على العلمانيين وأضرابهم من الطاعنين فى السنة والتاريخ الإسلامى لأنه ـ وغيره بالآلاف عبر العالم ـ آمنوا بالإسلام من القرآن والسنة بمجرد معرفة مبادئ هذا الدين ، وهو إيمان حر تام الحرية لا شبهة فيه لتأثير خارجى من البيئة المحيطة او غيرها ، بل إن البيئة المحيطة على العكس كان من المفترض أن تدفعه للكفر بالإسلام والمسلمين مع حملات التشويه المنظم ورغم هذا اسلم الرجل لأنه كان كمناضل باحث عن الحرية وسط الاستعباد الأمريكى لم يجد ضالته إلا فى الإسلام فآمن به وهو الذى لم يسمع به فى حياته السابقة قط ..

فهو وسط نضاله لاستعادة الحرية لبنى جنسه من السود لم يقبل أبدا بأى دين يدفعه للعبودية ويفرق تفرقة عنصرية بين وبين غيره من البشر ، وبالتالى كفر بالأديان كلها حتى هداه اللّه تعالى إلى الإسلام بمجرد معرفته بقيمة الحرية فيه وأن العبودية للّه وحده ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمى أو لأبيض على اسود إلا بالتقوى ..

وهذه هى الحجة الأولى على كل من اتهم الإسلام بالعنصرية بينما الغرب وأنصاره هم أساس العنصرية فى العالم اجمع للدرجة التى جعلت الولايات المتحدة تقمع الزنوج حقوقهم حتى سنوات قليلة مضت وهم يروجون ـ رغم ذلك ـ باعتبارهم حملة لواء الحرية والمساواة والديمقراطية فى تناقض لا مثيل له ، معتمدين بالطبع على قوة إستخدامهم للإعلام وتجنيدهم للفكر فى ظل عته حقيقي من نظمنا التعليمية فيما يخص تاريخ هذه الأمم

ومالكوم اكس حجة على العلمانيين ودعاة التغريب وعلى المتاجرين بالإسلام أيضا من ناحية أخرى أهم وأكمل .. تعتبر دليلا عمليا على عمق وصدق وحى ورسالة الإسلام

فمالكوم اكس أسلم على يد داعية لم تكن صفاته الشخصية تتناسب مع قيمة الدين الذى يدعو إليه ، وعندما فوجئ مالكوم اكس بان الرجل الذى دعاه للإسلام يتناقض مع مبادئ الدين للدرجة التى عايره بها خصومه ، هنا لم يترك مالكوم اكس دينه لأجل ذلك ، بل ترك الرجل الذى لم يكن على مستوى مسئولية هذا الدين وهذا لسبب بسيط ..

أن أول المبادئ الإسلامية التى تعلمها هى أن الرجال ليست حجة على الدين بل الدين هو الحجة البالغة ، وبالتالى إن كان هناك فى الإسلام من لا يصلح لشرف رسالته فالعيب ليس فى الإسلام قطعا بل هو فى المنافقين ، ولان مالكوم اكس أراد إثبات هذا عمليا ، فقد ترك الولايات المتحدة متجها صوب مكة لأداء فريضة الحج حتى يري مجتمع المسلمين فى أكبر تجمع للمسلمين وهو موسم الحج ، وهذا التجمع مع غزارة التنوع كان هو هدف

مالكوم اكس كى يقطع الشك باليقين ، ويعرف هل هذا الدين يؤمن أتباعه بالمساواة فعليا ويطبقونها عمليا أم أنها مجرد شعارات كشعارات الرأسمالية والشيوعية ..

وعندما نتأمل شهادة مالكوم اكس عن رحلته للحج ندرك تماما من خلال ملاحظاته وانبهاره أن شهادته المحايدة تلك تمثل طعنة نجلاء فى قلوب الحاقدين والمتربصين ، فالرجل سجل فى شهادته انبهارا غريبا بأشياء عندنا نحن المسلمين تعتبر من قبيل الثوابت التى لا تلفت نظر احد ورغم ذلك استوقفته وأثارت انبهاره وكان انبهاره اكبر دليل إدانة على مدى الجبروت الأمريكى حكومة وشعبا ومدى عنصرية هذه الدولة التى قامت على جثث عشرين مليون هندى احمر ، وتسببت فى قتل واستعباد عشرة ملايين إفريقي ، وقرابة مثل هذا العدد تقريبا من ضحايا حروب دولة الشيطان التى ما تركت بقعة واحدة من العالم إلا ونهبت ثرواتها واستعبدت شعوبها قال مالكوم اكس أنه انبهر عندما وجد أناسا وخليطا من كل أجناس الأرض لا يربطهم أى رابط إلا رابطة الإسلام ، وكلهم بلا استثناء يرتدون رداء واحدا ويسبحون ويصلون ويتوجهون بالدعاء لخالق واحد ، ويتعاملون مع بعضهم البعض بنفس الأسلوب على نحو يستحيل آن تميز فيه بين غنى وفقير أو بين بشرة وأخرى حيث عبر مالكوم اكس مندهشا أنه وجد معاملة رفاقه فى الحج معه معاملة عادية طبيعية ليس فيها أدنى استعلاء أو استكبار !!

وربما كان هذا الكلام مدهشا لنا نحن المسلمين، إذ أنه بالنسبة لنا أمر طبيعى للغاية، لكن الدهشة تزول إذا علمنا أن عنصرية الغرب نحو السود هى داء مجتمعى طافح عندهم مهما تغنوا بالمساواة وهناك من الطبيعى أن يلاقي الزنوج احتقار وازدراء غيرهم رغم كل ما حدث من تطور فى هذه العلاقة ، وهذا أمر طبيعى إذا أدركنا أن السود فى بدايات النهضة الأمريكية كانوا أقل مكانة من الحيوانات بكل ما فى الكلمة من معان وبالتالى..

عندما يجد مالكوم اكس هذه المساواة الفطرية فى التعامل يحق له الإندهاش ولنا أن نتخيل ردة فعله عندما قرأ فى التاريخ الإسلامى وعلم مكانة وقيمة وقامة بلال بن رباح مؤذن الرسول عليه السلام وهو الصحابي الوحيد الذى لا يمكن لمسلم فى أى جيل ألا يعرفه لأنه مقترن بأهم شعيرة من شعائر الإسلام وهى الصلاة .. ، وناهيك عن مكانة وقامة العديد من كبار الصحابة ممن كانوا فى فضلهم عند الله وبين المسلمين أكبر بكثير من ذوى الأحساب الرفيعة ومثالهم صهيب بن سنان الرومى وكذلك سلمان الفارسي

ومكانة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد كان رقيقا فى الجاهلية بل ومكانة وحشي بن حرب الذى كان عبدا حبشيا فى الجاهلية لجبير بن مطعم وكان هو من قتل سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فى معركة أحد، ورغم هذا عندما أسلم وحشي لم يجد من النبي عليه السلام إلا المودة والرحمة كسائر من دخلوا فى الإسلام ، فلا كراهية ولا ضغينة رغم أنه قاتل أحب الناس إلى قلب النبي عليه السلام وواحد من أبطال الإسلام المغاوير فضلا على شرفه ونسبه وحسبه ، كل هذا لم يمثل عائقا قط أمام وحشي كى يصبح من أفراد المجتمع النبوى..

وبالتالى ..

لنا أن نقارن ـ إذا جازت المقارنة ـ بين حضارة ورقي وأخلاق مجتمع الإسلام وبين دعاة الحضارة الغربية على مدار تاريخها العنصري البغيض !

بل إن انبهاره وإيمانه تحول ليقين لا يتزعزع عندما أدرك أن الإسلام لا يساوى فقط بين الناس بغض النظر عن ألوانهم أو أحسابهم بل إن الإسلام اعتبر التفاخر بالأنساب والأموال وغيرها من نواقض الإيمان حيث نص النبي عليه السلام أن مثل هذا التفاخر والتمايز هو من قبيل الجاهلية المحضة التى ما جاء الإسلام إلا لدحضها تلك العنصرية التى سمعنا ونسمع من دعاة التغريب منذ قرن كامل عن مميزاتها وعلوها دون أن يخبرنا واحد منهم عن حقيقة هذا التاريخ ، وإذا ظهر من يتحدث عن أصول حضارتنا ويدعو للعودة إليها ، وجد أمامه الخطاب السابق التجهيز وهو المتاجرة بقضية قبول الآخ! ، وكأننا نحن المسلمين من نحتاج لخطاب لقبول الآخر ، بينما من ساروا إلينا عبر القرون بحملاتهم وجيوشهم ومفكريهم لا يحتاجون لمن يوجه إليهم هذا الخطاب الإنسانى هذه هى تجربة مالكوم إكس وهو واحد من آلاف مؤلفة عبر القرون دخلت الإسلام من بوابته الرئيسية وهى بوابة الحرية الحقيقية المتمثلة فى الخلاص من كافة أنواع استعباد البشر للبشر وإفراد الخضوع لله وحده وهى كما قلت تجربة تمثل حجة على دعاة اليوم أيضا، فهذا الرجل الإفريقي المؤمن حقا عندما نادى بالحرية ورزقه الله بالإخلاص كانت تجربته نبراسا يُحكى فى التجرد من كل غرض شخصي ، ولهذا سبب انقلابا وصداعا غير مسبوق للغطرسة الأمريكية وتبعته الملايين ولم يجد النظام الأمريكى مفرا من اغتياله ، رغم أنهم قاموا بتلبية مطالب تعديل القوانين لتهدئة المتظاهرين ، وهذه سياسة معروفة فى الحكم حيث أن النظام الغربي إذا وجد نفسه مضطرا للإستجابة

لضغوط تخالف نظامه فالحل عندهم هو الإستجابة الفعلية لها ولكن مع القضاء المبرم على من تسبب فى تلك المطالب كى يعطوا لجماهيرهم درسا فى أن النظام ـ وإن استجاب للضغط ـ لكنه لن يسمح لمن يفجره أن يظل حيا ، كى يتخذه الآخرون قدوة ، وبالتالى تعلم الجماهير أن قيادة الثورة على الظلم لها ثمن فادح فلا يجرؤ عليها أحد بعد ذلك إلا من كان داعية مخلصا بالفعل لدعوته ومصيبتنا فى دعاتنا اليوم أو أغلبهم هو انكسار التجرد بالأغراض الشخصية والحزبية المختلفة والتى ربطت ربطا مقيتا بين الدين والأشخاص وبين أهداف الدعوة التى يلزمها التجرد التام وبين المزج بين مطالب الدعوة وبين المصالح الفردية وهى الأمور التى منحت الخصوم جواز المرور للطعن فى ثوابت الدين عن طريق الطعن فى أشخاص المتجرين بالإسلام طمعا فى الحكم والنفوذ أو الأموال وقد تأملت فى إمكانيات من يتصدون للدعوة اليوم ، وأنا هنا لن أتحدث عن الإمكانيات المتوافرة فى عموم أرضنا وتذهب فى الملذات ، بل سيكون حديثي عن الجانب الخيّر فينا وعدد الدعاة والعلماء عندنا يكاد يتفوق على مجموع سكان بعض دول إفريقيا ! ، وعدد مواقع الإنترنت والمنتديات وطلبة العلم والجامعات يكفي لتغذية تعليم المليار مسلم حول العالم ومع هذا فالجهل والرياء والشرك والتكفير والتخوين هو المحصلة الكبري والأعظم لكل هذه الجهود!

فأين الخلل؟!

تأملتُ بعض الإحصائيات حول الأموال التى يتبرع بها المسلمون كزكوات وصدقات ودعم فى سبيل الله فأخذتنى الدهشة والذهول حقيقة !

فانظروا لأرض العرب أرضنا كلها ، ، يوجد عندنا آلاف المؤسسات الخيرية لها تبرعات فى مجموعها تكاد أن تكوّن ميزانية دولة عظمى ، وهناك حتما من بين هذه المؤسسات من يعمل بالفعل فى سبيل الله وإنقاذ وإعانة المحتاجين ، ولكن هل كافة من يتاجرون بالتبرعات ويطلبونها عبر إعلانات مصطنعة يفعلون ذلك بالفعل ؟!

مع هذه الإمكانيات وقيمة التبرعات تكاد تتخيل أنه لا يوجد فقير أو صاحب حاجة ، فإذا تأملت الواقع وجدت الفقراء يزيدون فقرا ويزدادون عددا !!!

فأين الخلل ؟!

وهناك ـ للطامة الكبري ـ قسم كبير من هذه الملايين لا يعلم أصحابها أن أموالهم تذهب لتغذية وتمويل العمليات الإرهابية تحت زعم الجهاد فى سبيل الله!

تلك العمليات التى يذهب ضحيتها المسلمون وهى ترفع شعار تحرير القدس ومحاربة اليهود بينما التمويل والسلاح لا يأتى لدعاة الإرهاب إلا برعاية اليهود والغرب !(٢)

وفى المقابل..

رجل واحد مثل الداعية الكويتى عبد الرحمن السميط بدأ بلا إمكانيات من أى نوع وقام باستغلال كل فلس فى التبرعات المحدودة التى جمعها ، ثم ترك بلده المترف وهاجر لإفريقيا أربعين عاما تحمّل فيها الأمراض والمعيشة الضنك فى سبيل الدعوة للإسلام ومحاربة التنصير ..

فماذا كانت النتيجة يا ترى ؟!!

واللّه لو أنى ذكرت إنجاز هذا الرجل أمام أى مؤسسة منصفة ولو كانت لا تؤمن بدين لدخلوا الإسلام لفرط التأثر بالإنجاز وحده

رجلٌ واحد يا عباد اللّه ، أخلص فقط فى النية وانطلق وليس معه إلا حب اللّه ورسوله عليه الصلاة والسلام فأسلم على يديه ١١ مليون شخص !

وأسس آلاف الجامعات والمعاهد الإسلامية والدعوية وآلاف المساجد فضلا على آلاف الجمعيات الخيرية التى تربط الدعوة بالتنمية ورغم كل ما فعله إلا أنه ما ضُبط متلبسا بالدعوة إلى نفسه ، ولا استغل أتباعه فى معركة سياسية أو منفعة شخصية أو دعم حاكم ،بل إنه أصلا لم يسمح بأن يتكون له أنصار وأتباع يهتفون باسمه أو يتسمون بهذا الإسم ،أو يسيرون على منهج خاص يحدده لهم بل كان كل ما فعله أنه قدم لهم دعوة الإسلام والسنة، وقدم دعم المعيشة بدون أدنى مقابل حتى كلمة الشكر !!»(٣)»

وهذه الإنجازات أيها السادة أقول لكم - وأنا المصري من بلد الأزهر - أن مؤسسة الأزهر الدعوية بأكملها وبكل إمكانياتها الضخمة احتاجت عشرين عاما لتحقق إنجازا مماثلا لما حققه السميط بمفرده !!

وأحمد ديدات ــ وما أدراك ما أحمد ديدات ــ ففي الوقت الذى كنّـا فيه نحن العرب غارقون فى تكفير بعضنا البعض ، كانت جبهة التنصير تنفق مليون دولار يوميا لنشر التنصير فى إفريقيا فجاء هذا الرجل وحده وعكف على الدراسة فى العقيدة بلا أى

---

(٢) لم يعد هذا الأمر سرا، فالعديد من عمالقة الفكر الغربي كشفوا هذه اللعبة ، وبالذات مفكرى بريطانيا منذ العهد الإمبراطورى ولعل أبرز كتاب ظهر ليفضح تلك المخططات كتاب (تاريخ بريطانيا السري مع الجماعات الأصولية) لكاتبه المحقق مارك كورتيز وقد تمت ترجمته بالمركز القومى للترجمة بمصر ـ عام ٢٠١٣

(٣) قارنوا هذا باللّه عليكم بما فعلته التيارات الإسلامية على خلاف توجهاتها ، ماذا فعلوا بأتباعهم وماذا فعلوا بالإسلام ؟!

مؤهلات ولم يكن معه إلا الإبتدائية فتعلم العقيدة الصافية من القرآن والسنة رأسا ، ثم جلب كافة الأناجيل وكتب القساوسة والمبشرين ودرسها ومحصها ، وانطلق للدعوة ...

فماذا كانت النتيجة؟!

النتيجة لا يمكننى أن أحتويها بمقال أيها السادة إنما يكفي أن أقول لكم أنه أذل ناصية الفاتيكان بأسره وكان كالشوكة فى حلوقهم وحتى عندما مات رحمه الله وضع مكانه تلميذه ذاكر نايك الذى يماثله إبداعا وعلما وبلغ من تأثيرهم الرهيب أن ندواتهم على مواقع الإنترنت يدخل الناس بسببها للإسلام يوميا، أى أنهم تسببوا فى دخول الناس لدين أفواجا حتى بغير دعوة مباشرة!

وأتحدى أى شخص سواء كان مسلما أو غير مسلم أن يدلنى على فائدة شخصية أو نفع شخصى مادى أو معنوى حصل عليه أحمد ديدات أو ذاكر نايك واللافت للنظر أنهم رفضوا حتى المكسب الحلال الزلال وقاموا بتوزيع كتبهم ومحاضراتهم بالمجان ودون أى حقوق محفوظة بل أتاحوها للمسلمين فى أقطار الأرض، رغم أنهم بذلوا من أقواتهم لخدمة مسار الدعوة بل على العكس رحل أحمد ديدات مثل عبد الرحمن السميط بعد رحلة مع الأمراض بسبب النشاط الغير طبيعى ، ورفضوا مبدأ الراحة وظلوا حتى آخر نفس على نفس خطى طريق الأنبياء ، فأسأل الله عز وجل أن يرفع ذكرهم فى الدنيا والآخرة بحق ما ضربوا لنا الأمثلة وحفزوا المسلمين على اتباعهم فماذا فعلنا نحن يا ترى ؟!

بغض النظر عن أننا فرّقنا مجتمعاتنا نفسها ، فضلا على بقية العالم ، إلا أننا لم نتدبر فى أفعال وتجارب هؤلاء الدعاة..

كعادتنا الأثيرة طبعا، افتخرنا بهؤلاء الدعاة واستخدمناهم فى إغاظة المخالفين وكأننا أصحاب الإنجاز!، وهذا ليس غريبا علينا، ألسنا نحن أيضا من ظل يفتخر بحضارة الإسلام ورجاله دون أن يكلف نفسه إحياء فضيلة واحدة من فضائلها ، ألسنا نحن من نحفظ القرآن والسنة عن ظهر قلب ، ونكاد لا نطبق منهما إلا الأساسيات على مضض !

أما البلية الكبري وشر البلية ما يضحك..

فهى أننى استغرقت فى الضحك عندما جاء دعاة آسيا وأوربا لبلادنا فإذا ببعض السائلين يسألهم إلى أى فرقة أو مذهب ينتمون؟!!!

خيبة الله عليكم وعلى من قصّر فى تربيتكم حتى أصبحتم لا ترون الدين إلا من خلال الأشخاص ، وحتى عندما رأيتم المثال النموذجى للمسلم الحق ، فإذا بكم تريدون

دفعه دفعا ليصبح مثلكم ، وكان من الطبيعى أن يشعر الدعاة مثل أحمد ديدات وذاكر نايك ويوسف استس وغيرهم بالدهشة وهم يواجهون هذه الأسئلة ، لكنهم أجابوا بإجابة لو كان السامعون لها يملكون ذرة خجل لجلدوا أنفسهم بالسياط ، ذلك أنهم أجابوا فى بساطة بأنهم مسلمون على القرآن والسنة يحترمون كل العلماء لكنهم لا يتعصبون ولا يتسمون بأسمائهم فهكذا أمر القرآن وهكذا أمرت السنة !!

فيا ليت أجيالنا المعاصرة من الشباب تتخذ من هؤلاء العمالقة أمثلة ورموزا .. فهم الأجدر بأن يكونوا أبناء الصحابة ، بل هم بالفعل أبناء الصحابة ، فالإسلام والعلم رحمٌ بين أهله استحضروا تجارب هؤلاء الدعاة من الأعجميين وكيف جندوا أنفسهم للدعوة بالعمل لا بالعلم وحده بضرب نموذج الأخلاق لا بالحديث عنها وفقط ، فصار وجودهم فى حد ذاته هاديا لمجتمعاتهم بالذات فى عصرنا الحالى بعد أن أصبح اليوم فرض عين على كل مسلم أن يكون داعية للإسلام والسُنة بعد أن يتسلح ـ بعد النية الخالصة ـ بالحد الأدنى من ثوابت العلم والكثير من أدبيات المنطق الحوارى ، لأن الهجمة هذه المرة جاءت من عدة جبهات فلا يصلح لها العلماء والدعاة وحدهم بل يجب أن تشمل الجميع وكلٌ فى نطاق أسرته ومجتمعه، حتى لا يجد المرء نفسه وأهله قد انقسموا بين دعاة للإرهاب باسم الدين ، وبين دعاة للإلحاد باسم رفض الإرهاب ولهذا السبب خرج هذا الكتاب كمحاولة أسأل الله تعالى أن يفيد بها ولو بمثقال ذرة).

محمد جاد الزغبي

القاهرة ـ فى أكتوبر 2017

فصـــل تمهيـــدى:
المعـادلــة الملعونـــة!

عزيزى القــارئ ..

إذا كنت رافضا كل الرفض لكل المسميات والإنتماءات للأشخاص والأحزاب وأغضبك استغلال الإرهاب للدين ، وكذلك أغضبك استغلال أصحاب الإنحلال للحرب ضد الإرهاب كى يخلو لهم الجو بالطعن فى الثوابت وإذا كنت إنسانا مستقلا فى الفكر والإنتماء ، ولا تتخذ لنفسك مسمى فى الدين خارج مسمى الإسلام والسُنة ، فتفضل بقراءة هذه الفصول فهى تعبر عنك..

وإذا كنت إنسانا وطنيا تنتمى لوطنك وعروبتك وتاريخك وحضارتك الإسلامية الباذخة، وترى أمة الإسلام هى خير أمة أخرجت للناس كما نص القرآن الكريم .. أيضا تفضل بقراءة هذه الفصول فهى تعبر عنك وإذا كنت ترفض العصبيات والنعرات ولا ترى الأشخاص حُجة على الدين بل الدين هو الحجة على الأشخاص ، وترى أن إلتزامك إنما هو للقرآن والسنة والإجماع ، وبعدها يجوز لك التنوع والإختلاف وترى أن العصمة إنما هى للنبي عليه الصلاة والسلام ولمجموع الأمة ، فتفضل بقراءة الفصول وستجد فيها ردا على ما يغضبك من هجمات ضد التراث الإسلامى..

وإذا كنت مسلما سنيا مخلصا ولكنك غير متخصص فى علوم الشريعة ولا تستطيع إستيعاب الردود العلمية البحتة على الشبهات ، وترغب فى ردود عقلية وحوارية منطقية تعزز قناعاتك وتشرح لك حلول هذه الشبهات المنتشرة فتفضل واقرأ هذه الفصول فربما جعلها اللّه سببا فى تثبيت قناعاتك..

وإذا كنت تثق فى شرف تاريخ هذه الأمة التى علّمت العالم ، ولكنك تجهل الكثير عن هذا التاريخ ولا تعرف له مصدرا بسيطا يدلك عليه ، فتفضل واطلع على هذه الفصول وما حوته من مصادر ..

وإذا كنت حائرا بين التيارات المتناحرة على الساحة فى الدين والسياسة ، ولا تدرى أيهم على الحق وتحاول معرفة ما كان عليه الصحابة ، فتفضل واقرأ هذه الفصول لتعلم أن كل المتصارعين تتنازعهم المصالح وينطبق عليهم قول النبي عليه الصلاة والسلام أنهم فرق الباطل التى أوصانا بالبعد عنها والتزام ما عليه السواد الأعظم من المسلمين

، لأن بسطاء المسلمين فى كل عصر كانوا هم المُعبـّـرين عن روح الإسلام الحقيقية ..

أما إن كنت لا ترى الدين إلا إذا اقترن بجماعة معينة أو شيخ معين أو مرجع معين ، ولا ترى السياسة إلا من خلال التحزبات ، والإنتماءات لأشخاص أو أحزاب ..

فلا أنصحك بقراءة شيئ من هذا الكتاب لأنك لن تجد فيه ما هو مألوف من الإنحياز الفكرى لطائفة أو جماعة أو نظام سياسي ، لأن الحواريات الموجودة بين فصوله إنما تحاول البحث عن الحق فى ذاته ، لا البحث عن الحق لتنسبه إلى من تشجعه الطوائف من أشخاص ومن جماعات، وذلك لكى نحاول أن نتخلص ـ كمجتمع ـ من المعادلة الملعونة التى وضعنا فيها من يمتلكون ناصية الإعلام ، أما طبيعة المعادلة الملعونة فستجدونها فى السطور التالية..

المعادلة الملعونة التى تعانيها الأمة الآن، هى معادلة الاستقطاب، والتى يحمل مسئوليتها كل من تصدى للعمل العام ـ فى كافة المجالات ـ فى وقتنا الحاضر..(٤)

وكانت أخطر مشاهد تلك المعادلة ، أن الصراع يدور الآن بين فريقين ، فريق يتخذ الإرهاب دينا ويعيد لنا فكر الخوارج ويقدمه للناس على أنه الإسلام، وفريق العلمانية وأصناف المذاهب والفرق المبتدعة الذى استغل الفرصة لينشر إسلاما بلا قرآن وبلا سنة وبلا تاريخ !!

ولا يسمح لك أحد من الطرفين أن تخرج عن دائرة الصراع تلك ، ولا يوجد التيار الذى يُعبر عنّا نحن عوام وملايين المسلمين الرافضين لهؤلاء وأولئك !!

فهذا الكتاب رسالة من جيلنا إلى الأجيال السابقة التى تتحكم فى دوائر الإعلام الآن ، وتحمل بين طياتها ردا على الشبهات التى يثيرها كلاهما، ولا يقصدون منها إلا تحقيق مصالحهم فهذا الكتاب الحوارى هو من شباب مصر الذى ينتمى للجيلين الممثلين للشباب فى عصرنا اليوم ، مع تنبيه هام ، وملحوظة متوقعة، وهى أن التعميم فى كل مقام مرفوض ، فلا يعنى كلامى الموجه لجيل الإعلاميين اليوم وأفكارهم أنهم جميعا بالضرورة كذلك،،كذلك ليس معنى حديثي أنه معبر بالضرورة عن كل مثقفي الشباب ، ولكنه على الأقل تعبير قسم كبير لا يستهان به تجاه ما يحدث فهى رسالة من جيل مواليد نهاية السبعينات ، وحتى جيل مواليد نهاية التسعينات ، إلى كل من يطلقون على أنفسهم اسم النخبة .. من الأجيال السابقة عليهم ، ويتصدرون المشهد فى الدين والسياسة والإعلام ..

---

(٤) التعميم فى كل مقام مرفوض وهذه العبارة لا تعنى أن كل من تصدى للعام فى الفترة الأخيرة متورط فى سياسة الاستقطاب ولكن للأسف الغالبية منهم كذلك.

لو أننا اعتبرنا ساحة الإعلام والفكر أشبه بالبرلمان ، فسيمكن اكتشاف المأساة التى تعانيها أجيال اليوم عندما نعرف ونوقن أن التيارات الفكرية المتصارعة حتى اليوم ، لا يوجد فيها صوت واحد يمثل أكثر من ثلاثين مليونا من الشباب الذين لا ينتمون إلى أى تيار دينى أو سياسي ، منهم ثلاثين ألفا على الأقل من هواة القراءة والإبداع ، وكلهم تقريبا لا يتحزبون لأحد فى أى صراع ،نظرا لأن أجيالكم ـ من متصدرى الصفحات والشاشات ـ ومن سبقها من الأجيال تحتكر الساحة الفكرية منذ قرابة قرن كامل من الزمان، وتجنى على الوطن والمواطن بتناقضاتها التى تثير الغثيان !!

ليس فقط منذ ثورة يناير، بل منذ بدء الانفتاح ، وكل من يقرأ عن هذه الفترة سيعرف أن التناقضات هى ديدن كل أجيال الإعلام منذ ذلك الحين وكلها يدعى أنه يعبر عن الحق والناس مع أنهم يتقلبون فى الانتماءات كبندول الساعة فما يروجونه بين الناس فى فترة ما ، يعودوا لنقضه والانقلاب عليه بعده بفترة وجيزة ، ثم يعودون لما كانوا عليه أولا ، وهكذا دواليك!!

وكلما جاء جيل ورث عن جيل آبائه نفس الانتماءات الضيقة التى يقول بقولها، ويحارب من يحاربها، وحتى الشباب من أجيالنا التى جربت اقتحام الساحة فى الصحف أو الفضائيات أو السياسة ، لم تسمح لها التيارات المتحاربة بالدخول كمستقلين، بل أجبرتهم على الاستقطاب كمحاولة لصنع جيل وارث لنفس العداوات والأفكار حتى يستمر الصراع إلى ما لا نهاية !!!، وبالتالى أصبح هؤلاء الشباب لا يمثلون جيلهم ولا ينتمون إليهم، فتحديد مفهوم أجيالكم وأجيال الشباب ليس له علاقة بالسن والعمر، بل هو بالفكر، فكما أن بين الشباب من يماثلهم عمرا ومع ذلك يقتنع بنفس فكر الاستقطاب، وبالتالى هو منكم، كذلك منكم من ينتمى بفكره المستقل إلي الشباب رغم أنه ربما يكون فى أرذل العمر والكارثة أن جيلكم من متصدرى الأقلام والإعلام لم يُمثّل حتى أجياله من الجمهور!، فجيل آبائنا وأساتذتنا ومثقفينا وحتى عوام الناس منهم ـ خارج نطاق الإعلام الرسمى ـ كل هؤلاء كفروا بكم قبل أن نكفر نحن بكم أيضا، لأنهم شاهدوكم وأنتم تتصارعون فى معارك السبعينات والثمانينات، على قضايا تاريخكم القريب وظللتم قرابة العشرين عاما يحتدم الجدل بينكم حول عبد الناصر والسادات ، وأخرجتم من المطابع كمّا هائلا من الكتب لا تحرقه النار فى شهر!، تاركين قضايا الناس والمجتمع لنظام مبارك يفعل بها ما يشاء!! كل هذا لماذا ؟!

لمجرد أن تثبتوا لأنفسكم من كان الزعيم هل هو عبد الناصر أم السادات ، ومن هم أهل الحق والثورة.. رجال عبد الناصر أم رجال السادات ، ومن هى الحرب الأعظم لمصر ، هل هى حرب ٥٦، أم حرب ٧٣، ومن هم الخونة والعملاء ، مؤيدو الاتحاد السوفياتى أم مؤيدو الولايات المتحدة ، وما هو النظام السياسي الأفضل ، الاشتراكية ، أم الانفتاح ، والحق والواقع الوحيد فى كل تلك المعارك الكلامية ، أنكم أنتم من ضيعتم عبد الناصر ، وقتلتم السادات !! وتقاسمتم على الكعكة ، ثم ضيعتم جماهير الشعب المصري الذى أصبح حالها بعد الانفتاح كحال الجماهير الروسية بعد سياسة البروسترويكا والجلاسوسنت التى اتبعها جورباتشوف بهدف مصارحة الشعب بحقيقة وهم الرفاهية القادمة ، والتى لم تأت، فخرج جورباتشوف يقول لهم بأن الرفاهية رفضت المجئ !! فانفجر الشعب الروسي بعد ستين عاما من الانتظار ولعن الشيوعية والشيوعيين، ونبشوا قبر لينين، وصنعوا تمثالا لمحلات الانفتاح الأمريكى..

ولكن لأنكم أجبن من جورباتشوف ، فلم تصارحوا الأجيال التى عاشت تستمع وتقرأ لكم، تلك الجماهير التى صنعت زعامة عبد الناصر ، ووقفت معه فى مجده، وبنائه وصدقته وأيدته بغير نفاق ، وكنتم أنتم فقط المنافقون النفعيون لأنكم انقلبتم على عبد الناصر بعد وفاته ، وظلت جماهير جيلكم وفية له حتى يومنا هذا وعندما تصارعتم مع بعضكم البعض وتركتم التوجه الجديد الذى اتبعه السادات، غفلتم عن هذه الجماهير الكادحة التى دفعت ثمنا باهظا من دمها وأموالها واقتصادها، فتركتم البلد لتتار عصر مبارك بينما انشغلتم أنتم بمعارك وسير الأموات ، وبينما كان القطاع العام الذى أسسه عبد الناصر يتفرق دمه بين قبائل رجال الأعمال والقطط السمان، كنتم أنتم تشغلون مساحات الصحف والكتب بمعارك كانت هزيمتها بسببكم ، ونصرها على غير أيديكم !!

وبينما كانت جماهير أجيالكم لا تجد قوت يومها من وظائفها فى الحكومة ، فى نفس الوقت الذى تضخمت فيه ثروات مافيا المخدرات والسلاح والتطبيع ، كنتم أنتم تهرعون لعقد صفقات المهادنة مع مبارك ونظامه ورجاله ، وعندما قامت موجة الإرهاب ظهرتم أنتم كمفكرى التنوير!! ، رغم أنكم أنتم من وصفتم الإسلامبولى بالبطل ، وقاتل الفرعون ، وتعسفتم فى ربط الإسلامبولى بعبد الناصر، رغم أنه من الجماعات المسلحة التى كان ـ ولا يزال ـ ثأرها مع عبد الناصر ، ومع ذلك كتبتم أن أباه سماه (خالد) تيمنا باسم خالد جمال عبد الناصر !!، فلماذا لم يسم الرجل ابنه جمال على اسم الزعيم نفسه لو كنتم تعقلون ؟!!

وكتب شاعركم مادحا إياه (حكم القضاء معدوم .. والمتهم خالد !) ، وكان محاموكم

هم من دافعوا عن عناصر تنظيم الجهاد التى نفذت الاغتيال وناضلت فى مرافعاتها لإثبات أحقية هؤلاء فى قتل السادات !![٥]

ثم عدتم بعدها بفترة وجيزة لتقولوا أنهم إرهابيون وقتلة ومنغقلين؟! فعلام كان التشجيع من البداية؟!

وكل هذا التأييد والتبجيل لمجرد أنه شفي غليلكم باغتيال السادات ، حتى لو كان القاتل من جماعة هى من أعدى أعداء عبد الناصر نفسه، ومن أعدى أعداء البلد بمن فيها ثم عدتم ـ ببراءة الذئاب ـ تتنكرون لهذه الجماعات وتدّعون محاربة فكرها المتطرف بفكر أشد تطرفا فبدلا من أن تردوها إلى صحيح الدين انتهزتم الفرصة لطعن كل ثوابت الإسلام، وأعطيتم لهؤلاء الخوارج الجدد الفرصة الكاملة ليقنعوا الناس بفكرهم التكفيري مستغلين طعنكم أنتم على المنابر فى الإسلام وفى الأزهر والدين والتاريخ!

واتهمتم الأزهر بأنه مفرخة لفكر الإرهاب، رغم أن سلاح الخوارج توجه فى أوله للأزهر نفسه وقتلوا شيوخه وكفّروهم لأن علماءه هم من ردوا عليهم وتصدوا لفكرهم،

واتهامكم للأزهر بهذا الاتهام كان ـ ولا يزال نكتة بالفعل ـ فلولاكم أنتم يا مروجى العلمانية ما كان للإرهاب حُجة على الدولة، ولا استطاع أن يقنع طفلا بأن المجتمع كله كافر!! فكل كتب وأدبيات الإرهاب لم تستدل على كفر مصر ودولتها وشعبها ـ كما يزعمون ـ إلا بحجة انتشار أقوالكم فى الإعلام الرسمى وأن الدولة تؤيد تلك الأقوال !!

ولست أدرى أين ذهب الحياء ؟! ، فهل كنتم تظنون أجيال الشباب المعاصر لن يعرف هذه الحقائق، وهذا التاريخ !! وهل ظننتم أنكم تكتبون لتنوير الشباب ضد أفكار الإرهاب !!

بينما كنتم أنتم من فعلتم هذا بالشباب عندما تركتموهم هدفا لسموم التكفير ، وكان من الطبيعى أن يكفروا وهم لا يجدون حاضرا لهم ولا مستقبل!

وجيلكم بأفكاره اليسارية والعلمانية هو الذى منح الفرصة للإخوان وتنظيمات الإرهاب باستقطاب الشباب ـ ليس ضدكم أو ضد الحكومة ـ بل ضد الدولة والشعب الذى سمح لأمثالكم بقيادته!

واليوم تعيدون نفس المسلسل بحذافيره!!، ولكن بشكل أكثر فُجرا وتستغلون الجو العام لمعركة مصر كلها مع الإرهاب، لتبادروا بنشر الطعن ـ ليس فى السُنة وحدها ـ بل فى القرآن الكريم نفسه!!

---

(٥) راجع مرافعات المحاكمة كاملة فى كتاب ـ محاكمة قتلة السادات ـ حسنى أبو اليزيد ـ الدار المصرية اللبنانية.

ونسيتم تاريخكم القريب فى التناقض، فرغم أن العقلاء من الأمة حذروا أشد التحذير من الإخوان، وأنهم بلا عهد ولا ذمة، وأن فكرهم وتاريخهم قائم على النفعية والإرهاب وحده، وأن تخليهم عن الإرهاب كان مناورة للحصول على مكاسب سياسية،

رغم هذا كنتم أنتم من دافعتم عما سميتموه بحق الإخوان فى الدخول للسياسة، وأنتم من قلتم أنهم فصيل وطنى!، وأنتم من صدّرتم لنا عبر صحفكم وقنواتكم أن نظام مبارك ظلمهم، ثم عدتم بعد ذلك تكتبون الكتب عن الصفقات المنعقدة بين الإخوان ونظام مبارك، رغم أنكم جزء من هذه الصفقة ويشهد على ذلك صفحات صحفكم الخاصة التى أفردتموها لقضايا الإخوان..

وأنتم من روجتم لشعار (يسقط حكم العسكر) وأنتم من نشرتم بين الناس شعار (عسكر كاذبون)، ولابد من الحكم المدنى، ثم ماذا حدث؟!

تفرقتم على الغنائم قبل أن تدخلوا المعركة أصلا ولم تستطيعوا برموزكم الاتفاق على مرشح واحد يمثل الثورة!! ، فتفتت الأصوات كنتيجة طبيعية !

وأنتم من قلتم أن انتخاب الإخوان فى الحكم أرحم من حكم العسكريين !!! [٦] لأنك تستطيع عزل الحاكم المدنى لأنه لن يستند إلى الجيش أما الحاكم العسكري فسيقف الجيش معه!!، وكأن الجيش الأمس القريب لم يكن هو الذى أجبر مبارك على التنحى رغم أنه حاكم عسكري ، وضحّت به قيادات الجيش بالإجماع ولم يقف معه حتى قائد الحرس الجمهورى !!

ثم جاء الإخوان وتشبثوا بالحكم عن طريق التهديد بحرق مصر ووقتها لحستم كل شتائمكم السابقة للجيش وكل نظرياتكم التى صدعتمونا بها عن فضائل حكم المدنيين ، وهرعتم تستدعون الجيش من ثكناته لكى يدرك البلاد!

وبالأمس القريب بلغ بكم التبجح أنكم استضفتم فى قنواتكم كل أصحاب الشذوذ الفقهى والفكرى وكل جاهل أو جهول يأتى بأقوال تناقض ابسط منطق فضلا على تناقضها مع صحيح الدين ، وقدمتموهم للناس على أنهم الممثلون الرسميون للإسلام !! ، ودعوتم الناس لمشاهدة رجعيتهم ، بينما هؤلاء لو لم يجدوا من إعلامكم القوة والانتشار لما سمع بهم أحد وظلوا فى كهوفهم وعندما قامت الثورة بجهود شباب هذا الجيل ضد

---

(٦)- راجعوا صحف تلك الفترة التى تلت الثورة مباشرة وحتى منتصف عام ٢٠١٢ ، حيث اتفق الإعلام كله على ضرورة تسليم السلطة للمدنيين حتى لو كانوا من الإخوان .

لظلم والفساد، كنتم أنتم من تلقف بعضهم وهم شباب غرير السن قليل التجربة(٧)، وقدمتوهم فى القنوات كأنهم هم من سحقوا نظام مبارك ، ومع المدح المبالغ تفرعنوا أيام المجلس العسكري وقلتم فيهم ما أصابهم بالغرور والتعالى على السلطة وعلى الشعب، وجعلتم كل منهم يظن أنه البطل الأوحد الذى حرر مصر من الهكسوس!!

وبالطبع.. تلقفتهم السفارة الأمريكية ومارست معهم نفس السياسة المعهودة التى تتبعها مع أى نابغة من الشرق الأوسط وهى سياسة الإستقطاب والإبهار فسقط هؤلاء الشباب وحركاتهم فى الفخ المعهود(٨)، وبعد أن كانت حركاتهم بالجهود الذاتية وتحركهم تلقائي لأجل البلاد انقلب الانتماء انتماء إلى أنفسهم لا سيما وهم مدعومون من الخارج ثم قمتم باستغلال دعمهم من الخارج لتعمموا اتهامات التمويل على الملايين التى خرجت فى يناير تنادى بإسقاط مبارك حتى أن الناس أصابها الخبل ، ولم يدركوا كيف تتهمون

---

(٧) هذه السياسة الملعونة هى سياسة أمريكية وغربية شهيرة فى العصر الحديث وتكاد تضارع السياسة البريطانية الشهيرة (فرق تسد) وكان أبرع من استخدمها وزير الخارجية الامريكى هنرى كيسنجر أشهر وزراء الخارجية فى عهد نيكسون وتتلخص هذه السياسة فى أن الولايات المتحدة بتحكمها الكامل فى وسائل الاعلام العالمى تستطيع أن تخلق نجم شباك يشغل العالم كله من لا شيئ، ولهذا فما إن يبرز سياسي أو مثقف عربي يستشعرون خطره يلقون عليه شباكهم على الفور ويسلطون الضوء عليه بغزارة خرافية ليصبح نجما عالميا بين يوم وليلة ، وبهذه الطريقة يستفيدون منه سواء كان فى صفهم أو فى صف أعدائهم ، فلو كان فى صف أفكارهم فسيجعله هذا الاهتمام الباذخ منحازا للسياسة الغربية اكثر من سفراء الغرب نفسه ، ولو كان معاديا لهم نفخوا فيه باعتباره يمثل أكبر أعداء الولايات المتحدة وعندئذ سيصدق نفسه بالطبع ويقتله الغرور فيلجأ للشو والتهديد الاعلامى والتهديدات الكبيرة التى تتلقفها الولايات المتحدة وتصنع منها بعبعا رهيبا يسمح لها بتنفيذ كل رغباتها السياسية فى العالم ولعل أبسط مثال على هذا ما صنعته الولايات المتحدة عن طريق كيسنجر مع السادات ، فقبل حرب اكتوبر احتقره كيسنجر وهون من شأنه وبعد حرب اكتوبر جاء كيسنجر الى مصر وفى اول لقاء له مع السادات اخذ كيسنجر يمدحه ويعظم فيه بشكل جنونى ويقول له أن الغرب بأكمله وقف مبهورا أمام ما فعله بهم السادات وبطبيعة الحال استجاب السادات لهذا الغزل وجعل كيسنجر حليفه المقرب ولم يقصر كيسنجر طبعا فأخذت الصحف الغربية والعالمية تتغنى بالسادات حتى جعلوه اشيك رجل فى العالم وبعدها فصلوه عن الجبهة العربية فصلا تاما ليتم التفاوض معه حول سيناء وحدها وقد كتب الكاتب الكبير هيكل يروى عن أسلوب كيسنجر ويعترف بأنه ــ أى هيكل ــ وقع فى شباك أسلوبه أول مرة لكن مع خبرته السياسية المحنكة كشفه سريعا وعلى الجانب الآخر انظروا ماذا فعل العلام الامريكى باسامة بن لادن والظواهرى حيث جعلوهم أشهر شخصيتين فى الكرة الارضية ومن تحت ذقونهم وضعوهم تحت السيطرة المخابراتية كاملة ليسيروا فى الخط الذى يخدم السياسة الامريكية على طول الخط حتى منحوهم المبرر الجاهز لغزو العراق وافغانستان وعندما انتهت الحاجة اليهم ماتت سيرتهم تماما وظهر ممثل آخر فى الفلم الامريكى السخيف يحمل اسم داعش .. وهكذا

(٨) كان ايقاع شباب الحركات السياسية سهلا جدا فقد استغل الامريكيون شغف هذا الشباب بالشهرة فوضعوهم تحت البؤرة وكانت السفيرة الامريكية وودادرة اوباما يستقبلونهم استقبال الابطال وبالتالى كان اقناعهم بان الجيش وقياداته هم من العهد البائد أمرا ميسورا

مبارك بأن نظامه عميل للغرب طيلة عمره ثم تعودون لاتهام من ينادى بإسقاطه بنفس التهمة، كما أن الخبل الحقيقي ظهر فى تعميم الإتهام على سائر من ثاروا وأيدوا خلع مبارك ومحاولة الحلم بمستقبل أفضل!

ألم تكن صحفكم وإعلامكم هو المحرّض الأول لهؤلاء الزمرة من الشباب على الغرور والتعالى وافتعال المشاكل مع قيادات المجلس العسكري وأغريتموهم بالاستهانة والسخرية والطعن فى الجيش ، بعد أن كانت العلاقة بين الجانبين على أوثق ما يكون، وكان التعامل من قيادات الجيش فى منتهى التواضع والتقدير، ونظر لهم الشباب نظرتهم إلى المثل العليا ، فجئتم أنتم وأوعزتم للشباب بأنهم أصحاب الحق فى الأمر والنهى وأن قيادات المجلس مجبرة على اتباعهم واتباع كافة أهوائهم حتى لو كانت اقتراحات مجنونة ، وعدم قبول أعذارهم ولا اعتذارهم بحساسية موقف البلاد ، فرأينا الشباب بعد ذلك يحترف الإساءة والبذاءة ويُملى الشروط والأوامر الاستفزازية التى أفسدت كل ما بين الجانبين من الثقة وتسببت بعد ذلك فى المصادمات الدموية بينهم، تلك المصادمات التى خسر فيها الجميع ثم لم يمض عام واحد حتى انقلبتم للنقيض وقلتم أن انتقاد الجيش خيانة وطيش، وأن هؤلاء الشباب ليس لهم مشروع أو خبرة سياسية وأنهم مجموعة من الحالمين لا يتعاملون مع الواقع !!!

ألم تدافعوا عن تمويل منظمات المجتمع المدنى وقلتم أنه حق مكفول لهم حتى لو كان تمويلا مشبوها[٩] ؟!

ثم عدتم بعد عامين للصراخ فى منتهى البجاحة أن كل من يتلقي تمويلا هو عميل خارجى ومتآمر !! ـ سبحان الله ـ ، ألم تُكفّرونا عندما انتقدنا مبدأ التمويل من البداية ورفضنا المنظمات المشبوهة ونادينا بإيقاف تلك اللعبة!

عودوا لمقالاتكم ولمؤتمراتكم المشتركة وقولوا لنا..[١٠]

كيف يمكن أن نقبل منكم الآن ما تقولونه فى أن هناك فارقا ضخما بين الإنتقاد السياسي لقيادات الجيش وأى قيادة تحترف السياسة أيا كان موقعها ـ وهو أمر لا غبار عليه ـ وبين انتقاد الجيش نفسه أو التشكيك فى وطنيته ـ وهو نفس ما قاله المصريون أيام

(٩) سخر إبراهيم عيسي فى جريدة التحرير من كل من استنكر التمويل الخارجى وشجع الحركات الشبابية على تلقي التمويلات بالعند فى الحكومة المصرية ، ثم بعد محاكمة هؤلاء الشباب تنكر لهم ووصفهم بأهم مخترقون !!

(١٠) افتحوا الكتب المجمعة لمقالات إبراهيم عيسي فى فترة مبارك ،وكتاب ألوان يناير فى فترة ما بعد الثورة وقارنوه بمقالاته فى ما بعد سقوط الإخوان ستجدون أهوالا وجبالا من التناقض المفجع !!

المجلس العسكري وانتقدتموه أنتم ـ وظلت صحفكم لمدة عام كامل تصف القوات المسلحة كمؤسسة بأنها متآمرة ، واليوم .. لا تعليق !! (١١)

وكيف نقبل منكم هجومكم الساحق على شيخ الأزهر والأزهر بعمومه ، وأنتم من روجتم منذ أقل من عامين ، بأن الأزهر هو الممثل الرسمى للإسلام وناديتم بقانون لا يسمح لأحد بالخطابة أو الفتوى أو الكلام فى الدين والشريعة إلا رجال الأزهر ـ فلما صدر القانون طالبتم بإغلاق الأزهر أصلا وإنشاء مرجعية دينية بديلة!!

وفتحتم مراحيض البذاءة ضد كل الثوابت ، وطعنتم فى الأزهر وفى الإسلام وتقولون لا وقت لتنقية الكتب بل أحرقوها بما فيها !!

لو أن انقلاب مواقفكم هو عبارة عن تراجع عن تلك المواقف بسبب اكتشافكم أنها كانت خاطئة أو أن الظروف اختلفت فاختلف الرأى ، وبالتالى اعتذرتم للناس واتخذتم جانب الحق ، لقلنا بأنكم معذورون..

أما أن تتخذ موقفا وبعدها تلعن نفس الموقف ومن اتخذه، وتذهب للنقيض ، ثم تعود للموقف الأول مرة أخرى ، وكل هذا دون حتى كلمة توضيح !! ، فهذه هى الدعارة الإعلامية بعينها ونظرا لأن أجيال الشباب ـ من غير طلاب الشهرة ـ مثلهم مثل ملايين المصريين لا تنتمى لا للأحزاب السياسية ولا للتيارات المعلبة، بل هم مثقفون مسلمون يقولون بالقرآن والسنة ويرون حضارتهم أعظم حضارات الدنيا، ومصريون يقولون بمصريتهم ، وليسوا ناصريين ولا ساداتيين، وبالقطع هم ليسوا من أبناء مبارك بل من ضحاياه، وليسوا من الإخوان أو السلفيين أو تيارات الإرهاب المسلح ، ولا من العلمانيين ولا اليساريين ولا أهل اليمين الرأسمالى ، ولا من أصحاب المنظمات ولا الجمعيات ، وليس لديهم أى قناعات مسبقة يعادون ويوالون عليها ـ إلا ثوابت الدين والتاريخ والوطنية ـ وليسوا بمن ينحاز لطرف أو حاكم أو أيديولوجيا بل هم تلك الكتلة الصلبة التى مثّلت ثورة جيلها فى ٢٥ يناير ٢٠١١ م ، ثم تم إهمالها عن عمد وإقصائها لصالح الكعكة التى تم تقسيمها بين تياراتكم ، وكذلك هم الكتلة الصلبة التى وقفت ضد الإخوان وتيارات الإسلام السياسي بعد انكشاف أمرهم ، وهم أصحاب هذا البلد الحقيقيون الذين كفروا بنخبتكم المتصارعة ، وتياراتكم المتاجرة بالدين والسياسة والوطن وهى أجيال كفرت

---

(١١) إبراهيم عيسي كتب عن فخر نظام مبارك بالضربة الجوية قائلا «يا ليته ضربنا نحن الضربة الجوية وذهب فحكم إسرائيل ٣٠ سنة، وبعد الثورة وأثناء محاكمة مبارك قال انه احد قادة أكتوبر وصاحب الضربة الجوية ويسحق التكريم شاء من شاء وأبي من أبي!!

أصلا بالاستقطاب والقولبة التى تعودت عليها التيارات الفكرية فى مصر منذ بداية القرن الماضي وحتى اليوم، وهى التيارات التى تعودت أن تتصارع وحدها على ساحة الفكر والحوار، ولم يكن هناك تيار محايد ـ غالبا ـ يرفض صياغة الحق حسب الانتماء وينادى باحترام الحق فى ذاته، ولأن هذه التيارات أضاعت الشعب ومزقته فى صراعات أشبه بتناطح الديكة، وما إن يأتى إلي ساحة الفكر وافد جديد حتى يتم استقطابه مرغما لأحد التيارات المتصارعة، وهم الجيل الذى شرب الدين والأخلاق من بيئته الوسطية فى كل شيئ بلا إفراط ولا تفريط، فهم أبناء جيل الذين (عبروا)، بينما أنتم أبناء جيل الذين (هبروا)[١٢]وان كان آباؤكم لم يغنموا شيئا بل هم كعامة المصريين فأنتم من خالفتم آباءكم وانتسبتم إلى جيل الذين هبروا باستخدام نفس الفكر ونفس الآليات!

وهذا الجيل من الشباب هو الجيل الذى أعاد اكتشاف سور الأزبكية، وسور الكتاب فى السيدة زينب، وفرش الكتب فى شبرا والمطرية وعزبة النخل ، والسوق الشعبي للكتاب فى شارع النبي دانيال فى الإسكندرية ، والجيل الذى أنشأ أسواق الكتب المستعملة فى المحافظات ، بل وتوسعوا فى نظام تبادل الكتب للتغلب على قسوة أثمانها، وهو الجيل الذى عشق القراءة والثقافة بأكثر مما فعلتم، وهم الجيل الذى صنع شعبية المؤسسة العربية الحديثة[١٣] التى لم تسمع بها أجيالكم، فهم الجيل الذى صنع وعيه الدينى والسياسي بشكل مستقل لأنهم عندما جلسوا إليكم أعطيتموهم العلم والثقافة والتاريخ ولكنكم رفضتم مناقشة التيارات التى تقدسونها، واتهمتموهم بالجهل والعناد والطيش، لمجرد أنهم طالبوكم بالأدلة، وليس بالمعارف سابقة التجهيز،،فخرجوا لسوق الثقافة، ولكن بعيدا عن وزارة الثقافة التى كانت حظيرة فاروق حسنى[١٤] لمثقفي الدولة ـ على حد تعبير فاروق حسنى نفسه ـ ، وصنعوا وَعيهم بأنفسهم ـ بعد توفيق الله ـ وتشرّبوا الوطنية وحب القراءة من آبائهم أولا ، ثم من الكُتّاب والروائيين الذين مثّلوا جيلهم، وأعطوهم الشعبية الساحقة فى الوقت الذي كنتم فيه تحتقرون ما يقدمونه لأجيال الشباب ، فصار شباب العالم العربي كله يقرأ لنبيل فاروق وأحمد خالد توفيق وشريف شوقي .. وغيرهم عشرات من المبدعين ، لكن الشباب أيضا لم يقدسوهم كما فعلتم أنتم مع رموزكم ، بل

(١٣)ـ تعبير شهير للكاتب الساخر محمود السعدنى فى وصف حال الشعب المصري بعد الانفتاح ، حين استأثرت فئة المصالح على المكسب فكانوا هم الذين هبروا . وحرموا الشعب الذى عبر فى اكتوبر وحقق النصر.

(١٣) هى أشهر دار نشر بين الشباب فى العالم العربي لأنها تخصصت فى أدب الشباب تحديدا وتبنت أجيالا جديدة من الأدباء الذين زرعوا الانتماء العربي والمصري فى أعماقنا مثل نبيل فاروق وشريف شوقي واحمد خالد توفيق.

(١٤) وزير ثقافة مبارك الذى ظل على مقعده عشرين عاما وجعل من وزارة الثقافة كهفا لليساريين والعلمانيين.

اختلفوا معهم وأرهقوكم بالنقاش والاختلاف ، وواجهوهم بآرائهم الحرة ومواهب أجيال الشباب اليوم عندما أخذ بعضهم الفرصة للظهور فى الإعلام ـ جعلت من إعلامكم عبرة لمن يعتبر ـ وعندما لم تحتملوا ظهورهم، أقصيتموهم..

فعاد الشباب مرة أخرى يمارس هوايته فى التندر والسخرية على خطابكم الإعلامى بالكوميكسات الساخرة التى تثير جنونكم على أرض الإنترنت الإعلام البديل الذى سحق قدرة الإعلام التقليدى على التأثير ومن توفيق الله لهؤلاء الشباب وجدوا ملايين الكتب تفترش الأرض وتنتظر من يقرأها، فقرءوا ـ ولا زالوا يطالعون وسيظلون بإذن الله ـ لأنهم ليسوا مثلكم يتخذون القراءة لاتخاذ الإعلام وظيفة ثم يهجرونها القراءة بعد ذلك، وقد عاد مثقفي هذه الأجيال إليكم ليس فقط بقراءة كتب المعاصرين ، بل تعمقوا فى القراءة حتى دخلوا إلى أمهات كتب التراث، ولم ينقص من همتهم علو كعب اللغة فى تلك الكتب، ثابروا وصابروا وهم الجيل الذى أهملته الحكومة.. فأهملها، وأهملته أدوات النشر والثقافة، فاتخذوا لأنفسهم ميدانا آخر للكتابة والنقد والإبداع، وانفتحوا على مختلف مصادر المعرفة، وتعلموا بحسّهم النقدى كيف يفرقون بين الغث والسمين، وأعادوا قراءة التاريخ من جديد بقراءة تختلف عن التاريخ المُعلّب الذى قدمته المدارس،

وانتبه لهذا الجيل الجديد بعض الكبار من أجيالكم، مثل عميد الصحافة العربية حسنين هيكل، والدكتور أسامة الباز، وحاولوا أن ينبهوكم لطبيعة الجيل القادم، وأنهم معاندون لأقصي درجة، ومصادر معرفتهم مختلفة، وكلمتهم مسموعة ومقروءة فى منتديات الإنترنت والمدونات بأضعاف كلمات الإعلام التقليدى لكن لم يستمع أحد..

ولم يكن انتباه الأستاذ لهذا الجيل غريبا فقد عرف وأدرك أنهم الجيل اشترى كل كتبه ـ وهو أستاذ الأجيال ـ وأثاروا دهشته العارمة من إحاطتهم المتعمقة لكل ما كتبه، بل وتجاوزوا هذا إلى نقده ونقد مواقفه وبيان ما رأوه من التناقضات بين المواقف القديمة والجديدة، ورغم هذا لم يغضب الرجل أو يتأثر بل أشاد بالجيل كله وبدأ يقرأ ما كتبوه ويتابعهم بعد أن تابعوه، واحتملهم وشجعهم، فقدّروا له ذلك ولهذا خرج الرجل الكبير مرارا ليقول أن وقت رحيل جيله قد حان، وأن الأجيال الحالية أجيال مختلفة ومستقلة الوعى، وأن عنادهم ـ كشباب ـ واستخدامهم للألفاظ القاسية مع الأجيال السابقة عليهم، ليست عيبا فيهم، بل هى رد فعل طبيعى لما عانوه من الإهمال والإحباط.. وأيضا لم يستمع إليه أحد!!

وهذا الجيل هو الجيل الذى أعاد اكتشاف عبد الرحمن الرافعى ومصطفي صادق الرافعى وشوقي وناجى وحافظ ونجيب سرور وأحمد مطر ومحمود السعدنى وفؤاد زكريا وفتحى غانم وعباس العقاد بل والشعراوى والغزالى ومحمود شلتوت ومصطفي محمود وأحمد الزيات وسائر الأسماء الرنانة ، لكنهم لم يقدسوا أحدا فأحبوا الجميع وانتقدوا الجميع وهم الجيل الذى قدم لكم حتى بعض نجوم جيلكم الذى تآمر عليه إعلام عصركم، فأخفاهم عنكم، مثل الشيخ على الطنطاوى، والعلامة أحمد شاكر ، والأديب المحقق محمود شاكر والشيخ محمد الأمين الشنقيطى ورشيد رضا وغيرهم وهم الجيل الذى أعاد سيرة أبطال الشعب منذ البكباشي محمد عبيد البطل الحقيقي للثورة العرابية، وكذلك هم الذين دمعت أعينهم وضحكت قلوبهم من سيرة عبد الله النديم ومحمد كريّم ومصطفي كامل ومحمد فريد وغيرهم وهم الذين أعادوا سيرة الأبطال فى حرب أكتوبر فدشنوا لهم الصفحات على الانترنت وعلّموا الناس من هو المجهول بطل تبة العريش ومن هو إبراهيم الرفاعى وأحمد زدد والشاذلى ومحمد على فهمى وعبد المنعم رياض وغيرهم وهم الجيل الذى وقف احتراما لجنازة الفريق الشاذلى عندما توفي يوم رحيل مبارك ، وهتفوا ينادونه (أخذنا لك حقك) فعرف الرجل وهو فى رحلته الأخيرة أن جيل شباب اليوم - ليس يعرفه فقط - بل يعرفه ويعرف حكايته مع نظام مبارك والسادات وكيف ظلموه ، ويهدى إليه هؤلاء الشباب نصر ثورتهم تعبيرا عن انتمائهم لبطولاته ، ولا شك عندى أن الرجل سمعهم وأحس بهم وأدرك أيضا كيف افتريتم علي الشباب وقلتم عنهم (جيل طائش لا يعرف شيئا !!) وهم الجيل الذى كشف الأسماء الحقيقية والوقائع الحقيقية لبطولات المخابرات المصرية ، فنقبوا وبحثوا وجاءوا بملفات وصور رفعت الجمال (الهجان) وأحمد الهوان (الشوان) وعبد المحسن فائق (محسن ممتاز) ومحمد نسيم (نديم هاشم) واللواء عبد السلام محجوب (الريس زكريا) وعبد العزيز الطورى (عزيز الجبالى) والفريق رفعت جبريل (الثعلب) وردوا لهم الجميل بنشر تاريخهم على المواقع فى الانترنت وهم الجيل الذى ظهر فيه من مصر والعالم العربي شعراء أفذاذ تعلم من آبائه أن الشعر .. فيه الأصيل المتمكن ، وفيه الغث التافه الملوث بألفاظ الحداثة التى نشرها علينا جيلكم ، وعرفوا أن المعركة فى جيلكم كانت محتدمة بينهما ، فانتصروا للأصالة والإبداع وخرج منهم أربعة آلاف شاعر على الأقل يُنشدون القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة فى حركة تجديد أدبية كتجربة محمود سامى البارودى - مع

الفارق طبعا ـ لكن البارودى وشوقي وجدوا من يؤرخ لهم من مبدعى النقد فى زمانه، بينما وجد الشباب من يهملهم منكم يا من اتخذتم نقد الإبداع وظيفة، رغم أن مدارس النقد العربي خارج مصر هى التى اهتمت بهم وأخرجت فيهم موسوعات التراجم[١٥]

وهم الجيل الذى نشر صوتيات ومرئيات أعظم شيوخ القرآن الكريم، ودشنوا الصفحات التى تحمل سير العلماء السابقين وأعمالهم وأقوالهم وهم الجيل الذى أنشأ آلاف المواقع والمنتديات وملايين الموضوعات فى رد الشبهات عن الدين والتاريخ والأمة وهم الجيل صاحب الرقم القياسي فى مبيعات معرض الكتاب، وهم الجيل الذى حصل على وسائل التواصل فتنافسوا، وتبادلوا النقاش العنيف، ولكن الغالبية منا وقفت عند حد الثوابت والتزمت به ولم ينج من انتقادهم إلا جيل واحد فقط، جيل النبوة والرسالة الصحابة والتابعون وكبار أئمة الإسلام ـ وللمفارقة فإن هذا الجيل بالذات لم ينج من ألسنتكم ـ أما هم فأكبروهم ، لأنهم قرءوا عنهم قبل أن يقرءوا ما كتبوه، وكرهوا من أعماقهم كل من تعرض لهم بسوء، وتشكلت من الشباب مجموعات الدراسة والنقد ونشرت ثقافة الإسلام الصحيحة بينها وبين ملايين الشباب العربي وهذا كله..

لأن الزمان فى عصرنا كان قد استدار دورة كاملة ـ كعادة التاريخ ـ فكما بدأت أول أجيال القرن الماضي نهضة الأصالة فى مطلع القرن وظل المنحنى يعلو حتى أعلى درجاته، ثم بدأ يهبط مجددا حتى وصل فى عصر مبارك إلى نقطة الصفر، حان للمنحنى أن يصعد من جديد بعد انهيار كل القيم والمعانى ولهذا فاسمعوها منهم عالية هذه المرة..

كُـفوا عن استقطاب الشباب، فهم لا يكرهون التشدد والتجارة بالدين وفقط، بل يكرهون أيضا أهل الإلحاد والعلمانية ومن يسمون أنفسهم بأهل التنوير، بينما هم أهل الجهل والتزوير ولم يعد أحد يصدق أن أجيالكم ستقود تيار الاعتدال والوسطية، لأنكم ورثتم الأجيال السابقة عليكم، وكل تياراتكم تعمل لمصالحها فقط، وحسب أهواء أصحاب القنوات والصحف، فالصوفية لا تروج إلا لنفسها، والشيعة لا تروج إلا لكل من يعتدى على الثوابت ويخدم مخططاتها السياسية فى المنطقة، والسلفية لا ترى فى غيرها مفهوم أهل السنة مع أن معتقدنا نحن عوام المسلمين هو معتقد أهل السنة وعلماء السلف أنفسهم شهدوا بسلامة عقيدة العوام إذا هجروا أصحاب الكلام، وتجار برامج الفضائيات هؤلاء مكشوفون للشعب كله الذى يسمعهم من قبيل التندر فحسب والأزهر لا يظهر منه إلا قلة

---

(١٥) يحفل الانترنت بمراكز توثيق ابداع الشباب العربي عبر عدة مؤسسات مثل معجم البابطين لشعراء الشباب والمواقع المتخصصة لنقد الحرة الادبية المعاصرة ولكن الإعلام لا ينشر عنها شيئا.

من العلماء، والعلماء الحقيقيون يعانون عداوة الإعلام ، والعلمانية وأهل التغريب تريدها فوضي بلا ضوابط، أما الإخوان فقد عرفها شبابها بعد أن كشفهم الشعب كله فانتم جميعا تمثلون المشكلة، فلا يمكن أبدا أن تكونوا جزء من الحل وإن كان العصر قد أصبح عصرا يترنح بين الجمود وبين الفوضي ، لغياب راية التجديد التى تحافظ على ثوابت العقيدة، وتـُـقدم فقه الواقع الذى يحقق مقاصد الشريعة ، هذه الراية لن تحملوها أنتم، بل سيحملها جيل آخر خرج من رحم الإستقلال المعرفي لأن طلبة العلم فى أجيالهم أيضا بلغت رتبة التخصص التى تتيح لها حمل التخصص فى كافة المجالات حسب دراسة كل شاب، ولكنكم لم تنتبهوا لهذا! لأن هذه الأجيال تختلف فى أسلوب المعالجة.. فقد درسوا علوم الشريعة من منابعها بعد أن تعددت الوسائل، تماما كما درسوا العلوم السياسية والتاريخ المعاصر ، بل وتمايلوا طربا مع الآداب العربية منذ منشأ الأدب وحتى اليوم ، فلم نقتصر كأجيالكم على فرع واحد، وهو ما اكتشفه الشباب عندما شاهدوا أهل الرداء الدينى يمارسون السياسة بوصولية فجة، وبسذاجة مفرطة تفتقر إلى أدنى فهم للواقع والمحيط الدولى ، وتظن منتهى السياسة هو الوصول للمناصب وقيادة العوام الجهلاء !! ، كما شاهدوا أهل السياسة يجهلون حتى الثوابت الإسلامية ـ التى تعلمناها كأطفال فى مراحل التعليم الأولى ـ فلا يستطيعون التفرقة بين الآية والحديث !! وشاهدوا صحافتكم وهى لا تجيد الكتابة بالعربية الفصحى ولا الحديث بها دون أخطاء فاحشة، ويكفي أنكم علمتموهم فى المدارس قصة (الفتنة الكبري) ، من مصادر ألف ليلة وليلة [١٦]!!، ونشرتم بينهم القصص الخرافية التى تطعن فى أشرف جيل فى الأمة دون أن تدركوا أن هذه القصص الواهية ليس لها سند صحيح أو متن صريح لأنكم لم تعرفوا أساسا منهج الإسناد، ففوجئ الجيل الجديد بعد انفتاحهم على العلم والثقافة أن هناك ثقافة عربية أصيلة هى الإسناد والتوثيق وأن منهج كتابة الكتب التراثية فى ثقافة الأقدمين كان يعتمد على ذكر كل ما يرد إليهم ثم يقوم المحققون بالتمييز بين الحق والباطل ، فثقافة الإسناد كانت الوسيلة الوحيدة حتى يميز الباحث بين الروايات الصحيحة والموضوعة فى الكتب التى نقلت لنا كافة الروايات، وهى أشبه بثقافة الوثائق فى الكتب الحديثة، فالكتاب الذى يخلو من الوثائق اليوم ليس كتابا فى التاريخ بل هو كتاب فى المذكرات الشخصية، ولهذا خرجتم على الناس بروايات الخرافة من الكتب التراثية، دون أن تخبرونا منهجهم

(١٦) لمطالعة الرواية الصحيحة للفتنة الكبري بمصادرها يرجى مراجعة كتاب (ستون سؤالا بستين قضية) ـ محمد جاد الزغبي ـ شبكة العز الثقافية.

وطريقتهم فى الكتابة وحسبتم أنها كالمؤلفات المعاصرة من يكتبها وينقلها فهذا معناه أنه يؤيدها ولم يكن هذا صحيحا لأن العلماء نقلوا الصحيح والضعيف فى التاريخ وفى الحديث وكتبوا فى تحقيق تلك الروايات وفصلوها فى كتب متخصصة لم تطلعوا أنتم عليها، لان السلف لم يعلموا أن أجيالكم التنويرية ستأخذ كل ما تجد فتجمع التراب مع الذهب، ولم يعلموا أن أجيالكم لن تعرف عن أصول الرواية والإسناد شيئا، بعد أن كان العوام فى العصور الأولى يفقهون مبادئ هذا العلم ! والكارثة أنكم نقلتم لنا حتى تاريخنا الحديث بنفس الطريقة، رغم أنكم عشتم أحداثه، ولكن آفة وداء الاستقطاب والتنازع السياسي جعلكم تكتبون لنا آلاف الكتب فى نفس القضايا والمراحل، ورغم هذا فكل كتاب يحمل قصة مختلفة، فشوهتم حتى عصركم، بل وامتد التشويه حتى إلى أشرف انجاز نفتخر به وهو حرب أكتوبر!! ، فعرفنا بطولات الحرب ومعجزاتها من خلال مذكرات قادتها العظام، ومن كتابات الغرب أنفسهم واعترافات قادة إسرائيل ![١٧]فتنحوا جانبا يرحمكم اللّه.. فهذه الأجيال الجديدة هم وقود المعركة وأصحابها، فهم ذات الجيل الذى يمسك بالسلاح دفاعا عن شعبه ووطنه ، لكنكم لا ترونهم لأنهم ليسوا فى موقع القيادة.. وهم الجيل الذى يمسك الأقلام دفاعا عن عقيدته، ولكنكم لا تقرءون لهم شيئا ـ وهذا من حسن حظهم ـ، لأنهم لا يتصدرون الإعلام، بل يتصدرون مواقعهم على الانترنت بعيدا عن إملاءات رجال الأعمال الحاكمين لقنواتكم وصحفكم ونحن نُـقدّر عطاء جيلكم فيما أصاب فيه ولا نرفضه ، ولكننا نرفض تجربتكم بكل تناقضاتها واستقطابها العنيف، ونرفض أن نرث ثاراتكم مع بعضكم البعض فتضيعونا أمواتا بعد أن كدتم تضيعونا أحياء.. ويكفي ما فعلتم بأجيالنا ممن استجاب لاستقطابكم، فدعونا نحاول إعادتهم لفكر جيلهم المستقل ، فنحن من نتكلم بلغتهم، ونعانى بضميرهم، ونفكر بعقولهم.. وكم كان محمد حسنين هيكل صادقا وهو يكتب فى مقدمة كتابه (بين الصحافة والسياسة) مهديا كتابه إلى أجيالنا (إلى شباب اليوم حتى لا تضيع منهم الحقيقة لمجرد أنهم لم يكونوا معنا بالأمس)وصدق الرجل فقد خرجنا فى بداية الوعى وقرأنا وعانينا بين مختلف أتربة وركام الصراعات كى نستخلص الحقيقة بالدراسة والتحليل المحايد،

فاسمعوا لهيكل عندما خاطبكم قائلا: انتم مستقبلكم وراؤكم ، وهم مستقبلهم أمامهم ، فكونوا لهم مستشارين، لا قادة ..

---

(١٧) من أراد معرفة مدى الانجاز الذى حققته حرب اكتوبر عليه فقط بمراجعة مذكرات ديان وجولدا مائير وايلي زاعيرا ، أو قراءة نصوص تحقيقات البرلمان الاسرائيلي (الكنيست) حول الحرب والتى اخرجتها لجنة التحقيق برياسة شيمون أجرانات بعنوان (التقصير)

الفصل الأول

ضربة البداية : من هم الذين يهاجمون التراث والحضارة الإسلامية، ولماذا؟!

فى إحدى المشاهد الساخرة - والمأساوية فى نفس الوقت - وقف الفنان حسن عابدين رحمه الله فى المسرحية يخاطب ابنته متحدثا عن أحوال البلد قائلا: (البلد دى يا صفية عاملة زى اتنين بيلعبوا مع بعض لعبة شد الحبل)

فقالت صفية: (واحنا بقي اللى بنتفرج يا بابا)

فقال لها: (لا، احنا الحبل اللى بيلعبوا بيه يا صفية !!)

فى ظل الهجمات المتتالية على الإسلام وتاريخه وحضارته وعلومه، على عدة جبهات ، إما بسبب جماعات الإرهاب المسلح التى تنسب نفسها إليه، وإما بسبب هجمات دعاة التغريب والتغييب الذين يستندون لأفعال المجرمين لتبرير الهجمات حتى على القرآن فضلا عن السنة والتاريخ، متسترين خلف دعاوى التجديد والتنوير التى أصبحت بوقا لكل طاعن، بينما هم يهدفون إلى إماتة كل ما له علاقة بالإسلام فى نفوس الناس ، وهم فى هجماتهم يتهمون التشريع والتاريخ الإسلامى بمخالفة العقل، والتناقض، ويستغلون فى ذلك أن الناس فى جُملتهم لا طاقة لهم باستيعاب معظم كتب الرد على الشبهات ،بسبب ارتفاع مستواها العلمى ونظرا لعدم إلمامهم بالقواعد التى تستند إليها علوم الشريعة ، وبالتالى فلن يستوعبوا معظم ما يتم طرحه عليهم من توضيح، فى ظل هذه الهجمات استخدام الجانبان أسلوب الإرهاب - مع اختلاف الوسيلة - فالخوارج الجدد يستخدمون السلاح ضدنا، وخوارج الإعلام يستخدمون الإرهاب الفكرى والاغتيال المعنوى، فإذا نطقنا بآرائنا التى تعبر عن ملايين المصريين فى رفض الجانبين ، كفّرنا الطرف الأول، وهاجمنا الطرف الثانى واتهمنا بأننا من الدواعش والإرهابيين وحرض ضدنا الدولة !!

لهذا.. وكتعبير عن فكر الكثيرين من شباب هذا الجيل خطرت لى فكرة كتابة فصول هذا الكتاب وهو تجميع لمناقشات مطولة بينى وبين بعض من أربكتهم الشبهات المطروحة، واتفقنا فى الحوار على أن يكون النقاش معتمدا على أساس الإقناع والمنطق العقلي المجرد بدون الدخول إلى معمعة التفاصيل العلمية التى تحتاج إلى الحد الأدنى من الدراسة وفهم المنهجية العلمية، وذلك حتى يكون أمام القارئ خياران لمطالعة الردود على تلك الشبهات، خيار القناعة العقلية فى مثل هذه الحوارات التى تعطى ردا فكريا

يستطيع استيعابه كل الناس دون حاجة للتخصص فى علوم الشريعة ، وخيار الإقناع العلمى وهو متوفر فى كتب رد الشبهات لمن يستطيع أن يقرأ ويتابع أقوال أهل العلم وهى مكتوبة بلغة المتخصصين، يوجد بها ردود مستفيضة على كل شبهة بلا استثناء وقد نتج عن هذه الحوارات نتائج إيجابية فى أنها أظهرت تناقض العلمانيين أنفسهم ومخالفتهم لمبادئ المنطق الذى يتشدقون به، كما ظهرت من قبل تناقضات مؤيدى الإرهاب عندما انقلبوا على ثوابتهم التى تاجروا بها،، والله المستعان أما كيف ومتى نشأت أمثال هذه الحوارات.. فلهذا قصة..

فنحن كعادة شباب جيلنا، اتخذنا من المنتديات الثقافية جامعات افتراضية بديلة منذ عام ٢٠٠٤ م، وقبل انتشار مواقع التواصل الإجتماعى، ليس فيها أساتذة متجبرين وتلاميذ مقهورين، بل فيها متخصصون فى كل فن نستمع إليهم ونكلفهم بإرشادنا، وقرّاء ومثقفون لا يسلمون إلا للدليل والحجة، وتنعقد حلقات المناقشة فى مختلف العلوم والمعارف والآداب، ونحرص فيها على رفض الأقوال المبنية على الحزبيات أو القناعات المسبقة ، كما أننا نعمل ونؤمن بأن كل إنسان فيه الخير وفيه الشر، وحسب تغلب أحدهما على الأخر يتحدد الحكم على الإنسان بالخير أو الشر، ويتحدد أيضا مدى عطائه بحسب تاريخه وإسهاماته، وما أصاب فيه وما أخطأ، مع مراعاة ظروف مجتمعه الذى عاش فيه ، لأنه من المستحيل أن نحاكم بحيادية أى شخصية عامة فى أى عصر بمقاييس غير مقاييس عصره ولهذا فقد قرأ جيلنا التاريخ كله بحيادية فعلية، ولم نسلم بعصمة أحد بعد النبي عليه الصلاة والسلام ومجموع الصحابة، ولم يعنينا أبدا فى الأجيال التى تعاقبت على الأمة حتى يومنا هذا، لم يعنينا ولم يزعجنا أن يكون فى الأئمة والعلماء والمفكرين والحكام، عيوب وأخطاء نقول أنهم أخطئوا فيها، لأننا لا نعتقد فى كل شخصيات التاريخ وجوب أن يكون الإنسان مبرأ من كل عيب حتى نصدقه ونقدره ونكبره! فكل نجم من نجوم التاريخ له أخطاء لا تؤثر فى حكمنا عليه طالما أن أخطاءه معدودة، وفضله وافر متسع كما أننا لم نحكم على من أجرموا فى حق الأمة بالشر المطلق إلا عندما لا يكون لهم من عطاء الخير نصيب ، فإن كانت له حسنات ذكرناها وإن كانت لا تؤثر فى حكمنا العام عليهم، ولهذا لم ندخل إلى القراءة وقلوبنا تحمل الحب المسبق إلا لأجيال الأمة الأولى، لأن القرآن والسنة بين أيدينا أوضحوا لنا أن حبهم إيمان.. ولم ندخل بالكره المسبق لأحد بخلاف ما اجتمعت عليه الأجيال الأولى فحكمت عليهم بأنهم كانوا أعداء

لنا، ومع ذلك قرأنا عن هؤلاء وهؤلاء حتى يكون حبنا وكرهنا مبنيا على أساس من الواقع .. وبعدها قرأنا وحاكمنا تاريخنا وتاريخ الغرب من العهد الأول وحتى العصر الحديث وكان قياسنا فى الحكم عليهم هو مبدأ الموازنة بين الإيجابيات والسلبيات، ليس فى التاريخ العام وحسب، بل حتى على مستوى الفكر، فلم ندخل فى القراءة ونحن نردد ما صدعونا به فى سنوات تعليمنا الأولى من أن فلان هو رائد كذا وكذا، وأن فلان هو علامة كذا وكذا.. فقد فضلنا أن نرى بأنفسنا ثم نحكم حكما موضوعيا، وقد يسأل البعض كيف لكم ذلك وهذه الأحكام تحتاج المتخصصين فى عشرات المجالات ؟!

فنقول بأن أجيالنا خرج منها ـ من ناحية العدد ـ أكبر كم من المتخصصين فى كل مجال ، وعدد حاملى الماجستير والدكتوراة فى أجيالنا يتفوق على عدد طلبة الجامعات فى أجيال من قبلنا، ومن ناحية الكيف ، فقد توهمت الأجيال السابقة[١٨] من قيادات تعليم زمن مبارك أن فساد التعليم ـ الذى كانوا هم السبب فيه ـ جعل من حامل الدكتوراة اليوم أقل علما من طالب الجامعة فى أيامهم، وهو قول مردود وإشاعة روجتها ضدنا تلك الدوائر التى شاخت فى مواقعها ـ على حد تعبير هيكل ـ ، وهم يعايروننا بما تسببوا هم فيه، دون أن يدركوا أننا لم نقتصر على ما علموه إيانا من التعليم المنقوص ، بل استخدمنا أدوات عصرنا وسهولة المصادر لنعيد تعليم أنفسنا ونتخصص أكثر وأكثر فلم يعد مهندس الكمبيوتر فى جيلنا يكتفي بالبكالوريوس أو حتى الدكتوراة، بل ذهب ليحصل على شهادات الخبرة العالمية ويتوافق مع مستويات عصره ولم يعد طالب الحقوق أو الشريعة يكتفي بالماجستير أو الدكتوراة، بل استخدم هذه الشهادات كوسيلة لمعرفة طرق البحث فى كتب السابقين ووسيلة لإبداع الجديد الملائم للواقع ، فلم يجعل شهادته غاية يتوقف عندها بل ولم يكتف جيلنا بالإغراق فى تخصصه فحسب ، بل طبق مقولة العقاد فى تعريف المثقف المتوازن وهو (الذى يعرف كل شيئ عن شيئ ـ أى مجال تخصصه ـ ويعرف شيئ عن كل شيئ ـ وهو مجال ثقافته ـ) وعرفنا من قراءة التاريخ أن المفكرين هم قادة تربية الرأى العام ، فقررنا تربية مفكري جيلنا على طباعنا قبل أن نسمح لهم بأن يربونا على فكرهم، وقد أتاحت تعدد وسائل التفاعل والتواصل أن نحتك بمن يكتبون، ونجبرهم على أن يواصلوا البحث والتعلم لكى يقدموا لنا فى كل مرة شيئا

---

(١٨) بالطبع ليس المقصود بلفظ (الأجيال السابقة) هنا هو عموم الأجيال ذاتها ، بل على العكس فهذه الأجيال هى من علمتنا رغم ضعف الإمكانيات ، ولكن المقصود هنا هو القيادات التى أشرفت على تغييب وتدمير القيم والتعليم فى ظل نظام مبارك ثم جاءوا يعايرون أجيالنا بضعف تعليمهم !!

جديدا، وفى المنتديات الثقافية.. كنا ننتخب الموضوع ونوع الموضوع الذى يؤرقنا، وبعد تحديد التخصص،، يقوم جمهور الحاضرين بالسؤال، ويتكلم المتخصصون حسب كل موضوع النقاش، ثم يتغير الموضوع فيتغير المتكلمون ويأتى المستمعون من المتخصصين فى الموضوع الجديد ليصبحوا هم الأساتذة، ويصبح من تكلم سابقا هو المستمع هذه المرة، وهكذا دواليك، فكلنا يمر عليه الدور ـ حسب تخصصه ـ ليصبح متكلما أو مستمعا ليعود النفع على الجميع ولم يكن المحاضرون والأساتذة من جيلنا فقط، بالعكس فقد فوجئنا ونحن فى شبكة الانترنت والمنتديات الثقافية بانضمام علماء كبار، وأساتذة جامعات سابقين، وفقهاء متخصصون، ومفكرون ـ كلهم كان قد التزم بيته ـ بعد أن فرغت ساحة الإعلام ممن يعرف أقدار العلماء فيبحث عنهم ، وجاء الانترنت وسيلة جديدة لجئوا إليها لنشر علمهم مجانا على الشباب ، وعلى حد قول أحدهم لى ـ وهو اللواء أحمد سعد الدين ـ [١٩] أنه عندما فكر فى دخول عالم المنتديات الثقافية كان يهدف لإنشاء موقع غير تفاعلى ينشر فيه العلم ولا يسمح لأحد بالتواصل معه لأنه لم ير فى الأجيال الجديدة ـ كما كان يظن ـ أى أمل فى حب العلم ومُدارسته، كما كان يظن أنهم مثلما يروج الإعلام ليس لديهم صبر أو فضول تجاه العلوم والتاريخ ففوجئ بعد الاحتكاك بالشباب بآلاف الرسائل تنهال عليه طلبا للمزيد، فدخل إلى الشبكات الثقافية الكبري مثل شبكة العز الثقافية، وشبكة بوابة العرب، ووجد تفاعلا لم يتوقعه أبدا من شباب فى العشرينيات والثلاثينيات تسأل بثقافة واسعة، وبشكل يعطى تصورا عن سابق ثقافتهم فى تلك المجالات، وكان من أكبر ما أثر فيه ـ باعتباره من أبطال أكتوبر ـ أنه رأى هذا الجيل الذى لم يحضر الحرب يكاد يعرف عنها وعن أبطالها كل شيئ، وبالتالى،،خصص الرجل ـ بعد تقاعده ـ أكثر من عشر ساعات يوميا لينشر علمه ويجيب ويدل ويرشد كل من يسأله، وهذا الأمر تكرر كثيرا مع متخصصين كبار مثله بالذات منذ عام ٢٠٠٢ م، وكانت المنتديات هى النشاط الرئيسي على الانترنت لكافة المجالات، فلم تكن وسائل التواصل الاجتماعى قد ظهرت بعد، ولم ينسحب البساط من المنتديات والمدونات إلا مع عام ٢٠١١ م، وفى تلك الفترة احتك كل شاب هاو للقراءة، بشيوخ فى مهنة النقد والفكر لا يعرف لأعلام عنهم شيئا مثل أستاذنا الدكتور البدراوى زهران رحمه الله، أستاذ الأدب العربي فى عــدد من الجامعــات المصرية ، وهو من جيــل شوقي ضيف ومحمود

(١٩) هو اللواء أحمد سعد الدين ـ حفظه الله ـ قائد عسكري سابق ، ومفكر اسلامى من طراز رفيع

شاكر، ولشدة تواضعه كان يستقبلنا فى بيته ويكتب لنا تحقيقات أدبية على أعمالنا ـ وهو الذى كان ينقد لفطاحل الأدب من قبل ـ وكانت سعادته فوق الوصف وهو يشاهد شبابا حديث السن لا يقرأ فقط الأدب الجاهلى والعباسي والأموى بل يستمتع به ويستخرج منه الصور البلاغية ويناقش الأعمال الأدبية عروضيا ولغويا ويستدل بفطاحل النحو والبلاغة فى نقده وأستاذنا الدكتور أحمد أبو رحاب أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإسكندرية ـ رحمه الله ـ كان يشارك معنا كعضو عادى وينشر أعماله وينتقد أعمالنا ـ كما لو كان فى مثل عمرنا ـ وعندما عرفنا بقيمته وقامته، هرعنا إليه نعاتبه ونتمنى منه أن يفرد لنا من وقته ليعلمنا ، وكان الرجل فياضا فى عطائه لا يرد طلبا ، والأمثلة كثيرة ومتعددة، فالتاريخ الضخم والكم الهائل من المناقشات منذ عام ٢٠٠٤ م، يكاد يتفوق على العطاء العلمى لبعض الكليات المتخصصة، ونحمد الله أنه متوفر على النت ومنتشر بشكل يحميه من الضياع .. وهذا الكتاب يضم بعض الحوارات التفاعلية ، هى تسجيل لبعض محتوى تلك المناقشات المستمرة بلا انقطاع، ولعدم التشتت، تعاملت فى الكتاب على أن السائل أو المحاور فى النقاش كان شخصا واحدا، رغم أن المُـناقشين كانوا مجموعة كبيرة ، وبأسئلة مستفيضة، وكانت البداية عبارة عن مناقشة قصيرة تخص تحذيري للمجموعة من القراءة فى الفلسفة الدينية الغربية، وأن مجال الفلسفة الغربية ليس كما يظنونه عنوانا وحيدا للفكر والثقافة فلما اعترض أحدهم على تحذيري قلت له أنا لا أمنعك ، ولكنى أقول خذ حذرك من فلسفة الأديان ـ تحديدا ـ لأنها ضلالات محضة، فكان شرطه للعمل بالتحذير أن يقتنع بالسبب، فقلت له بأن العلماء حذروا من تلك الكتب، فقال بأن الفقهاء لا علاقة لهم بالفكر والفلسفة !!، فعلمت أن الحوار سيطول، وسيحتاج إلى موضوعات أخرى يجب مناقشتها قبل أن نصل إلى تفاصيل القضايا، فعرضت عليه أن نتحاور بطريقة السؤال والإجابة العلمية البحتة، فقال مشاغبا : الإجابة العلمية المحضة يفهمها أهل التخصص، إن كان العلماء الأقدمون ـ كما تقول ـ كانوا أصحاب منطق وحجة فحاورنى بالعقل وحده، فقلت له: لقد أنصفت، ومعك كل الحق، ولكنى لن أحاورك فقط فى قضية التحذير من فلسفة الإلهيات، بل سأحاورك فى الشبهات المنتشرة هذه الأيام والإتهامات المتناثرة حول العلماء والتاريخ والثوابت، وسنجعل المحاورة عقلية فقط دون الدخول فى تفاصيل علوم الشريعة ، ولن أحيلك إلى كتاب علمى متخصص إلا إذا طلبت أنت بنفسك هذا الطلب وسأنوه لك عن المصادر كى تكون أمامك فرصة التنقيب بنفسك إذا أردت ..

فقال فى حماس : اتفقنا ، وسأجمع كل ما يعرض لى وما قرأته لأواجهك بأسئلتى

فقلت له : ما هى طبيعة الشبهات التى ستجمعها؟

قال: الشبهات التى نسمعها هذه الأيام حول السنة النبوية والتجديد والتاريخ ولم نكن نسمعها من قبل بهذه الضراوة..

فقلت له: ولماذا تغفل عن الشبهات والإساءات التى على الجانب الآخر، فالطعن فى السنة والسيرة بل وفى القرآن هو من العلمانيين وأضرابهم، لكن لا تنسي أنه هناك جانبا آخر نعانى منه أشد مما نعانى من هؤلاء وهو الجانب الخارج عن فقه السنة ، أو هم الفئات التى تستند فى فهمها للدين إلى فقه الخوارج أو الجمود التام.

فقال متسائلا: ولكن هؤلاء هم من يصارعهم العلمانيون ويردون عليهم.

قلت موضحا: بالعكس ، العلمانيون يصارعون الدين والتاريخ كله وعلى رأسهم أهل السنة، أما أهل السنة هم الذين يردون ويتصدون لكلا الجانبين معا منذ فجر التاريخ الإسلامى، جانب الإفراط وجانب التفريط، والسنة الحقيقية هى بين هؤلاء وأولئك، وهى التى تمثل من هم مثلي ومثلك ومثل سائر عوام المسلمين، فنحن لسنا علمانيين ندعو لهجر كل ما يخص الشريعة ، ولسنا أيضا من المبتدعة ندعو لإظهار الإسلام على أنه دين الإرهاب ، بينما الله عز وجل سماه وسمى رسوله عليه السلام رحمة للعالمين.

فقال: إذا سنبدأ النقاش بأن توضح لى هذه الفكرة، لأنها لو صحّت أعتقد أنها ستحل الكثير من ألغاز الحيرة التى تُشقينا.

فقلت محذرا : ولكن لى شرط واحد ألا يكون الأمر أشبه بالتحدى والتناطح لأن هذا سيمنعك من قبول الحق ولو كنت مقتنعا به، فقال: بل على العكس أنا سعيد بالنقاش المنتظر طالما أنه سيرد بطريقة الإقناع المجرد على أمور تحيرنى ولكنى فى نفس الوقت أرفضها وأرفض الذى يُقال فى الفضائيات حول ثوابت الدين..

وهكذا بدأ الحوار..

فكان السؤال الأول: ما معنى الحوار الفكرى والعقلي فقط والذى تدعونى إليه ، هل تعنى أنه خال من المعلومات؟!

قال الكاتب: كلا بالطبع، فالحوار العلمى هو حوار متخصص يدور بين العلماء وبعضهم البعض، أو بينهم وبين طلبة العلم ويغرق فى تفاصيل ومصطلحات واستدلالات المتخصصين والإقناع فيه للدليل العلمى، أما الحوار الفكرى، فرغم انه يحتوى على

المعلومات والمصادر العلمية كأساس للتبادل الحوارى ، إلا أن الإقناع فيه للحجة والمنطق العقلي والشواهد ، فمثلا العالم أو طالب العلم يكفيه دليلا أن نحتج عليه بنظرية علمية سابقة أثبت العلماء نجاحها ونحتج عليه بأقوال المتخصصين فيقبلها ، ولكن المثقف أو المحاور لا يقتنع إلا إذا رأى بعينه أو بعقله صحة ثبات هذه النظرية ، لأنه ليس عالما بالمجال نفسه ولا يستطيع تقدير قيمة علمائه أما أن نقول بأن الحوار الفكرى يخلو من المعلومات أو الشواهد فهذا هو التعريف المثالى للسفسطة والجدل الفارغ .

تساءل الشاب:

لا أريد أن أشعب موضوع الحوار ، ولكن هناك مسار تاريخى يلزم أن نتعرف عليه ولو بشكل مختصر، فعندما تساءلنا جميعا منذ فترة من هو التيار السياسي أو الدينى الذى يمثل الاتجاه الصحيح انتهينا إلى أن كافة التيارات تحمل الحق والباطل بشكل نسبي، فمنها تيارات قائمة على أساس باطل أصلا ، ومنها تيارات تتفاوت فيها نسبة الحق، ولكن لا يوجد تيار يعبر عن عامة المسلمين ـ وهم الأغلبية ـ لأن كل التيارات السياسية والدينية تعبر عن مجموعة بعينها مهما ادعت أنها تعبر عن جماهير المسلمين، فمتى بدأت أصلا مسألة التفرق إلى اتجاهات وتيارات مختلفة ؟!

قال الكاتب: القصة طويلة ومتصلة ، ولكنها ضرورية ولهذا سأرويها بشكل مجمل وأدع لك المصادر لتتعرف على التفاصيل، وقبل التعرف على بداية التفرق ، يلزم لنا معرفة الأسباب ، فالأسباب المختصرة التى تسببت فى كوارث التشرذم والتى يمكن إجمالها فى ثلاث سطور فقط لا غير، هذه الأسباب هلك المتفرقون حولها وتجاهلوا وصايا القرآن والسنة التى أبرزت وتنبأت بما سيحدث ، ولم ينج إلا من قرأ وتدبر وفهم ثم طبـّق فالأسباب على أنواع ثلاثة ، سبب عقائدى وسبب تشريعى وسبب سياسي، أما السبب العقائدى فهو أن أول فتق فى الإسلام كان بسبب البعد عن السُـنة النبوية[٢٠] ، واللجوء إلى الإبتداع فى العقيدة ، وهو أمر تواتر فيه التحذير بأشد أوامر النهى بل إن النبي عليه الصلاة والسلام جعلها آخر وصاياه ، حيث أوضح للمسلمين أنه تركهم على المحجة البيضاء وكانت خطبته عليه الصلاة والسلام دوما ما يتقدمها التحذير من البدع، والسبب التشريعى، والسياسي يتمثلان معا فى رهن الشرع والحكم بالأشخاص وهذه كانت ـ ولا زالت ـ هى قاصمة الظهر، فبمجرد أن انتشرت الفتن وظهرت فرق تقول

---

(٢٠) قيل للإمام أحمد بن حنبل (أماتك الله على الإسلام) فقال (والسنة) وهذا يدلل على خطورة ترك السنة واللجوء للبدع.

بأقوال أئمة بعينهم لا تأخذ من سواهم، وفرق أخرى ترى الحكم فى طائفة معينة لا يتجاوز لغيرها حتى تمزقت وحدة المسلمين، فأصبح كل تيار لا يري الصواب المطلق إلا فى الإمام الذى يتبعه، ويراه حجة على الدين وليس على العكس، وهذا هو ما قال فيه الإمام الشاطبي بأن هلاك الأمة كان بسبب ترك السنة وإتباع أقوال الرجال، والمقصود هنا بالطبع ليس الأقوال العلمية أو الفقهية بل المقصود هو أن يكون العالم أو الإمام هو مصدر الحق وعنوان المتبعين فلو دققت النظر ستجد أن مسميات الجماعات كلها ترجع في نسبتها إلى أشخاص ينتسبون إليهم وليس إلى منهج السنة، وهذا يضرب أول ثوابت الإسلام فى أن العصمة والحجة محصورة فى النبي عليه الصلاة والسلام وحده ، وهذا ما تواتر الأئمة فى التوكيد عليه كأئمة المذاهب ومن جاء بعدهم، والغريب أن كل الناس تردد حكمة (نعرف الحق ثم نعرف رجاله) رغم أن معظم القائلين بهذا يخالفون هذا المبدأ عند أول اختبار!

ومع تواتر الزمان وتشعب الفرق انتشرت الأحزاب والجماعات وكلها تبنى وتدعو للوحدة حول أفكار مؤسسها وضاع الأساس الحقيقي الذى اجتمع عليه المسلمون جميعا والذى يدين به عوام الناس الآن فأساس الاجتماع فى جماعة واحدة هى (جماعة المسلمين) والتى ورثها ـ بعد التفرق ـ مفهوم أو مصطلح (أهل السنة والجماعة) ، هذا الأساس يقوم على الاتفاق التام بين المسلمين فى العقيدة والأصول، على أن يقتصر أى اختلاف مقبول أو سائغ فى الفروع..

وهذه حقيقة راسخة ملزمة لكافة المسلمين، وتعلو على كل ما عداها من مقاصد الشريعة وكانت أشد وصايا القرآن والسنة، وليس المقصود بعدم الاختلاف هنا عدم وجود وجهات النظر أو الاتجاهات المختلفة، بل المقصود أن ألا يكون هناك خلاف فى الثوابت التى هى بطبيعتها لا تحتمل التغيير والاختلاف من عصر إلى عصر أو من زمن إلى زمن، لأنها أمور عقائدية نزلت بالوحى، وهى أساس الإيمان والإسلام فلا يوجد فيها مجال للاجتهاد أو الزيادة أو النقصان، وهى بطبيعتها أمور محدودة ومحددة مثل أركان الإيمان الثمانية وأركان الإسلام الخمسة ومنهج وطريقة تأدية العبادات، والالتزام بالقرآن والسنة الصحيحة المروية عن طريق الصحابة كمصدرين رئيسيين للتشريع، أما باقي الفروع ، وأمور الحياة فهى رؤية عامة أتاح الإسلام فيها الاجتهاد للعلماء فى ظل الضوابط العامة التى تحكم حياة المسلم، وبالتالى .. فإن أى مسلم ينكر أحد هذه الثوابت

وضرورة العمل بها أو يزيد عليها أركانا أخرى يعتبرها من أصول الدين ، فهو فى ميزان الشرع مبتدع أى صاحب فرقة، أما الذى يُكوّن منهجا فقهيا يتفق فى الأصول مع تلك المصادر ويختلف فى الفروع، فهو هنا مذهب فقهى تحت راية أهل السنة، والمعيار الذى نميز به الفرقة عن المذهب هو معيار موطن الاجتهاد، فإن كان صاحب المذهب يجتهد فى حدود الفروع فقط فهو ضمن جماعة المسلمين، أما إن جاء بأقوال مختلفة فى العقائد تختلف عن ثوابت القرآن والسنة فهو صاحب فرقة، وقد تفرعت الفرق المنشقة إلى أكثر من سبعين فرقة رئيسية تحتها مئات الفرق الفرعية كل منها يكفر الآخر، والفوارق الرئيسية بيننا وبينهم، هى أنهم يجتمعون جميعا على تكفير أهل السنة، وجميعهم ينكرون السنة النبوية المروية عن طريق الصحابة، إما إنكار كلى وإما إنكار جزئي، كما أن كل فرقة منهم لها أركان وأصول تختلف عن أركان الإيمان الثمانية وأركان الإسلام الخمسة ، وكل فرقة لابد أن تتخذ لنفسها إسما وانتسابا مع مسمى (المسلم) وهو المسمى الوحيد أو الانتساب الوحيد الذى يجيزه الشرع إلى جوار الانتساب للسنة النبوية بدون انتساب آخر إلى أى شخص أو مسمى.

قال الشاب: معنى هذا أن المسلمين تشرذموا ألف قطعة كما حدث مع الأديان السابقة !

قال الكاتب: كل ، ليس هذا صحيحا بالمعنى الذى خطر ببالك ، أى نعم حدثت الفرقة والاختلاف بين المسلمين، ولكن هناك فوارق ضخمة بين أمة الإسلام والأمم السابقة، فالنبي عليه السلام أخبر أن أمة اليهود تفرقت فرقا وواحدة منها فى الجنة والباقي فى النار ، وهكذا أمة النصاري، وكذلك انقسمت أمة الإسلام، لكن الفارق الرئيسي بيننا وبين السابقين ، أن الفرقة الناجية فى الإسلام وهى أمة أهل السنة تمثل الغالبية العظمى من المسلمين فى كل عصر ، بينما كافة الفرق المنشقة عنها مجتمعة لا تكاد تصل إلى نسبة ٢٠ ٪ من مجموع المسلمين ، وهذا ما لا يوجد فى الأمم السابقة حيث تشرذمت أممهم لعدة فرق متساوية تقريبا ، واقتصر وجود الفرق الناجية على جيل الأنبياء وحدهم أو ما يتبعه بقليل ولحق بهم بعد ذلك من ورث بشارة محمد عليه السلام واتبعه.

والفارق الثانى.. أن أول الفرق ظهورا فى الإسلام ظهر بعد نحو أربعين عاما تقريبا من وفاة النبي عليه السلام، وظلت الأمة السنية متماسكة وتمثل الأكثرية حتى اليوم وكتابها وسنة نبيها عليه السلام محفوظون، بينما فى الأمم السابقة انشق اليهود إلى فرقتين فى عهد وحياة موسي عليه السلام نفسه ورفض بعضهم تنفيذ أوامره بفتح

القدس ، فعاقبهم الله تعالى بالتيه أربعين سنة ، ثم انشقوا إلى فرق مختلفة حتى اليوم وتم تزوير التوراة وتحريفها والنصاري انشقوا بعد رفع عيسي عليه السلام بفترة وجيزة وتم تحريف الإنجيل إلى عدة أناجيل وانقسم النصاري إلى فرق شبه متساوية حتى اليوم ولكل منها عقائد مختلفة وكان أول انشقاق فى تاريخ المسلمين بفرقة ، هو انشقاق الخوارج الذين خرجوا على الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم تبعتهم فرقة الشيعة، ثم الجهمية والمعتزلة ، ثم تتابعت الفرق وكل منها يفسر القرآن بالهوى وحسب الأمزجة الشخصية [٢١]، ولهذا رفضوا جميعا العمل بالسنة النبوية المروية عن طريق الصحابة، وحاربوها وحاربوا أهلها لأن السنة النبوية هى التى وقفت عائقا أمام أهوائهم وقراءتهم الخاطئة لتفسير القرآن ، فاختار المعتزلة العمل بالعقل المجرد كمصدر رئيسي للتشريع يحاكم النصوص ولا تحكمه ، واختارت باقي الفرق سُنة أخرى مروية عن طريق كبار هذه الفرق ومؤسسيها ورفضوا ما سواها ، وخرجت معظم هذه الفرق خروجا مسلحا على دولة الخلافة الأموية والعباسية ، إلا أنهم لم يستطيعوا هدم الخلافة أو تكوين دولة لهم إلا بعد انهيار الخلافة العباسية وتضعضع الحكم وحتى بعد انهيار الخلافة التى جمعت المسلمين تحت رايتها ظل أهل السنة والجماعة هم الغالبية من عوام المسلمين تحت حكم أمراء الدول ، ثم الخلافة العثمانية، ثم جاء عهد الاحتلال الأجنبي لتختفي الفرق القديمة ويبدأ الاحتلال فى إعادة استغلال أفكار هذه الفرق على يد أفكار متناحرة ومذاهب متضادة تطبيقا لسياسته الشهيرة (فرّق تسد).

قال الشاب: كيف أسس الاحتلال هذه الفرق الجديدة ؟!

أجاب الكاتب: الاحتلال ابتكر وأسس شيئا جديدا واحدا فقط وهو حملات التنصير الغربي المدعومة دعما هائلا منذ بدايتها حيث أعاد الإحتلال تاريخ الغرب القديم فى التنصير بالقوة كما فعلوا فى أوربا والأندلس، ولكنهم فى العصر الحديث أضافوا غزوات التبشير النصرانى إلى تلك الجهود التى عمدت إلى تنصير المسلمين فى كل بقاع العالم بأساليب الإغراء والدعم المادى وإثارة الشبهات أما فيما يخص استغلال الإحتلال للفرق فى تكريس التنازع بين المسلمين، فهو لم يؤسس شيئا ولم يتعب نفسه، بل كان يستثمر أفكار الطوائف المختلفة فيناصرها جميعا ويدعمها فتتصارع فيما بينها وتنسي خيار المقاومة والاستقلال ، وبريطانيا كانت أول من طبق تلك السياسة فى الهند

---

(٢١) مذاهب الإسلاميين ـ عامر النجار ـ الهيئة العامة للكتاب.

والشرق الأقصي ، ثم بعد انهيار الخلافة العثمانية فى بداية القرن العشرين طبقتها فى الشرق الأوسط بأسهل الطرق، لأن وجود مظلة الخلافة كان مانعا وحاجزا من خروج الآراء والتحزبات المختلفة إلى ميدان صراع وبالتالى كانت الخلافة منذ عهد الراشدين وحتى العثمانيين، تترك الفرق المختلفة ومعتقداتها ، ولا تضطهدها إلا إذا أثارت الشغب أو حملت السلاح، وبالتالى ظلت تلك الفرق منغلقة على نفسها وزعمائها، وكانت الغلبة والرياسة لعموم الناس وزعماؤهم من علماء السنة على مختلف المذاهب دون أى مسمى آخر أو آراء احتكارية أخرى تُـفرق جموع المسلمين..

قال الشاب: وهل أخرج الاحتلال تلك الفرق وساعدها..

أجاب الكاتب: الاحتلال البريطانى لم يستثمر الخلافات العقائدية فحسب، بل استثمر كل خلاف طائفي، وكانت الطريقة بسيطة جدا، فالسلطة الجامعة لأى دولة هى التى تحمى الكل تحت مظلتها ، فلما ذهبت تلك السلطة سمحت لكل صاحب بدعة وكل صاحب مذهب بالخروج والدعوة لمذهبه ، فمزقت الهند بإثارة الصراع بين الهندوس والمسلمين وبقية الطوائف ودفعت ـ فى نفس الوقت ـ ببعثات التبشير النصرانية لاستهداف المسلمين تحديدا خوفا من عنصرين تميز بهما المسلمون فى الهند ، وهما قوة العقيدة والثانى الإعتزاز بالأرض وردع العدو الكافر ، فكان لابد من شغل مسلمى الهند بصراعات جانبيه تمنع تكاتفهم ثم مزقت باكستان وجوارها بين الشيعة والسنة والصوفية ، ودعمت الفرق الجديدة المُختَرعة مثل القاديانية والبهائية والبريلوية فانشغلت الجماهير[٢٢] ـ التى لا يوجد لها تيار يعبر عنها رغم أنها الأغلبية ـ انشغلت بهذا الصراع عن أى دعوة أو تفكير فى مقاومة الاحتلال بل الأنكى من ذلك أن الفرق المتناحرة كان كل منها يستنصر بالاحتلال البريطانى ليدعمه ضد خصمه ، وكان البريطانيون يساعدون الجميع ويدعمون الجميع ، ثم يجلسون فى استمتاع ليشاهدوا هذه المسرحية!

قال الشاب: وماذا فعلوا فى الشرق الأوسط ومصر .. ؟!

قال الكاتب: أيضا استغلوا نفس الأمر، ولكن بمعالجة مختلفة، ولكن خطتهم عندنا كانت قمة فى الذكاء والخبث والمكر، وأرجو أن تتابع بتركيز تسلسل الأحداث لأن ما نحن فيه الآن في مصر والعالم العربي هو تكرار لنفس اللعبة بحذافيرها وبنفس حلقاتها لموروثة

---

(٢٢) لمراجعة تفاصيل تلك الفرق برجاء الرجوع لاصدارات الشيخ إحسان الهى ظهير فى كتبه التى حملت نفس عناوين هذه الفرق البهائية والبريلوية والصوفية ، وسلسلة الشيعة.

مع إختلاف شخص اللاعب حيث حل الأمريكيون محل البريطانيين[٢٣] ومن العجيب أن البريطانيين أظهروا ما فعلوه بعد ذلك ببلادنا فى كتبهم ووثائقهم التى خرجت بمقتضي قانون الوثائق البريطانى ، وكذلك الأمريكيون بمقتضي القانون الأمريكى، ولهذا فإن ما أخبرك به ليست تخمينات أو استدلالات بل هى معلومات صرفة خرجت بها مراجع كثيرة .. عربية وأجنبية فهم يعلمون تماما أن الجامع المشترك بين العرب جميعا هو الدين والعروبة واللغة ، فهذه العوامل مجتمعة ـ وأكرر مجتمعة ــ تمثل القاسم المشترك الأعظم بين العرب وبالتالى أسهل طريقة لتفريق العرب هى ضرب الوحدة بين العوامل الثلاث المشتركة، فإذا ظهرت تيارات مختلفة كل منها يأخذ عاملا واحدا من هذه العوامل، وينادى به أساسا للنظام السياسي فى البلاد العربية وأساس للوحدة بينها، ويترك العاملين الباقيين ، عندها سيظهر تناقض هائل بين العوامل الثلاث المتكاملة أصلا والتى من غير المنطقي أن يحدث بها تنافس وبالتالى تحدث الفُرقة التى لا جماع لها لأنه لن يخرج أى تيار يعبر عن الجماهير التى تتمسك بالعوامل الثلاث جميعا.. وكان المُعبّر عن الجماهير فى مصر والعالم العربي هو (الأزهر) والذى كان القائد السياسي لمصر ضد الاحتلال وضد تسلط الحكام المماليك من قبلهم، حتى نجح محمد على فى إخراج الأزهر من المشهد كما فعل مع المماليك[٢٤] وإن ظلت قيادة الأزهر الروحية موجودة بقوتها حتى ظهور التيار الليبرالى وجاء البريطانيون وبعد فشلهم الذريع فى إشعال فتنة طائفية قاصمة بين المسلمين والأقباط بسبب التاريخ النضالى المشترك بين الأقباط والمسلمين[٢٥]، وعدم قابلية المجتمع المصري لانتشار تلك الفتنة ، لجئوا إلى الخطة الأصوب وهى محاولة خلق تيارات تتنازع بين الدين والوطنية واللغة والعروبة، وكل منها يمسك بطرف واحد ضد الآخرين.

قال الشـاب:

وكيف تمكنوا من فك الترابط بين عوامل الانتماء المتحدة إلى الدين والعروبة واللغة ؟!

قال الكاتب: عن طريق دعم كل تيار حسب نوعه الذى يتحدد بميله الأكبر ناحية أى عامل من العوامل الثلاثة ، فمثلا ظهر تيار الإخوان المسلمين ينادى بإعادة الخلافة التى

(٢٣) بعض خيوط اللعبة مؤيدا بالوثائق ظهر فى كتاب (التاريخ السري لتآمر بريطانيا مع الأصوليين) ـ مارك كورتيز ـ المركز القومى للترجمة والنشر وكذلك كتاب (لعبة الشيطان) ـ روبرت دريفوس.

(٢٤) تاريخ الحركة القومية (جزءان) ـ عبد الرحمن الرافعى ـ مكتبة دار المعارف.

(٢٥) فشلت كافة الجهود الغربية للإيقاع والفتنة بين عنصري الأمة فى مصر رغم أن هذه الوسيلة نجحت فى إشعال حروب طائفية مدمرة فى عدد كبير من دول العالم.

سقطت ، وبالتالى فهم تيار أقرب للدين فركزوا عليه ودعموه فى مواجهة التيار الليبرالى الذى اشتد عوده فى مصر عقب دستور ١٩٢٣ م، واتخذ الطابع السياسي الغربي الذى يميل للعلمانية ولا يري أى دور للدين فى السياسة بل يري علماء الدين له وظيفة وعظية وفقط ، وهذا بالطبع اختزال لدور علوم الشريعة فى الخطابة وحسب، وبالتالى كان من الطبيعى أن يتصادم هذا التيار مع التيار الإسلامى ومع التعصب انحاز كل تيار إلى المرجعية التى اختارها أكثر وأكثر ، فبالغ التيار الإسلامى فى رفض أى مظهر غربي حتى لو تم تمصيره وكان ضروريا لمقتضي العصر بل كانوا هم أول من تطرّفوا وقالوا بأن القومية والوطنية ضد الدين فزرعوا أول بذرة لهذه الفكرة الخبيثة التى تخلق تناقضا بين الدين والوطنية وهذا هو الذى يفسر لك لماذا سمعنا من التيار الإسلامى ـ فى تجربة حكمه ـ أقوال عجيبة تحتقر الانتماء الوطنى وتعتبره من خارج الدين ، مع أن مرجعية أهل السنة تجعل أرض المسلمين وبلادهم من أساسيات التدين ولا تنبذ إلا التعصب سواء فى للدين أو للوطن وفى المقابل رفض الليبراليون والعلمانيون أى وجود لعلماء الدين ـ حتى الأزهر ـ فى الحقل السياسي وظهرت فى تلك الفترة أشرس معركة ضد ثوابت الإسلام بدأت بالشيخ على عبد الرازق ، وطه حسين، ولويس عوض، وغيرهم من دعاة التغريب لمحو أى هوية حضارية إسلامية وعربية فى مصر.. وجاهدوا لفك العلاقة بين الشريعة الإسلامية والقانون وسكت الأزهر عن منعه من السياسة ـ بعد أن كان هو قائد الجماهير فى مجال السياسة ومواجهة الاحتلال والحكام ـ لكنه لم يسكت على اتهامات المستشرقين التى أعاد العلمانيون والمتغربون نشرها والتى كانت تطعن فى وضوح حتى فى قدسية القرآن وأبطلوا هذا التغريب وحافظوا على عقائد الناس ، لكنهم اكتفوا بمواجهة تلك الأفكار ولم يتدخلوا بشيئ فى المسائل السياسية إلا إصرارهم على عدم مخالفة الشريعة فى قوانين الأحوال الشخصية والقانون المدنى أو سلوك المجتمع وعدم الاعتراف بالفوضي الفكرية التى دعا لها دعاة التغريب تحت عنوان (حرية الفكر) وتصادموا طويلا مع هذا الاتجاه وأما فى المجال السياسي أنشأ الإخوان وغيرهم من الحركات الإسلامية تكتلات وتيارات تعادى الليبرالية والعلمانية واشتعلت المعركة بين الجانبين ، وكان الاحتلال البريطانى يدعمهما معا!

وبالطبع لم يكن أحد التيارين يُعبر عن مجموع الجماهير ، فالجمهور ينتمى للإسلام والوطنية المصرية واللغة العربية فى قالب واحد ، ولهذا كان الجمهور ـ غير المستقطب

ـ بعيدا عن هذا الصراع حول الهوية ، وحتى المسيحيين فى مصر فى ذلك الوقت كانوا ـ كما هم ـ مندمجين حضاريا فى قالب واحد مع المسلمين بلا تفرقة من قبل ظهور التيار الليبرالى بمئات السنوات ، وهذا ينفي ادعاء التيار الليبرالى أنه جمع بين عنصري الأمة فهذا كذب محض فالمسلمون والأقباط مجتمعون فى وطن واحد منذ الفتح الإسلامى وحتى العصر الحديث ولم يفرقهم حتى زعماء الحملات الصليبية الذين حاولوا استغلال فارق الدين ففشلوا ولكن فى المجال السياسي المحض ـ بعيدا عن معركة الهوية ـ كان الجمهور يقف مع حزب الوفد وزعمائه سعد زغلول ومصطفي النحاس فى مواجهة الانجليز والقصر والأحزاب التابعة لهم، ولو أن حزب الوفد أعطى الاهتمام للانتماء الحضاري الإسلامى بدلا من الإنتماء الثقافي للغرب، لما تمكّن الإخوان من كسب أى أنصار لهم فى الشارع المصري ، ولكن لأن شعاراتها استقطبت الحس الدينى فى النفوس تمكنت من تجنيد الكثير من الشباب بل وبعض رجال الأزهر ، مع أن اتجاههم السياسي الذى اتخذوه فى بدايات دعوتهم كان كفيلا بسحق أى شعبية لهم بين الجمهور لأنهم ناصروا الملك فاروق ضد الوفد ، وناصروا أيضا رئيس الوزراء إسماعيل صدقي المعروف بجلاد الشعب! واستخدموا الدين فى الترويج لسياسة الملك ورئيس الوزراء وبطريقة فجة، فعندما خرج الشعب يؤيد النحاس فى مواجهة القصر رافعين شعار (الشعب مع النحاس) رد الإخوان برفعهم شعار (الله مع الملك)، وعندما ثارت الجماهير ضد سياسة إسماعيل صدقي رفع الإخوان شعارات من القرآن لمناصرته ! ، ورغم هذا النفاق الواضح إلا أنهم وجدوا أنصارا بسبب هيبة الدين فى النفوس.

تساءل الشاب: هذين التيارين أحدهما يؤيد الدين والآخر يرفضه ويؤيد القومية المصرية، فأين تيار العروبة ؟!

قال الكاتب: ظهرت حركة القومية العربية كرد فعل على إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨م ، بعد أن تجمعت أربعة جيوش عربية لتلك الحرب، وقصة الحرب والمؤامرة الغربية فيها منتشرة ومشهورة،[٢٦] لكن القومية العربية كحركة سياسية اكتسبت شعبية ساحقة فى

(٢٦) حرب ١٩٨٤ م ، هذى من مساخر التاريخ العربي فى الحقيقة وشر البلية ما يضحك ، فالبلاد العربية التى أرسلت جيوشها بعتادها مهيض الجناح كانت كلها تقريبا محتلة وتحت سيطرة الانجليز الذين زرعوا اليهود فى فلسطين، ومع هذا سمح الانجليز بتحرك الجيوش العربية إلى فلسطين وكانت القيادة معقودة فى ذلك الوقت لعاهل الأردن الملك عبد الله وبالتبعية كانت القيادة الميدانية لقائد الجيش الأردنى الذى هو فى الأصل جنرال بريطانى يدعى جلوب باشا !! واكتملت المساخر بانسحاب الجيش الأردنى فجأة أثناء المعارك مما أوقع الجيش المصري فى حصار الفالوجا الشهير وانتهت الحرب باستيلاء اليهود على أضعاف المساحة المقررة لهم فى قرار التقسيم الذى رفضه العرب آنذاك.

ذلك الوقت ، تبلورت على يد جمال عبد الناصر ـ لا سيما بعد حرب ٥٦ ـ ورغم أن القومية العربية كحركة سياسية لا تتخذ الدين عاملا كمعيار مشترك للعرب بل تتخذ العروبة وبالتالى فهى تصلح لأن تكون عاملا للفرقة لا للتجميع، إلا أن الصياغة والإخلاص الذى قاد بهما عبد الناصر تجربته أفشل به مخططات الغرب لفترة طويلة لأنه جعل من الاستقلال عن الغرب رسالته الرئيسية فى الحياة، ونجح فى تجنيد بعض الدول العربية التى تابعته وكذلك دول آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية لتكوين جبهة موحدة أرهقت الغرب كله، ورغم استناد تجربة عبد الناصر للاتحاد السوفياتى كخصم معضد ضد الغرب إلا أنه حافظ على استقلاله تماما فى مواجهته فمنع استخدام أراضيه كقواعد عسكرية للسوفيات رغم انتشار القواعد الأمريكية فى المنطقة، والأهم من هذا..أنه ظهر كممثل جديد للكتلة الصلبة من الجماهير التى عانت من صراعات النخبة بين الدين والعلمانية والشيوعية والقومية، فرفض استغلال الدين كأيديولوجيا، وبعد نجاحه فى الصراع بينه وبين الإخوان، حل الجماعة مرة أخرى ولم يكتف باستخدام القوة والاعتقال معهم وحدهم ، بل امتد الاعتقال والحكم إلى من يمثلون الليبرالية والرأسمالية وأنصار التغريب بل حتى كل معارض سياسي له ، وبالنسبة لمصالح وثروات الكبار فى ذلك الوقت صادر هذا كله لصالح الدولة التى أعادت تقسيم الثروة من جديد، ثم كانت المفاجأة الغريبة فى أنه عامل الأحزاب الشيوعية فى مصر بقوة أكثر من الجميع رغم أنه كان حليفا للسوفيات، فأنشأ قسما خاصا بمكافحة الشيوعية فى المباحث العامة وتعقبهم كما تعقب غيرهم ، وبهذا لم يعد هناك على الساحة خلاف أيديولوجى من أساسه ، خاصة أنه فى سنوات ما قبل الثورة كاد الصراع الأيديولوجى ينقلب لحرب أهلية بعد أن استخدمت التيارات المختلفة القوة والسلاح وفى نفس الوقت، أيقن مدى قوة ونفوذ الأزهر كمؤسسة عالمية، ومن أغرب الغرائب حقيقة، أنه أدرك العلة التى تعانيها المجتمعات الإسلامية فقام بتأسيس (مجمع البحوث الإسلامية) ونص فى قرار تأسيسه على ما نعتبره اليوم حلما بعيد المنال وأكتفي هنا بنص قرار قانون التأسيس:

وجاء في قانون تأسيسه نصاً عام ١٩٦١ م:

المجمع هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية، وتقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث، وتعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي، وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم

بها لكل مستوى وفي كل بيئة، وبيان الرأي فيما يَجِدُّ من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة"!!)

ولو لم يؤسس عبد الناصر للأزهر سوى هذا المجمع بهذا الهدف .. لكفاه إنجازا، ولو ظل مجمع البحوث الإسلامية بنفس نظامه ونفس نفوذه حتى اليوم لحقق هدف الوحدة بأيسر السبل كما لم يكتف عبد الناصر بذلك، بل أصدر قرارا باعتبار مادة (التربية الدينية) مادة إجبارية فى التعليم العام بعد أن كانت اختيارية، ثم عدّل القوانين المدنية بإلغاء إباحة الدعارة المقننة من العهد الملكى، فضلا على إلغاء إباحة القمار وصدر قراره بغلق كافة المحافل والنوادى والمطبوعات الماسونية[٢٧]، ثم أقام لأول مرة المسابقات العالمية فى حفظ القرآن الكريم وكانت يعقدها سنويا ويُسلم فيها ـ بصفته رئيس الجمهورية ـ الجوائز للطلبة ثم أنشأ إذاعة القرآن الكريم، والتى جعلت لعلماء الدين ومشاهير قراء القرآن ذراعا إعلامية لا يُستهان بها، وفى عهده تمت طباعة الصحف الشريف مترجما بعدة لغات وتم توزيعه على أنحاء العالم بالذات فى آسيا وإفريقيا، وفى عهده أيضا تم جمع القرآن الكريم على أسطوانات مسموعة ترتيلا وتجويدا، ثم أضاف انجازا آخر فى تأسيس المعاهد الأزهرية بكثافة والتى سمحت للطالبات بالدخول إلى الأزهر لأول مرة، بخلاف الإنتاج السينمائي التاريخى، ومعظم الأفلام الدينية المشهورة التى يتم بثها فى المناسبات الدينية حتى اليوم هى من إنتاج فترة الستينات، بخلاف التوسع فى إنشاء المساجد التى بلغت فى عهده ٢١ ألف مسجد..

ثم أسس أيضا مدينة البعوث الإسلامية التى فتحت أبوابها لاستقبال الطلاب الأفارقة ومن سائر أنحاء العالم ليدرسوا فى الأزهر، كما كثّف إرسال البعثات من الدعاة إلى عمق إفريقيا لمقاومة موجات التنصير الأوربية ونجح فى دحرها، خاصة وأنه تنبه لأسلوب البعثات التبشيرية حيث كانت أوربا لا ترسل القساوسة ورجال الدين المحترفين فقط، بل كانت ترسل القساوسة ممن يمتهنون الطب والهندسة ونحوها، ليستقطبوا أهل تلك البلاد بالخدمات المادية والدعوة، فأصدر عبد الناصر تعديلا لقانون الأزهر ليضم الجامع الأزهر إلى جواره جامعة فيها مختلف تخصصات العلوم الكسبية يتم تدريسها إلى جوار علوم الشريعة فيتخرجون فى الأزهر علماء ودعاة فى نفس الوقت، ومن الغريب أن معظم شيوخ الأزهر رفضوا هذه التعديلات رغم أن الكليات المتخصصة فى الشريعة بقيت كما هى، إلا أنهم عادوا بعد ذلك بسنوات طويلة يعترفون بصحة قرار عبد الناصر

(٢٧) من سخرية القدر أن عبد الناصر ألغى هذا البغاء وعندما جاء الإخوان للحكم قاموا بمد تراخيص الخمور والملاهى لثلاث سنوات بدلا من سنتين فى عهد مبارك بالإضافة إلى زيادة الضرائب عليهما.

بعد أن وجدوا فى إفريقيا أجيالا كاملة من المسلمين تحفظ لمصر هذا الصنيع ولا تنساه ، وكانت هذه الأجيال هى ثمرة الدفعات التى تخرجت فى جامعة الأزهر دعاة وعلماء فى مختلف التخصصات، وقد نجم عن هذه العهود أن ارتفعت نسبة الدخول للإسلام فى إفريقيا وآسيا إلى نسب غير مسبوقة أوردها تقرير مجلس الكنائس العالمى بنسبة ٧ من كل ١٠ وصلتهم الدعوة هذا بخلاف إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى وهى الجامعة الإسلامية التى كانت لها أدوار إيجابية أيضا فى تلك الفترة،[٢٨] أما العيوب الخطيرة فيما انتهجه عبد الناصر فقد تمثلت فى أن قانون الأزهر الجديد سحب ـ وإلى اليوم ـ الإستقلال الأزهرى الذى كان مبنيا على أوقاف الأزهر والتى كانت تكفل الإستقلال المادى والإدارى عن الحكومة، ولهذا أصبح الأزهر لأول مرة منذ نشأته تابعا للحكومة فى الإدارة والأوقاف، وبمعنى أصح لم يسمح عبد الناصر فى نظامه الجديد بوجود أى مؤسسة مستقلة يُمكنها أن تعطل معاركه أو تمثل نقطة ضعف فى المواجهة مع خصومه

ولهذا السبب بالذات وبسبب اعتقاله للإخوان عقب مؤامرة تنظيم سيد قطب عام 65 تم تصوير عبد الناصر بأنه يعادى الإسلام ، وهذا ما لا يمكن قبوله لأن الأهداف هنا سياسية محضة لا علاقة لها بالدين وتجربة الإخوان خير دليل على استخدامهم الدين كمنطقة نفوذ للسلطة بغض النظر عن المبادئ ، والنقد الموضوعى لتجربة عبد الناصر يلزم له الحكم على أفعاله مع مراعاة الأجواء التى كانت دائرة فى عصره فلا يوجد حاكم يحمل الخير المطلق ـ بعد الراشدين ـ كما لا يوجد حاكم يحمل الشر المطلق إلا الندرة عبر التاريخ، والحكم الموضوعى للأسف يغيب تماما ـ بالذات فى العصر الحديث ـ بسبب الإستقطاب الأيديولوجى فخلاصة تجربة عبد الناصر مع الأزهر أنه دعم جانبه الدعوى والدينى ، ولكنه قضي على دوره السياسي الذى كان يقود به الجماهير قبل فترة محمد على ، ولهذا استمر دور الأزهر الدينى كما هو أكمل الشاب فى سخرية : المصيبة الكبري أننا لم نعرف عطاء عبد الناصر فى المجال الدينى من الناصريين ، بل عرفناه من خصومه، بعد أن ظللنا فترة طويلة نصدق أنه كان يحالف الشيوعيين ويعتقد بمذهبهم المضاد للدين، ورغم هذا لم نقرأ كثيرا من الناصريين دفاعا عنه بسرد تلك الحقائق

---

(٢٨) مقال إحصائي لعصر عبد الناصر نشرته شبكة التجديد العربي فى مايو ٢٠١١ م .

قال الكاتب:

نعم، لقد ظل جيلنا يعتقد بهذا لفترة طويلة[٢٩] ولم نكن نملك مصدرا نعرف به من أنشأ تلك المؤسسات حتى عرفناها من خصومه كما تقول، مع أن المتأمل المحايد كان يدرك ببساطة أن اتهام عبد الناصر باعتناق الفكر الإشتراكى سياسيا ودينيا - لا سياسيا فقط - يتضاد تماما مع تقويته لدور الأزهر واعتباره مصدرا للنفوذ المعنوى للدولة ، بالإضافة إلى أنه مزّق الشيوعيين فى مصر ورفض كل وساطات الاتحاد السوفياتى للسماح لهم بالعمل ، بل إنه غامر بالدخول فى مصادمة سياسية عنيفة مع الاتحاد السوفياتى بسبب أن طلبة البعثات المصرية فى موسكو اشتكوا له بأنهم لا يدرسون تخصصاتهم فقط ، بل يصر السوفيات على تدريس المنهج الشيوعى لهم رغم أنه قائم على الإلحاد الصريح ويتعارض مع عقيدة الطلبة ، فما كان من عبد الناصر إلا أن أصدر قرارا بتحويل الطلبة من الاتحاد السوفياتى إلى الجامعات الأمريكية ، وبالطبع وافق الرئيس الأمريكى أيزنهاور، وبهذا أدرك السوفيات أن عبد الناصر يصر على موقفه ، فأذعنوا واكتفوا بتدريس مواد التخصص العلمى لطلبة البعثات دون المنهج الفكرى الشيوعى.

تساءل الشاب: ولكن ما سر ولغز سكوت الناصريين عن الدفاع عن عبد الناصر فى تلك النقطة ؟!

قال الكاتب: السبب الأول، أن الخلل كان من ناحيتنا نحن الشباب ، لأننا وقعنا فى دائرة الاستقطاب فترة طويلة حتى خرجنا منها، السبب الثانى، هو أن عبد الناصر لم يكن ينتمى أيديولوجيا لشيئ ، وإنما كان يلتزم إلتزام الرجل العامى بدينه ووطنيته وعروبته، لكن القوميين العرب من حوله لم يكونوا كذلك بل كانوا مؤدلجين بالكامل ، فمنهم قوميون يساريون أو شيوعيون صرحاء لا يرون للدين دورا فى الحياة أصلا وينادون بفصل العروبة عن الإسلام، وكان منهم قوميون يرون الدين أمر شخصي لا مجتمعى ، وكان منهم المعتدلون أيضا، والقوميون العرب الذين أحاط بعضهم بعبد الناصر كانوا يستميتون فى جذبه لصفوفهم واتخاذ العروبة واللغة العربية أساسا وحيدا للوحدة العربية، وتنحية الدين خارج اللعبة باعتباره - فى زعمهم - يفرّق الناس ولا يجمعهم

(٢٩) كاتب هذه السطور وقع تحت الدعاية المضادة لعبد الناصر وكان مجمل الاعتراضات على عصر عبد الناصر تتمثل فى عنصرين رئيسيين ، عداؤه للإسلام (كما كان يروج الإخوان) ، والعنصر الثانى الاستبداد السياسي وتمكين أهل الثقة الذين أشاعوا الفساد فى البلاد ، وبعد ظهور حقيقة موقفه من الإسلام لابد أن نعترف أنه كان اعتراضا فى غير محله ، وبالتالى تظل مشكلة عبد الناصر وعصره فى القمع والسكوت عن القيادات الفاشلة بالذات فى الجيش وهذا الانتقاد يعترف به حتى الناصريين أنفسهم.

والواقع أن أساس الدين هو التجميع لا التفريق لكن هؤلاء ـ فى تلك الفترة بالذات ـ وبدايات عصر الذرة والتقدم العلمى الهائل اعتقد الكثيرون منهم أن الأديان كلها خرافة بالذات فى فترة شبابهم، ورغم أنهم تراجعوا عنها بعد ذلك ولم يعودوا بنفس الفكر إلا أنهم إلى اليوم لا زالوا يعتبرون العروبة هى أساس الوحدة(٣٠) مع أنهم لو تأملوا القضية ـ بدون انتماء أيديولوجى ـ لعرفوا أن العروبة نفسها ـ كعامل مشترك من المحيط إلى الخليج ـ لم تولد أصلا فى التاريخ إلا على يد الإسلام، ولم تتوحد البلاد العربية من قبل قط على مفهوم العروبة وحده، لا فى التاريخ القديم ولا فى التاريخ الحديث!، وأكبر دليل على فشل دعوة القوميين العرب هو فشلهم الذريع فى تأسيس الدولة العربية المتحدة ـ بينما دولة الخلافة امتدت أكثر من ألف عام ـ لأن الدول العربية التى رفضت موقفهم من الدين دخلت معهم فى خصومات مستعرة حول الرجعية والتقدمية ، وحتى الدول العربية التى نهجت نهج القومية دخلت مع بعضها البعض فى صراعات حول مبادئ القومية نفسها فاصطدم الحزب البعثي الشيوعى فى سوريا والعراق واصطدم كلاهما مع الحركة القومية فى مصر.. إلخ هذه المناطحات التى لم تجلب إلا مزيدا من التشتت لأنها تبنت فكرة العروبة وحدها ولو عدنا لتاريخ الجنس العربي ، فالجنس العربي كان محصورا فى الجزيرة العربية من قبل الإسلام، وكانوا عبارة عن قبائل مختلفة متناحرة لم يتوحدوا على شيئ أبدا إلا على حج بيت الله الحرام، وفيما دون ذلك كانت المعارك بين القبائل متوالية ومستمرة وصراعات الزعامة كانت تشبه إلى حد كبير صراعات الزعامة بين العرب فى الفترة القومية! ثم جاء الإسلام كحل سحري ربانى، يقول عز وجل:

(وألف بين قلوبهم.. لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)

والآية صريحة وهى ـ إلى جوار حقائق التاريخ ـ تقرر أمرا واقعا أن الدين الإسلامى على مفهوم القرآن والسنة هو الذى وحّد العرب وألّف بين قلوب المتخاصمين، وأنه من المستحيل أن تكون العروبة وحدها عاملا للتجميع بل هى إن انفردت فهى عامل تفرقة فى منتهى الخطورة لأن الدين الإسلامى كان هو السبب الرئيسي فى منع الأقليات العرقية من الصراع مع العرب فى مناطق نفوذهم بعد الإسلام فى آسيا وإفريقيا مثل الأكراد والأمازيغ والترك فكل هؤلاء استوعبهم الإسلام تحت رايته ولم تستوعبهم العروبة، فإن رفعت راية العروبة فسيرفع كل هؤلاء رايات قومياتهم ويحدث التناحر، وهو ما حدث

---

(٣٠) من يطالع كتابات وأفكار عمالقة عصر عبد الناصر فى تلك الفترة يصاب بالذهول من الإلحاد الصريح الذين يتكلمون به لكن معظمهم تراجع عن هذه الأفكار وظهر التراجع واضحا فى كتاباتهم الحديثة بعد تقدمهم فى العمر والتجربة.

بالفعل على أرض الواقع فالأكراد المعاصرون يمقتون العرب والعروبة ، وكذلك الأمازيغ أو البربر فى المغرب العربي بسبب الآثار السلبية لرفع راية القومية العربية وحدها ولهذا قامت الخلافة الإسلامية بجمع كلمة الشعوب فى آسيا وإفريقيا وأوربا وليس فقط فى المنطقة العربية ، بل إنه لولا الإسلام ، لما خرج العرب وانتشروا فى آسيا وإفريقيا وظل جنسهم محصورا فى الجزيرة ، ولكن الفتوحات سمحت لهم بالهجرات المكثفة التى جعلت للسان العربي الجماهيرية الأكبر فى مصر والمغرب العربي والعراق والشام والداخل الإفريقي ، وهى البلاد التى ينادى القوميون بالاتحاد بينها لهذا منذ فترة القومية فى الخمسينات وحتى اليوم دخلت الدول العربية فى صدامات مختلفة مزقتها ومنعتها حتى من مجرد الإتحاد فى المصالح الاقتصادية وإنشاء سوق عربية مشتركة ، بينما نجحت أوربا فى تكوين الاتحاد الأوربي رغم أن دول أوربا تحمل فى التاريخ القريب صراعات دموية وحروب أوقعت ملايين القتلى ، ورغم هذا نجحوا فى الاتحاد رغم اختلاف الأديان واختلاف اللغة والتراث وفشلنا نحن لأننا مضينا على الخط الذى رسمه الغرب ففصلنا بين عوامل الاشتراك الثلاث الدين واللغة والعروبة ، فتمزقت البلاد العربية بين من ينادى بالدين وحده ـ وعلى فهمه هو ـ كأساس للتوحد ، وبين من ينادى بالعروبة وحدها ويفتعل معركة حول الهوية المتجذرة فى التاريخ ، وبين القوميات الضيقة التى تفجرت فى السبعينات فخرج من كل بلد من ينادى بفصل بلاده عن محيطها العربي والانسلاخ منه والتوجه نحو أوربا !

وبالمقابل ..

فالتيارات التى تبنت فكرة الإسلام وافتعلت بينها وبين القومية معركة فكرية ، سقطت فى فخ التشرذم أيضا لأن تلك التيارات قدمت نفسها على أنها الراعى الرسمى للإسلام ! ، وهذا هو عين التفرق لأنه ربط مرفوض بين الدين والأشخاص ، وبالتالى فلابد أن يظهر التناحر ، وجاء التغريبيون والعلمانيون فنبذوا العوامل الثلاث مجتمعة وقالوا بأنهم متوجهون نحو الحضارة الغربية الحديثة ، وليتهم اكتفوا بنقل التقدم العلمى ، بل أصروا على أخذ باقة الغرب كاملة فنادوا بالطباع والتقاليد والفنون والآداب الغربية وحاولوا إدخالها لمصر على أن الغرب لم يتقدم بالتكنولوجيا وحدها بل تقدم بأفكار العلمانية والمذاهب المختلفة ، فأهملوا التاريخ الحضاري الإسلامى واللغة وغيرها ، وتفننوا فى

استبدال ذلك كله بالأدب الغربي واللغات الغربية وبالطبع فتح لهم الاحتلال الإنجليزي سائر أبوابه ودعمه ، واغتر كثيرون بفلسفة الغرب فى تنحية الدين عن مجالات الحياة دون أن ينتبه هؤلاء الحمقي إلى أن الغرب نجح بتنحية الكهنوت الذى كان عائقا للتقدم العلمى ، أى أن الدين والكهنوتية هناك كانت سببا رئيسيا للتخلف ، بينما نحن فى الإسلام لا كهنوتية عندنا بل الكهنوت محرّم تحريما باتا ، والدين كان مقياس ومشعل حضارتنا بالأساس ولولاه لما تكوّن التقدم العلمى العربي ولا الحضارة العربية أى أن الدين عندنا كان سبب التقدم وهكذا تحقق المراد الغربي الكامل للاحتلال بأن تفرقت الأمة العربية كلها على تلك التيارات الضيقة ، وبالتالى انعزلت أكثرية الجماهير عن كل تلك الفرق ، لا سيما وأن الإتهامات المعلبة التى صكتها الإتجاهات الأيديولوجية المختلفة كانت تتناثر منهم ضد مختلف خصومهم وكافة من ليس على مذاهبهم ، وهى اتهامات مأثورة ومعروفة ولا زالت تثير استخفاف عامة الناس ، فإذا عاديت أى تيار إسلامى حتى فى المجال السياسي فقط ، فأنت بين خيار الكفر والبدعة ، وإن صححت لأى تيار أو انتقدت الاتجاهات الفقهية والعقائدية المتناحرة ، فلن تختلف التهمة كثيرا وإن انتقدت القومية والشيوعية فأنت إمبريالى وعميل للمخابرات الأمريكية ، وإذا خالفت ووقفت ضد دعاة التغريب والعلمانية فأنت ظلامى وإقصائي وتعبد كتب التراث وترفض التحضر والتجديد !! ، وإن ناديت باستخدام اللغة العربية الفصحى وآدابها ، ونبذ استخدام اللغات الغربية كأساس للتعامل والثقافة ، فأنت متخلف وتخالف روح العصر !!

وهذا بعينه ما تنبأ به النبي عليه الصلاة والسلام للأمة فى آخر الزمان ، وكانت وصيته القاطعة هى اعتزال كل تلك الفرق جميعها فى الحديث الشهور :

(عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا ﰲ جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: "نعم". وقلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: "نعم، وفيه دخن". قلت: وما دخنه؟. قال: "قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر". قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟. قال: "نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها". قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: "هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا". قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك")

وقد تحدث العلماء فى ذلك فبينوا أن الاعتزال يكون بالتزام منهج أهل السنة ـ الصحابة ـ فى العقيدة والأصول والثوابت ، ثم اعتزال كل المتناحرين الذين ستعرفهم بعلامة توضح لك بسهولة أنهم ليسوا من الجماعة ، ألا هى التفرد والتميز عن الناس إما بالعقائد المخالفة أو بفقه مخصوص ينبذون ما سواه أو بشخص ـ أو عدة أشخاص ـ يتخذونهم أئمة لهم دون سائر أئمة المسلمين ، أو حتى بسمت وزى وهيئة تميزهم عن عامة المسلمين ..

واعتزالك لكافة المتناحرين وتمتعك بالإستقلال فى مواجهتهم ، واتخاذك مبدأ (معرفة الحق ثم الرجال) هذا كله سيجلب لك عداوات كافة التيارات دون استثاء ، وهذه النقطة بالذات أجدها علامة الطريق الصحيح ـ إن شاء الله ـ لأن أهل السنة ـ عقائديا ـ اكتسبوا عداوة جميع الفرق ، وأهل الصواب من عامة الناس ـ سياسيا ـ تلقوا الاتهامات من كافة التيارات التى لا يؤيدون أحدا منها

قال الشاب: عرفنا أن عهد عبد الناصر اختفي فيه مؤقتا الصراع الأيديولوجى بالمنع المباشر ولم يخرج فى عهده إلا انتماءات الشيوعية والعلمانية على استحياء ، فما الذى أعاد الصراع مرة أخرى ؟!

أجاب الكاتب : من أكبر مصائب السادات رحمه الله ، أنه تصور أن حرب أكتوبر قد أعطته حصانة شعبية وجماهيرية منافسة لعبد الناصر «[٣١]» ، لكنه غفل عن أهم سبب وأخطر مبرر كان وراء وقوف الجماهير خلف عبد الناصر واستمرار شعبيته لليوم ، وهذا السبب أن عبد الناصر كان مخلصا فى تجربته ـ رغم أخطائه الكبري ـ فلم يستفد من الحكم شيئا تقريبا ، ولا ناور أو داهن أو دلس على الناس بشيئ أو استأثر لنفسه بأى ميزة ، ولم يستفد من أموال الدولة شيئا غير راتبه البسيط ، والأهم من ذلك ..

أنه الحاكم المصري الوحيد فى العصر الحديث ومنذ ظهور الدولة القومية فى عصر محمد على ، الحاكم الوحيد الذى نجح فى أن ينتقم للشعب من فئة الخمسة بالمائة التى تستولى دائما على تسعين فى المائة من ثروات البلاد بالتواطؤ مع نظم الحكم المستمرة من محمد على حتى عصرنا الحالى مرورا بفترة الملكية كلها ..

فلم يحدث أن جاء حاكم مصري من قلب الشعب نجح فى أن يجعل مشروع عمره هو استعادة ثروات البلاد المنهوبة فى أيدى الإقطاع أو رجال الأعمال الكبار الذين يتجبرون بالإستيلاء على كافة الثروات وبمنتهى التبجح ليظل الشعب تحت أردأ أنواع الفقر وفى

(٣١) هذا داء عربي مستفحل جدا ، فلا يوجد حاكم أنجز إنجازا هو من أساسيات واجبه إلا واعتبر نفسه صاحب فى تملك الوطن بما ومن فيه كمقابل على أدائه هذا الواجب !.

عهد الملك فاروق ـ أى قبيل قيام ثورة يوليو بقيادة عبد الناصر ـ لم يكن الشعب يمتلك شيئا قط من ثروات بلاده بل تحكم فيها قلة قليلة جدا من باشوات العهد الملكى ورجال القصر حتى أن بعضهم كان يتملك من الأطيان الزراعية ما يعادل مساحة محافظة كاملة اليوم !!

بخلاف أن أقل شخص بين كبار الإقطاعيين كانت مساحة أملاكه تتعدى خمسة آلاف فدان على الأقل ، ولهذا كان من المعهود فى ذلك العصر أن كل قرية ريفية مهما بلغ اتساع مساحتها كانت تدخل فى مسمى ملكية أحد الباشوات وحده ، ويسميها بالإسم المألوف (العزبة) والعزبة هذه ليست كما نتصورها اليوم مساحة شاسعة وفقط من الأرض بل هى قرية كاملة بكل سكانها وما عليها ومن عليها يمتلكها هذا الباشا بل ويمتلك أرواح العاملين فيها إذا شاء دون أدنى محاسبة أو قانون من أى نوع !

فجاء عبد الناصر وبمجرد خلاصه من قضية الإستقلال العسكري قام من فوره بالإستقلال الإقتصادى وصادر كافة هذه الثروات دونما استثناء ، وبجرأة غريبة يُحسد عليها ، ولهذا وقف الشعب معه وقوفا كاملا وحقيقيا لأنه بالفعل رد الحق لأصحابه ، فهؤلاء الإقطاعيين لم يرث أحد منهم أو يمتلك شبرا من هذه الأرض بمقابل مشروع ـ إلا الندرة النادرة ـ بل كانت كلها تدخل فى باب العطايا والهبات ، هذا فضلا على أن الشركات الأوربية التى كانت تعمل على الإنتاج الزراعى المصري وتستغله أسوأ استغلال تم اخضاعها جميعا للتأميم ، والأهم من هذا أن عبد الناصر لم يسمح لنفسه أن يستفيد شيئا من هذه الأملاك بل قام بإعادة توزيعها على الملاك الحقيقيين لها وهم عامة الشعب من البسطاء ، واستغل الفائض المالى الضخم الناجم عن مصادرة مصالح الإحتلال الإقتصادى ليدفع بمصر لأول مرة إلى عصر تصنيع جبار أسس به القطاع العام الذى ظل نظام مبارك ينهبه ثلاثين عاما !!

ولهذا وحده نقول أن تجربة عبد الناصر فى هذا الصدد تجربة غير مسبوقة فى جرأتها حيث أنه وقف أمام عتاولة الإقتصاد فى الداخل والخارج واستقل ببلاده استقلالا حقيقيا ولم يكتف بالإستقلال السياسي وحده كما أنه قام بتصحيح أخطائه بعد النكسة ونجح فى تكوين الجيش على أعلى مستوى ، وبسبب إخلاصه صبر الشعب عليه ولم يثر ولم يكن هذا بسبب سياسة القمع كما يتصور بعض الناس ، فسياسة القمع نفسها لم تنفع السادات عندما لجأ إليها بعد ذلك ، لأن الناس لم تشعر به حاكما مخلصا بعد أن رآه الناس يخترق كل الثوابت القومية التى أسسها سلفه ، فشعبية عبد الناصر كانت

على أساس اقتناع الناس به فعلا وأكبر دليل على هذا أن الناصريين مستمرون لليوم فى افتتانهم بالزعيم وحبهم له ، وهذا ما لم يحدث مع أى حاكم معاصر فيما أعلم أما السادات فلم يكن واضحا أو مباشرا مع الناس ، بل كان مفتونا بألاعيب السياسة والشعب المصري له طبيعة خاصة جدا أنه يدرك تماما ألاعيب حكامه مهما أخفوها ويُعبّرون عن فهمهم باستخدام طريقتهم الأثيرة وهى التنكيت .. ولهذا كان الخطأ القاتل للسادات أنه أفرج عن التيار الإسلامى من السجون ـ ليس بهدف رفع الظلم عن المظلومين منهم ـ بل بهدف استخدامهم سياسيا لمواجهة الناصريين والشيوعيين أصحاب الشعبية فسمح للإخوان والتنظيمات التكفيرية التى تكونت فى السجون بالعمل السياسي لقهر شعبية خصومه عن طريق التشنيع عليهم بتهمة الإلحاد والخروج عن الدين

وبالتالى ،، وبعد أن نجح عبد الناصر فى قتل الخلافات الأيديولوجية بالقوة حتى لا تفتت الشعب ، جاء السادات ـ ولأسباب سياسية ـ ليتفجر مرة أخرى صراع الأيديولوجيات القاتل لتعود نفس الدوامة ولكن مع ظهور طرف ثالث متطرف هذه المرة فبعد أن كان الصراع يدور بين العلمانية وما يشابهها وبين الأزهر ، أصبح الصراع ثلاثيا بين العلمانية والتيارات الإسلامية والأزهر ، وانتهى الأمر بالصراع الدموى المعروف فى فترة الثمانينات وما تلاها ، ثم جاء نظام مبارك فارتكب الجريمة الكبري عندما استمر فى نفس سياسة السادات وبشكل أفدح ، وهو استخدام التيارات الإسلامية كلعبة سياسية يلاعب بها الداخل والخارج أيضا لتحقيق أغراضه فى تثبيت حكمه ، ولهذا دعم مبارك وحلفاؤه من العرب تسفير وإرسال شباب الجماعات للكفاح المسلح فى أفغانستان برعاية أمريكية ، ومن تلك اللحظة انتقلت ولاية التيارات الإسلامية إلى الغرب ـ بعلم القيادات وجهل الشباب ـ ومن تلك اللحظة تكونت عشرات التنظيمات التكفيرية التى صارت ألعوبة فى أيدى الحكومات فى لعبة الإرهاب ، وكانت الجريمة الكبري الثانية لمبارك هى قتل دور الأزهر وتحجيم شيوخه وترك الساحة للإخوان والسلفيين ومنذ عهد الشيخ طنطاوى لم يستعد الأزهر مكانته بين نفوس الناس ، بالذات بعد رحيل الأئمة الكبار كالشعراوى وجاد الحق والغزالى وهو الوضع الذى أدى بنا اليوم إلى حصر الصراع بين أنصار العلمانية وبين أنصار التيارات الإسلامية المختلفة ، وغاب دور الأزهر الذى أصبح شيوخه وعلماؤه موظفون تقليديون وانشغلوا بلقمة العيش وصعوبة الحياة وأصبحت الساحة خاوية للتيارات المتناحرة ..

وهكذا عاد الصراع الأيديولوجى بأبشع مما كان ، وبرعاية الدولة أيضا وتمكن مبارك بهذا من شغل الناس عن خطايا حكمه عن طريق إغراقهم فى تحزبات سياسية ودينية لا نهاية لها ، كنا استخدم لعبة الفتنة الطائفية عدة مرات ، حتى جاءت بدايات القرن الجديد وتكونت أجيال شابة جديدة انتبهت ـ فيما يبدو ـ لهذا الأمر فرفضوا الجميع وثاروا على الجميع وبهذا انطلقت ثورة يناير ، ونظرا لأن الشباب عديم الخبرة بتلك اللعبة فقد نجح أطراف الصراع أنفسهم فى سرقة مكتسبات الثورة بنفس الأسلوب وهو أسلوب (فرّق تسد) ، ولست أدرى حقيقة متى ستنتهى هذه اللعبة القميئة ؟!

سأل الشاب :

بعد هذا العرض الكافي لأساس التيارات المتناحرة ، سندخل فى فوارق العلم والفلسفة ولكنى أريد ابتداء أن أسأل سؤالا مفصليا فى النقاش ولا أصبر على إجابته ، فى البداية عندما بدأ بعض الإعلاميين يتحدثون عن البخارى وكتب التراث كنا نسمعهم ونؤيدهم ، ثم وجدناهم يتجاوزون قليلا فى الأوصاف ، ولكن عذرناهم من شدة الغضب على السلفيين والإخوان ، ولكن الذى أثار الاستغراب حقيقة أنهم بعد عدة أشهر من بداية الحرب ضد الإرهاب ، سمعنا كلاما رهيبا ولم نغضب من الكلام بقدر ما أثار تساؤلنا ، لأن الأمر وصل للسخرية من الأحاديث والمناداة بانتقاد القرآن !! ، ثم كلام متجاوز جدا حتى بحق كبار الصحابة والخلفاء الراشدين ! والمناداة بأن الدين الذى نعرفه ليس الإسلام ولكن إسلام اخترعه جيل الصحابة بعد النبي عليه السلام !

ثم الذى يثير العجب أن الكلام والهجوم بدأ مركزا ومنتشرا جدا ـ تقريبا كل الصحف والقنوات ـ ورغم أننا دوما نسخر من نظرية المؤامرة إلا أن الأمر مريب بالفعل ، ما سر هذه الهجمات الغريبة فى هذا التوقيت ؟!

قال الكاتب:

أنا أولا أحمد الله تعالى أنه حتى الشباب وغير المتخصصين فى علوم الشريعة وحتى أصحاب ثقافة انتقاد بعض كتب التراث ، لاحظوا مدى التطاول والتبجح الذى يؤذى كل صاحب فطرة ، واتضحت لهم أهداف أصحاب الهجوم لأن الله أعماهم عما يفعلون فلم ينتبهوا وأفصحوا سريعا بحقيقة معتقداتهم ورغم أن إجابة السؤال ـ تشمل تقريبا موضوع الحوار كله ـ إلا أنى سألخص إجابة مختصرة فى ضوئها ستعرف مع من نتعامل ، وستعرف أن من حذروكم من الانقياد لهجمات العلمانيين لم يكونوا متشددين

أو يتهمونهم بالباطل ، بل إن التحذير من سابق الخبرة فى التعامل معهم ، وقلنا ساعتها لا يخدعكم ما يظهرون به على أنهم مجددون ويرغبون فقط فى تقديم صحيح الدين ، وعما قريب سيطعنون حتى فى القرآن ، فقلتم بأننا نبالغ !

وقلنا لكم ساعتها أنهم يستغلون تجارة الإسلاميين بالدين فى الفضائيات ، وعندما ينتهوا من انتقادهم سيلتفتون لكل علماء الإسلام والصحابة ، فلم تصدقوا قال الشاب : يا أستاذ بعض الطاعنين الآن لم نسمع أبدا أنه علمانى أصلا بل كانوا مقدمى برامج دينية وتاريخية فكيف انقلبوا ؟!

قال الكاتب:

وتذكرون ساعتها أن كثيرا من الباحثين قالوا لكم ، إن المهاجمين للسنة ليسوا فقط العلمانيين ، بل إن أهل السنة تعرضوا عبر التاريخ لهجمات كل التيارات المعبرة عن الفرق المختلفة ، واليوم يهاجم السنة كل من ينتمون للعلمانية وللشيعة وللخوارج وللإخوان فضلا على العداء التاريخى القديم لحركة المستشرقين وأذنابهم من دعاة الغرب ، وستعرف خلال الحوار مفاجأة أعتقد أنها تصيب اليوم كل من كان غير متابع ، ولكنى سأشرحها فى حينها ، فرغم أن العلمانيين فى مصر هم من اعتدنا منهم هذا الهجوم ، إلا أن الهجوم المكثف والمنظم هذه المرة لا يمثل العلمانيون فيه رأس الأفعى بل هم الذيل فقط ، والرأس المدبر فرقة أخرى تعتبر هى شيطان الشبهات الأكبر على أهل السنة فى هذا العصر .. فالهجوم هذه المرة يشهد تضافرا فى الجهود من سائر الأطراف ، لأن حالة الشرق الأوسط بعد الثورات حالة سيولة كاملة ، وكل طرف يهمه أن يكون الوريث للنظم السابقة فى الإقليم فالطرف العلمانى والتغريبي يستغل عداء الناس للإسلاميين المتاجرين بالدين ، والطرف المبتدع من أنصار الشيعة والصوفية يستغلون الأمر للهجوم على السنة ولكنهم لا يظهرون فى واجهة المشهد بل يلعبون كعادتهم من خلف الستار ، وأنصارهم يستدرجون الناس بسابق حديثهم المغلف بالتدين ، ويكفيك مثالا هذا الذى كان يمدح الصحابة وصنع برنامجا عنهم ، انظر ماذا قال عنهم الآن والخلافة الإسلامية كانت كلها ـ حتى بخلافة الراشدين ـ خلافة دموية ووحشية ، وليس فيها إلا سنوات عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز !! ، فأين خلافة أبي بكر وأين خلافة عثمان وعلى عليهم رضوان الله ؟!

بل بلغت به الوقاحة للعيب فى عمر بن الخطاب ووصفه بأنه لم يكن ذلك الحاكم

الملائكى أو المعصوم ونحن لم نقل أنه معصوم بل قلنا أفضل الحكام ، والغرب المسيحى جاء منه كاتب اسمه مايكل هارت وضع عمر بن الخطاب ضمن أعظم مائة شخصية فى التاريخ الإنسانى !! وهذا الذى يدعى الإسلام يقول أن لديه اعتراضات على أسلوب حكم عمر !!

سأل الشاب: إذا الأهداف مختلفة باختلاف الأشخاص المهاجمين للدين ..

قال الكاتب:

كلا .. الخصوم متعددون وهدفهم واحد ، هو علم الحديث ، ولاحظ أننى لم أقل الحديث نفسه أو السنة النبوية أو علماء الحديث بل هدفهم علم الحديث نفسه وعليه تركزت هجماتهم ، فهجومهم على البخارى ليس هجوما على كتب السُنة أو كتب الحديث النبوى ، بل هجوم على علم الحديث ـ كمنهج نقل ـ الذى هو الوسيلة الوحيدة التى نقلت لنا كلنا شيئ من العصور السابقة ، فهو علم اختصت به أمة الإسلام عن غيرها من الأمم ، ولا توجد ضوابط النقل فى علم الحديث عند أى أمة سابقة ، ولهذا ضاعت منهم كتبهم المقدسة المنقولة عن الرسل وتم تزويرها ، أما الإسلام ، فقد قام أهله ـ بتوفيق الله ـ بابتكار هذا العلم لينقلوا لعشرات الأجيال من بعدهم القرآن والسنة والتاريخ والأدب وكافة العلوم ، نظرا لأن الكتابة فى العصور الأولى لم تكن هى الوسيلة المعتمدة فى النقل وكان المعتمد هو علم الرواية الذى ينقل لك الألفاظ بحروفها وتشكيلها النحوى ، ولولا ذلك لوصل القرآن محرفا لو نقلوه بالكتابة فقط ، فلم يكن التنقيط والتشكيل معروفا فى ذلك الزمان .. ولهذا فكل أعداء الإسلام ركزوا على تكذيب المصادر ، بدء من كفار قريش الذين قالوا عن النبي عليه السلام أنه كاذب وأنه مؤلف أساطير ، ونهاية بما يحدث اليوم مع الصحابة والعلماء.

سأل الشاب : إذا طريقة الرواية والأسانيد هى التى نقلت كل شيئ وليس الأحاديث النبوية فقط !

قال الكاتب:

بالطبع ، فعن طريقها تم تحديد الرواة لكل رواية فى أى مجال وعن طريق علم (الجرح والتعديل) تم وضع التقييم المناسب لكل راو ، وبناء عليه يستطيع أى عالم حديث فى أى عصر أن يعرف من دراسة السند إذا كانت هذه الواقعة صحيحة أم لا ، وهذا الحديث صحيح أم موضوع .. ، ولم يكتف العلماء بنقد الأسانيد وحدها أو اعتمدوا عليها فقط ، بل وضعوا مناهج لدراسة المتون أيضا واشترطوا خلو المتن من عيوب الشذوذ

والعلل وهذا يتضح جليا من التعريف الذى وضعه علماء الحديث للحديث الصحيح حيث قالوا (هو الحديث الذى ينقله العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه بغير شذوذ ولا علة)[٣٢]

وهذا يبين لك فى وضوح تعمد المهاجمين اللعب بعقول الناس والترويج لأن علم الحديث يعتمد على الأسانيد وحسب وأن العلماء يصححون المتون الشاذة لمجرد صحة السند ، وهذا بالطبع لا علاقة له بقواعد علم الحديث بل إن هناك طريقة علمية يتقنها الراسخون فى علوم الحديث تجعلهم قادرين على تمييز الحديث الصحيح من الضعيف بدون النظر إلى السند أصلا، ولكنها طريقة لا يستطيعها ولا يتقنها إلا فطاحل هذا العلم ممن اكتسبوا الخبرة الهائلة بلغة وتعبيرات النبوة، وقد شرح الإمام ابن القيم هذه الطريقة فى كتاب شهير بعنوان (المنار المنيف).

وبالتالى نجح العلماء فى تحصين الأحاديث عن طريق تحصين طرق النقل والنقد الحديثي ، فهو الأساس لكافة علوم الشريعة وبغيره لا يبقي شيئ منها ولهذا ركز المستشرقون هجماتهم من البداية على علم الحديث وحاولوا بشتى الطرق إيجاد الثغرات فيه ، فعجزوا ، واليوم يأتى الطاعنون ويسيرون على نفس الدرب ، لأنهم لن يُتعبوا أنفسهم فينتقدون الفقه ثم الحديث ثم التفسير ثم العقيدة ثم التاريخ ، فكل هذا يتحقق تلقائيا إذا نجحت فى الطعن والتشكيك فى علم الحديث ، وشككت فى صحة منهج نقل العلماء والرواة الذين نقلوا ، وبهذا ينهار الدين له، وحتى التاريخ والأدب أيضا ولهذا اجتمعت الخصوم على علم الحديث بالذات، فالمستشرقون الغربيون يهدفون لهدم الدين كله، والعلمانيون والشيعة والخوارج والفرق البدعية يهدفون إلى إلغاء السنة النبوية الصحيحة التى نقلها الصحابة والتابعون وتابعيهم ، وذلك ليَحّلوا لهم تفسير القرآن على هواهم وتحريف فهمه دون أن تمنعهم السنة من الاختراع فى تفسير آيات الأحكام وهذا كله يتحقق بضرب أصول علم الحديث، ولتقريب الأمر بمثال، فالكتاب السياسي المعتمد فى عصرنا مثلا هو الكتاب الذى يعتمد على التوثيق لكافة المعلومات الواردة فى متن الكتاب والذى يبنى الكاتب عليها تحليله ، فإذا نجحت أنت فى إثبات كذب أو تزوير الوثائق انهدم محتوى الكتاب وما يتضمنه من تحليلات حتى لو كانت صادقة أما مسألة توقيت الهجمات على السُنة، فهذه تجربة مكررة للعلمانيين وخصوم السنة ، فهم يصطادون فى الماء العكر دائما ، فالناس كلها الآن تواجه التشدد والإرهاب بنقد أفكار

(٣٢) إختصار علوم الحديث ـ الإمام بن كثير ـ بتحقيق العلامة أحمد شاكر.

الإرهابيين وهؤلاء يستغلون الفرصة لنشر فكرهم الإرهابي المقابل القائم على شيطنة مجرد ترديد شهادة الإسلام أو الالتزام بفرائضه وأوامر الله ونواهيه ، وقد فعلوها مرارا من قبل ، فعندما واجهت الدولة إرهاب السبعينات وما تلاها ، كان علمانيو اليوم وأساتذتهم لا يكتفون بمهاجمة شيوخ الإرهاب بل ضموا سائر شيوخ الأزهر ودعاته وعلى رأسهم الشعراوى إلى قائمة الهجوم والطعن واتهامه بدعم أفكار الإرهاب !!

قال الشاب : وما دخل مواجهة الفكر المتطرف بالهجوم على الشعراوى أو من كان مثله ..

قال الكاتب :

الهدف تنحية الدين نفسه عن حياة الناس بحيث يصير من حقهم هم ممارسة كل أنواع الزندقة والفجور ، ولا يحق لك أنت مجرد تقدير الإسلام أو احترام أركانه أو القول بحرام على أى فاحشة وإلا فأنت إرهابي !

قال الشاب : إذا الهجوم ليس على الجانب السياسي وتاريخ الخلافة فقط

قال الكاتب :

يا صديقي تعال نحسبها بالمنطق المجرد ، بغير أى قناعات ، وأخبرنى ما الذى يزعج هؤلاء من تاريخ الخلافة الإسلامية ، واتهامها بأنها ضيعت المسلمين ، مع أن المسلمين عندما كانوا فى الخلافة المتحدة كانت حضارتهم تجوب الشرق والغرب ، ليس سياسيا وعسكريا فقط ، بل ونهضتهم العلمية لم يكن لها مثيل ، وعلى المستوى السياسي كنّا سادة العالم ، والعلمانية لها فى مصر والعالم العربي قرابة قرن كامل ، فأخبرنى بالله عليك ما هو حال المسلمين فى عهدهم التنويري ؟!!

وما النجاح الذى حققوه سياسيا أو أدبيا أو تاريخيا أو علميا منذ بدء الفترة الليبرالية وحتى يومنا هذا ؟!

قال الشاب : ولكن فكر الخلافة هو ما ينادى به الإخوان وجماعات العنف ؟

قال الكاتب :

هؤلاء المتخلفون لا ينادون بفكر الخلافة كأساس لوحدة عربية أو إسلامية متدرجة القوة ، بل ينادون بمسماها فقط تحقيقا لأهداف شخصية أو أهداف غربية ، فما شأنى أنا إذا جاء هؤلاء المتخلفون فتاجروا بشعار الخلافة أو قالوا بأن الخلافة هى اللحية الطويلة والجلباب الأسود ونبذ العلوم والحضارة واتخاذ السبايا والجوارى ؟!

وما شأنى إذا انتشر عبر العالم مخرفون ودجالون يقولون أنهم يعرفون المستقبل باستخدام علم الفلك، فهل نُبَطِل علم الفلك الأصلي كله ونلغيه لأن هناك من يتاجر بمسماه فقط دون أى علاقة له بموضوع العلم نفسه ؟!

وإذا جاء غاوى شهرة أو نصّاب من النصابين وقال بأنه يعالج الناس بالطب الطبيعى والعشبي فهل معنى هذا أنه لا يوجد طب طبيعى حقيقي تم برعاية العلماء واعتمدوه ؟!

وهل وجدت أحدا يهتم بالاسم والمسمى من كلمة الخلافة أم أن المهم هو المقصود الأساسي وهو التحالف والاتحاد والنهضة العلمية والحضارية والتخلص من التبعية للغرب سياسيا وفكريا بغض النظر عن المسميات؟!

ولو قامت فى الغد دولة عربية متوحدة المصالح ـ حتى بدون التوحد الفيدرالى ـ واتخذت لنفسها أى مسمى حديث بعيد عن مسميات الخلافة لكانت فى حكم علماء المسلمين خلافة متكاملة الأركان ، فالعبرة ليس فى الألفاظ والمبانى ولكن العبرة بالمعانى والمضمون[٣٣] لكن العلمانيين يغفلون هذا الفهم عمدا رغم أنه الفهم المتواتر عن أهل السنة ، ويصرون على نقد لفظ الخلافة وشكلياتها باعتبارنا نُصِر على هذه الشكليات كما يفعل مجانين التيارات الإرهابية، وبالتالى فهم هنا ينتقدون فينا ما لا نعتقده أصلا ويصمون الدين نفسه بالتخلف باعتباره يعتنى بالشكليات ولهذا يدعون لهجره وهجر حضارته باعتبارها لا تناسب العصر وأنا أتعجب صراحة لعبقرية العلمانيين الفريدة فى حل المشكلات، فالحل من وجهة نظرهم إذا استغل الإرهابيون الدين ، أن نلغي الإلتزام بالدين أصلا ، !

وهذا حل فريد من نوعه للمشكلات، فدعونا ـ وفقا لمنطقهم ـ أن نلغي استخدام السيارات والطائرات لحل مشكلة حوادث وسائل النقل، والحل لتلوث الطعام أن نوقف استخدام الطاقة ونوقف الأكل!!

وهم يتهمون المسلمين بالتخلف لتمسكهم بعظمة تاريخهم ، ولا يعيبون على الغرب تمسكهم بتاريخهم المحرف!!

أين كلام هؤلاء المتخلفين من تاريخ الإسلام الذى حفل بآلاف الاختراعات العلمية كتب عنها وعن فضلها الغرب أكثر مما كتبنا نحن، ولو أنك عدت لفلم وثائقي مهم أنتجته قناة ألمانية بعنوان علوم الإسلام الدفينة) ستعرف أى جريمة يرتكبها العلمانيون

---

(٣٣) قاعدة أصولية فى علم أصول الفقه.

فالفيلم يقول صراحة فى نهاية استعراضه لعلوم الإسلام فى الطب والرياضيات والفلك أن أساسيات هذه العلوم جاءتنا من المسلمين ، وأن هذه الأساسيات انتحلها بعض علماء الغرب متعمدين ، أى اتهموا رموزهم بالسطور العلمى على إنتاجنا ، الأغرب أنهم حددوا بالاسم من هم هؤلاء العلماء(٣٤)

قال الشاب: وماذا عن احتجاجهم بحقوق الإنسان ؟

ضحك الكاتب قائلا: سأتركك تحكم بنفسك ، ما هى أخبار حقوق الإنسان فى دولة العلمانيين يا ترى ؟! وما هى أخبار حرية الرأى فى فرنسا وأوربا مهد العلمانية ؟!

هل يستطيع أكبر كاتب أو أكبر عالم أن يخرج هناك وفى عصرنا الحالى فينكر الهولوكوست أو يحارب إرهاب الغرب وحكوماته لتحقيق مصالحه ؟! وما أخبار حقوق الإنسان فى تعامل الغرب معنا ؟!

وما هى أخبار حقوق الإنسان فى المجازر الحيوانية التى ارتكبتها دولة الغرب فى عهدها العلمانى ففاقت فى وحشيتها تاريخ أجدادهم فى عهد الكهنوت ؟!

وهل سمحت فرنسا للمسلمات ـ حتى من مواطنيها ـ بارتداء الأزياء المحتشمة التى يعتقدون بها ؟! وبالمقابل هل منعت اليهود من ارتداء رموزهم الدينية فى الملابس ؟!

وإذا كان هذا يحدث فى عصرنا الحالى فكيف يمكنك تصور توافر حرية الرأى ـ كما يتصورها العلمانيون ـ فى القرون الماضية ، مع ملاحظة أننا نملك فى تاريخ الخلافة الراشدة وخلافة عمر بن عبد العزيز نموذجا متكاملا لحقوق الإنسان لم يصل الغرب حتى الآن إلى مستواه ، فكان عهدا من العدل المتكامل لا توجد فيه سيطرة لطبقة على طبقة أخرى لا بمسمى رجال الأعمال ولا بمسمى العائلات الحاكمة ، بينما الغرب حتى فى عصره الحديث لا يملك هذا النموذج ، وطبقات رجال الأعمال فى أعرق الديمقراطيات تتحكم فى كل شيئ فعليا فى تلك الدول وحتى تاريخ الخلافة فى عهد الأسرة الأموية والعباسية وأمراء الدول كان التعرض لحقوق الإنسان فيها وجبروت السلطان مرهون فقط بمن ينازع السلاطين حكمهم ، وما عدا ذلك كانت العدالة مفتوحة لآحاد الناس أمام القضاء وهناك حوادث أكثر من أن نحصيها لقضاة اقتصوا لعوام الناس ضد أشرافهم بل وضد الحكام أنفسهم والقضاء فى الإسلام باب مستقل فى التاريخ يحتشد بمئات الأمثلة على نزاهة الحكم والأحكام، ولولا هذا لما مكنهم اللّه من هذا الملك

---

(٣٤) علوم الاسلام الدفينة ـ فلم وثائقي ـ أنتاج ألمانى ـ موقع يوتيوب .

العريض، ولولا وجود هذا الجو من العدالة والرفاهية للشعب الإسلامى ما خرج هذا الإبداع وخرجت هذه الحضارة ، فمن المستحيل أن تخرج الحضارة والإبداع فى جو من الإرهاب كما يصورونه !

وهذه النقطة وحدها كفيلة بهدم وتدمير كل شبهات وأقوال العلمانيين فى إتهام تاريخنا بالقهر والإرهاب ، فالإبداع والحضارة ـ كما قلنا ـ من المستحيل أن ينمو فى جو ديكتاتورى ظالم بغيض ، وأوربا كانت غارقة فى العصور الوسطى بظلام الجهل والخرافات بسبب قتل العلماء وقمع المواهب والإستبداد المطلق فى الحكم ،

بينما حضارتنا ظلت لألف عام فى الخلافة وفى الأندلس منارة الدنيا كلها فى ظل حكم الخلافة الذى يتهمونه بالإستبداد والحكم الدينى كما يزعمون ، ولو صح ذلك لما خرج عالم أو مخترع واحد فى هذا الجو بل الأهم من هذا وذاك ما كانت جيوش دولة الإسلام تنتصر فى كافة معاركها مع القوى العظمى فى ذلك الوقت لو لم تكن الحكومات حكومات تحقق على الأقل العدالة الكافية للشعب كله، فالديكتاتورية تهدم الحضارات ولا تبنيها، كما أن الدكتاتورية تخلق جوا مريعا من عدم الإنتماء فتنهزم الجيوش مهما بلغت قوة عتادها ، ولا يوجد جيش فى العالم ينتصر فى معارك خارجية وجبهته الداخلية ممزقة، وهذا هو سر الإنهيار السريع والذريع للإمبراطورية الفارسية والرومانية فى مواجهة المسلمين رغم كونهم كانوا قوى عظمى عسكريا فهل يمكن لعاقل أن يتصور الوحشية والدكتاتورية كأساس لحكم الخلافة بينما قواتها جابت الأرض شرقا وغربا وردت سائر الهجمات المنظمة التى تميزت بقوات هائلة وتحالفات عدة دول ، بل إنه حتى فى فترات الضعف وتفرق الإمارات الإسلامية لم ينجح الغرب بالحملات الصليبية فى النيل من الدول الإسلامية رغم تكراره الأحلاف العسكرية لسبع مرات فى فترة الحملات الصليبية ! [٣٥] وفى نفس الوقت فى أوربا ، كان ملوكها يلقون بخصومهم للأسود الجائعة ، بل يتسلون بحفلات جماعية للمصارعة بين العبيد لابد أن تكون نهايتها بالموت لأحدهم ؟!

وفى محاكم التفتيش التى تم عقدها للمسلمين فى أوربا ابتكروا أساليب تعذيب تثير شفقة الشياطين على الضحايا ! واتحدي أى علمانى أن يأتى لى بسابقة شبيهة أو حتى

---

(٣٥) حشدت أوربا فى عهد السلطان السلجوقي ملكشاه جيوشا ضخمة متحدة من كافة دولها بعدد قوات قرابة المليون مقاتل بغرض استغلال تفتت دولة الخلافة وانشغالهم بالصراعات الطائفية ، ولكن ملكشاه وحده جمع لهم ما استطاع من جيشه ولم يبلغ به مائة ألف جندى ورغم ذلك سحق الجيش الأوربي فى موقعة مشهودة وأسر عددا كبيرا من ملوك وأمراء أوربا فى موقعة تاريخية كبري ظلمتها كتب التاريخ مع أنها تعادل عظمة حطين وعين جالوت واليرموك.

مقاربة لذلك فى تاريخ الخلافة الإسلامية وعلى يد حكامها وبمباركة علمائها كما حدث فى الغرب ، وكل ما يروجون له ، ستجده بين أمرين إما أنه افتراءات محضة جلبوها من قصص الخرافات بلا مصادر مسندة ، وإما أنها حوادث تمت فى فترات التفرق والتحزب والفتن التى تخللت التاريخ المستقر للخلافة وعندما تسأل العلمانيين ما هو مبرر كراهيتكم لفترة الخلافة وهى باعترافكم كانت عصور علم وأدب وثراء وسيادة لن يجيبوا أبدا لأن حقيقة كراهيتهم لها هى فقط كونها خلافة إسلامية أى مرتبطة بالدين ! ولو كانت هناك دولة ناجحة أو حتى ظالمة فى تاريخ المسلمين لكنها ليست مرتبطة بأهل السنة فسيعظمونها مهما كانت جرائمها ووحشيتها ، وهذا يوضح هدفهم تماما أنهم يقصدون السنة وأهل السنة بالذات

قال الشـــاب : كيف ذلك ؟!

قال الكاتب: سأعطيك مثالا صارخا واضحا يثبت لك ذلك بوضوح تام، مثلا إبراهيم عيسي.. سيد الطاعنين هذه الأيام فى الشريعة والسنة وأهل الحديث، والذى لا يعجبه طريقة حكم عمر بن الخطاب نفسه ! ، هل تصدق أنه عندما سئل عن السفاح الروسي (ستالين) الذى حكم الاتحاد السوفياتى بالحديد والنار ، هل تعلم ماذا قال عنه ؟!

قال إنه حاكم عظيم!! ، فلما سأله المُحاور فى دهشة : ولكنه قتل عشرين مليون مواطن فى فترة حكمه؟!

أجابه إبراهيم عيسي: لكنه جعل من الاتحاد السوفياتى دولة عظمى !

والمصيبة الكبري أن محاوره لم يعلم بالعدد الحقيقي لضحايا ستالين فقد تسبب بوفاة أكثر من ٥٠ مليون إنسان بين عامي ١٩٢٧ و١٩٥٣ فيما يزيد بخمس عشرة مرة على ضحايا هتلر في أوروبا و٤ مرات على خسائر روسيا في الحرب العالمية الثانية و٤٠ مرة على خسائرها في الحرب العالمية الأولى وهى مجازر ارتكبها ستالين بعد الحرب العالمية الثانية لفترة طويلة وبقيت سرية حتى فضحها خلفه نيكيتا خروتوشوف عام ١٩٥٦ م ، فى الجلسة الشهيرة لمؤتمر الحزب الشيوعى الحاكم آنذاك

قهقه الشاب ضاحكا فى دهشة : ما هذا ؟! ستالين السفاح عظيم لأنه أسس دولة عظمى وخلفاء المسلمين ليسوا كذلك وهم من حكموا العالم شرقا وغربا ؟!

قال الكاتب : هل رأيت ؟!

المشكلة ليست مع هؤلاء فى الحكم والسياسة بل مشكلتهم فى نسبة أى شيئ عظيم

للإسلام والمسلمين ، وهذا الرجل المادح لستالين لكونه جعل دولته إحدى دولتين عظميين فى العالم لمدة ستين سنة فقط ، وقتل فى مقابل ذلك ٥٠ مليون آدمى ، يذم الخلافة الإسلامية من عهد الراشدين وحتى عهد العثمانيين ، بينما عدد المواطنين كافة فى عهد أى خلافة لا أعتقد أنه سيتجاوز عدد ضحايا ستالين وحده ! ،

بالإضافة إلى أن إبراهيم عيسي يتجاهل تماما التاريخ الوحشي لدول وحكومات الرافضة التى حكمت بعض الأقطار الإسلامية فى فترات التمزق ، رغم أنها حفلت بتاريخ دوى وإبادة عرقية للمخالفين ، فلم نره مرة يذكر بالذم دولة العبيديين فى مصر ، ولا دولة الصفويين فى إيران والتى أجبرت شعبا كاملا على التشيع بالقتل والقهر والتعذيب الممنهج ونراه فقط يركز على دول أهل السنة وفى مقابل هذا التاريخ الدموى حكم المسلمون السنة العالم كله قرابة ثمانية قرون كقوة عظمى وحيدة ومنفردة أيضا ثم كقوة عظمى هى الأكبر بين قوى العالم حتى انهيار الخلافة.

قــال الشــاب: قوة وحيدة !

أجاب الكاتب: هل نسيت أن الخلافة الراشدة أسقطت القوتين الأعظم فى ذلك الوقت معا الرومان والفرس ، وحاربتهما معا ، وهزمتهما هزيمة ساحقة فى آسيا وأوربا وإفريقيا ، وهو ما لم يحدث مع أى دولة فى التاريخ المكتوب كله ، وجاءت الخلافة الأموية ، فحكم سليمان ابن عبد الملك أكبر إمبراطورية فى التاريخ ، فدولته كانت حدودها من الصين شرقا حتى الأندلس غربا وهى أكبر رقعة من الأرض استطاع حاكم بشري أن يسيطر عليها فى وقت واحد!

وجاء العباسيون فحكموا نفس الرقعة وخرجت الأندلس فقط لتظل تحت حكم الأمويين وهى خلافة إسلامية عظيمة أيضا ، ووقف المسلمون عند حدود بلاد الغال (فرنسا الحالية) ، بل كاد الأندلسيون أن يجتاحوا سائر أوربا ويحتلوا الجزر البريطانية لأول مرة فى التاريخ فى عهد القائد الأندلسي العتيد الحاجب المنصور ثم جاءت الدول الإسلامية التى حكمت نفس الرقعة من الشرق الأوسط ولكن على إمارات منفصلة ، ثم جاء العثمانيون وأسسوا خلافتهم التى اكتسحت أوربا وإفريقيا لمدة ستة قرون ، حتى سقطت فى بداية القرن العشرين ! ، أى أن تاريخ الخلافة الإسلامية بين قوى العالم دار بين ثمانية قرون حكموا فيها العالم منفردين وبين أربعة قرون حكموا العالم فيها كقوة عظمى متقدمة على غيرها فى دول أوربا فهل تعلم كيف سقطت الخلافة العثمانية ومتى بدأ الانهيار ؟!

قال الشاب: متى وكيف ؟!

قال الكاتب: كان العثمانيون يشعرون بالعزة الشديدة بالإسلام ، خاصة عندما تحققت فيهم بشارة النبي عليه السلام ، وفتحوا عاصمة الروم (القسطنطينية) وغيروا اسمها إلى (إسلام بول) وهى اسطنبول الحالية ، ولهذا ، ورغم أنهم من جنس الترك إلا أن انتماؤهم الإسلامى دمجهم حتى مع العرب ، وكانوا يعاملون ملوك أوربا معاملة الخاضعين لهم ، وقد دخلت الجيوش العثمانية فاكتسحت جيوش بلجيكا لأن ملك بلجيكا قتل رسول الملك سليمان القانونى !

وظلت الخلافة عصية على الغرب حتى مرت أربعمائة عام ، وبدأت المظاهر الأوربية تغزو حياة العثمانيين ، وبعد مائة عام فقط ، تركوا نظام الحكم الإسلامى جزئيا وأخذوا ببعض القوانين من النظام القانونى الفرنسي والانجليزي وبعدها صارت دولة العثمانيين مرتعا للغربيين وانهارت قيمتها حتى تم تدميرها فى الحرب العالمية الأولى فانطبقت عليها مقولة عمر ابن الخطاب (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، وبه ننتصر على أعدائنا وليس بقوة السلاح ، فإن تركنا الإسلام ، تساوينا بهم فانتصروا بقوة السلاح علينا) بل إن كثيرا من المؤرخين الآن يغفل عن أن انهيار الخلافة كان السبب الرئيسي فى نشأة التنظيمات الإرهابية بصورتها المعاصرة ، لأن المسلمين تجاوبوا مع حركة الإخوان وأمثالها لأنهم رفعوا شعار الخلافة وتاجروا به ، وفى نفس الوقت كان العلمانيون والليبراليون قد ظهروا فى السيطرة على الواقع المصري وتراجع دور علماء الأزهر ، ولم يكن الناس قابلين لهذا التحول الغربي وثقافتهم ترفضه.

قال الشاب : تريد أن تقول أن انتشار العلمانية كان سببا رئيسيا فى تحقيق التيارات الإسلامية لشعبية بين الناس.

قال الكاتب : احكم أنت بنفسك وأخبرنى ..

ماذا كانت ردة فعل الشعب أيام حكم المجلس العسكري بعد ثورة يناير عندما وقف العلمانيون بقوة فى الإعلام لصالح رفض التعديل الدستورى ، استغل الإخوان والسلفيين اجتماع العلمانيين على القول برفض التعديلات ، ليروجوا بأن كل من يرفض التعديلات هو من أتباع العلمانيين الذين يريدون إلغاء المادة الثانية !

ورغم أن هذا لم يكن مطروحا أصلا فى الاستفتاء ، إلا أن الناس صوتوا بنعم عنادا فى أبواق العلمانية التى دأبت على الطعن فى الثوابت لمجرد أنهم قالوا بلا ، رغم أنها الخيار

السياسي الصحيح ! ، وهذا يدل بوضوح على مقت الشعب لاختيارات العلمانيين حتى لو كانت صوابا وعندما انكشف أمر بيع الإخوان للثورة بعد أن أوصلهم الشعب لمجلس الشعب وشاهد أداءهم المزرى ، انقسم الشعب بين التيار الإسلامى وبين فلول الوطنى لشعورهم بتفاهة الجبهة المدنية ولم يضعوها كخيار ثالث أصلا ولهذا قال العقلاء مرارا وتكرارا ، بأن إخراج العلمانيين من دائرة الحرب الفكرية على الإرهاب يوفر ثلاثة أرباع الجهد فى هذه المعركة(٣٦) ، فالذين ينضمون أو حتى يتعاطفون مع التيارات الإرهابية لا يفعلون ذلك اقتناعا بفكرهم بل لمجرد النكاية فى العلمانيين وأضرابهم لوقاحتهم البالغة ضد القرآن والسنة ، والإخوان تستغل ذلك فتردد فى كل مناسبة أن إسقاطهم كان إسقاطا للإسلام فى مصر ، وكنا ـ ولا زلنا ـ نسخر من وقاحتهم تلك لأننا لم نر منهم إسلاما ولا حتى ليبرالية ، ولكن بعض الناس صدقت ذلك ، كيف لا ، وهم يسمعون فى كل يوم من يقول بأن كتب التراث الإسلامى قذارة وانحطاط ووحشية ، وأن الصحابة والتابعين جاهدوا لبناء إمبراطورية ولم يجاهدوا لنشر الإسلام ، وأن الشريعة الإسلامية مصطلح لا وجود له فى القرآن والسنة ، وأن الإرهاب ليس صناعة أمريكا بل هو من صناعة الأزهر وأن القرآن هو نص تاريخى وبعض نصوصه كانت ملزمة لزمن النبي عليه السلام وحده !!

قال الشاب: قالوا ذلك بالفعل ، والمفاجأة أننى عرفت هذه الأقوال من مواقع الإخوان وصفحاتهم ، ولكن ما هو دور الفرق الأخرى غير العلمانيين ؟!

قال الكاتب:

ربما تأخذك المفاجأة بشدة إذا علمت أن المصدر الرئيسي للهجمة المنظمة الآن على التاريخ الإسلامى وتراثه، ليسوا هم العلمانيين أو دعاة الغريب ، فهؤلاء فقط يمثلون أدوارا فرعية إلى جوار اللاعب الرئيسي الذى نزل للملعب العربي بقوة وعنف عقب أحداث الثورات ، وأعنى بهم النظام الإيرانى والذى يعتبر نظاما كهنوتيا بامتياز حيث يتم تسخير موارد الدولة على كافة المستويات لخدمة المد الشيعى فى المنطقة ..

تساءل الشاب: هذا قول غريب إذا سمحت لى ! ، فالمفترض أن العلمانيين هم أصحاب الإتجاه الرئيسي لتنحية الحضارة الإسلامية..

---

(٣٦) يتحمل العلمانيون وأصحاب الشبهات ودعاة الإنحلال أوزار دماء شهدائنا فى حرب الإرهاب وأوزار الشباب المغيب الذين خدعهم دعاة الإرهاب بحجة أن مصر دولة كافرة لأن الإرهابيين استدلوا بأقوال العلمانيين ودعاة الشيعة ليثبتوا أن الدولة ترعي الكفر وتسمح به تحت مزاعم تجديد الخطاب الدينى ، لا سيما بعد وقاحة هجماتهم ضد القرآن والسنة.

أجاب الكاتب:

العلمانيون فى بلادنا يا صديقي قوم مهيضو الجناح جدا ، وإمكانياتهم ورسالتهم فى الحياة لا تتعدى إلى شيئ إلا تنحية الدين عن واقعنا المعاصر، لكنهم لا يهتمون كثيرا بالتاريخ الإسلامى ، ولا يعنيهم أن يهاجموه إلا عندما تتعارض وقائع التاريخ مع طموحاتهم ، بل إن بعضهم قد يمتدح التاريخ الإسلامى ولكنه يقول بأن العصر الحالى لا يناسب فكر الماضي، باختصار، هدف العلمانيين ومن سايرهم كاليساريين ودعاة التغريب هو تقليد المنهج الأوربي فى كل شيئ ، وهؤلاء ليست عندهم مشكلة حتى فى التدين الشخصي للأفراد، طالما أن هؤلاء الأفراد لن يعترضوا على علمنة المجتمع ، ولا يعنيهم إطلاقا أن نظل معتزين وفخورين ومتمسكين بتاريخنا وتراثنا طالما أنه لن يتعارض مع ما يخططون له لكن الهجمة المنظمة الحالية على التراث الإسلامى تفوح برائحة مختلفة تماما عن الرائحة المعتادة من النشاط العلمانى، ولا يدرك الفارق الدقيق بين الحالتين إلا من له خبرة التعرض لأنواع العداوات التاريخية لأهل السنة، فإذا تأملت الهجمة الحادثة منذ إسقاط الإخوان ستجد عدة ملحوظات تلفت النظر بالفعل..

أولها: الهجمة هذه المرة مكثفة وشديدة التنظيم وتفجرت فجأة فى عشرات الصحف والقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، على نحو يشي بالتدبير وبأن مصدرها واحد ومن المستحيل أن تكون من قبيل الصدفة.

ثانيها: الفارق الدقيق الذى لفت نظر المتخصصين فى العقيدة أن الهجمات التى تبدو علمانية الهوى تميزت هذه المرة بهجوم كاسح على أفراد بعينهم فى التاريخ الإسلامى، مثل أبي بكر وعمر من الصحابة ومن أمهات المؤمنين عائشة وحفصة، ومن العلماء البخارى وابن تيمية، ومن الحكام صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنهم جميعا ، ولو راجعت الهجمات عبر الشهور الماضية ستجد أنها حملة منظمة بالفعل على هؤلاء الأفراد بالذات فهناك عشرات المقالات والمعالجات الإعلامية التى تطعن فى هذه الشخصيات بتكرار يثير الريبة ! ، أما الذى يكشف الأمر فعلا أن هذه الهجمات على هذه الشخصيات منقولة بالنص من كتب الشيعة سواء القدامى أو المعاصرين وهذا غريب للغاية، فالعلمانيون لم يركزوا هجماتهم من قبل أبدا على شخصيات بعينها فى التاريخ والتراث ولم يجرؤ واحد منهم على ذكر أى شخصية من سيدات بيت النبوة، فضلا على هذا أن معظمهم لم يجرؤ على مهاجمة عمر بن الخطاب وصلاح الدين

بالذات، نظرا لأن الفاروق عمر لا زال الغرب نفسه يعترف بعدالة حكمه النموذجى، وصلاح الدين يُمثل بطلا قوميا للإسلام وقضية القدس ولهذا يحتفي به حتى العلمانيون أنفسهم فضلا على أن الهجوم على عمر وصلاح الدين لا يخدم القضية العلمانية فى قريب أو بعيد .. هذا بالإضافة إلى أن العلمانيين وحتى دعاة التغريب تتخذ من عمر وصلاح الدين نموذجا غير قابل للتكرار ويعلمون تماما حجم شعبيتهم الكاسحة ولهذا لا يقتربون منهما أما بالنسبة لابن تيمية والبخارى فالعلمانيون لم يخصصوا هجومهم من قبل على علماء محددين ، بل من عادتهم إنتقاد نصوص القرآن والسنة نفسها ، ولو تحدثوا عن العلماء فلا يخصصون أحدا بعينه ، بل يتحدثون عن عموم العلماء السُـنة ، ولو خصصوا الهجوم على عالم بعينه فهم يهتمون دائما بنقد الإمام الشافعى بالذات وهذا لأن الشافعى هو الشوكة فى حلق العلمانية باعتباره الذى ابتكر وأسس أصول الفقه وأصول الحديث أيضا ، مما جعل من علوم الفقه وعلوم الحديث علوما محددة القواعد كاملة البناء نجح العلماء بعد ذلك فى ترتيبها وتبويبها وتفريعها لفروع أصغر فأصغر حتى تكاملت علوم الشريعة بملايين الكتب والمصادر فصعب اختراقها بالشبهات نخلص من هذا إلى أن الهجمة الحالية لا يمكن أن يكون السبق فيها للعلمانية وحدها فمن الذى يقف خلف هذا الهجوم يا ترى ؟!

ومن الذى يمتلك الأدوات المادية التى تمكنه من اختراق وتجنيد الإعلام لهذه الهجمات ؟! ومن الذى لا يشغله شيئ فى الدنيا إلا الطعن فى الشخصيات سالفة الذكر؟!

والجواب واضح وضوح الشمس لكل من يمتلك أدنى خبرة بالشيعة الإثناعشرية والنظام الإيرانى، فالشيعة الإثناعشرية تحديدا لا تعادى أحدا أو تمقت شخصا قدر مقتها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبعده أبو بكر وعائشة وحفصة حتى أن دعاتهم يلعنون هؤلاء بالذات وبالإسم واحدا واحدا قبل أن يتمموا اللعن على سائر الصحابة وسائر أهل السنة ، فضلا على أن الشيعة تعتبر صلاح الدين بالنسبة لها أعدى لهم من إبليس ، لأن صلاح الدين هو الذى قضي على حكم العبيديين الشيعة فى مصر وهى الدولة المعروفة خطأ باسم الدولة الفاطمية[٣٧] ولم يكتف صلاح الدين بهذا بل قام بغلق كافة المعاهد الشيعية مثل الأزهر والأقمر والأنور ، وأعيد فتح الأزهر بعد ذلك ليصبح أكبر معهد لعلوم السنة بعد أن كان المرجعية الكبري للشيعة، وبالتالى فصلاح الدين

٣٧ـ أطلق الإمام السيوطى على العبيديين اسم الدولة العبيدية الخبيثة فى كتابه تاريخ الخلفاء.

مزق أحلامهم بعد أن نجحوا فى تحقيق أكبرها على الإطلاق وهو حكم مصر ، ومن المستحيل أن ينسوا له صنيعه هذا أما البخارى وابن تيمية، فالأول هو أمير المؤمنين فى الحديث وكتابه الصحيح شوكة فى حلق الشيعة ليوم الدين، والسبب فى ذلك أن الشيعة عاجزون عن اتباع المنهج السنى فى علوم الحديث والإسناد وكتبهم كلها طافحة بالروايات الموضوعة زورا على آل البيت، أما ابن تيمية فلا عجب ولا غرابة فى عداوة الشيعة له ، فقد كان رحمه الله حائط صد رهيب ضد الشيعة والصوفية والجهمية فى زمانه ، ومؤلفاته فى هذا الباب نجحت فى دحر أهل البدع جميعا فى عصره ، بالإضافة إلى أن هذه المؤلفات مثل كتاب (منهاج السنة النبوية) لا زال إلى اليوم يعتبر المرجع الرئيسي لكل مهتم بفنون الرد على شبهات الشيعة(٣٨) أضف إلى هذا أن نشاط التمدد الإيرانى فى العالم السنى تضاعف منذ بداية الثورات العربية، والشيعة فى مصر بالذات لهم محاولات مريرة منذ بداية القرن الماضي لاختراق الأزهر ومصر بشتى السبل ، وفى كل مرة يعجزون عن ذلك بسبب توفيق الله للعلماء والباحثين فى كشف نواياهم ، لكنهم يستعينون بالدعم المادى الهائل فى اختراق ضعاف النفوس سواء فى الأزهر أو الأحزاب السياسية أو الإعلام.

قال الشاب: إذا هذا هو ما يفسر تخصيص الهجوم على خلافة الراشدين والبخارى والمقالات المتعددة التى تطعن فى سيرة صلاح الدين بلا أى مناسب ؟!

قال الكاتب:

هو بالضبط كما تقول، ولاحظ أنك قلت فى عبارتك (هجوم على صلاح الدين بلا مناسبة) فدهشتك تلك هى مربط الفرس فى كشف مصدر الهجوم، لأنه بالفعل لا يوجد أى مبرر عند أى مسلم ـ عدا الشيعة ـ للهجوم على صلاح الدين بالذات، فهو بخلاف إنجازه التاريخى فى تحرير القدس ودحر الصليبيين، لا يمتاز عن غيره من حكام عصره بشيئ يبرر كراهيته ، فلماذا خصص الإعلام اليوم مقالات متعددة للهجوم عليه ولماذا لم يهاجموا قطز مثلا أو بيبرس أو حتى حكام المماليك فى فترة ضعفهم، ولماذا لم يهاجموا الحكام السفاحين من دولة العبيديين كالحاكم بأمر الله رغم تاريخهم الوحشي؟!

هذا مع الوضع فى الاعتبار أن الهجوم على صلاح الدين بالذات يعتبر خيانة فى عرف كل عربي ومسلم لأن الرجل مرتبط فى أذهان الناس بتحرير القدس كما أن الغرب يُكن

(٣٨) بلغ حقد الشيعة على هذا الكتاب أن علماءهم يحضون أتباعهم على حرق نسخ هذا الكتاب إذا أرادوا أن يستجيب الله لدعائهم !!

له عداوة شديدة بلغت من الوقاحة أنه عندما تمكن الغرب من إعادة احتلال القدس جاء قائد الاحتلال إلى قبر صلاح قائلا : ها قد عدنا يا صلاح الدين ، فالرجل صار رمزا لقضية القدس اليوم منذ احتلالها ، والأطفال تتغنى بسيف صلاح الدين الأيوبي بالذات طمعا فى مجيئ قائد آخر مثله يحقق حلم المسلمين فى استعادة أقصاهم الشريف لكن مع الشيعة .. الأمر مختلف، لأن عقيدتهم قائمة على كراهية هذا الرجل الذى أحبط مخططاتهم التاريخية.

تساءل الشاب: ولكن المهاجمين اليوم لا يعلنون أنهم شيعة ؟!

قال الكاتب:

بالطبع، لأنهم بالفعل ليسوا من الشيعة ، فالشيعة المصريون الذين أعلنوا تشيعهم معروفون، وهؤلاء لن يقبل الناس منهم صرفا ولا عدلا وقد فقدوا فاعليتهم تماما بعد هزيمتهم عدة مرات فى المناظرات العلنية على مدار الأعوام السابقة، أما حصان طروادة الجديد للشيعة فهم هؤلاء المأجورون من المحسوبين على أهل السنة وتنحصر مهمتهم فى تحطيم هيبة تاريخ أهل السنة دون الإفصاح عن تأييدهم أو حتى تعاطفهم مع الشيعة وإلا فسدت مهمتهم وعندك فى مصر والعالم العربي ثلاثة أو أربعة من أشهر المروجين لهذه الهجمات بهذا الأسلوب ، وهؤلاء يهمهم فقط هدم تراث السنة حتى لو لم تروج لمعتقدات الشيعة، فبعد يأس الشيعة فى إيران من فاعلية المناظرات مع علماء السنة ، لجئوا لطريقة مبتكرة فعلا تحقق هدفهم دون أن يضطروا للدفاع عن أنفسهم فى مواجهة انتقاد علماء السنة العنيف ، خاصة وأن كتبهم ليست فقط تحتوى الطعن فى القرآن وتكفر الصحابة وأمهات المؤمنين ، بل أيضا لأن كتبهم مثل كتب الصوفية فيها خرافات وروايات لا يمكن أن تكون من نتاج البحث العلمى بل هى أقرب للبحث الجنائي ومباحث المخدرات!

لذلك كانوا يحتاجون لوسيلة تجعلهم يهاجمون كتب السنة دون أن يبادلهم أهل السنة الهجوم على كتبهم، أو على الأقل ينشغل أهل السنة بالدفاع عن أنفسهم ويتركوا كتب المنهج الرافضي فتخلو لهم الساحة للاختراق فاستغلوا بعض المنسوبين للسنة ودعموهم ، فخرج هؤلاء يقولون بأنهم من أهل السنة ويريدون التجديد ـ نفس النغمة العلمانية ـ، وأشهر هؤلاء الدعاة حسن فرحان المالكى فى السعودية ، وعدنان إبراهيم الفلسطينى المغترب فى النمسا، وبعض أضرابهم على المنتديات وشبكات التواصل الإجتماعى،

ولكنهم وقعوا فى حماقات أظهرت نواياهم سريعا فقد كان السؤال المحير عند ظهور هؤلاء الناس لماذا لم يتعرض الطاعنون فى التراث لكتب التراث الشيعى ، ولماذا اقتصر الطعن على كتب وتراث أهل السنة ، والأهم لماذا دوما يتخذ الطاعنون المصادر الشيعية فى التاريخ ليأتوا منها بالشبهات على أهل السنة ؟!

وكان جوابهم أنهم لا شأن لهم بالشيعة وغرضهم تنقية كتب أهل السنة ! ، مع أن كتبنا منقاة وتميز فيها الصحيح والضعيف بعكس كتب الشيعة ، فسلم العلماء لهم بذلك من باب الجدل ، ومضوا معهم إلى آخر الطريق ، فقط اشترطوا عليهم أن يجيبوهم على بعض الأسئلة التى ستكون إجاباتها دليلا قطعيا على حقيقة مذهبهم ، وفشلوا فى الاختبار طبعا، فلم يتفوهوا بما نعتقده نحن أهل السنة من عدالة جميع الصحابة ، وتكفير القائل بتحريف القرآن، إلى غير ذلك من الأمور التى لا يجادل فيها مسلم أما فى مصر فمندوب الشيعة المتخفي هو إبراهيم عيسي ، فهو لم يقدم نفسه علمانيا أبدا بل على العكس ادعى أنه ذو ثقافة إسلامية وقدم بعض البرامج الفضائية التى يروى فيها حكايات من التاريخ الإسلامى ليس من بينها حكاية واحدة صحيحة ! ، ثم فوجئنا بتكرار هجومه على البخارى ، وعلى الخلافة الإسلامية ـ حتى الراشدة ـ وزادت الريبة بظهوره فى قناة شيعية منذ بضع سنوات يردد نفس مفتريات الشيعة فى التاريخ ، ثم ظهر وانكشف تماما فى الأيام الأخيرة.

قال الشاب: كيف ؟!

أجاب الكاتب:

فى نفس الوقت الذى يكثف فيه إبراهيم عيسي هجومه على السُنة ويسفّه لفظ السنة نفسه، فيقول أن النبي عليه السلام لم يكن سنيا !!!، وبغض النظر عن جهالة وحمق الكلمة، إلا أن حجة إبراهيم عيسي كانت ادعاء العقلانية فاتهم كتب التراث بأن بها ما يناقض العقل ، فى نفس الوقت الذى ينشر فيه بجريدته الجديدة (المقال)[٣٩] تحقيقا كاملا عن أشهر وأوثق كتب الشيعة على الإطلاق ، وهو كتاب (الكافى) لشيخهم الكلينى ويقول فى بجاحة منقطعة النظير أن كتب الشيعة أكثر ثقة وعقلا من كتب أهل السنة !

وأنا لن أدعوك لقراءة الكتاب ، بل فقط أدعوك لقراءة فهرس عناوين فصول الكتاب الفهرس فحسب ، ولن تجد فقط تكفير الصحابة وتحريف القرآن ، وأن ثلثي القرآن ضاع

---

(٣٩) جريدة المقال ـ عدد الأحد ١٥ فبراير ٢٠١٥ .

بل ستجد الأعاجيب التى يصفها إبراهيم عيسي بالعقل وهى صفات أئمة الشيعة وهى صفات تعدت أوصاف سوبرمان ولا يمكن أن تتحقق لبشري، بالرغم من أن من يدّعون أنهم أئمتهم ، هم من أبناء النبي عليه السلام وسيرتهم معروفة عندنا وتاريخهم خال تماما من هذه الخرافات ، فيكفيك فقط هذا التناقض لتكشف نواياه، وتناقض آخر أفدح ففي نفس الجريدة يروّج للقرامطة ، ويصفهم بعنوان كبير أنهم أصحاب أول ثورة اجتماعية فى التاريخ !! ، فهل تعرف من هم القرامطة ؟!

القرامطة هم فصيل من الشيعة الإسماعيلية، ومن أشرس فصائلهم فى سفك الدماء ، وقد خرجوا على حكم الخليفة العباسي وكونوا ميلشيات قطعت طريق الحج ، ثم ارتكبوا أفظع جرائمهم عندما دخلوا الحرم المكى وقت الحج ، ثم قتلوا جميع الحجيج ، ودفنوهم فى بئر زمزم، بهدف تغوير مائها ، ثم هتفوا فى صحن الكعبة (أين الطير الأبابيل .. أين الحجارة من سجيل) ، وقاموا بنزع الحجر الأسود من مكانه وجلبوه إلى عاصمتهم وظل عندهم قرابة سبعين عاما ثم يأتى إبراهيم عيسي ويشيد بهم ويُترجم لهم !

فى نفس الوقت الذى خصص فيه أبوابا شبه ثابتة للطعن فى البخارى وصلاح الدين وتهوين شأن الخلافة الراشدة !

أما الممثل الآخر للشيعة فهو ذلك النكرة طويل اللسان ، الذى لا يجيد القراءة أصلا ويدعى أنه باحث مصحح ، هذا المذيع ظهر على إحدى قنوات الرقص الشهيرة ببرنامج يدعو لإسلام جديد ، لست أدرى من أين وحى جاء به ؟!

المهم أن برنامجه التافه هذا يبث بشكل يومى تقريبا فى قناة صاحبها أساسا من رجال أعمال الإعلانات ، وهذا يعنى أن وقت البرنامج على الهواء يتكلف الملايين ، ومع هذا فليس للبرنامج تغطية إعلانية تسمح بهذا الوقت ولا حتى ربعه ، والشركة الوحيدة الراعية للبرنامج هى من أثارت الشكوك فيه ، فهى شركة رأسمالها مثير للريبة وظهرت فجأة واكتسحت سوق الأغذية، ضمن موجة المال العراقي الذى دخل مع الفارين من حرب العراق ومع طعونه المتكررة والتى يزعم أنه جاء بها بجهوده اتضحت نواياه ، وهو كاذب قطعا لأن شبهاته هذى كان مصدرها كتب المستشرقين تارة وكتب الرافضة تارة أخرى وأحيانا مواقع الإنترنت، أما شبهاته تجاه البخارى وكتب الحديث فمنقولة نصا من كتب الشيعة ، ولم يلاحظ المتخلف أن سرقاته ستنكشف ببساطة ، لأنه ظن فيما يبدو أن النقول التى ينقلها باحثو الشيعة من كتبنا هى نصوص صحيحة وموجودة بالفعل،

ولهذا كان يتكلم ويصرخ ويهلل ، مع أن أصغر باحث فى الشأن الشيعى يعلم يقينا أن الشيعة تزوّر النقول من كتب أهل السنة حتى تتمكن من الطعن فيها ، ولأننا نعلم هذه المعلومة جيدا ، ولكن أغلب أصحاب الشبهات لا يعلمونها لهذا فهم يذهبون إلى كتب الشيعة أحيانا طمعا فى إيجاد ثغرة أو شبهة محبوكة وينقلون هذه الشبهات مسندة إلى كتبنا ـ ظنا منهم أن الشيعة يصدقون فى نقلهم عن كتبنا ـ دون أن يدركوا أن الشيعة معجونة بالكذب إلى حد مذهل ، ولهذا يتعرضون دائما للحرج عندما نكشف لهم ذلك

قال الشــاب:

ولكن ربما هو نفسه الذى نقل هذه النصوص وكذب فيها ..

أجاب الكاتب نافيا:

كلا ، فالباحثون فى الشأن الشيعى فى مصر هذه الأيام كثيرون ، ونكاد نحفظ أساليب الشيعة فى طرح الشبهات ، كما أنه فى نقله كان ينقل الشبهة ويقول بنفس الاعتراض الذى يعترض به الشيعة ، وهذه ليست صدفة !

فمثلا من عادة الشيعة التدليس فى أسماء العلماء المشاهير فيأتون بروايات فظيعة ومستنكرة وينسبونها للطبري فنذهب لتاريخ الطبري فلا نجدها ، وإذا بهم لم ينقلوها عن إمام السنة ابن جرير الطبري بل عن المؤرخ الرافضي رستم الطبري ، ويقولون مثلا قال ابن حجر ، فنذهب لكتب ابن حجر فلا نجد القول ، وإذا بهم لم ينقلوها من ابن حجر العسقلانى ـ شارح البخارى ـ بل عالم آخر هو ابن حجر الهيثمى وليس هذا كذاك وهكذا .. وعندما لاحظت ذلك تكلمت مع الباحثين الذين لهم نشاط مشهود فى التصدى للتشيع فتواصلوا بدورهم مع مذيعى قناة (صفا) الذين خصصوا برنامجهم (قرار إزالة)[٤٠] للرد عليه وقلت لهم أن يتحدوه على الملأ بأن يذكر رأيه فى كتب الشيعة ،

وبالفعل تحدوه أكثر من مرة ، فهرب ثم قال أنه لا شأن له بكتب الشيعة وأن كتب أهل السنة ظلمتهم !!

قال الشاب: ولكن هذا المذيع من الممكن أن يكون مأجورا ، ولكن ماذا عن إبراهيم عيسي ؟!

قال الكاتب:

أولا أحب أن أنهبك لنقطة هامة للغاية، نحن لا يعنينا ابتداءً دوافع صاحب الشبهات

---

(٤٠) برنامج قرار إزالة من أروع الردود على العلمانيين ، ومتوفر باليوتيوب.

وهل هو مؤمن بما يفعل مأجور أو عميل أو حتى جاسوس متخفي .. فهذه القضايا لا تعنينا بل هى مهمة أخرى لها متخصصون آخرون هم أقدر منا على تحديدها والتعامل معها، فالقضية هنا ليست شخصية على الإطلاق، بل هى قضية مبنية على الآثار والنتائج وما يتردد من شبهات ، ونحن إن ركزنا على تصنيف صاحب الشبهة فهذا ليس لشخصنة الموضوع بل بغرض كشف مصدر الشبهة الأصلي ، لأن هذا يفيدنا فى إيضاح أهدافه للناس فلا يشغلنا بعد ذلك بتتبع شبهاته وأقواله فى كل مرة ، فإذا نجحنا فى بيان ذلك عزف الناس عنه بعد تبين أغراضه ..

بل إن بيان طبيعة الشبهات ومصدرها قد يكون له فائدة تعود على من يردد تلك الشبهات ، لو كان مثلا قرأ أو سمع أو احتك بهذه الشبهات فأثرت فيه فاعتقد صحتها ، فإذا كان حسن النية ورأى بعينيه مصدرها الحقيقي ومدى كذبها وتدليسها وأهداف مروجيها فقد يعود عما يعتقده فيها ..

قال الشاب: هل تعنى أن هناك مدفوعون بالأجر لتأدية هذا الدور وهناك آخرون يفعلون ذلك مقتنعين رغم كونهم أشبه بالعملاء لغيرهم ؟!

قال الكاتب:

وما مفهومك أنت للعمالة ، هل هى فقط عندك العمالة مقابل أجر ، هذه أهون صورها يا صديقي، العمالة هى المفهوم الأوسع للجاسوسية ، فالتجسس هو الصورة التقليدية للعمالة التى تتم بأجر ، أما العمالة بمفهمها الواسع فقد تكون بلا أجر أصلا ، وتتخلص فى أنها النشاط الذى يخدم العدو أيا كان حتى لو كان صاحبه لا يدرك ذلك!

فالذى يعود لتاريخ أجهزة المخابرات الحديثة سيجد أن أساليب تجنيد العملاء تتم عن طرق محددة وهى طريق استغلال ضعفهم تجاه المال أو الجنس أو الشهرة ، أما أخطرها على الإطلاق العمالة بسبب الاتفاق الأيديولوجى ، أو بسبب عداوة العميل لنظام بلده السياسي أو توجهه الفكرى فالعمالة نظير المال والمقابل المادى هذه يسهل كشفها والسيطرة على العميل وتجنيده كعميل مزدوج ، أما العمالة بسبب الاتفاق الأيديولوجى والعداء للنظام الحاكم ، فهذا مستحيل ، لأن العميل هنا تم تجنيده من العدو بسبب أنه يناصر الفكر الدينى أو السياسي للعدو ، فى نفس الوقت الذى يعادى فيه الفكر الدينى أو السياسي فى بلده ، ولذلك فهؤلاء ليس من الضرورى حتى أن تجندهم أجهزة المخابرات أو تدفع لهم مقابلا ماديا بل معظمهم يتبرع بالخيانة طوعا ، لأنه يفعل هذا عن اقتناع

ولا يراها خيانة أصلا ، وعبر التاريخ كان هؤلاء العملاء أصحاب أكبر الأدوار فى تهديد الأمن القومى لبلادهم، وأشهر جاسوس سوفيتى فى العالم، والرجل الذى نجح فى تغيير مسار الحرب لصالح الحلفاء ، كان هو الدكتور ريتشارد سورج[٤١] الألمانى الذى كان حاصلا على دكتوراة العلوم السياسية وأهملته ألمانيا وعجز أن يحصل فيها على وظيفة، فكره ألمانيا ونظامها ، وتعاون مع السوفيات مخلصا، لمجرد النكاية فى بلده وكان سببا رئيسيا فى هزيمة الألمان وكذلك (كيم فيلبي) وهذا الرجل المصيبة يمثل فضيحة فى تاريخ المخابرات البريطانية ، لأنه كان يشغل منصب نائب مدير المخابرات البريطانية ، والنكتة أنه كان يشغل قبلها منصب رئيس قسم مكافحة الشيوعية ، وكان شيوعيا مخلصا وجاسوسا فريدا للسوفيات وآمن بالشيوعية كأيديولوجية ومذهب ، وكاد البريطانيون يصابون بالجنون عندما اكتشفوا أمره، لكنه نجح فى الفرار إلى موسكو،

فتخيل ما الذى يدفع رجلا فى مثل هذا المنصب وبدولة عريقة كبريطانيا، وهو بالفعل يمتلك كل ما يحلم به إنسان ، بينما السوفيات منغلقون اقتصاديا وليس مسموحا لأحد فى بلادهم بالرفاهية أو الحرية ، ومع هذا ضحى الرجل بكل هذا ورضي بالعار الذى سيلحقه وعائلته، فى سبيل اقتناعه بالمذهب الشيوعى فالعمالة ليست بصورتها التى تقدمها السينما بل هى أعمق من هذا بكثير، والاقتناع الوجدانى يجعل الإنسان يدخل للخيانة وهو فخور بنفسه!، أو على الأقل يدخلها وهو يتصور أنه ينتقم من بلده التى أهملته ولم تقدر عبقريته !

قال الشاب مندهشا : ليس لهذه الدرجة !

قال الكاتب :

يا رجل هل تتخيل أن العلمانيين والمتغربين والإخوان، هل تتخيل أن كل من ينتمى إليهم هو بالضرورة عميل بالمعنى الحرفي للكلمة بمعنى أنه يتقاضي الثمن ويعلم أنه خائن سواء لدينه أو لوطنه أو لحضارته، كلا بالطبع العملاء بالصورة التقليدية فى تلك التنظيمات والاتجاهات لن تجدهم يخرجون عن كبار القيادات ، وليسوا كلهم أيضا ، بل بعضهم فقط ، والباقون يأتون بأفعال الخيانة وقلوبهم راضية تماما عما يفعلون، ففي حالة العلمانية والمتغربين الذين يروجون للتغريب فى مصر منذ مطلع القرن العشرين ، هؤلاء لم يشترهم أحد ويدفعهم لما يقولون ، بل استقطبهم الغرب بتقدمهم المادى، وكانت

---

(٤١) وللجاسوسية فنون ـ د. نبيل فاروق ـ دار سبارك للشر والتوزيع.

هذه الشخصيات من البداية كارهة لأوطانها بواقعها الحالى ، وساهمت النظم العربية فى تكريس هذه الكراهية ، فخرج هؤلاء المتغربون كافرون بالوطن والوطنية لأنهم خلطوا بين الدولة والنظام ، فأنت كمواطن يمكنك محاربة نظام الدولة السياسي وتصبح بطلا لكن محاربة دولتك نفسها وتهديد أمنها هى خيانة صريحة ، وهو ما لم ينتبه له المتغربون فهم يرون أنفسهم أهل تميز يستحقون التقدير المناسب (٤٢) ، ويتعاملون مع شعوبهم على أنها عبيد لا ينفع فيها التغيير ، فهاجروا للغرب ودرسوا وأبدعوا فالتقطهم الغرب عازفا على هذا الوتر وأعاد تصديرهم إلينا ليروجوا للديمقراطية والإصلاح كما يراها الغرب وأول مبدأ فى ذلك تحطيم مؤسسات الجيش والشرطة والقضاء لأنها مؤسسات لن ينفع فيها الإصلاح ، وهذا هو المطلوب ..

أو يدعموهم عندما ينادون بهجر التراث والثوابت باعتبارها عوائق التقدم العربي ، وعليه يقومون بهذه المهمة مخلصين دون أن يشكّوا لحظة كيف اتفقت أهدافهم الإصلاحية مع ما ينادى به الغرب أصلا ، ومنذ متى كان الغرب يريد الإصلاح والديمقراطية للعرب وهم أساسا من زرعوا بذرة الديكتاتورية والانشقاق منذ اتفاقية سايكس بيكو !

والمناداة بالإصلاح والديمقراطية لابد أن يكون من داخل الأوطان لا من خارجها وبطريقة أهلها لا بطريق أعدائهم ، فإن قلتم بأن الشعوب لا تريد أن تقتنع بمفاهيمكم وأنتم بداخلها ، فكيف سيقتنعون وأنتم ترددون تلك الدعوات من الغرب ومن بلاد تحالفت ولا زالت تتحالف على مصالحنا؟!

وبالنسبة للمناداة بالإصلاح الدينى المزعوم، لم يسأل العلمانيون ما هو سبب الاتفاق بينهم وبين الغرب فى المناداة بالتطوير الدينى الذى يعنى سلخ الدين من نفوس الناس ، وكيف يتفق هذا مع دعم الغرب للجماعات الإرهابية؟! وكيف يتفق هذا مع إيواء الغرب لقادة أعتى التنظيمات الإرهابية فى العالم ؟!

والإخوان وأضرابهم، حدثت معهم نفس القصة ، فالقيادات العميلة تدفعهم من الخارج للتهلكة، وهم هناك فى الخارج حيث النعيم المقيم ، ومع هذا صدّقهم أتباعهم رغم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحض أصحابه على الهجرة وبقي هو فى وطنه، وعندما قرر الهجرة للمدينة كان آخر من هاجر بعد أن اطمئن على وصول الجميع سالمين بينما هؤلاء القيادات آمنون فى الخارج ويقفون صفا واحدا مع اليهود فى رغبتهم بتدمير الجيش المصري؟!

---

(٤٢) طبعا لا ينطبق هذا على أكثرية المهاجرين العرب للغرب ، فمعظمهم هاجر من بلاده وهو يحمل فى أعماقه إنتماؤه لدينه وبلده مهما تعرض للظلم والإقصاء أما الفئة القليلة منهم فهى التى وقعت فى فخ التغريب.

بل بلغت بهم الخيانة ليناودوا بضرب الأمريكيين لمصر ، تطبيقا لمقولة أحد قياداتهم وهؤلاء يعيدون ملة الخوارج من جديد ، فقد قتل الخارجى ابن ملجم، إمام الأئمة على ابن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو يهتف (الله أكبر إن الحكم إلا لله) !!

قال الشاب: ولكن أليس غريبا أن تبرئهم من العمالة الواضحة وتقصرها على القيادات فقط دون الأتباع ، وتقول بأنهم مؤمنون بالضلال ولهذا يظنون أنهم على حق !

قال الكـاتب:

من الحماقات الكبري التى نرتكبها جميعا أننا نخلط بين الأشخاص والأقوال، والعلمانيون والإرهابيون وأذناب التشيع عندما يفعلون ذلك، فهم يفعلونه لأنهم على باطل وينتهجون معنا الكذب والافتراء للتشويه ، وبالمثل يقوم بعض الأطراف باستحلال اختراع التهم لهم ، مع أننا لا نحتاج أصلا للافتراء لأنهم يرتكبون من المصائب ما يغنينا عن ذلك ، فضلا على أن ديننا ينهانا عن الافتراء والظلم حتى للظالمين ، فنحن لسنا مثلهم بالإضافة أننى ـ كمسلم ـ المفترض ألا يعنينى من أشخاصهم شيئ أصلا ، فلا توجد علاقة شخصية أو نفع شخصي أو ضرر شخصي أصابنا منهم بل الضرر كان عاما وجارفا للمجتمع سواء كان من العلمانيين أو الإرهابيين، وبالتالى فمشكلتنا ليست مع ذواتهم ، ولهذا فلو أن أحدهم تراجع عما يفعل فلن يكن له منا إلا احترام هذا التراجع ،

إنما يعنينا الأفكار التى يروجونها ضد الدين والوطن والتاريخ ..

وهذا هو منهج أهل السنة من علمائنا القدامى ، فأحدهم قيل له أنه يشتد فى نقد كتب الفيلسوف الصوفي محيي الدين بن عربي، فما يدريه أن ابن عربي ربما كان فى أعلى الجنان الآن ؟!

فرد العالم ردا مفحما، حين قال ما مؤداه:

(وما يعنينى من شأن ابن عربي نفسه سواء كان عند الله فى منزلة الأنبياء أم فى منزلة إبليس ، أنا يعنينى فقط كتبه التى تركها ، وأفكاره التى نشرها فى حياته ، وربما كان قد تاب وتبرأ منها ، ولا أحد يدرى ذلك ، لكن الناس لم تعرف بتراجعه ـ على فرض وجود التراجع ـ وبالتالى فنحن لا نملك إلا نقد هذه الأفكار وبيان كفرياتها لأنها منتشرة بين الناس) كما أن هناك دليلا من تاريخ أهل السنة يوضح لك كم كانوا منصفين ، فالإمام أبي الحسن الأشعري الذى ابتكر مذهب الأشاعرة فى العقيدة، هذا الرجل له تجربة فريدة فى تاريخ الفكر والعلم ، فهو الرجل الوحيد الذى ابتكر مذهبا وتبعه كثير

من الناس ، ثم تاب عن هذا المذهب وتبرأ منه تماما وعلانية، ومع هذا رفض أتباعه تراجعه ، واستمروا حتى يومنا هذا يقولون بأنهم أشاعرة على المنهج الأشعري ويرفضون قول أهل السنة من أن زعيم الأشعرية تراجع عن أفكاره علانية وسجلها فى آخر كتاب له هو (الإبانة عن أصول الديانة) ويقولون بأن هذا الكتاب مدسوس عليه! ، فلو كان أهل السنة يلفقون الكتب للناس كما يفعل المبتدعة ، فلماذا لم يفعلوا هذا مع كافة رؤساء أهل البدع ، فيزوروا لزعماء المعتزلة وزعماء الشيعة والخوارج ، وغيرهم !!

فليس الافتراء من عادة أهل السنة ولهذا أنصفوا الأشعري وقبلوا تراجعه، ولم يهاجموه بعدها أبدا بل اقتصروا على مهاجمة الأفكار الأشعرية التى تمسك بها أتباعه

وبالمثل فى عصرنا الحاضر ، نهاجم كتب طه حسين رغم أن هناك إشاعة غير موثقة تقول بأنه تاب عن كتاب الشعر الجاهلى وبقية كتبه، ونحن لا نعرف ذلك ونتمنى حدوثه لكن العلماء مضطرون لمهاجمة كتبه لأن العلمانيين نشروها على نطاق واسع ويصرّون عليها ، فماذا نفعل؟!

بل إن علماء السنة كتبوا وحذروا من الافتراء على أهل البدع تحت تأثير الغضب مما يفعلون، وذلك عندما لاحظوا أن بعض العلماء يزيد من التشنيع وترويج الاتهامات بلا سند أو قرينة، واشترطوا توافر القرائن للاتهام، وهذا الإنصاف منهج متكامل لدى أهل السنة، ولكن أهل البدع يضطرون اضطرارا للافتراء لأنهم لم يجدوا طريقا غير ذلك للطعن، وهناك فارق أشد أهمية..

فأهل البدع يتحالفون مع بعضهم البعض على السنة، ولا يتبرءون من أى جريمة يقع فيها أحدهم بل يناصرونه فى الحق والباطل، ولهذا قامت قيامة العلمانيين فى مصر للدفاع عن طه حسين ونصر أبو زيد رغم أن هؤلاء لم يقتصروا على الطعن بالدين بل ارتكبوا جريمة علمية متكاملة الأركان، إما بسرقة أفكار المستشرقين وانتحالها كما فعل طه حسين [٤٣] ، وإما بالوقوع فى الجهل الفادح كما فعل نصر أبو زيد [٤٤] بينما أهل السنة هم أنفسهم من أفردوا الكتب والخطب والمحاضرات فى الرد على بعضهم البعض فى أى أخطاء ، بل إن الردود كانت فى بعض الأحيان تتسم بالشدة والغلظة إن كان الخطأ كبيرا

(٤٣) سطا طه حسين على أفكار المستشرق اليهودى مرجليوث فى كتابه الشعر الجاهلى وكشف هذه السرقات محقق التراث الشهير محمود شاكر وكذلك الرافعى فى رده على طه حسين.

(٤٤) وقع نصر أبو زيد فى جهالات لا يمكن قبولها حتى من طالب بكلية الآداب وذلك عندما هاجم الإمام الشافعى مدعيا أنه نافق دولة بنى أمية بعد أن أغروه بالمناصب رغم أن دولة بنى أمية سقطت قبل مولد الشافعى أصلا بخمسة عشر عاما كاملة !!

ومؤثرا، والعالم الذى ارتكبه عالم كبير يتبعه الناس ، ولهذا تجد فى التاريخ مصنفات شهيرة من العلماء ضد الآراء الخاطئة مليئة بالردود العنيفة ولكن مهما بلغ عنفها فهى لا تتجاوز إلى السب الشخصي أو التجريح أو الإسقاط الكلى للعالم للمخطئ وتاريخ أهل السنة فى الحيادية تغص به الكتب، ويثير أبلغ آيات الإعجاب، فلم يمنعهم حتى الاختلاف المذهبي من إنصاف مخالفيهم لو كان من ظلمهم هم أتباعهم أصلا ، فتخيل درجة الحيادية؟!

فمثلا الإمام ابن الجوزى عندما صنف كتابه فى الموضوعات، واتهم بعض أحاديث مسند الإمام أحمد ابن حنبل بأنها موضوعة ، ولم ينجح ابن حنبل فى كشفها ، قال هذا الكلام رغم أنه ـ أى ابن الجوزى ـ حنبلي المذهب، فمن رد عليه..؟!

الذى قام بالرد عليه وتصدى للدفاع عن مسند ابن حنبل كان هو الإمام ابن حجر العسقلانى رغم أنه شافعى المذهب ، فكتب كتابه (القول المسدد فى الذب عن المسند)

وتطبيقا لتلك المبادئ،، فلا يعنينا إن كان إبراهيم عيسي أو غيره يكتبون ذلك عن طريق تحريض غيرهم لهم، أو بسبب مكاسب مادية من أطراف معادية ، أو يكتبون ذلك عن اقتناع بالباطل والغرور بالرأى، فكلها سيان، المهم أنهم ارتكبوا الطعن ولا زالوا مصرين عليه.

قال الشــاب: يبدو أن الموضوع أكبر مما تصورت ..

أكمل الكاتب:

لهذا فليس مطلوبا ممن يتصدى للدفاع عن السنة أو التاريخ أن يشغل نفسه كثيرا بدوافع المهاجمين، إلا لعلة واحدة فقط وهى تصنيف المهاجمين لرؤية من يستحق الرد ومن لا يستحق، فالمأجور لأداء دور ما فى مهاجمة السنة فى مقابل أيا كان نوعه أو لمجرد الشهرة، وفى نفس الوقت هو نفسه غير مقتنع بهذه المهاجمة ، فهذا لا يستحق حتى ذكر اسمه، لأن يقوم بدور الكومبارس ليس إلا ، أى أنه لا يقوم بذلك تحقيقا لرسالة أو نصرة لفكرة معينة فهذا يكفي فقط كشف جهله الذريع وبيان أنه لا يعرف حتى طريقة الهجوم وبالتالى فمن مضيعة الوقت أن نشغل أنفسنا بتعقبه بل يجب أن نعود بالرد على ولاة أمره ودافعى أجره فمن العبث أن نعطى لهؤلاء الشراذم قيمة وحالهم ظاهر لكل متأمل، وعليه فالرد يكون على من دعمه وأرسله والنوع الثانى هو الذى يقوم بالدور ابتداء بسبب هدف يسعى إليه، وهذا الهدف إما نصرة الفكر المعادى للسنة اقتناعا به أو نصرته لمجرد الكيد

فى أهل السنة وغالبا ما يكون قد وقع لهذا الشخص مع بعض أهل السنة فى خصومة أو أخذ انطباعا معينا عنهم فهذا النوع تدفعه كراهية السنة وأهلها للتعاون ضد كل من يهاجمها ومواجهة هذا النوع تكون بمحاولة نقاش الشخص نفسه، أو بيان خطورة ما يفعل ومحاولة جره من مستنقع الشبهات ، فإن عجزنا اكتفينا برصد تناقضاته والرد على شبهاته لأنه للأسف يفعل ما يفعله اقتناعا بالعدوان، والذين يردون على إبراهيم عيسي عن طريق كشف تناقضاته وحسب، هؤلاء أجدى وأوقع فى الرد من الذين ينجرون خلف الشبهات التى يطرحها، لأن الاهتمام بالشبهات له شرط جوهرى وهو أن تكون الشبهات لها قيمة واقعية على الأقل، أى أنها يمكن أن تضل الناس، أما إن كان طارح الشبهات من عينة الكذابين والملفقين فيكفينا هنا بيان كذبه المتعمد للناس وتدليسه على كتب التراث بأدلة متوافرة ومتضافرة تبين أن كذبه هنا متعمد ومتكرر وليس سهوا أو خطأ لا، وبالتالى لا نهتم بشيئ يطرحه بعد ذلك ولو ظل لألف عام يشنع على أهل السنة،

أما إن كان من عينة إبراهيم عيسي ومن سار على دربه، فهنا لا نهتم بما يطرحه بقدر ما نهتم بالتركيز على أسلوبه نفسه ، نظرا لضحالة مستوى الشبهات التى يطرحها ـ هذا إن جاز تسميتها بالشبهات أساسا ـ فالذى يتأمل نشاطه فى الشهور الأخيرة يعتقد يقينا أن إبراهيم عيسي يخرج على الهواء دون أى إعداد مسبق لما يقول ويفتى بكل ما يجول ما بخاطره ويقفز على لسانه وكأن عقله لا سيطرة له على جوارحه!

والغريب أنه دوما ما يظهر منتفخا بالغرور زاعقا وصارخا ومطالبا للناس بأن تقرأ وتفتح الكتب حتى أن المُشاهد للأسلوب العنترى الواثق الذى يتبعه يظن بالفعل أنه على حق !!! مع أن عباراته وشبهاته التى يطرحها لا يمكنها أن تصدر عن رجل فتح المصحف نفسه فى حياته ولو لمرة واحدة هذا فضلا عن كتب علوم الشريعة وإلا بالله عليك أخبرنى كيف يمكن أن يخرج عيسي وبمنتهى الجرأة يقول أنه لا وجود للفظ ومفهوم الشريعة الإسلامية لا فى القرآن ولا فى السنة ؟!!!![٤٥]، وذات مرة يخرج فيقول بأن الحجاب لا أصل له فى الشريعة ولا القرآن، فانظر إلى غباء الإستدلال حيث ذهب إلى المفهوم العامى لكلمة (الحجاب) وأنزله على المفهوم الفصيح فى القرآن بمعنى الساتر غافلا

---

(٤٥) أنا إلى الآن لا أستطيع فهم مقصود عيسي من جزمه على عدم وجود مصطلح شريعة إسلامية ، والغرابة ليست فقط فى وجود المصطلح (شرعة وشريعة وشرع) فى القرآن والسنة ، بل الغرابة فى أن النفي ذاته يتصادم حتى مع المنطق إذ كيف يمكن تخيل وجود دين بدون شريعة ووجود قانون بلا تقنين ، وماذا نسمى العبادات وقوانين المعاملات هل هى معدومة مثلا أو غير وجودة أم أن هذا الموهوم يعتبرها مجرد خواطر !! ؟!

عن أن حدود عورة المرأة ووجوب ستر شعرها لم يأت فى القرآن بمعنى الحجاب الدارج فى العامية وإنما جاء بصيغة الأمر بستر العورة وفى أحد عناوين صحيفته الجديدة يخرج بعنوان أن النبي عليه السلام لم يكن سنيا !! ، ولست أدرى من أى مدمن مخدرات استقي هذه العبارة ؟! وكيف لم ينبهه داعموه أن هذه العبارة الكاشفة عن حقد دفين لكل ما يمت للسنة بصلة ، هى عبارة فى الأصل تمثل فضيحة له فكيف ينتسب صاحب السنة إلى سنته بينما العكس هو الصحيح، وهل يمكن لأحد أن يقول مثلا أن الشافعى لم يكن شافعيا أو ابن حنبل لم يكن حنبليا!!

ومرة أخرى يخرج فيقول بأن من يزعم أن فى الإسلام ثوابت هو متجمد ولا يعرف عن الإسلام شيئا ولا وجود لقاعدة معلوم من الدين بالضرورة!!

وأنا لا أكاد أفهم كيف يمكن أن يتفوه عاقل بمثل هذا الكلام؟!

فلو لم يكن فى الإسلام ثوابت فماذا نسمى أركان الإيمان وأركان الإسلام الخمسة والفرائض ، هل نسميها متغيرات تخضع للتطوير والتحديث؟!

وهل يمكن أن يأتى فى هذا الزمن الغريب من ينادى بتطوير وتعديل شهادة التوحيد أو ينكر وجود الوحى أو وجوب الموت على كل حى ، أو البعث والحساب !!

وهل يمكن لعاقل يحترم نفسه أو يحترم حتى مشاهديه ، أن ينفي وجود الثوابت فى أى مجال من مجالات الحياة ، حتى فى مجال الأخلاق والفضائل!

لهذا قلت إن كلام إبراهيم عيسي لا يحتاج إلى علماء أو باحثين فى الفكر الإسلامى للرد عليه بل هو بحاجة إلى طبيب نفسي متخصص ليحاول معالجته من الهلاوس السمعية والبصرية التى يتفوه بها كلما ظهر على شاشة قناته أو امتشق قلما فى صحيفته

وبالمناسبة أنا هنا لا أسبه أو أنتقص منه ، فوالله إنى أتكلم عن واقع حقيقي فالغرور عند إبراهيم عيسي بلغ حد المرض النفسي وعقدة العظمة ، بالإضافة إلى أن هذه العقدة أنتجت لديه تناقضات صارخة جعلت حتى عوام الناس من المشاهدين تدرك أن الرجل مصاب بالفصام يعيش كل يوم بشخصية وقناعات تختلف كل ساعة !

قال الشاب متحسرا:

عندما تابعنا إبراهيم عيسي منذ الإصدار الثانى للدستور فى عام ٢٠٠٤ م ، كان سر انبهارنا به هو تصورنا أنه ذو مبدأ وثوابت أخلاقية ومهنية لا تتراجع ، وحقيقة لا أدرى ماذا أصابه بعد الثورة ، فما كان يكتبه قبل الثورة وبعد الثورة خلال حكم المجلس

العسكري لا يمكن أن يتناسب مع ما كتبه فى الفترة التى امتدت من حكم الإخوان حتى فترة الإطاحة بهم! حتى أننا صنعنا له فيديو ساخر نقارن فيه بين تحولاته العجيبة ونفسر هذه التحولات بأن كائنات فضائية خطفت إبراهيم عيسي الأصلي وجاءت بآخر ينتحل شكله ولكن بقناعات مضادة ..

أكمـل الكاتب:

ولكن ينبغي ملاحظة أننا لا ننكر على أى إنسان أن يغير مواقفه وقناعاته طبقا لما يتوافر له من معلومات جديدة أو مراجعة خطأ بشرط أن يعلن تراجعه وأسبابه ومبرراته كما أن هذا التغيير يجب أن يظل فى حدود المتغيرات أما تغيير الثوابت فهذا هو النفاق بعينه أو على الأقل هو اضطراب نفسي لا شك فيه، وإلا فكيف يمكن لعاقل أن يصدق أن كتابات إبراهيم عيسي قبل الثورة التى تم نشرها وتوثيقها فى كتب متتابعة هى (اذهب إلى فرعون) و(لدى أقوال أخرى) و(شهادتى عن مبارك وعصره ومصره) ثم كتاب (تاريخ المستقبل)، هذه الكتب إذا وضعتها جنبا إلى جنب مع كتابه (ألوان يناير) الصادر بعد الثورة ستضرب كفا بكف !

وليت الأمر اقتصر على هذا بل إنك لو أمسكت بكتاب (ألوان يناير) والذى يعالج فيه فترة حكم المجلس العسكري ووضعته إلى جوار مقالاته فى جريدة التحرير وبرامجه المختلفة فى الفترة من منتصف عام ٢٠١٢ وحتى فترة ما بعد ثورة ٣٠ يونيو ، لن تجد أبدا أى علاقة بين هذه المقالات وبعضها، ولا يمكن لأى متأمل محايد أن يقول بأن هذه المقالات هى لشخص واحد!

ولا أدرى حقيقة لماذا يفعل إبراهيم عيسي بنفسه ما يفعل ، فهو لا يضر أحدا بجرائمه تلك إلا نفسه، وأجيال الشباب التى صنعت منه نجما وعملاقا صحفيا كانت هى نفس الأجيال التى أسقطته اليوم ومحت عنه كل فضيلة بعد أن تعامل مع شباب الثورة بمنطق الشيطان (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين) وهذا بالضبط ما فعله عيسي مع حركة ٦ ابريل ، فقد كانت الحركة فى بداياتها وطنية خالصة ولا علاقة لها بمنظمات الغرب ولا أنشطتها، وبعد الثورة وانتشار أمرهم استقطبتهم الأذرع الإعلامية والسياسية الغربية وكررت معهم لعبتها الأثيرة بأن جعلتهم نجوما فى الفضاء الإعلامى العالمى ، وبحسب رواية أحمد ماهر ـ مؤسس الحركة ـ كان إبراهيم عيسي يشجعه على قبول التمويل الأجنبي رغم خشية المهندس الشاب من

عواقب ذلك ، وأخذ إبراهيم عيسي يقنعه بمختلف الوسائل أن من حقه الحصول على تمويل خارجى أسوة بالحكومة المصرية التى تأخذ هذه المعونات ! ، وعضّد إبراهيم عيسي كلماته بعدة مقالات قبل وبعد الثورة تسخر من اعتبار التمويل الأجنبي مصدر شبهة أو مصدر اتهام بالخيانة بل بالغ كعادته فى التطرف إلى اعتبار الإستقواء بالخارج سياسيا هو من قبيل النضال المشروع ضد نظام مبارك !، وبعد ثورة يونيو وفور إلقاء القبض على أحمد ماهر وشلته تبرأ منهم إبراهيم عيسي واتهمهم بأنهم شباب غرير بلا رؤية ومُخترقون، ثم قال فى بساطة مدهشة بأن ثورة يناير أصبحت صنما يعبده أصحاب الهوى ، وأن هؤلاء الشباب يمتازون بالسذاجة المطلقة عندما ينتقدون الجيش ، رغم أن إبراهيم عيسي نفسه كان أول من قدح زناد هذا النقد أيام المجلس العسكري !!!

وبالطبع لا يمكننا أن نعيب على ماهر وشلته من أن يشدوا شعورهم أو يقطعوا شرايينهم من هذا التحول الخرافي !

وإبراهيم عيسي فى مقالاته القديمة التى كانت تحترق بالسخرية من حكاية الضربة الجوية لمبارك حتى أنه قال (ليت مبارك ضربنا نحن بالضربة الجوية وذهب ليحكم إسرائيل ثلاثين عاما) ، كان هو نفسه إبراهيم عيسي الذى أخذ يكيل المدائح لمبارك بعد ذلك باعتباره أحد أبطال أكتوبر وصاحب الضربة الجوية وأن هذه حقيقة شاء من شاء وأبي من أبي !!!

أما النكتة التى أضحكت مصر كلها على إبراهيم عيسي فهى قصة محاكمة القرن ، فعيسي كان هو صاحب البلاغ الرئيسي الذى يتهم مبارك والداخلية بقتل المتظاهرين فى الثورة ، وهذا معناه ـ بالنسبة لمن يفهم ألف باء قانون ـ أن صاحب البلاغ متيقن من صحة اتهامه بغض النظر عن ثبوت الإتهام بعد ذلك أمام المحكمة من عدمه ، لكن الفيصل هنا هو قناعة صاحب البلاغ بصحة الإتهام وإلا لما جاز له أن يتقدم به أصلا وتم الحكم على مبارك بالمؤبد هو وحبيب العادلى ثم تمت إعادة محاكمته وتم استدعاء إبراهيم عيسي للشهادة مجددا ليفجع الجميع بنفي رؤيته لأحداث قتل المتظاهرين ، وينفي التهمة عن الداخلية تماما ، وهذا معناه نفيها عن مبارك بطبيعة الحال ، ثم خرج فى الإعلام هائجا مائجا يبرر ذلك بأنه لا يقبل أن يشهد الزور وأنه نطق بما رآه ولو أن أحدا غيره رأى الشرطة تقتل المتظاهرين فعليه بالشهادة !!!

وبالقطع لنا أن نمسك السماء بأيدينا ونحن نتساءل كيف تقدمت أنت نفسك بالبلاغ

واضحا وصريحا فى اتهام الداخلية ومبارك بقتل المتظاهرين ؟!!

فإن كنت لم تر بنفسك حوادث القتل كما تدعى، فهذا معناه أنك كنت تفترى على الداخلية ومبارك لا سيما وأن شهادتك الأولى جاءت بحكم المؤبد للمتهمين ، وإن كنت رأيت الحوادث فكيف نفيت هذا فى إعادة المحاكمة ؟! ،

فإبراهيم عيسي فى الحالتين شاهد زور لا محالة ، بغض النظر عن صحة اتهام مبارك والداخلية بقتل المتظاهرين من عدمه وأنا لا أريد أن أسرد كمية التناقضات التى تتسع لمجلدات فيكفينا هذه النماذج لنعلم أننا أمام شخص قتلته ذاته وانسحقت شعبيته وسقط من أعين الناس فعليا ، وممارساته الأخيرة تجاه الشريعة وعلومها والأزهر ورجاله هى مجرد فصول فى رواية نهايته التى يكتبها لنفسه.

تساءل الشـاب:

ولكن لماذا يدعمه الشيعة ـ إن صح دعمهم ـ وهو بالفعل من خلال استطلاع موقف الناس منه على شبكات التواصل أصبح فعليا غير مؤثر ..

قال الكاتب مبتسما:

هناك مقولة شهيرة للإمام جعفر الصادق عن الشيعة المنتسبين إليه قالها بعدما رأى حالهم ، أن الحماقة من صفاتهم الأثيرة ، وأنا هنا لا أعنى العوام منهم ، فعوامهم مثل عوام أهل البدع معذورون بالجهل أو التأويل ومن الممكن التماس العذر لهم فى هذه القناعات الغريبة التى يعتقدونها باعتبار أنهم ورثوها معرفيا عن آبائهم وأجدادهم،، أما المراجع والقادة والمخططون فهؤلاء لا عذر لهم قطعا لأنهم دخلوا إلى الحوزات وتعلموا فيها وشاهدوا بأعينهم حقيقة دين الشيعة[٤٦] ، ولهذا فكل منهم يقبل بدوره من الناحية الدنيوية البحتة نظرا لأن المراجع والحوزات تسيطر على أموال الدولة الإيرانية تماما بل وعلى سياستها الخارجية أيضا وفق نظام ولاية الفقيه، هذا فضلا على سيطرتهم التامة على أتباعهم بكل ما يقتضيه هذا من تحصيل وافر للأموال التى يدفعها عوام الشيعة لمراجعهم تحت باب (الخُمس) وبالتالى فالدولة الإيرانية الآن لا تنشر التشيع بهدف نشر دينها الخاص أو حتى وفق رؤية الشيعة القدامى للتشيع ، فأمر الدين خارج نطاق اهتمامهم الذى ينصب على النفوذ والسيطرة على الحكم فى المنطقة بأكملها ، وبالتالى لن يستطيعوا تفعيل هذه السيطرة بغير تفعيل المد الشيعى لأن طبيعة دين الشيعة ذاته

(٤٦) لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة كتاب (سفراء جهنم ـ الجزء الأول) ـ للكاتب ـ موقع صيد الفوائد.

قائمة على الطاعة العمياء من الأتباع ، والمرجع أو العالم الذى يفكر فى أن يغرد خارج السرب أو يستيقظ ضميره فيحاول البوح بما يراه ، فمصيره معروف ويتراوح بين القتل والإعتقال إلا لو نجح فى الهروب ، وقد هرب بعض الرموز المؤثرين من هذه الدوامة وكتبوا محاولين التصحيح مثل موسي الموسوى وآية الله برقعى والمفكر على شريعتى وأحمد الكاتب ولكن المرجعيات لم تتركهم بالطبع وتعقبت كتبهم وشخصياتهم بالتشهير والإسقاط ونظرا لأن المراجع تمتلك تحت يديها دولة كاملة هائلة الموارد مثل إيران ، فلهذا هم يتوسعون بكافة سبل الإغراء لمواجهة دول السُنة بالذات فى مصر والسعودية ، ونفوذهم فى الخليج والهلال الخصيب له ما يبرره لأن هذه المناطق بطبيعتها كان للشيعة فيها وجود تاريخى كما أنها تتميز بتعدد الأعراق والقبليات والعصبيات، أما مصر فالأمر مختلف جذريا ..

وقد تعددت محاولاتهم كما قلنا فى العصر الحديث ولم تنجح من بداية القرن العشرين وحتى اليوم ، ورغم أنهم تمكنوا من اختراق بعض المؤسسات والطرق الصوفية إلا أن هذه الإختراقات بلا جدوى والسبب فى ذلك هو الغباء المنظم الذى تتميز به خططهم ، فمصر بلد ذات عرق واحد والمواطنون فيها ـ باعتبارها أقدم دولة فى التاريخ ـ ينظرون للحكومات على أنها مُعامل الإستقرار وبالتالى لا وجود للعصبيات هنا ، كما أن مصر تتميز بميزة متفردة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وهذه الميزة هى التى أثنت عليها نصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء ، وجلبت لمصر مودة ومحبة كافة العرب والمسلمين ، ألا وهى التميز بالإنتماء الفطرى للدين منذ نزول إدريس عليه السلام وحتى دخول الإسلام لمصر، وبالقطع ليس معنى هذا أن هذه الميزة صفة لصيقة بالمصريين وحدهم بل هى عامة على سائر بلاد المسلمين ، ولكن التميز الذى أعنيه هو الطبيعة الخاصة فى مصر وتاريخها مع التدين ومقولة أن الشعب المصري متدين بطبعه ـ وهى المقولة التى يسخر منها بعض المصريين الآن ـ ليست مقولة خيالية ، ولكن هؤلاء الناقدين لم ينتبهوا لدلالتها ، فليس معنى أن الشعب المصري متدين بالفطرة أنه شعب من الملائكة أو أن التدين معناه الإلتزام والبعد عن الفواحش من الشعب بأكمله !!

ليس هذا هو المقصود ..

إنما المقصود أنه رغم أن التدين الفطرى منتشر بين العوام ، إلا أن مفهوم الإنتماء للدين موجود حتى بالنسبة لمن يتورطون فى الفواحش والمعاصي ، وأعنى به أنهم يحترمون

التدين الحقيقي الصادق البعيد عن النفاق ، وأعماق الناس هنا فيها غيرة حقيقية على الثوابت الدينية ، ولهذا لا يقبلون على أولادهم غير ذلك حتى لو كان الآباء أنفسهم مُقصّرون ، وهذه الصفة بالتحديد هى التى أثارت جنون العلمانية ودعاة التغريب فهم منذ قرن كامل يحاولون تغيير قناعات العوام وبث روح الفوضي تحت مسمى التحرر ومع ذلك لم ينجحوا وظل الناس ينظرون باحتقار لأصحاب المعاصي مهما امتلكوا ناصية الشهرة والإعلام وظلوا أيضا ينظرون بعين التقدير لأى متدين حقيقي مهما كان فقيرا أو مضطهدا ، وهذا السبب نفسه هو الذى دعا المصريين لإسقاط الإخوان بعد اكتشاف نفاقهم وتجارتهم بالدين ، ولو كان الإخوان صادقون فى ذلك وشعر منهم الشعب بهذا ما أمكن لأحد أن يثير الشعب ضدهم أبدا ومنذ دخل الفتح الإسلامى بقيادة عمرو بن العاص تجذّرت أصول الفكر السنى فى مصر حتى بين العوام فضلا عن العلماء عبر الأجيال ، والصحابة وآل البيت معا مصهورين فى بوتقة واحدة فى قلب كل مصري ولهذا عجزت دولة العبيديين عن نشر التشيع الإسماعيلي فى مصر رغم استخدامهم القهر والإرهاب ، ولكن الدولة الصفوية فى إيران نجحت فى ذلك وحولت إيران من معقل لأهل السنة إلى دولة شيعية نسبيا بسبب وجود الأعراق المتعددة فى بلاد فارس ، وبسبب وجود القومية الفارسية التى تعادى الإسلام بشدة بعد انهيار دولتهم بسهولة لم يتوقعها أحد أمام جيوش المسلمين ، فلم يصمدوا مثلما صمدت الإمبراطورية الرومانية وبالمناسبة ..

ليس الذى يمنع المد الشيعى فى مصر هو وقوف الأزهر وأصحاب النشاط السلفي فى مواجهتهم ، فالأزهر وائتلاف الصحب والآل الذى يقوده مجموعة من خيرة شباب الباحثين يمثل فقط رأس الحربة ، أما المانع الرئيسي فهو الشعب نفسه ، وقد ظهر هذا بوضوح تام فى ردة فعل العوام على محاولات البهائية والشيعة إعلان شعائرهم بعد أن استشعروا القوة ، فتدخلت جماهير الناس العادية ومنعوهم بالقوة المفرطة ..

قال الشـــاب :

هل معنى هذا أن الشيعة الموجودين فى مصر غير مؤثرين أيضا رغم الدعم الهائل الذى يمتلكونه ؟!

أجاب الكاتب ضاحكا :

ربما تندهش لو قلت لك أنه حتى المتشيعون المصريون أنفسهم لا يخدمون التشيع عن قناعة كما يتصور الإيرانيون ، وأكاد أقسم أن معظم المتشيعين المصريين لو سقط الشيعة

فى إيران وتوقف الدعم الخارجى لهم لنفض هؤلاء أيديهم من الشيعة والتشيع نهائيا ، وقد ظهر هذا واضحا فى مجموعة من المنتسبين للتشيع حين قاموا بالإستيلاء على مبالغ طائلة تحت بند نشر التشيع وفروا بها ..

وحتى هؤلاء الذين استلموا الأموال الطائلة بغرض الإنفاق على مراكز بحثية للشيعة ومكاتب لزواج المتعة ومكاتب أخرى تحت زعم البحث العلمى فيها مرتبات منتظمة لمن ينضم إليهم ، كل هذه الأنشطة لا يعلم الإيرانيون أنها أنشطة شبه صورية ، وأن الشيعة المصريين نصابون محترفون يأخذون الدعم الهائل وينشئون به المكاتب المبهرجة ذرا للرماد فى العيون ويبعثون بإحصائيات خرافية عن انتشار التشيع فى مصر بينما الحقيقة على أرض الواقع تقول بالعكس تماما ! ، بمعنى أنهم يتعاملون بالنظرية العامية الشهيرة فى مصر (ريّح الزبون !!)

وما يثير الضحك حقا أن بعض المراجع فى إيران ولبنان مقتنعون بصدق الإحصائيات الوهمية ويحلمون باليوم الذى يصبح الشيعة فى مصر بالملايين !

وأجهزة الأمن المصرية تعلم هذه الحقيقة علم اليقين ولهذا السبب فهى تتركهم وغيرهم لمعرفتها التامة بحدودهم ، كما أن نشاط المخابرات الإيرانية فى مصر مرصود رصدا تاما ، ولكن بدون أى إعلان انطلاقا من السياسة الأمنية التى لا تُفجر القضايا الكبري إلا إذا خرجت عن حدود السيطرة ، أما إن ظل الحال كما هو وظل الشيعة فى مصر تحت مجهر الرقابة والسيطرة فلا بأس من منحهم حرية محدودة للحركة بل وللتمويل أيضا حتى تأتى اللحظة المناسبة وساعتها سيلاقون نفس مصير الإخوان ، فالغباء صفة مشتركة بين الجانبين.

قال الشـاب:

ومن أين جاءت لك هذه المعلومات وهذه القناعات ؟!

أجاب الكاتب:

بالنسبة لحقيقة نصب الشيعة المصريين على المراجع فى إيران ولبنان هذه مسألة تكررت كثيرا وبعضها تم إعلانه حتى فى الصحف مثل قضية (صالح الوردانى) والخلافات المحتدمة بين الشيعة المصريين أنفسهم كشفت هذا الأمر تطبيقا للمثل الشهير إذا اختلف اللصان ظهر المسروق ، كما أن ائتلاف الدفاع عن الصحب والآل لديه وقائع عن تلك الأمور تفوق كثيرا ما تم إعلانه ..

بل لو أردت مثالا معاصرا عن عمليات التغفيل الشيعى ، فعندك الجريدة الجديدة لإبراهيم عيسي المسماة بالمقال ، فهى جريدة ممولة بالكامل كما قلنا لأنها بدون أى إعلانات فضلا على ثمنها البخس وأتحدى القائمين عليها أن يعلنوا عن نسبة توزيعها اليومى فى مصر ، ولا يوجد عاقل يقول بأن نسبة توزيع جريدة متخصصة وغير خبرية وغير جالبة للإعلانات وثمنها جنيه واحد، يمكن أن تغطى نفقات إصدارها أو حتى طباعتها بشكل يومى فضلا على مرتبات العاملين !

ولا يوجد أى مطبوعة صحفية فى مصر ـ مهما بلغت شهرتها ـ تغطى نفقاتها ومكاسبها من التوزيع بدون الدعم الإعلانى ، بل إن المؤسسات القومية للصحافة رغم إمكانياتها الهائلة وتنوع مصادر دخلها وعراقتها لا زالت منذ عصر مبارك تعانى من خسائر بالملايين!

فإبراهيم عيسي فى الحقيقة يبيع (الترومای) لمصادر دعم هذه الجريدة ـ وهم يستحقون على أية حال ـ رغم أنه يدّعى أن الجريدة ذاتية التمويل ولو كانت كذلك فهو حتما يهوى الخسارة!

أما بالنسبة لطريقة ومنهج تعامل أجهزة الأمن القومى المصري مع قضية التشيع ، فهذه ليست مبنية على معلومات محددة تخص هذا الملف ، بل هى فقط تحليل منطقي يستند إلى معرفة مسبقة بأسلوب المعالجة الأمنية الذى تتبعه مصر من خلال مراجعة وتأمل تاريخ أجهزة أمننا مع قضايا النشاط الدينى ، بالإضافة إلى أنه قراءة منطقية مباشرة لعدد من الوقائع التى حدثت فى السنوات الأخيرة لو أننا قمنا بجمعها معا سنخرج بهذه النتيجة بلا شك، وإلا فأخبرنى كيف ومن أين تتسرب فى رأيك الصور والوثائق والملفات التى يتم نشرها سواء فى الصحف أو مواقع الإنترنت لمن يستجيبون لزيارة إيران من العلماء أو الدعاة أو المبتهلين مع أنها زيارات تمت فى نطاق من السرية

قال الشــاب:

هل تعنى بأن الشيعة يمكن أن يدعموا مشروعات شبه وهمية يظنونها مؤثرة

قال الكاتب:

ما في ذلك شك وهم أغبياء للغاية فى هذا فهُم يعتقدون أنه حتى لو كانت تلك المشروعات والمقالات والدعاية غير مؤثرة فيكفيهم أنها موجودة فى مصر !!

وهذا غباء كبير ، فالدعاية السلبية تهدم ولا تبنى ، وهى دعاية سلبية لأنهم يتحملون

النفقات الباهظة ظنا منهم أن هذه الآلة الإعلامية واستئجار بعض الأقلام ـ التى لم يسمع بها أحد ـ يمكن أن يمثل نشرا وتأثيرا وصوتا إيجابيا للشيعة فى مصر ، بينما العكس هو الصحيح على طول الخط، فوالله لولا نشاطهم الإعلامى فى مصر لما انتبه المهتمون لنشاط الشيعة وأهدافهم ولما تفرغ بعض الباحثين لتعقبهم ، ولما اكتسبوا العداء الكاسح للتشيع بين أفراد الشعب المصري الذى كان يظن الشيعة والتشيع مجرد مذهب تقليدى لا يفترق عن المسلمين فى شيئ إلا فى التقدير الزائد لآل البيت ، خاصة لو وضعنا فى اعتبارنا أن حزب الله فتن الناس كثيرا بخيار المقاومة ضد الإحتلال ، كما أن الناس فى مصر كانت تتعاطف مع الشيعة بسبب تشدد التيار السلفي تجاههم وكانوا يظنون أن السلفيين يُشنعون بالباطل على من يختلف معهم مثل الشيعة والصوفية فجاء النشاط الشيعى بغباء منقطع النظير لينشر القناعات الحقيقية للتشيع فى الصحف والقنوات المصرية فاستفز الناس لمعرفة حقيقة التشيع ، وعرفوه بالفعل بعد الواقعة الشهيرة لجريدة حزب الغد التى نشرت تحقيقا مدفوع الأجر بعنوان (أسوأ عشر شخصيات فى التاريخ الإسلامى) ووضعت بينهم طلحة والزبير وعائشة وأبو هريرة رضي الله عنهم !

وأحد المتشيعين المصريين عض بنان الندم على قبوله للمناظرة فى قناة (صفا) لأن أهله لم يكونوا على علم بحقيقة التشيع الذى ينتسب إليه فلما شاهدوه فى المناظرة مضطرا للإعتراف بما ورد فى أمهات كتب الشيعة أمام خصمه السنى ، قاموا عليه بثورة وطردوه من منزل العائلة وتبرءوا منه ، وهذا أيضا ما حدث مع عدد من عائلات المتشيعين المصريين الذين تم تقديمهم للمحاكمة بتهم سب الصحابة وازدراء الأديان وكان شهود الإثبات فى القضية من أبنائهم وزوجاتهم

والسبب الرئيسي فى ذلك يعود لغباء الطرح الشيعى الذى لم ينتبه إلى أن عوام المصريين لا يعلمون عن جرائم الشيعة شيئا ، فليس هناك وجود سابق للتشيع فى مصر منذ طرد العبيديين ، وبالتالى فالناس لم تكن تتخيل أنها ستسمع مسلما فى يوم من الأيام يسب أو يلعن الفاروق أو أم المؤمنين أو يسب الصحابة .. إلخ ،، فهذه كلها كانت بالنسبة للمصريين خيال علمى !!

فلما أدركوهم لم يسمحوا لهم أصلا بالدفاع عن أنفسهم أو بمجرد المحاولة لسرد معتقداتهم والدفاع عنها ، فالصحابة وآل البيت عندنا مسألة ليست محل للنقاش من الأساس ، فأنت إن نزلت إلى أى شخص عامى فى مصر ودعوته للنقاش العلمى فى

مسألة إيمان أو كفر عمر بن الخطاب ، هل تتصور أنه سيدعوك إلى مائدة الحوار ! أو أنه سيمنحك حتى الفرصة لنطق عنوان الموضوع أصلا ؟!

قال الشـاب ساخرا :

لو أننى فعلت هذا فلست أستبعد أن أتحول أنا شخصيا إلى الطبق الرئيسي فى المائدة ! ،

أكمل الكاتب:

بالضبط ، ولو اجتمع الناس عليك ضربا واعتداء وجاءت الشرطة وسمعت بما يحدث فلا أستبعد أن يشارك أفراد الشرطة أنفسهم فى الضرب !

وهكذا انقلب المكر الشيعى والدعم المادى وبالا على الشيعة ووفروا علينا جهدا طويلا فى محاولات رد الشبهات بينما لو اكتفي الشيعة بمجرد الدعوة لمذهبهم بهدوء ونعومة الثعابين وباستخدام التقية لربما نجحوا فى تحقيق بعض أهدافهم ، لكننا نحمد الله على ارتداد مكرهم إليهم ، وأذناب التشيع بما يفعلوه اليوم يخدمون أهداف أهل السنة فى الواقع ـ سواء أدركوا أو لم يدركوا ـ فيكفي أنهم منحونا الفرصة والشرف الكبير للدفاع عن الحضارة الإسلامية وثوابتها ، ويكفي أن ترصد حركة الشباب على مواقع التواصل الإجتماعى الذين تركوا الإهتمام التقليدى بالأنشطة الشبابية وتفرغوا للبحث والقراءة فى التاريخ الإسلامى بعد أن تسبب الإعلام فى إثارة غيرتهم على دينهم.

قال الشاب:

لكن من الضرورى أن نعترف أن حملة الشيعة تلك جرت خلفها تيارات أخرى لانتهاز الفرصة بالطعن فى الثوابت ، لا سيما والظروف مهيأة بسبب تجربة الإخوان بالغة السوء فى الحكم.

قال الكاتب:

وهذا ليس بدعا من الحوادث ،

فهذا هو نفس ما يحدث عبر التاريخ ألا وهو اجتماع الخصوم على أهل السنة من أهل البدع والملل ، بل إن أصحاب البدع المتناطحة رغم عداوتهم لبعضهم البعض إلا أنهم إذا حاربوا أهل السنة فى حرب معينة اتحدوا مع بعضهم مهما كان بينهم من الخلافات والاختلافات ..

قال الشاب:

لنحصر إذا المهاجمين اليوم فى الحملة الماثلة أمامنا ، وهى الحملة التى تقودها

الجبهة الشيعية الإيرانية ويتحالف معها العلمانيون وأصحاب التيارات الإلحادية ، فضلا على الخوارج الذين يهاجمون أهل السنة أيضا ويعمدون إلى مهاجمة فقههم الذي لا يخدم أغراضهم فى السيطرة على الحكم ، فهل هناك فئات أخرى تهاجم السنة ؟!

قال الكاتب :

لابد أن أنبهك لشيئ هام قبل أن أجيبك عن الفئة الأخيرة التى تحارب معهم، وهو أن التيارات البدعية والإلحادية التى تهاجم السنة ليس معنى هجومهم عليها أنهم لا يقصدون الإسلام ككل ، فمهاجمتهم للسنة إنما هى أصلا لترك القرآن وحده بعيدا عن ضوابط التفسير فى آيات الأحكام ، وبالتالى يتلاعبون بالآيات كما يرغبون ويحرفونها عن معناها الصحيح فينهدم الدين ، وهذا الفعل يفعله سائر أهل البدع بلا استثناء ، فالشيعة مثلا تفسر كل آيات القرآن بما يخدم معتقدهم فى عصمة الأئمة وأنهم الأرباب من دون الله ، والخوارج يذهبون إلى آيات الكفار فينزلونها على المسلمين ، والعلمانيون يذهبون إلى الآيات المُحكمة فيفسرونها بمنطقهم المعوّج تفسيرا يخالف كل الثوابت بل يخالف حتى ظاهر القرآن ، وإذا عجزوا عن التأويل ذهبوا إلى القول بأنها آيات مخصصة فى زمن مخصوص لا تُـلزمهم ، وبالطبع الشيئ الوحيد الذى يقف سدا أمام كل هذه التفسيرات الباطلة هو وجود السنة النبوية التى تُفصّل مجمل القرآن وتوضح معانى الآيات العامة وتفصيلاتها والقواعد فيها والاستثناءات ، إلى غير ذلك من الضوابط ..

وهذا الذى قلته لك الآن هو أوضح وأظهر دليل على حجية السنة النبوية وصدق قائلها عليه الصلاة والسلام وصدق نسبتها إليه ..

فلو أنك تركت السنة النبوية فسجد أمامك عشرات الفرق المتناحرة التى تدخل الدين بلا ضوابط معروفة وإنما يتبعون أهواءهم وفق ما يعن لهم ، وهم جميعا يقولون بأنهم يحتجون بالقرآن ، ورغم هذا فكل منهم يأتى بفهم وتفسير يضاد الآخر ، والفريق الوحيد الذى يمتلك الضوابط المحددة لفهم نصوص القرآن هو فريق أهل السنة وهم الوحيدون الذين لا يتناقضون فى معانى آيات الأحكام أبدا ، لأن الضوابط واحدة ..

ونعنى بآيات الأحكام ، الآيات المؤسسة للشريعة والتى ليس فيها اجتهاد بشري بل هى آيات محكمة التفسير والتفصيل من النبي عليه الصلاة والسلام ، أما باقي آيات القرآن الكريم فتضم اجتهادات عدة وهى موطن الإعجاز فى كل مجال بحيث يقوم المفسرون فى كل عصر بإضافة واكتشاف وجه إعجازى مختلف تحقيقا لقول النبي عليه الصلاة

والسلام عن القرآن (لا يخلق من كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء).

قال الشـــاب:

هذه ملحوظة جميلة بالفعل، فلو أن هذه الفرق كانت على حق فعلا فى تمسكها بالقرآن فلماذا تناقضوا جميعا فى فهمه ؟!، حتى أن الخوارج فسروه بما يخدم إرهابهم والعلمانيون فسروه بما يخدم انحلالهم، وهم جميعا لا يؤمنون بالسنة المروية عن طريق الصحابة لأنها تعطل انفرادهم بالتفسير..

قال الكــاتب :

بالضبط .. أما الفرقة الأخيرة التى انضمت إليهم فهى بعض الأفراد الذين كانوا ينتسبون إلى الإخوان وغيرها من التنظيمات وقضوا فيها فترة طويلة من أعمارهم ، ثم اكتشفوا بعد ذلك بطلان أفكارهم فتركوهم ..

تساءل الشاب: ولماذا يهاجمون السنة وقد تركوا هذه الفرق ؟!

قال الكــاتب:

هؤلاء ليسوا جميعا فى تلك المعركة ، بمعنى أن بعض التائبين من تلك الجماعات بدلا من أن تكون توبته عن أقصي اليمين إلى الوسط ، جاءت توبته من أقصي اليمين إلى أقصي اليسار ، وهذا الإتجاه له سبب نفسي بالأصل ، فالتطرف يولد التطرف بطبيعة الحال، فأنت عندما تتربي عمرك كله على أفكار معينة متطرفة فى اتجاه معين ، ثم ينكشف لك زيف هذه الأفكار ينطبق عليك المثل العامى (اللى اتلسع من الشربة ينفخ فى الزبادى).. وكردة فعل طبيعية تجد نفسك متخذا للجانب المضاد لما كنت عليه من أفكار وهؤلاء الناس ـ ومعظمهم كانت نواياهم حسنة ـ لمّا عاشوا بين الإخوان وجماعات التكفير معظم عمرهم ، ورأوا كيف أن هذه الجماعات تستخدم القرآن والسنة فى غير موضعها لم يقفوا عند الحد الطبيعى وهو رفض فهم هؤلاء المبتدعة للنصوص وإنما ذهبوا إلى رفض تلك النصوص كلها ، فمنهم من ترك الدين بالكلية ، ومنهم من لم يستطع ذلك وذهب يفتش عن فكر يريحه من هذه النصوص فاتخذوا الجانب العلمانى الذى يرفض السنة النبوية ويتهمها بالتزوير وأخذوا يتحدثون اليوم فى مقالاتهم ولقاءاتهم الفضائية عما يسمونه الإسلام الجديد الذى يختلف عن إسلام التراث الذى أخذته الأمة من عهد الصحابة إلى اليوم !!

قال الشاب: ولكن ألم ينتبه هؤلاء إلى أن مقولتهم تلك فيها ما فيها من التخريف ،

فكيف يكون الإسلام محرفا من عهد الصحابة وحتى اليوم لحين ظهور فهمهم الجديد ؟!!

قال الكاتب :

لك أن تتخيل أن أحدهم كتب سلسلة مقالات على مدار شهور طويلة ينكر فيه أوضح وأظهر الثوابت فى الدين ، والكارثة الكبري أنه يستدل على فهمه الجديد من آيات القرآن فيبتر بعض الآيات ويفسر بعضها الآخر على هواه ، ثم يذهب إلى تفسيرات شاذة جدا ربما لم يسبقه إليها أحد مستدلا بحكايات خرافية لا أعرف مصدرها للآن !! ، كما أنكر الفتوحات الإسلامية كلها وسماها خرافة واعتبر أن الصحابة ـ تخيل الصحابة أنفسهم ـ خالفوا أمر النبي عليه السلام وحرفوا تعليماته وقاموا بغزو البلاد بالقوة لتأسيس إمبراطورية دنيوية لهم ، وليس لنشر الإسلام ، وأن النبي عليه السلام لم يغز بلدا ولم يفتحه وكل حروبه كانت دفاعية !!

قال الشاب : ولكن هذا مخالف حتى لتاريخ السيرة

قال الكاتب :

المشكلة ليست فى ذلك فقط بل الكارثة أن يعتقد بأن الصحابة أنفسهم ـ وهم جيل الرسالة الذين نقلوها أصلا ـ حرفوا الدين وخالفوا أوامر ومقاصد الإسلام فى سبيل الدنيا !! ، فلو كان الصحابة بهذه الأخلاق كيف لعاقل أن يؤمن بصحة القرآن الذى نقلوه إلينا ، ولماذا لم يقل بأن الصحابة حرفوا آيات الجهاد وأضافوها للقرآن كنتيجة منطقية لاتهامه هذا !! ، والأخطر من هذا كيف فعل الصحابة هذا والقرآن الكريم أغرق فى مدح الله تعالى لهم ، وحفزنا للإيمان بمثل ما آمنوا هم به وذلك بنص القرآن (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ، أى أن إيمان الصحابة هو عين الإسلام ، ثم يأتى هذا الرجل فيقول بأن إسلام الصحابة الذي استجابت له الأمة كلها هو إسلام التراث الذى يختلف عن الإسلام الحقيقي !

والقرآن نفسه يقول عن الله تعالى أنه علم ما فى قلوب الصحابة ، فهل كان الله عز وجل لا يعلم بأفعالهم القادمة ؟!

سأل الشاب فى صدمة : هل تعنى أنه يؤمن بذلك فعلا ويشكك فى القرآن ؟!

قال الكاتب:

مسألة تشكيكه فى القرآن هى مرحلة قادمة حتما لو استمر على منهجه ، والرجل بالفعل يبدو من كلامه أن الشيطان تلاعب به وأوقعه فى حيرة قاتلة ، وللعلم فإن العلماء

قالوا وحذروا من الانسياق وراء البدع والشبهات ـ مهما كانت ضئيلة ـ بسبب أن مجرد سلوكك طريق البدعة سيفضي حتما إلى الشرك والكفر فى مراحل قادمة ، ولهذا على كل إنسان أن يحذر أشد التحذير من رد أى حديث صحيح عن النبي عليه الصلاة السلام أثبته العلماء وفق المناهج العلمية ، وليس هذا معناه غلق النقاش ، بل يمكنك كمسلم أن تناقش وتسأل كما شئت بشرط ألا تنكر الحديث نفسه ـ والسنة كلها من باب أولى ـ وحتى لو لم تجد من يقنعك بفهم مقصود الحديث وفق قناعاتك فلا ترد الحديث واستمر بالبحث حتى يهديك الله وكن واثقا من أن هناك حلا للشبهة ولكنك تعجز عن الوصول إليه وهكذا هو طريق العلم ـ لا طريق الهوى ـ فطريق الهوى يسلك بك للإنكار فى البديهيات، بينما طريق العلم صعب وطويل وحتى فى العلوم التقليدية لم يذهب العلماء والباحثون إلى إنكار ما عجزوا عن فهمه بل واصلوا البحث وحتى عندما فشلوا تركوا المسألة للأجيال القادمة كى يصلوا للتفسير ، مثلما فعل العلماء فى الطبيعة والطب والأحياء وغيرها ، فمثلا وقف العلماء دهورا طويلة يبحثون عن سر حدوث الأمراض الفيروسية ومن أين تأتى ؟! ، خاصة تلك الأمراض التى تتشابه أعراضها وتتكرر بانتظام على الرغم من اختلاف أحوال المرضي ، فهنا اعتقدوا بحتمية وجود سبب واحد نظرا لاتفاق وتطابق الأعراض ، ولكنهم لم يعرفوه ، ورغم عدم معرفتهم لم ينكروا الواقع ـ وهو حدوث المرض ـ وجاءت الأجيال التالية ليصلوا إلى الحلول العلمية ويعلنوا أن السبب هو كائنات دقيقة تسمى الفيروسات والميكروبات لا نراها بالعين بالمجردة

أما من يجعل إيمانه ودينه أشبه بالإسفنج يستجيب لكل ضغط ، فهو حتما سيفعل مثل هذا المشكك وسيستمر فى الإنكار حتى يصل للانسلاخ الكلى من الإسلام ما لم يتداركه الله برحمته وقد قارب هذا الرجل على ذلك بعدما قرأت له مقالا فى أعياد الميلاد يمتدح فيه عقيدة المسيحيين ويصفها بأنها عقيدة سلام وأمان ومحبة !! ، وأنا لا اعتراض لدى على وصف المسيحية الحقة وسائر الأديان السماوية بذلك ، لكن المصيبة أن تصف المسيحية عموما بهذا رغم التحريفات الواردة فى كتبهم بعكس ذلك ، والمصيبة الأعظم أنك قلت بهذا المدح مباشرة بعد سلسلة مقالات طويلة تصف فيها السنة النبوية ومن اعتنقوها بالإرهاب والدموية ، ومقتضي كلامه ذلك هو المقارنة حتما بين العقيدتين !

قال الشاب : ولهذا فقد وقف مع حملة المهاجمين لاتفاق أهدافهم مع أهدافه ..

قال الكاتب:

والكارثة أن يظن نفسه بكلامه هذا داعية للإصلاح والتجديد ، ودفعه هواه إلى ما هو أفدح ، فنظرا لأنه قليل البضاعة جدا فى علوم التاريخ وعلوم الشريعة ، اضطر إلى أن يردد بعض الأفكار التى لا يقولها طفل مسلم تعلم أبجديات الإسلام ، فضلا على أنه اضطر إلى أن يقتبس من بعض أفكار المستشرقين وبعض أقوال الملاحدة لأنه لا يجد المصادر التى يغذى بها مقالاته كى تستمر !! ، وبالطبع وجد من يشجعه ويحفزه ويلصق به ألفاظ العبقرية ليضموه إلى صفوفهم التى تفتقر إلى أى منتسب للإسلام والدعوة ، وبئست التبعية ، ويكفيه من الخذلان أنه وأمثاله يذهبون إلى كتب الشرع والعلم ـ لا بقصد التعلم ـ بل بنية وقصد البحث عن الثغرات التى يهاجمونها بها !!

قال الشاب :

ولكن هناك سؤال هام فى قولك أن هناك حلولا لأى شبهة حتى لو لم أصل إليها أنا كباحث شاب ، ولكن كيف أفرق بين الإقتناع الحيادى وبين الهوى إذا رفضت كل تفسيرات من حولى

أجاب الكاتب:

الفارق بسيط للغاية ـ رغم دقته ـ فالذى يبحث بنية البحث العلمى لكن قلبه مطمئن بالإيمان ، ستجده يقبل الحق فور ظهوره له أو يصل إليه بنفسه لو كانت الشبهة جديدة وليس لها حل معاصر ، مع أن هذا الأمر صعب للغاية لأن كتب الرد على الشبهات احتوت أساسيات الحلول لكل شبهة تخطر على بالك ، والباحث عن الحق بصدق حتما سيصل فهذا وعد الله لنا فى قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) ويقول أيضا (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)أما صاحب الهوى، فهو نفسه سيدرك فى نفسه أن هذا الحديث أو غيره يمثل له عقبة أمام شهوة يريدها ، فهنا الأمر يختلف فهو ليس باحثا حياديا عن صحة حديث لم يستوعبه ، بل هو باحث عن غرض معين يريد أن يوجد له طريقة شرعية وبالتالى سيرفض أى تفسير للحديث يعارض هذه الرغبة ، وهذا هو الهوى المفضي للباطل وبالعموم .. لابد للمسلم أن ينظر أين يقف ، وهذه الطريقة تصلح لكل العوام ممن لا يستطيعون الخوض فى البحث العلمى ، فأنت إن رأيت نفسك تقف على أرض واحدة مع أصحاب البدع أو أصحاب الإلحاد فى مواجهة ما أجمع عليه علماء المسلمين ، فلابد لك عندئذ من أن تراجع موقفك سريعا لأنك تعلم بالضرورة أن جانب العلمانيين له أغراضه المعروفة ، وهذا يفيدك بجانب الحق حتى لو لم تعلم يقينا حل

الشبهة التى تحيرك وكمثال، إذا كنت باحثا متأولا ونيتك حسنة ولكنك كتبت فكرة أو دعوت بدعوى وجدت فيها احتفاء وترحيبا كبيرا من إسرائيل أو الغرب ، وعداء شديدا من بنى وطنك ، فهنا لابد أن تشك فيما تعتقد حتى لو كنت مقتنعا بنواياك الحسنة لأنك تثق بحقيقة هامة راسخة وهى أن إسرائيل والغرب لن يؤيدوا مصريا أو مسلما فى شيئ يخدم إسلامه أو وطنه.

تساءل الشاب:

نعم أعتقد أنها علامة صالحة فى شأن العلمانيين وأصحاب دعاوى التغريب لكن هل هناك علامة توضح الحق من بين الدعاة التيارات الإسلامية فى القضايا العامة ؟!

قال الكاتب :

نعم .. هناك علامات قد تحسم لك الطريق دون أن تتكلف دراسة التفصيل العلمى ولكن ينبغي لك أن تعلم أن هذه العلامات لن تفيدك لو أنك عالجت الأمور من منظور الحب والكره ، فلابد من تجهيز نفسك لقبول الحق حتى لو كان ضد من تحبهم ، والمشكلة الكبري التى نقع فيها دائما أننا نحاول أن نتخذ جانب من نثق بهم حتى لو كان الخطأ منهم ظاهرا ، مع أن اعترافنا بخطئهم نقطة لصالحنا وليست ضدنا ، لأنه دليل على صحة منهجنا وهو منهج علماء المسلمين فى التماس العذر لأى عالم صاحب فضل يخطئ فى اجتهاده ،،

قال الشـاب :

لكن العلمانيين يقولون ويستدلون بهذا الكلام عندما يتكلمون عن الثوابت ويقولون أخطأ من قالوا بها.

قال الكاتب موضحا :

كلا بالطبع، فكلام العلمانيين لا يتحدث فى نطاق أقوال فردية للعلماء بل إنهم يضربون الثوابت القرآنية والثابتة بالسنة النبوية تحت زعم أخطاء الأشخاص ، وهذا جهل وتخلف فالثوابت جميعها وردت بنصوص قطعية من القرآن وشرحتها وبينتها السنة المطهرة ثم كللها الإجماع ، ولهذا عندما نقبل أقوال العلماء فى الثوابت إنما نقبلها بالنصوص أو بالإجماع ، والإجماع عندنا حجة لأن الأمة لا تجتمع على باطل وفق نص الحديث النبوى،

وينتقد العلمانيون احتجاجنا بالإجماع تحت زعم أن الله ذم الأكثرية فى القرآن، ومدح الأقلية، وينسي هؤلاء المتخلفون أن الأكثرية المذمومة فى القرآن إنما هى الأكثرية

فى عموم أهل الأرض إذا تنازعوا ابتداء بين الحق والباطل أو بين الطاعة والعصيان ، أما الأكثرية فى نطاق أهل الحق والإسلام فهى بلا شك حجة ودليل ، ونحن عندما نحتج بالإجماع إنما نحتج بإجماع أهل العلم والفضل لا بإجماع مطلق الناس ، والأكثرية حتى فى علم الإحصاء المجرد هى التى ينبنى عليها العلم التجريبي ، فالتكرار والأكثرية فى نتائج التجربة الواحدة تجعل هذه النتيجة قاعدة عامة أما ما يشذ منها فهو استثناء لا يُقاس عليه فمثلا .. إذا نظرنا للقاعدة العلمية التى تقول (حيثما وُجد الماء وجدت الحياة) وهى القاعدة التى لها أصل فى القرآن (وجعلنا من الماء كل شيئ حى) ، فعندما أخرج العلماء هذه القاعدة واعتمدوها كقاعدة ، جاء اعتمادهم نتيجة للتجربة عندما وجدوا الأغلبية العامة من المخلوقات يدخل فيها الماء كعنصر رئيسي للحياة ولا يمكن أن يتخلى عنها مخلوق إلا لمدد قصيرة ، ثم ظهر للعلماء بعد ذلك عدد محدود من المخلوقات لا يدخل الماء فى تكوينه أو لا يحتاج الماء فى حياته أو يمكنه الاستغناء عنه لمدد طويلة جدا ، فهل قام العلماء عندئذ بتغيير القاعدة أو قالوا بأنها غير صحيحة ؟!

كلا بالطبع .. لأن شاذ القواعد لا يمكن القياس عليه لإبطال القاعدة العامة ، وهذا وفقا للقانون البديهى (لكل قاعدة شواذ) ، ولهذا فالإجماع المعتمد عندنا نحن أهل السنة ليس هو إجتماع أكثرية مطلق البشر وليس مطلق الناس بل هو أكثرية أهل الإختصاص والعلم ، فإذا اتفقوا على شيئ جاز له اكتساب عصمة الحق .. وهم عندما ينتقدون البخارى يقولون بأنه مجرد عالم فرد وليس معصوما ، فنقول هو نعم عالم فرد ونحن لا نقر بصحة صحيح البخارى استنادا إلى شخصه بل استنادا إلى إجماع علماء الأمة على مدى ثمانية قرون بصحة ما ورد فى الصحيح اعتمادا على ما قام به العلماء عبر ثمانية قرون من جهد فى تحكيم الكتاب ومراجعته كرسالة علمية متكاملة هو وصحيح مسلم ،

فالبخارى ومسلم عندما أخرجوا كتبهم والتزموا فيها بإيراد الصحيح فقط ، لم يتقبل العلماء فى عصرهم وفى العصور التالية عليهم قولهم هذا على عواهنه ، بل أخذوا فى تحكيم الكتاب كرسالة دكتوراة بلغة العصر ، وظهر لهم أن البخارى ومسلم نجحا فى تطبيق ما ألزموا أنفسهم به فى الصحة سندا ومتنا، ولو كان العلماء يقبلون كل كتاب يخرجه أى عالم كبير فلماذا أسقط العلماء ثلاثة كتب لثلاثة علماء جهابذة فى نفس المجال أعلنوا أنهم سيلتزمون بالصحيح وحده كالبخارى ومسلم ومع هذا وعندما راجعهم العلماء فى كتبهم كشفوا وجود الضعيف والموضوع وبالتالى لم يعطوهما الإعتماد

الذى حصل عليه البخارى ومسلم وهؤلاء العلماء هم ابن حبان وابن خزيمة وكلا منهم أخرج كتابا سماه الصحيح ، والثالث هو الحاكم النيسابورى الذى أخرج كتاب المستدرك وقال بأنه سيتبع منهج البخارى ومسلم وشروطهما لإخراج صحاح الأحاديث التى لم يوردها العالمان الكبيران ، ولكن الحاكم لم ينجح فى ذلك وتم إسقاط أكثر من ثلثي كتاب المستدرك وبالتالى لم يتم تصنيف كتاب فى صحيح الحديث وحده إلا كتابيّ البخارى ومسلم وحدهما رغم أن عمالقة من العلماء حاولوا ذلك بعدهما ولم ينجحوا ، وهذا يوضح لك مدى الدقة والتشدد فى اعتماد الكتب وعدم مراعاة أهل النقد والتمحيص لمكانة العالم مهما بلغت ، فالعبرة بقيمة كتابه وحده لا قيمته الشخصية فانتقاد العلمانيين هنا للبخارى ومسلم ليس انتقادا لفرد بل هو لسائر علماء المسلمين على مدى الأجيال ولا شك أننا لن نقبل قول هؤلاء التافهين بحق علم علمائنا على مدى القرون، الأهم من هذا أن الحجة البالية التى يرددونها بأن البخارى ليس معصوما ، فنقول قطعا ليس بمعصوم ولكن ليس معنى هذا أن نقده متاح لأصحاب عقول روضة الأطفال !! ، فالذى ينتقد البخارى يجب أن يكون فذا فى مجاله وتخصصه كى يكون أهلا لنقد مثل هذا العالم الجهبذ ، فضلا على أن نقد البخارى إنما يجب أن يكون فى مجال وفى ضوء قواعد العلم ذاته وليس إلى الأهواء ، مثلما فعل بعض العلماء الكبار عبر التاريخ فانتقدوا بعض أحاديث فى البخارى ومسلم وكان منهم الدارقطنى ـ شيخ البخارى ـ ومنهم العلامة الألبانى فى العصر الحديث ، فهؤلاء العلماء أسسوا اعتراضاتهم على نفس منهج البحث العلمى الحديثي وقواعده ، ورد عليهم باقي علماء الحديث وفق المنهج نفسه وأثبتوا صحة قول البخارى على قولهم والمضحك حقيقة فى هذا الأمر أن العلمانيين يستدلون بهؤلاء العلماء العمالقة الذين سمحت لهم خبرتهم بمناقشة أحاديث البخارى ، فيستدلون من ذلك أنه من حقهم هم أيضا الخوض فى غمار هذا المعترك العلمى بأمزجتهم الشخصية

وهذه نكتة حقيقية ، فمنذ متى كانت قواعد البحث العلمى فى أى مجال تسمح للعوام ممن لا يحسنون شيئا أصلا بالخوض فى غمار علم تخصصي تفنى فيه الأعمار ليصبح المرء عالما فيه المهم ..أن العلامات التى تستطيع بها معرفة طريق الحق ، إلى جوار ما ذكرنا ، هى أن صاحب الحق عندما يبحث عن حكم مسألة فإنه يذهب إلى مصادر العلم لمعرفة حكمها دون أن تميل نفسه مسبقا إلى حل معين يوافق غرضه ، أما صاحب الهوى فتجده ينتخب حكما يوافق هواه ثم يذهب إلى الكتب والمصادر ليبحث له عن دليل يؤيد

به قوله المعوّج ولا يعنيه إن كان دليلا صحيحا أو ضعيفا ، وهذا بالطبع من أبطل الباطل ، وهو نفس ما فعله أصحاب البدع فرفضوا الأحاديث المتواترة واستدلوا ببعض الأحاديث الموضوعة لمجرد أنها توافق أهواءهم، وهناك أيضا علامة أخرى..

وهى أن صاحب الحق تجده دائما ليس صاحب غرض أو مصلحة أو مكسب شخصي من وراء رأيه الذى يقول به ، فإن عارضه الناس فى ذلك واحترت فى أى الفريقين يقف الحق ، فانظر إلى أغراض أصحاب الآراء إن وجدتها متوفرة فى جانب وخالية فى جانب آخر فلا شك أن أصحاب الحق هم من لا غرض لهم ولا منفعة، وهناك أيضا دلالة أخرى بسيطة .. هى أن الباطل دوما ما تجده يجمع بعض فئات من الناس لا يُعرف عنهم نصرة الحق أو الغيرة على الدين وفى الغالب لا يناصرون الحق إلا إذا كانت لهم مصلحة من وراء ذلك ، ولعل هذا كان واضحا فى الصراع بين الإخوان وغيرهم من أهل الأحزاب والإعلام ، فالمحارب المحايد الوحيد فى هذه المعركة كان هو الشعب ، أما الأطراف الأخرى فى الإعلام فقد كان التناحر بينها على الغنائم .. لأن الطرفان المتصارعان إنما هم من العصابات التى استولت على مقدرات البلد وتطاحنت فيما بينها ولولا وجود القوة الوطنية الموحدة متمثلة فى الجيش وخلفه بسطاء الناس لما تبقت لنا دولة فى مصر أصلا

ولهذا وجدنا أصحاب الهجمات الأخيرة على السنة النبوية ظهروا مباشرة بعد إسقاط الإخوان وبهدف محدد هو هدم السنة بزعم الحرب على الإرهاب !

وبالمقابل.. ستجد بين العلماء والباحثين والدعاة ممن كانوا يحاربون ـ ولا زالوا ـ تنظيمات الإخوان وحلفائهم، هؤلاء الدعاة أنفسهم هم من تفرغوا الآن للحرب على الإعلام فى هجماتهم ضد السنة ، وهذه ميزة أهل السنة من قديم الزمن ، فكما حاربوا تنظيمات التشدد مثل الخوارج والشيعة، حاربوا بنفس القوة تنظيمات التحلل كالمعتزلة والجهمية ، بمعنى أوضح أن أهل السنة إنما يحاربون الخارج عن السنة أيا كانت هويته ، ولا تسمح لأحد الخصوم باستغلال حرب ضد خصم منافس له لمحاولة نشر مذهبه أو الحصول على مكاسب شخصية منه.

قال الشاب: نعم هذا صحيح .. وهناك ملحوظة لاحظناها جميعا أن المهاجمين يتمتعون بالقوة والنفوذ ومعهم الإمكانيات الضخمة لترويج أفكارهم ، ورغم أن هذا يبدو من أسباب القوة إلا أنه عند التأمل يجعلنا نشك حقا فى الدوافع التى تقف خلف كل هذا التجييش!،

أجاب الكاتب:

وهذا ما قلناه من البداية ، ولكن لا تدع هذا يقلقك ، فهجمات هؤلاء القوم رغم تمتعها بالقوة الإعلامية الجبارة ، إلا أنهم ينسون ويغفلون كعادتهم عن حقيقة تاريخية ، وهى أن الفكر الإسلامى الأصيل محفوظ بوعد الله لهذه الأمة وأن الإسلام والسنة لا ينتصران أساسا بقوة الإمكانيات المادية ، بل ينتصرون بالإخلاص ، ويكفينا توفيق الله تعالى فى تجنيد أهل الباطل أنفسهم لتحفيز الناس على العودة للدين ، وأعطوا الفرصة للعلماء والباحثين ليس فقط فى نشر الثقافة الإسلامية بين الناس فيما يخص الحديث بل إن دروس الفقه والتفسير والتاريخ أصبحت تلقي رواجا بين الشباب أكثر مما تفعله البرامج السياسية والحوارية ولهذا دعنا نعد بعد هذا الفصل التمهيدى ، ندخل فى التفاصيل ، لتعرف ساعتها باليقين أن العلمانيين والخوارج ودعاة الإرهاب وسائر المهاجمين لا يتناقضون وحسب ، بل يلعبون على وتر أننا نجهل ما فى الكتب والتراث ، وأننا دوما لا نربط بين الأحداث ، وهذا ما يظنونه فى خيالهم !

الفصل الثانى

العلم والفلسفة والفقه والتجديد الفقهى

سأل الشاب: ما هو الفارق بين العالم والفيلسوف وإن كان العلم فضله وأهميته معروفة .. فما الفائدة من الفلسفة وهى مجرد كلام ؟!

فقال الكاتب : لماذا كنت تريد إقتناء كتبها ما دمت تراها مجرد كلام ؟!

فقال: إننى أحب القراءة والثقافة وسمعت كثيرا عن الفلسفة وأهميتها وكيف يقرأ فيها كبار المثقفين وأحببت القراءة فيها لكنى وجدت كلامها صعبا جدا

قال الكاتب:

فى البداية ينبغي أن أؤكد لك أن انتقادنا السابق للفلسفة والفلاسفة إنما كان مركزا على فرع واحد منها فقط وهو فرع الفلسفة الدينية ، أما الفلسفة ذاتها فهى علم العقل أو مجال التفكر الذى لا غنى عنه لأى حضارة ودعنا نشرح الفارق بين العلم والفلسفة،

فى كتاب شهير للروائي المصري إحسان عبد القدوس عبارة جميلة تقول أن العَالم هو الذى يسأل بكيف .. بينما الفيلسوف هو الذى يسأل بلماذا .. وهذا يعنى أن العالم يبحث خلف الأسباب والنتائج بينما الفيلسوف يبحث عن الهدف والفائدة .. هدف العالم هو الوسيلة وهدف الفيلسوف هو الغاية .. ولو جئنا بعالم وفيلسوف ووضعنا أمامهما اختراعا كالطائرة فسينصب اهتمام العالم على كيفية صنعها ، ونظرية عملها ، ومكوناتها ، بينما الفيلسوف سيبحث خلف هدف صنعها وما الذى تضيفه للإنسان ، وكلاهما وسيلته العقل لكن العالم يستخدم عقله فى المعرفة بينما الفيلسوف يستخدم عقله فى الإدراك.

فقال الشاب:

لكن البشرية استفادت من العلماء فى اختراعاتهم وما قدموه من تيسير لسبل الحياة فما الذى جنيناه من الفلسفة.. ؟!

عقب الكاتب :

قبل أن تحكم على أى شيئ يجدر بك أن تسأل عن مفهومه أولا.. والفلسفة هى حب الحكمة كما عرفها قدماء فلاسفة اليونان، وهذا المجال فى الثقافة الإسلامية أطلق عليه العلماء اسم التفكر، ولقبوا أصحابه بلقب الحكماء، والحكمة يا صاحبي هى الخير الكثير كما أخبرنا القرءان الكريم.. ورأس الحكمة مخافة الله وأساسها الإيمان به وبالتالى

فالفلسفة هى التطبيق المباشر للعلم فلا يوجد تناقض لنقارن بينهما ، فالعلم تأتى بعده الفلسفة التى تفسر وتنشئ أهدافه .. وكل إنسان هو فى أعماق نفسه فيلسوف بشكل ما ، أنه أنه يفلسف تصرفاته فيضع لها الأهداف والغايات ، والفارق بين الفلسفة والعلم ليس فارق تناقض بل فارق تكامل ، والاختلاف بينهما اختلاف فى طبيعة نشاط كل منهما ..

فكما يقول الدكتور فؤاد زكريا[٤٧] المفكر وأستاذ الفلسفة الشهير فى كتابه « التفكير العلمى » ما مفهومه ..

(إن العلم بطبيعته تراكمى فكل عالم يأتى فيضع لبنة على بناء من قبله وهكذا ، وبهذا المعنى فليس متصورا فى العلم أن ينكر كل عالم نتائج علم وتجربة من سبقه ، ويبدأ من النقطة الأولى بل كان لزاما أن يبدأ من حيث انتهى سابقوه لأن انتشار بناء العلم يكون رأسيا ، أما الفلسفة فهى تختلف عن هذا فكل فيلسوف يبدأ من النقطة الأولى ولا شأن له برؤي بقية الفلاسفة من سابقيه أو معاصريه إلا ما يطابق فكره الفلسفي المستقل وعليه يكون بناء الفلسفة أفقيا).

كما أن العالم يجب أن يكون مكتسبا لكمية معلومات مختزنة وهائلة فى فرع العلم الذى يعالجه لكى يتمكن من ممارسة مهمته ، بينما الفيلسوف لا يحتاج إلى حصيلة مسبقة ليمارس الفلسفة لأنها بطبيعتها فكر والفكر يتطلب عقلا موهوبا قادرا على الاستنباط وحسب وكل عالم جاد ، فى أعماقه بعض الفلسفة العلمية وتواجد الفلسفة بعقله هو الذى يصنع الفارق بين العالم الحقيقي والعالم المغرض ولتوضيح هذا بمثال بسيط .. فلنفترض أن هناك اكتشافا جديدا .. قواعد العلم هنا تقتضي البحث خلف الاكتشاف تحت أى ظرف ، بينما الفلسفة تقتضي بالبحث خلف الفائدة منه قبل الشروع فى البحث خلفه ، فربما كانت نتائجه خرابا على البشرية وهو ما حدث بالفعل نتيجة قصور الفكر عند بعض علماء الجينات فسعوا لتخليق مخلوقات جديدة بدمج جينات من كائنات مختلفة وهو الأمر الذى أدى إلى كوارث ما زال العالم يعانى منها إلى الآن مع الغرور البشري الذى استبد بالعلماء ومع غياب الحكمة التى كانت لابد أن توجههم إلى أن العبث فى الخلق والطبيعة الإلهية لا يؤدى إلا إلى دمار البيئة ، وأيضا كما حدث عند

(٤٧) مفكر مصري مرموق من رواد الحركة اليسارية فى مصر ولكنه اختلف مع اليسار فى السبعينات أو مع الحركة اليسارية فى مصر وله مؤلفات رائدة فى مجاله كما أنه دخل فى خصومة فكرية مع اليساريين بمصر نشرت وقائعها مجلة روز اليوسف وتم طبعها فى كتاب مستقل ، كذلك له معاركه السياسية المشهورة مع العملاق محمد حسنين هيكل عندما رد على كتاب هيكل (خريف الغضب) بكتاب مختصر بعنوان (كم عمر الغضب) وبالعموم فمعارك فؤاد زكريا وجيله تنشط العقل بشدة لأنهم كانوا عباقرة حقيقيين .

اكتشاف الطاقة النووية فقد ندم أينشتين على ما فعله واعترف بقصور إدراكه عندما أسلم للساسة تلك المعجزة العلمية .. وعليه فالفلسفة هى التى تجعل للعلم نظاما وبغيرها تكون الفوضي ..

والفلسفة ليست مجرد كلمات بليغة نستمتع ببلاغتها بل هى نتاج وعصارة فكر نتأمل ما فيه ونستفيد منه بالتطبيق ونضيف عليه إن استطعنا.

فعقب الشاب:

ما الذى يشغل الفيلسوف وما الذى يشغل العالم .. ؟

أجاب الكاتب:

يكون الانشغال بتوجه كل منهما وعليه فالفكر والتأمل مهمة الفيلسوف والتفكير والتجربة مهمة العالم ، ولكل منهما معضلة تثير جنونه ، فالعالم أكثر ما يثير أعصابه هى المسببات ، مسببات الأمراض ، مسببات الطاقة .. إلخ ، والفيلسوف أكبر ما يشقيه هى المسلمات ، بدء من مسلمة التوازى فى الهندسة وحتى مسلمات الخلق لأن عقل الفيلسوف لا يقبل الثوابت الغير قابلة للتفسير حتى لو تفسيرا جزئيا

الشــاب:

« وما الفارق بين المسببات والمسلمات ؟ «

قال الكاتب:

«بشرح بسيط للعبارة السابقة فإن الذى يثير العالم ولا يجد نفسه قادرا على استيعابه أو قبوله هى المسببات الخافية لما يراه من ظواهر ويعجز عن معرفتها ، فالعالم يقتله فضوله العلمى للمعرفة مثلا كالألغاز العلمية المنتشرة من مثلث برمودا إلى عجائب الدنيا المختلفة، بينما الفيلسوف يُشقيه أن يستمع إلى حقيقة دون تبرير ومناقشة كما فى المسلمات التى يمكن تعريفها بأنها حقائق بسطت حقيقتها على الحياة دون مبررات فيجب قبولها كما هى بغموضها ، مثلا هدف خلق الخلق وبداية الكون ونهايته وإرادة الحياة بأعماق كل كائن وما إلى ذلك «

فتساءل الشاب قائلا :

ولكن الجدليات الفلسفية التى نسمع عنها ما موقفها ونحن نعرف أن الجدل مكروه فى الدين ، ورغم هذا قلت لى أن علماءنا السابقين كانوا فلاسفة.

فقال الكاتب:

لكى تعرف الحكم الصحيح وتنزله على الواقع الصحيح ، فعليك معرفة مفاهيم الألفاظ بدقة ، فالذى حرمه الدين هو الجدل ، أما المناقشة والمدارسة وتبادل الحجج والأدلة فهذه أساس العلم أصلا وهى فرض فى الدين ـ وليست مجرد رخصة ـ وكتب التراث مليئة بالمناظرات البديعة فى كل مسألة من المسائل ، فكل عالم كان يأتى برأى يعضده بأدلته ويناقش أدلة الآخرين فإما ينقضها بأدلته هو أو يسلم لأدلتهم ورأيهم ..

ولكى تريح نفسك ضع مقياسا بسيطا لتعرف الفارق بين الجدل والمناقشة .. فكل حوار يوصلك إلى نتيجة مفيدة لك فى دينك أو دنياك ، أو يوصلك إلى إجابات لا تعرفها بشأن أمر ما والمعرفة هى هدفك الوحيد من البحث فهو فلسفة وحكمة ومناقشة تأخذ عنها أجرا كبيرا ، وكل حوار لا ينتج شيئا من هذا أو يكون حوارا لقضية ليس لها حل أصلا فهو جدل ».

فقال الشاب مبتسما ..

أعطنى مثالا للجدل الفلسفي المحرم.

قال الكاتب:

مثلا عندما يضيع الوقت فى مناقشة أمور ليس لها هدف إلا استعراض القدرة على التناطح تماما مثل صراع الديكة استعراض قوة لا ينتج أثرا ، ومثال لتلك المناقشات .. مثلا تعال نخترع قضية لا هدف منها ، مثلا هناك حكمة تقول « لكل قاعدة شواذ .. « فما رأيك أنت فى هذه القاعدة التى ثبتت صحتها .. لو أننا نظرنا إليها كقاعدة سنجد أنها تعنى أن كل قاعدة لها استثناء، والسؤال هنا ما دامت القاعدة صحيحة إذا لنفس هذه القاعدة استثناء وهذا يعنى أن هناك قاعدة ليس لها شواذ وهذا يثبت عدم صحة القاعدة الأصلية ، وهكذا تظل تلف وتدور حول نفسك لتعرف حلا لتلك القضية فلا تدرك حلها حتى تجد نفسك بمستشفي الأمراض العقلية

فأكمل الشاب استفساراته قائلا ..» إذا كانت للعلم ميادين واضحة فأين هو ميدان الفلسفة وتخصصها ؟! «

أجابه الكاتب ..

الفلسفة منهج لتقرير الأهداف من وراء الأفعال وقياس الأرباح والخسائر خلف كل فكرة قبل أو بعد تطبيقها ، وبهذا التعريف فهى داخلة فى حنايا كل نشاط يخص الإنسان وكل تصرف يأتى به ، وعليه فهى تعالج كل الميادين فهناك الفلسفة العلمية للعلوم بأنواعها

النظرية والتطبيقية وهناك فلسفة الآداب والفنون... الخ ..

فسأل الشاب : وما هو تأثير غيابها عن كل تلك الأشياء ..؟

قال الكاتب:

غيابها يعنى ضياع معرفة الهدف من وراء الفعل .. وهو ما يتحقق أمامنا كل يوم .. وطبق هذا الأمر على نفسك.. وأراهنك أنك لو حاولت فلسفة تصرفاتك ونشاطاتك لتوقفت عن ثلاثة أرباعها على الأقل لأنك ستكتشف أنها تصرفات آلية لا تمثل هدفا ولا تجلب نفعا .. ولأعدت النظر فى الربع المتبقي لتصحح مسارك فيه وسؤالك يذكرنى بنكتة شهيرة تسخر من الروتين الحكومى حيث تقول أن هناك شركة لمد مواسير المياه ، كان يعمل بها فرق من العمال كل فريق مكون من ثلاثة أشخاص ، فالأول يحفر ، والثانى يضع الماسورة ، والثالث يردم الحفرة ، وذات يوم غاب العامل الذي يضع الماسورة ، فتابع العاملان عملهما تبعا للأوامر فكان أحدهما يحفر، والثانى يردم !!!

قال الشاب ضاحكا .. أعطنى مثالا على تصرفاتنا اليومية

قال الكاتب:

«تأمل معى المجتمع من حولك وتخيل لو أنهم جميعا سألوا أنفسهم سؤالا واحدا.. لماذا يعيشون ؟! بدلا من الاكتفاء بكيف يعيشون !

وهو سؤال لو سأله الإنسان لنفسه مرة واحدة فقط فى حياته وأدرك حقيقة إجابته لما دخل أحد النار، لأنهم سيدركون أن المعيشة ليست مجرد تصرفات ميكانيكية تنام وتستيقظ لتقضي يوما فى عملك وتُضيَع الباقي فى أى شيئ ثم تنام لتعود فى اليوم التالى إلى نفس الوتيرة .. عندئذ سينتبه العاقل فيهم إلى أن حياته تتسرب دون أن يدرى كيف ومتى عاش أحداثها وسيدرك أنه مسئول حتما فى وقت الحساب عن تلك الحياة التى ضاعت بشكل ميكانيكى ، حتى فى العبادات فمعظمنا يؤديها كعادة ، وهى كارثة الكوارث أن تصبح الصلاة والصوم مجرد إجراءات يفعلها الإنسان لأنه اعتاد عليها .. فقبل أن تصلي سل نفسك لماذا تصلي ؟ .. والإجابة بسيطة أصلى لله عز وجل .. ولكن هل تفيد الصلاة لله عز وجل وأنت غير مستحضر لعظمة هذا الخالق الذى تقف أمامه .. تقضي الوقت بين يديه ثم تطوى سجادة الصلاة وتنصرف دون أدنى ذرة من تأثر أو رهبة لهذا الوقت الذى قضيته فى حضرته سبحانه .. ؟!

وليس معنى هذا أن المصلي يجب أن يترك كافة الذنوب ولا يقع فيها ، كلا طبعا ، بل

المصلي هو الذى ينتبه عند فعل الذنب أنه مذنب ، وبالتالى يجره هذا للاستغفار والتوبة أما الذى يصلي لمجرد العادة فهو لا يربط هذا بذاك وهكذا يا صاحبي على نفس الوتيرة سؤال بين نفسك وجواب فى أعماقك يوجهك إلى الاتجاه الصحيح لتصبح الحياة عندك ذات روح ، وكل سؤال وكل جواب إما أنه سيجلب لك خيرا بفعل حسن كنت تتركه بلا سبب منطقي أو يدفع عنك معصية كنت تفعلها وسألت نفسك عن مبررها ومنطقها وبالتالى عندما اكتشفت خطأ هذا المنطق كان حتميا أن تتركها لأن المعاصي بلا فوائد .. «

قال الشاب متسائلا :

أراك تمدح الفلسفة رغم الهجوم الجامح على الفلاسفة ووصفهم بالجنون ..

ابتسم الكاتب مجيبا :

لا يوجد تناقض يا صديقي، لأن ما نعرفه نحن المسلمون من الفلسفة ، لا علاقة له بمفهوم الفلسفة عند الغرب ولا يتفقان إلا فى المسمى فقط، وحتى فى المسمى نفسه فإن الفلسفة عندنا هى مرادف للتفكر والتفكير.

قال الشاب: ولكن الفلسفة مصطلح غربي..

قال الكاتب:

نعم المصطلح غربي ونحن لم نستخدمه إلا فى العصور المتقدمة التى درجت على استخدامه لوصف النتاج العقلي، لكن أصله عندنا هو الفكر، فالمجال نفسه نشاط إنسانى يشمل سائر الحضارات ولكنه يختلف بين حضارة وأخرى، تماما كالآداب والفنون ، فلفظ الأدب والفن موجود فى كل الحضارات ولكن تفاصيل الآداب والفنون مستقلة فى كل حضارة بحسب طبيعتها واستخدامى للفظ الفلسفة هنا لتوضيح المقصود لك ، وهو يختلف عن مدلول معنى الفلسفة فى تراثنا الفقهى والإسلامى.

قال الشاب: كيف يختلف ؟!

أجاب الكاتب:

الفلسفة عند علمائنا الأقدمين كانت تعنى مرادفا لعلم الكلام أى أنها كانت مرادفا لنوع واحد من الفلسفة وهو فلسفة الأديان ، ولم يكونوا يستخدمونها لوصف أى إنتاج عقلي أو علمى آخر ، وإنما كانوا يقصدون هى فلسفة الأديان ، ولهذا فقد ظن البعض من حسنى النوايا أن حديث الفقهاء فى تحريم الفلسفة شامل لكل معانى التفكر والإبداع وهذا غير صحيح بالطبع ، وبنظرة واحدة إلى إنتاج هؤلاء الفقهاء أنفسهم ستجد لهم مؤلفات

وإبتكارات فى التفكر والتأمل والإستنباط وبالتالى فيجب علينا أن نحكم ونفهم ألفاظ الأقدمين فى سياقها التاريخى.

سأل الشاب: هل تعنى أن الفقهاء القدامى كالشافعى وغيره من أصحاب المذاهب لهم مؤلفات فلسفية ؟!

أجاب الكاتب :

بمفهومنا المعاصر نعم ، ولكن بمفهومهم هم كلا بالطبع فقد سبق أن أوضحت لك أنهم كانوا ينظرون لمدلول الفلسفة على أنها علم الكلام الذى يتحدث فى أمور العقيدة بما يخالف القرآن والسنة ، أما الفلسفة بمفهومها العام لو أنك رددتها إلى معناها الأصلي فستجد أنها تخص الإنتاج العقلي الذى يحلل الإنتاج العلمى فى كافة مجالات العلوم الإجتماعية ، كالتاريخ والسياسة والإجتماع وغيرها ، وكل هذه المجالات كتب فيها هؤلاء الفقهاء ، وإلا كيف تتصور أنهم تمكنوا من وضع نظام الحكم للدولة فى الإسلام ، فنظام وتفاصيل ومراتب الوظائف ومهامها ، كل هذه الأمور لم ترد فى نصوص الكتاب والسنة بشكل تفصيلي بل أنتجها الفقهاء استنادا إلى التصور العام للشريعة، بل إنه حتى كتب الفقه المحضة كانت فيها جانب من الفلسفة ..

تساءل الشاب: وكيف ذلك ؟!

قال الكاتب: سأعطيك مثالا ، فعندما أقول لك أن الله قد افترض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فهذه معلومة وخبر أى أنها تستند إلى مصدر التلقي وهو القرآن أى أن هذه العبارة داخلة فى نطاق العلم، فإذا سألتنى ولكن لماذا فرض الله الصلاة علينا، كسؤال استيضاحى وليس سؤالا استنكاريا ، هنا سأجيبك عن حكمة ومغزى الصلاة وكيف أن هدفها ربط العبد بربه على مدار اليوم ، فهذه الإجابة هى فكر محض ونتاج تأمل وبحث عن الحكمة والمغزى وبالتالى فهى فلسفة ..

ليس هذا فقط ، بل إن الفقهاء والمحدثين صنفوا فى المؤلفات الفكرية المحضة أيضا

قال الشاب: هل تعنى أن فقهاء الإسلام لم يكتبوا الفقه وفقط ؟!

أجاب الكاتب فى أسف :

ألم أقل وأكرر لك من قبل ألف مرة أن تقديرنا الرهيب والجامح لعلماء المسلمين الأوائل إنما هو مبنى على أساس واقعى ، بل إنهم أكبر من كل أوصافنا ، فهؤلاء العلماء كانوا عبقريات متفردة يندر إجتماعها فى أمة واحدة وفى أجيال متقاربة وبهذا العدد

الضخم ، حتى أننا نعجز اليوم عن حصر أسمائهم وعناوين كتبهم مجرد حصر ، ورغم الكميات الرهيبة التى أخرجتها المطابع ، فلا زال هناك آلاف الكتب المخطوطة التى لم تطبع ، هذا بخلاف الكتب التى ضاعت فى مكتبة بغداد والمخطوطات التى سرقها الأوربيون وهو تراث هائل لا أعلم كيف تمكنوا من إخراجه !

فعلماء الإسلام كان الواحد منهم ليس فقيها وحسب أو محُدثا وحسب ، بل كان الكثير منهم يتبحر ويتخصص فى ستة أو سبعة مجالات مختلفة ، بالإضافة إلى أن عقولهم كانت نورانية وقد سبقوا عصورهم بما توصلوا إليه بالتفكير وحده ، فهل تعلم أن العلامة ابن القيم والعلامة ابن حزم أثبتا كروية الأرض بمجرد التفكر والإستنباط ، وذلك لأن آيات القرآن وصفت الأرض بالإمتداد المستمر فقالوا أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت الأرض كالكرة لأن الكرة هى الشكل الهندسي الوحيد الذى ليس له بداية ولا نهاية ، وزد على ذلك أن هؤلاء الفقهاء الذين يتهمهم الأفاكون بجمود العقل لهم عطاءات فكرية لا زال العلماء ينهلون منها إلى اليوم فأبو حنيفة مثلا ، ناظر الملاحدة فى زمانه ،فهل تتصور أنه ناظرهم بالقرآن والسنة وهم ملاحدة أصلا لا يعترفون بهذه المصادر ، أم أنه ناظرهم بالعقل والتفكير المنطقي ..

وعندما ترى ردود أبي حنيفة عليهم تشعر بمدى الذكاء والفطنة التى هزم بها خصومه وكذلك الإمام ابن الجوزى ناظر الفلاسفة فى كتابه تلبيس إبليس ورد عليهم أيضا بما يلتزمون به وهو الحوار العقلي المجرد ، كذلك ابن تيمية قام بتأليف كتاب ضخم مطبوع فى ستة مجلدات بعنوان (درء تعارض العقل والنقل) رد فيه بالفلسفة والمنطق على كل من زعم التناقض بين نصوص القرآن والسنة وبين العقل ، والأمثلة على عبقريتهم أكثر من أن تُحصي ، فقط طالع واقرأ تراجمهم وكتبهم وستدرك هذا بسهولة..

عقب الشاب مستفهما : ولكن أليس التخصص فى الفقه والفتوى يقتضي دراسة القرآن والسنة والتركيز عليهما ؟!

أجاب الكاتب: وهل تتصور أن حفظ القرآن وأحاديث الأحكام وفقط يكفي لينتج فقيها ، الفقه معناه اللغوى هو (الفهم) فكلمة فقه الشيئ أى فهمه وأدركه ، أما الحفظ فهو وسيلة نهايتها هى الغاية المتمثلة فى الفهم، فالحفظ ينتج ناقلا وراويا للقرآن والسنة لكنه لا ينتج عالما ، ولكن مقام الفتوى والفقه هذا مقام عظيم القدر جدا، يحتاج إلى ملكة الإستنباط والتفكير والإبتكار والفهم المتوقد، وإلا كيف تتصور قدرة الفقهاء على

إعطاء الفتوى فى أمور الحوادث المستجدة التى لا يوجد لها سابق معالجة لا فى القرآن ولا السنة ، فالفقيه يجتهد هنا إستنادا على فهمه التام لمقاصد الشريعة ، ولهذا ابتكر الفقهاء علم أصول الفقه ، وأسسوا فيه لطرق الإجتهاد كالقياس والمصلحة المرسلة وسد الذرائع والاستصحاب والاستحسان ، وكلها نظريات فكرية بالأصل..

ولتعلم أن عصر الجمود الفقهى فى العالم الإسلامى لم يبدأ إلا عندما غابت ملكة الإجتهاد ومواكبة حوادث العصر فصار طلبة العلم يتلقون العلم ـ دون الفكر ـ وهو ما أنتج عصر التقليد المحض والتعصب للمذاهب،

وكان السبب الرئيسي فى ذلك ـ ليس كتب التراث فيما يزعمون ـ بل العكس ، وهو غياب عقلية وأساسيات علماء السلف عن الأجيال التالية لهم فغابت فلسفة الفقه التى عرفناها عن علماء السلف وظهر لنا من يقدم مظاهر التدين على أهم مقاصد الشريعة ، وأنت ترى وتسمع فى بلادنا عمن خالف منهج كتب السلف نفسه وقال بفتاوى غريبة فجاء العلمانيون ليتهموا كتب التراث ويتركوا من لم يفهم ؟!!

سأل الشاب: إذا أنت تقول بأننا فى حاجة إلى التجديد ..

أجـاب الكاتب:

وهل هناك من قال أننا لسنا بحاجة للتجديد ، لكن التجديد فى مفاهيم العلم ليس معناه هدم أركان العلم ذاته ، وبالتالى فالتجديد فى الدين، لا يكون بهدم القرآن والسنة ، فمفهوم التجديد عند علماء المسلمين يختلف عن دعوى التجديد التى يرددها العلمانيون اليوم ، والمشكلة الرئيسية فى عالمنا اليوم هى غياب مدلولات الألفاظ ، فالتجديد لا يعنى هدم القديم بل يعنى ـ وفق المعنى الإصطلاحى للكلمة ـ إعادة البناء لما كان عليه عند نشأته، والتجديد بهذا المفهوم لا يمس الثوابت بل يُـعيدها كما كانت على عهد النبي عليه الصلاة والسلام فينفي عنها التحريف الذى لحق بها، أما العلمانيون فيقصدون بالتجديد فى زعمهم هدم الثوابت جميعا والتخلى عما يسمونه بسيطرة الشريعة، وهذا ليس تجديدا بل هو هدم، فأنت مثلا عندما تقول أنك جددت بيتك أى أنك قمت بترميمه وصيانته وتغيير التالف منه لكن حافظت عليه كما هو بهيئته التى بُنى عليها، أما إذا هدمت هذا البيت ونقضت أساسه وبدأت تبنى من جديد فهذا ليس تجديدا بل هو هدم وإعادة إنشاء والفارق ضخم كما ترى لهذا تجد مساخر التجديد عند العلمانيين تعنى ببساطة ألا يفتى الفقيه بكلمة حرام ، ولا بكلمة كفر أو شرك على أى فعل يراه أو يستفتيه

الناس فيه ، بل يجب أن يكون الفقيه عبارة عن صدر لكلمة حلال ، حلال ، وبهذا يقبلون الإسلام الوسطى الذى يروجونه على الناس !

قال الشاب : هل تعنى أن التجديد معناه أن يكون الفقه كما كان عليه فى السابق ؟!

ضحك الكاتب مجيبا :

كلا بالطبع ، مصطلح التجديد لا يختص بالفقه أصلا ، بل يختص بالعقيدة والأصول فالعقيدة والأصول ليس فيها أى إجتهاد والإعتماد فيها يكون على النصوص بصفة حصرية ، وأى إضافة عليها نسميها فى الشريعة باسم البدعة ، والبدعة هى الشيئ الذى يضيف للعقيدة والأصول والعبادات أقوال أو أفعال لم ينص عليها القرآن أو تنص عليها السنة ، فأركان الإيمان والإسلام والفرائض وطريقة العبادة وغيرها من الأصول لا يمكننا أن نزيد عليها أو ننقص منها ، فإذا جاء فرد أو جماعة وزعموا أن لديهم اجتهادات فى العقيدة فهم فى عرف أهل السنة .. مبتدعة ، وكل من انشق عن أهل السنة والجماعة جاءوا بأقوال وإضافات فى العقيدة والأصول وهؤلاء يوصفون بأنهم (فرق) أما الفقه فهو مفهوم متجدد بطبيعته ، فأى فقه غير مناسب لعصره ليس فقها أصلا ، وعلى هذا تدرك مدى حماقة لفظ (التجديد الفقهى) لأن الفقه فى مفهومه نفسه يحمل معنى التجديد فلو لم يكن يناسب عصره فليس بفقه، تماما كما نقول فى الرتب العسكرية فنضيف كلمة (أركان حرب) إلى الرتب العسكرية لمن درسوا العلوم المتقدمة عسكريا حتى رتبة (لواء) فإذا حصل أى لواء على رتبة أعلى منها وهى رتبة (الفريق) فلا نضيف له كلمة أركان حرب أصلا ، لأن رتبة الفريق لا ينالها أى لواء إلا إذا حصل فعليا على الدورات العلمية المتقدمة بكليات أركان الحرب ، والأمر أشبه بدرجة الدكتوراة التى لا يحصل عليها إبتداء إلا من حصل على الماجستير أولا ، لهذا فلا نقول على الدكتور أنه حاصل على ماجستير لأنه مفهوم بالتبعية ولهذا ولأن مجال تقرير مصالح الناس استنادا إلى أحكام الشريعة ، وبالتالى فهو خارج عن إطار العقيدة والأصول ، والإختلاف والتنوع فيه مصدر ثراء فكرى وتشريعى ولهذا يُسمى الإختلاف فى الفروع باسم المذاهب ، وهذه المذاهب تحت راية أهل السنة لأنهم متفقون جميعا فى العقيدة والأصول ، ولهذا اختلف الفقهاء فى آلاف المسائل التى لا يوجد فيها نص ثابت ، حيث اجتهد كل فقيه فى مجاله وعصره بالضوابط العامة للاجتهاد ، وعليه فمصطلح (التجديد الفقهى) هو مصطلح خاطئ ، فالفقه إن لم يكن مواكبا لعصره ومتحريا لمقاصد الشريعة ، فليس

هذا بفقه ولا هو من الشريعة ، بمعنى أن الفقه يُنشئ أحكاما جديدة بطبيعته ولهذا قال العلماء (حيثما وجدت المصلحة فثم شرع اللّه) ، ولهذا فهو لا يحتاج تجديدا أصلا ، فهو يتطور تلقائيا بتطور حياة الناس فكلما ظهر واقع جديد ظهر له حكم جديد ، ولكن مع تنبيه هام ، وهو أن الإجتهاد ليس اختراعا ، بل هو علم ورتبة ينالها الفقيه بعد درايته التامة بالأصول فى الشريعة ..

ولهذا وجدنا للشافعى مذهبين ، مذهب فى العراق ، وآخر عندما أتى لمصر ، ولكن كلا المذهبين لا يمس الثوابت بأى حال من الأحوال بل يعالج واقعه الموجود فيه أما إذا توقف الفقهاء فى عصر من العصور على إجتهادات السابقين لهم رغم اختلاف الظروف والعوارض ، فهذا هو الجمود المذموم وكمثال على الفارق بين عقلية الفقيه وعقلية ناقل العلم ، ما ورد فى البخارى عن أحد السفاحين فى الأمم السابقة وكان قد قتل ٩٩ نفسا ، ثم راودته نفسه للتوبة ، فسأل عن عابد متنسك ليدله على طريق الصواب ، فلما ذهب للعابد وسأله كيف أتوب ، انفعل العابد عليه وقال له لا توبه لك ، والعابد هنا أفتى بمقاييس البشر لا خالق البشر ونسي أنه ليس حاكما بل دالا على الطريق ، وانفعل من هول وفداحة الجريمة ونظر لرغبة القاتل فى التوبة على أنها نوع من التبجح ، وبالطبع أخطر ما يمكن أن تفعله بإنسان أن تدفعه لليأس ، وتجعله يوقن بأنه ليس لديه شيئا يخسره ، وبالتالى قام القاتل فضرب العابد وقتله مكملا به المائة !

وبعد فترة أعاد القاتل الكرّة ، ولكنه سأل عن أعلم أهل زمانه ، وذهب إليه ، فسأله نفس السؤال ، هل لى من توبة ، فقال له العالم .. بالطبع ، ومن يسد عنك باب اللّه عز وجل ، فسأله كيف أتوب ، فقال له أن تقلع فلا تعود ، وتغادر بلدك الذى أنت فيه لأن قومك يشجعونك على البطش ، وتذهب إلى بلدة كذا ففيها أناس صالحون تعبد اللّه معهم ، فالعالم هنا لم يحل المشكلة المباشرة فحسب ، بل أعطى خريطة كاملة للحل الجذرى فى مشكلة الرجل ، فذهب الرجل ومات أثناء الرحلة ولكن نيته فى التوبة نفعته فغفر اللّه له .. فهل رأيت مدى الفارق بين معالجة العابد الورع وبين العالم الفقيه ، فالعابد الورع حكم على الرجل بورعه وقاس تصرفاته على طبيعته هو وليس على مجمل طبيعة الناس ، فكان طبيعيا أن يستنكر توبة الرجل ، أما العالم فهو يفتى وذهنه حاضر بأن أمامه اختلاف طبائع الناس واختلاف اعذراهم ، ومثال آخر يوضح المفهوم ، لو جاءك سائل يقول إننى مسلم جديد ولكنى لا أتقن قراءة الفاتحة وتعلمت العربية بصعوبة ولكن كل محاولات

حفظى للفاتحة فشلت فكيف أصلي ؟!

العابد أو الإنسان العادى سيتهم الرجل بالتقصير وكيف أنه عاجز عن حفظ سبع آيات فقط، وسيدفعه دفعا إلى محاولة الحفظ بالإجبار حتى لو قرأها خطأ ، ظنا منه أنه ليس هناك حل بديل ..

قال الشاب : وهل هناك حل بديل أصلا ؟!!

أجاب الكاتب مبتسما : ألم أقل لك أن علماءنا هم مصابيح الأمة بالفعل ، ولولاهم لضل الناس ، نعم هناك حل يا سيدى بأن يترك قراءة الفاتحة حتى يحفظها على مهل ويصلي بشكل عادى جدا ويقرأ أى دعاء مختصر يجيده وهذا ما قرره العلماء استنادا حديث النبي عليه السلام ـ فيما معناه ـ عندما كان لجواره معاذ بن جبل ، فبادر النبي عليه السلام لسؤال أعرابي : ماذا تقول فى الصلاة ؟

فقال الرجل : أتشهد ـ أى أنطق الشهادتين ـ ثم أقول اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، لأنى لا أحسن دندتك لا دندنة معاذ

فقال النبي عليه الصلاة والسلام مبتسما : حولها ندندن

قال الشاب : هذا يعنى أن الفقيه يجب أن تكون له دراية بواقع الناس وحياتهم

قال الكاتب مؤيدا : نعم أحسنت ، وهذا الذى تقوله هو ما اشترطه العلماء فى المجتهد ، فالفقيه يجب أن يكون حصيفا وعندما تأتيه مسألة محدثة يبذل جهده فى حلها ، ولا يفتى بالتحريم إلا إذا وصل إلى طريق شرعى بديل يحقق المصلحة فى تلك المسألة ، ولولا هذا لضاق صدر الناس من الحرج ،

ولهذا دوما ما أقول أن الناس تعتقد أن السياسة هى فن الممكن ، بينما أعتقد أن الفقه أولى بهذا الوصف فهو فن الممكن فعلا

تساءل الشاب : ولكن ماذا لو جاء شخص يطلب حلا بديلا للخمر أو الزنا دون الزواج ، هل يكون على الفقيه أن يجد له حلا بفن الممكن ؟!

قال الكاتب ساخرا :هذا اسمه فن المسخرة ، وليس فن الممكن ، فالفقه ليست وظيفته تيسير الطريق لممارسة الشهوات ، بل هو طريق تحقيق مصالح الناس ، والمصالح هى الأشياء التى لا تستقيم الحياة بدونها ، وتشمل مقاصد الشريعة حفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل والنسل ، أما إذا تخيلت التيسير الفقهى معناه تسهيل التحلل من أى إلتزام لما كان هناك معنى للدين ولا معنى لإرسال الرسل ، ولما كان هناك فارق بين

كافر أو مؤمن ، لأن الجزاء وعطاء الإيمان إنما يكون فى بذل الجهد والعمل بالأوامر والنواهى بغير إفراط وتفريط ..

ولهذا فالفقه مهمته ترسيم الحدود فى دنيا الناس فى إطار الوسطية ، فالفقيه عندما يفتى يكون همه تقرير أفضل الحلول التى تحافظ على تلك المقاصد ، ولهذا فالحكمة تقول ليس العاقل أو الذكى من يختار الأفضل بين الفوائد ، ولكن العاقل من يحسن اختيار السيئ عن الأسوأ أى تطبيق إدراك الحد الأدنى من المصالح.

قال الشاب: وما هو دور نصوص القرآن والسنة إذا كان المعتمد فى الفقه هو التفكير ..

قال الكاتب متعجبا: هى الأساس بالطبع لكل شيئ ، فالمهندس العبقري ليس عبقريا لأنه اخترع بعقله اختراعات لا تستند إلى علم أو إلى نظريات ثابتة ، بل المهندس العبقري هو الذى اخترع وصمم اختراعات جديدة ومفيدة بعد أن درس نظريات الهندسة الأساسية، وعلى أساسها قام بالإبداع والإنتاج ، فلو جاء مهندس واخترع بديلا لحديد التسليح يؤدى نفس الوظيفة ، فهو مهندس عبقري ، أما إذا جاء مهندس وقال أنه سيجدد فن البناء بإلغاء حديد التسليح أصلا ، فهذا مجنون ينبغي أن نضعه فى مكانه الطبيعى حتى لا يقتل الناس بجهله وكذلك الفقيه المجتهد هو الذى درس القرآن والسنة وعرف أساسيات شرع الله تعالى ومقاصده ، ثم جاءت عبقريته وفهمه فابتكر الحلول للمشاكل المحدثة بما يتناسب مع مقاصد الدين ، ولا تنسي أن حفظ الدين هو من مقاصد الشريعة ذاتها ، أما إن قال شخص أنا سأجدد الدين بزيادة الفرائض أو تركها أو نبذ الثوابت ، فهذا مكانه هناك بجوار المهندس الذى ذكرناه!

ويبدو أنك فى حاجة إلى مثال واقعى كى يتضح لك الأمر ، فمثلا ظهرت فى عصرنا آفة المخدرات ولم تكن معلومة على عهود علماء السلف ولا يوجد فيها نص قطعى الدلالة يحرمها ، فالقاعدة الأصولية تقول (إن الأصل فى الأشياء الإباحة) ، ومن هذه القاعدة ابتكر أهل القانون مبدأ (لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص) ، وبالتالى فيجب أن تقتصر كلمة الحرام القطعية على ما فيه نص ، وذلك عملا بقول الله تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) فهو تحذير شديد من التوسع فى كلمة التحريم فهى حق إلهى ، ولهذا كان فقهاء السلف العظام يتورعون عن استخدام لفظ التحريم فى المسائل المستجدة ويستبدلونه بكلمات أخرى تعبر عن المنع مثل لا يجوز ، أو لفظ الكراهة

، ولكن هذا المبدأ لا يعنى أبدا أن الأمور المستحدثة بالغة الخطورة على المجتمع ستخرج من وصف التحريم القطعى، لماذا ؟! لأن شرط وصفها هنا متوافر ، وهو وجود النص ، فليست كل نصوص القرآن والسنة محصورة بأمور معينة فى التحريم لا تجوز الزيادة عليها ، بل هناك نصوص قليلة يندرج تحتها ما هو متاح وما يمكن أن يظهر بعد ذلك من المخاطر الشبيهة ، فإذا طبقنا هذه المبادئ على المخدرات سيخرج الفقهاء بضمير مستريح ليفتوا الناس بالتحريم القطعى للمخدرات ، والسبب هنا وجود النص فى حديث النبي عليه السلام (كل مسكر خمر وكل خمر حرام) ، فليس الخمر المحرم فى الشريعة هو المشروب المعروف وحده، بل هو كل شيئ وكل وسيلة تؤدى إلى نفس النتيجة ألا وهى تغييب العقل وتغليب الشهوات ، وكلاهما ينطبق على المخدرات بصورة أكثر من الخمر المعتادة .. وهكذا جاء الحل العقلي للفتوى ولكن استنادا إلى النصوص وليس بمجرد التأليف والهوى .. ولو كان التحريم لوصف المشروب وحده لكان من الممكن أن يتحايل أصحاب الشهوات فيجدون البديل الذى يعطيهم نفس التأثير دون أن يكون له وصف المشروب .. هل فهمت الآن أسلوب الفقهاء فى تناول الأحكام ؟!

قال الشاب فى دهشة :

ولكن هذا جهد بعيد وطاقة كبيرة ..

قال الكاتب :

ليس هذا فحسب ، بل إن الفقه الإسلامى يتميز بشدة عن القانون الوضعى فى أن به أحكاما ونصوصا عامة تتسع لمتغيرات الزمان والمكان ، دون أن نحتاج إلى تغيير أو تبديل النصوص كما يحدث مع القانون الوضعى ، فمثلا فى القاعدة التى ذكرتها لك وكان القانون الوضعى يعالج فيها مسألة ضرورة وجود النص للتحريم ، هذه القاعدة عندنا فى الشريعة جاء فيها النص شاملا حتى للطوارئ المستجدة ، بينما القانون بنصه السابق فيه عوار ونقص لأنه ربط التجريم والتحريم بالنص التفصيلي وهذا معناه مثلا فى قانون المخدرات ، إمكانية استخدام مخدرات حديثة أو مهجنة لم يرد إسمها فى نصوص القانون أو جدول المخدرات وبهذا يفلت الفاعل من نص التجريم ، ولأجل هذا القصور تحتاج القوانين دوما للتعديل والإضافة،أما فى الشريعة فنظرا لأنها قانون سماوى شامل جاء يعالج حياة الناس على مر العصور، فقد جاءت نصوصه مع اجتهادات الفقهاء لتغطى كافة مستجدات العصر ، فلا تحرّم إلا ما ثبت ضرره وخطره على مقاصد الشرع

ولهذا السبب بالذات نحن نستهجن بشدة أقوال الجهلة هذه الأيام ممن يُسفهون علوم الشريعة ويدعون الناس لتركها تحت زعم أن أى مسلم عامى يستطيع أن يأخذ الفتوى من القرآن والسنة بنفسه ودون الحاجة للدراسة !!

وهم يُلبسون على الناس بكلمة حق يُـراد بها باطل ، فيقولون لهم أن القرآن والسنة ملك لكل الناس وليست حكرا للفقهاء ، والمقولة صحيحة فالقرآن والسنة هى مرجع كل مسلم ومطلوب منه ـ وليس فقط مباح ـ أن يطالعها ويقرأها ومجرد القراءة فيهما عبادة بحد ذاتها ..

ولكن مجال الفقه والفتوى ليس من صنوف العبادة المفترضة على كل الناس بل هو تخصص لمن أعطاه الله الدراسة والعلم ، ليعود الناس إليه فى المعضلات ، ولهذا أيضا خصص القرآن وخصصت السنة لآيات والأحاديث فى مدح أهل العلم لأنهم يقدمون خدمة العلم مجانا لعامة الناس ، ويبذلون جهدهم لهدايتهم إلى طريق الحق وتذكير العاصين ودعوة المدبرين وهداية الحائرين ، وكل هذا رغم المخاطر الهائلة التى يتعرض لها من أراد سلوك طريق العلم ..

تساءل الشاب :

مخاطر !! أية مخاطر فى طلب العلم ؟!

قال الكاتب :

هل كنت تتصور أن الله عز وجل يعطى العلماء الرتبة التالية مباشرة بعد الأنبياء بالإضافة إلى الجزاء العميم والمدح الجزيل الذى يطول شرحه ووصفه ، كل هذا الجزاء يعطيه الله تعالى للعلماء دون أن يكون هناك صعوبات فى طريق العلم تحمل المشقة التى تتناسب مع عظم الجائزة والمكانة ؟!

عقب الشاب قائلا :

نعم بلا شك ولابد أنك تقصد المعاناة والسنوات الطوال التى نسمع أن العلماء يقضونها ليصلوا إلى مرتبة العلم ..

قال الكاتب :

هذا الذى تسميه أنت مشقة وصعوبة لا يمثل لطلبة العلم تعبا بل هو عندهم نوع من المتعة والهواية ، فطالب العلم العاشق لطريق المعرفة يعطيه الله ملكة حب البحث وحب المعرفة حتى أنه يقضي الأيام والليالى فى القراءة والمدارسة دون ملل ودون كلل ، وتكون

هذه الأوقات هى أسعد أوقاته ، أما المشقة المادية والسفر والترحال ، فهذه كلها صعوبات قد يعانيها معظم الناس فى طلب الرزق ، ورغم هذا فجزاء العلماء يتجاوز ذلك بمراحل ، حتى أن دماء الشهداء ومداد العلماء يوزنون يوم القيامة فلا يفضل أحدهما عن الآخر ، فضلا على أن الله عز وجل ـ كما يقول السيوطى ـ تكفل برزق طالب العلم المخلص

تساءل الشاب فى حيرة :

ما الذى تقصده إذا بالصعوبات والمخاطر ؟!

قال الكاتب :

للعلم ضوابط وشروط وآداب من خالفها يكون جزاؤه ـ والعياذ بالله ـ أشد الجزاء يوم القيامة ، حتى أن أول من يلقَي إلى النار هم العلماء الذين خانوا وفسدوا ولم يراعوا أمانة العلم ، وهى ضوابط عسيرة فعلا ، وهى لا تشمل بالطبع الأخطاء البشرية التقليدية أو الأخطاء التى يقع فيها العلماء دون سوء نية ، بل المقصود هنا بالوعيد هم العلماء الذين يخونون أمانة العلم عامدين طمعا فى متاع الدنيا ..

من هذه الضوابط أن العالم يجب عليه أن يطلب العلم لله وحده ، بمعنى ألا يكون له هدف إلا معرفة الطريق إلى الله عز وجل ، وتعليم الناس الخير ، فإن تعلم العلم لغرض دنيوى بحت كان فى النار ، وفى هذا ورد جاء الحديث فى البخارى ينص على «لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ»

وهناك رواية أخرى معضدة لنفس المعنى وتضيف إلى المحاذير السابقة طلب العلم لخدمة السلاطين، والمتأمل فى الحديث يدرك على الفور صعوبة الفتنة والإختبار ، فالعالم إذا قصد من بذل الجهد فى العلم أن يتصدر المشاهد ويغالب العلماء ويفتخر بعلمه عليهم ، أو يجادل به العوام والسفهاء كى يثبت براعته ، أو لكى يصبح ذو مكانة إجتماعية مرموقة ويستقبله الناس بالتعظيم والإجلال ، أو لكى يطلب الوظائف والمناصب وخدمة السلاطين ، كل من وقع فى ذلك فلن ينفعه علمه بشيئ وهو فى النار ـ حسب نص الحديث ـ

قال الشاب : ما الذى يعنيه هذا ، هل مطلوب من العالم أن يمنع الناس والدولة من تقديره وحفظ مكانته والإستفادة من خبرته ..؟!

أجاب الكاتب نافيا:

لا ليس هذا بالطبع هو المقصود ، والتقدير والإحترام فرض على الناس فى مواجهة العلماء ، ولكن الحديث صريح فى أن العالم نفسه لا يطلب ذلك أو يتحراه ويحرص عليه ، أما إن فعلها الناس والسلطان من تلقاء أنفسهم وعلى غير رغبة من العلماء فلا شيئ عليهم قطعا ، لكن الكارثة تتمثل فى أن يطالب العالم بالمكانة والمركز والمال فى سبيل العلم وإلا رفض بذل علمه للناس!، فهذا كله حرام، ورغم أن كفالة العالم ومعيشته هى واجب على الأمة يأثم الناس جميعا إذا لم يقم بعضهم به ، فإنه مع ذلك فليس من حق العلماء كتم العلم إذا غاب الأجر، وليس لهم حتى طلب الأجر على الفتوى والهداية والإرشاد ، والحديث يقول فى ذلك (من سُئل علما فكتمه ألجمه الله تعالى بلجام من النار يوم القيامة)

قال الشاب: يا لها من مصيبة ، وهل ينطبق ذلك على الرواتب التى ..

قاطعه الكاتب موضحا : الرواتب الوظيفية لأساتذة الجامعات أو القضاة أو المفتين فى دار الإفتاء كلها تندرج تحت بند الوظيفة التى يحصل عليها كل الناس ومثلهم العلماء بالطبع ،كما ينطبق هذا على المعلم الذى يلقي الدروس لطلبة العلم فى حلقة درس لهذا الغرض ، أما التحريم فهو أن يطلب العالم من أفراد الناس وعوامهم مالا على الفتوى أو طلب المعلومة فيرفض الإفتاء لهم إلا إذا أعطوه مقابل هذا العلم ..

قال الشاب: معنى هذا أنه فرض على العالم إخراج العلم للناس ولو كان لا يجد مالا ينفق منه.

أجاب الكاتب:

بل لو لم يجد حتى الحرية لنفسه ، بالسجن أو الإستهانة من الناس وتحقيرهم له وحتى لو رجموه بالحجارة وسفهوا كلامه فلزام عليه أن يؤدى واجبه طالما بقي بين الناس من يستمع إليه ويطلب النجاة ، ولا يسقط هذا الواجب حتى يمنعوه منعا واضحا من أداء العلم فعندها فقط يسقط عنه هذا الواجب ، والاعتزاز والكبرياء يستخدمهما العالم فقط فى حالة حفظ مكانة العلم نفسه عن التحقير ، فلا يعطيه لمن يستهين به أو يزدريه أو يطلبه بصيغة الأمر مستغلا نفوذه وماله ولهذا كان الفقهاء والعلماء الكبار يعاملون أصحاب السلطة والمال بعزة نفس شديدة وكبرياء عال ، بينما يعاملون عوام الناس كأنهم ملوك وأيضا العالم محروم حتى من رخصة كبيرة جدا فى الناس ، وهى رخصة إعتزال

الناس وإعتزال الدنيا عند انتشار الفتن وضياع العلم وضياع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فعندئذ يجوز للعوام ممن يخشون على دينهم أن يعتزلوا المجتمع ويفروا بأنفسهم من الباطل إلا العلماء ، فطالما كان العالم يدرك أين الحق وأين الباطل ، فوجب عليه إظهار الحق وإبطال الباطل دون أن يمنعه ذلك خوف الناس أو رهبتهم ولهذه المخاطر كلها جعلهم الله تعالى حاملى إرث النبوة ، ألم يعان الأنبياء والرسل مختلف صنوف الإنكار من الناس بينما هم يحملون لهم الهدى والنور والنجاة من النار والدخول للجنة ؟!

وهذه الضوابط بالمناسبة تنطبق على سائر العلوم فى الإسلام ، وليس فقط علوم الشريعة ، لكنها ضوابط مخففة فى العلوم الأخرى بحسب حاجة الناس لكل علم ، أما علماء الشريعة فالضوابط منطبقة تماما عليهم بكاملها هذه هى ضوابط العلم والعلماء فى الإسلام ، فقارن هذا بما يجري فى الغرب مثلا وهم يمنعون المخترعات الحديثة ويقصرونها على بلادهم لفترة معينة ثم يصدرونها بعد ذلك ، وقارن هذا بما تفعله شركات الأدوية والتى قد تخفي علاجا نهائيا لأحد الأمراض فترة طويلة حتى تجنى باقي أرباح ما سبقه من أدوية تخفف أعراض المرض فقط !!

فهل فعل علماء المسلمين فى الطب والفلك والهندسة والكيمياء والرياضيات ، وحصروا أسرار هذه العلوم على أمة العرب وحدهم ، أم أن أوربا جلبت من الأندلس ومن المغرب ومن مصر ومن العراق كل الإختراعات الحديثة فى ذلك الزمان ، وكافة النظريات التى أسسها نوابغ الحضارة الإسلامية التى يتنكر العلمانيون لفضلها اليوم.

قال الشاب ساهما :

أنا أحاول فقط مقارنة هذه الضوابط بما يجرى فى بعض الفضائيات الإسلامية بخصوص العلماء والدعاة

أجابه الكاتب:

يا أخى الفاضل أصحاب هذه الفضائيات معظمها ـ إلا من رحم ربي ـ يتعامل بمنطق رجال الأعمال وحسب، وإلا ما هو مبرر إنشاء برامج لطلب الفتوى عن طريق الهاتف برقم خاص تكون فيه تكلفة الدقيقة أضعاف تكلفة المكالمة العادية ، مع أنهم لو جعلوا المكالمات بثمنها العادى فلن تقل مكاسبهم كثيرا لا سيما وأن مكاسبهم من الإعلانات تتفوق حتى على فضائيات المنوعات لأنهم لا يكتفون بإعلانات الفواصل بل يضعون الإعلانات المصورة أثناء إلقاء الشيخ لدرسه رغم منافاة هذا لجلالة العلم ، وتجد الشاشة أثناء

عرض الدروس الدينية متخمة من كل ناحية بإعلانات ثابتة ومتحركة تحت صورة المشايخ وفوقها وعلى جانبيها ولم يبق إلا جلباب الشيخ ليضعوا فيه بعض البوسترات !!

ضحك الشاب رغما عنه وقال : وهذا هو ما يُـنـفر منها الشباب الآن.

قال الكاتب:

ما كان الناس لينفروا منهم لو كانت الدعوة لله وليس فى سبيل تيارات معينة، فالحزبية المقيتة دخلت فى نشاطهم الدعوى ، ولهذا تجد كل مجموعة وكل تيار له فقه ومظهر وموضوعات لا يتحدث فى غيرها ولو خالف أحد الدعاة فكر التيار الذى ينتمى إليه ستمنعه تلك الفضائيات من الظهور فيها ، تماما كما يتعامل إعلام الدول الرسمى فلا يأتى بالمعارضين على شاشته، بل أصبح لكل تيار وكل منهج أئمة مخصوصين يعظمهم أتباع تلك التيارات ويولونهم إهتماما خاصا دون بقية علماء المسلمين ممن هم فى مستواه ودرجته ورتبته ، وانظر مثلا ماذا يفعل الأزهريون والسلفيون ببعضهم البعض ، حيث تقوم بينهم معارك مستهجنة لا يقودها إلا التعصب ، فبعض المنتسبين للمؤسسة الأزهرية الرسمية يستغلون سلطة الدولة لمنع السلفيين من اعتلاء المنابر ويجبرونهم على اتباع خط فكرى معين فى العقيدة يتبع الأشعرية رغم أن العقيدة السنية التى يتزعمها إمام السنة أحمد بن حنبل هى الصواب والسلفيون على حق فى اتباعهم إياها لأنهم من أهل الحديث والأثر ، بينما السلفيون يتجاوزون فنون علوم الحديث والعقيدة التى برعوا فيها ويذهبون للفقه وليسوا من أهله ، ويفتون الناس بغرائب وشاذ الفتاوى رغم أن الأزهر هو عمدة الفقه وأصوله وقد أولى الأزهريون الفقه وعلومه كل اهتمامهم ودراساتهم فى العقود الأخيرة ، ولهذا ففتاوى السلفيين تفتقد إلى أصول الفقه والفتوى وفقه معالجة الواقع، وليست هذى من تصرفات أو قناعات علماء الأمة الكبار، مع أن المفترض أن يتكامل الجانبان لصالح عامة المسلمين ، ولكن الهوى والمصالح غلب على النفوس ، فخضع الأزهر لسيطرة الدولة، بالذات فى أواخر عصر مبارك ، وخضع السلفيون لسيطرة التيار الذى ينتمون إليه، وما كان أحد لـيُعرض عنهم لو خلت تصرفاتهم من خوارم المروءة ، وتعففوا عن بعض الأقوال والأفعال التى جلبت استهجان الناس ، وما كان أحد يعيب عليهم الربح المناسب لو أنهم احترموا قيمة ما يقدمونه من علم فاقتصروا على الربح التقليدى للفضائيات دون السعى لحشد وتجميع المكاسب من السوق الإعلانية كقنوات الأفلام والأغانى ! ، وما كانت الناس تستهين بهم لو احترموا مبدأ نشر العلم دون

رهبة من سلطان أو طمعا فى رضاه ، وبالتالى فهم يتحملون أسباب تهوين صورة العلماء بين العوام ، بما فعلوه فى أنفسهم ، فالعلم عند الله عزيز ، فإذا أذل العالم علمه ، كان لزاما عليه أن يقع فيما يتوقاه من الشر بينما لو أنه ظل على الحق لحصد ما يطلبه من الدنيا دون أن يبذل جهدا فى ذلك، ولن أضرب لك المثل بمواقف علماء السلف فحسب ، بل حتى فى العصور القريبة ، فعلماء الأزهر ظلوا حتى بداية القرن العشرين هم قادة الأمة ، ورعاة تربية الرأى العام ، ونفوذهم كان ساحقا بين الجماهير، ولهذا قادوا هم بأنفسهم ثورات المصريين ضد الإحتلال الفرنسي فى حملة بونابرت ، وبعد رحيل الحملة كان شيخ الأزهر وعمر مكرم ولفيف من علمائه هم من أتوا بمحمد على لكرسي الحكم وأخذوا عليه العهود والمواثيق، ومثلوا عليه رقابة كرقابة البرلمان فى العصور الحالية، ورغم جبروت محمد على إلا أنه كان يخشاهم إلى أقصي مدى ، فتأمل كيف خاف العلماء ربهم فخاف منهم كل أحد، ولهذا ، فعندما أراد محمد على إفسادهم تودد إليهم بالدنيا وبالمال وبتأليب بعضهم على بعض ، فلما وقعوا فى الفخ هان أمرهم على محمد على فاعتقلهم وحدد إقامتهم دون أن يحرك الناس ساكنا بسبب انتشار صراعاتهم ،

فأين هذه الأخلاق من أخلاق علماء السلف ، كان الواحد منهم يتمنى لو منح الناس العلم ـ ليس مجانا فقط ـ بل ودون أن يعلم الناس اسمه أو صفته ، فيستفيدون من علم العالم دون أن يجازوه ولو بالشكر ، وربما فعلوا هذا لو كانت هناك طريقة لذلك ، ولكن لأن الناس لابد لها من معرفة مصدر وعدالة وعلم من يفتيهم ، لما سعى واحد منهم لإظهار نفسه ، لأنهم كانوا أشرف الناس تطبيقا لحديث النبي عليه السلام (إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي) وهكذا استحق هؤلاء العلماء الربانيون لقبهم ، وعاشوا حياتهم دون أن يتكسبوا إلا ما يسد رمقهم ، واحتملوا فى سبيل نشر العلم حتى المعاناة والحبس ومجافاة السلطان، ولم يطلبوا فى مقابل ذلك حكما أو رياسة أو سياسة، بل كانوا يفرون من كل هذا لو عرضوه عليهم ، وهان على بعضهم الحبس والجلد على قبول المنصب إلى جوار الحاكم، وذلك رهبة وخوفا من عواقب الإقتراب من السلاطين ، وكانوا أحرارا فى قول الحق، أحرارا بمعنى الكلمة ، لو أخطأ أولادهم أو آباؤهم كانوا يبادرون لتحذير الناس منهم، ووالله لقد فعلها أحد علماء الحديث عندما سأله الناس عن رواية ابنه للحديث فقال لهم (ابنى كذاب فلا تأخذوا عنه) ، وآخر سأله الناس عن أبيه فأطرق لحظة ثم قال (إن هذا العلم دين ، وأبي رجل ضعيف) ، فلم تكن تحدوهم

فى إبداء الرأى أية عوامل وأية ضغوط وأية ظروف ، فهُم بلا انتماءات حزبية أو سياسية أو تيارات أو سياسة قنوات وصحف ، لم يكن يحكمهم إلا القرآن والسنة وفقط ..

ولهذا ما سمعنا بأحد منهم نال من متاع الدنيا شيئا ، وحتى لو كان ثريا ميسور الحال لم يكن يبالغ فى الترف ، أو يتعدى حد كفالة الحياة ، والليث بن سعد فقيه مصر العظيم كان بالغ الثراء ، ورغم هذا لم تجب عليه زكاة الفرض فى أى عام ، لأن الزكاة تشترط بقاء المال المدخر مع الشخص لمدة عام ، وهو لم يكن يدخر شيئا ، فضلا على أنهم كانوا يبذلون المال بسخاء فى حقوق الله والعباد وفى كفالة طلبة العلم وفى إنتاج الكتب ونسخها ، ولهذا ظلت سيرتهم وارفة الظلال إلى اليوم بعد مئات السنوات ، ورفع الله ذكرهم فى العالمين إلى ما شاء الله.

قال الشاب:

كل هذا المقام وكل هذا القدر ، ورغم هذا يهاجمهم الناس فى زماننا !

قال الكاتب:

إن من يهاجمهم هاجم من قبلهم الصحابة ، وسيرة النبي عليه السلام ، وتهجموا على القرآن والسنة ، فليس غريبا عليهم أن يخوضوا فى سيرة العلماء ، وهذا من نعمة الله على هؤلاء العلماء فإن عملهم وإن كان انقطع بوفاتهم ، فقد يسر الله لهم استمرار حسناتهم بما تركوه من علم ، وبما يدعو الناس لهم ، وأيضا يجزيهم بسب هؤلاء الأفاكين لهم فكلما نالهم السب ارتفعت درجتهم عند الله ، وهكذا هى سنة الله فى الخلصاء والأولياء ، تكون الدنيا بالنسبة لهم دار عناء ليكون الأجر كاملا لهم فى الآخرة إن شاء الله ..

ولهذا قال أحمد بن حنبل إمام أهل السنة فى العلماء عبارة جميلة وبليغة ،

(الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس ، وما أقبح أثر الناس عليهم).

قال الشاب:

قلت لى أن القراءة والثقافة فى القرآن والسنة وكتب العلم مطلوبة ، ولكنها لا تغنى الناس عن طلب الفتوى من المتخصص ..

أجاب الكاتب:

تماما .. كما لو كنت أنت كاتبا أو مثقفا ولك قراءات ثقافية فى مجال الطب ، هذه الثقافة لن يمنعك منها أحد إذا كان الهدف منها معرفة أبجديات الإسعاف مثلا أو معرفة أقراص العلاج للأمراض العادية المتكررة ، فتذهب بنفسك وتشترى الأدوية التى تعلم عنها التأثير الإيجابي لعلاج الصداع مثلا أو البرد ، دونما حاجة ملحة للجوء إلى الأطباء فى كل أمر هيّن ،

ولكن الناس ستتهمك بالجنون إذا اعتمدت على القراءة والثقافة وحدها وجلبت مراجع الطب لبيتك كى تعالج كافة الأمراض الخطيرة أو أن تتصدى للعمليات الجراحية والتى يفشل فيها حتى بعض الأطباء ، فعندئذ لو أنك احتججت أمام الناس بأنك تجيد القراءة ومن حقك التجربة ، سيحاسبك القانون لأنك لست من أهل التخصص الذين درسوا واجتهدوا وتعلموا على أيدى المتخصصين الكبار كى يقوموا بهذه المهمة ..

قال الشاب : ولكن بهذا المعنى للفقه ، ما هو دور كتب الفقه التراثية وأقوال العلماء فيها

أجاب الكاتب:

دورها يختلف بحسب الهدف الذى يريده الدارس ، فكتب الفقه التعليمية التى تحتوى النظريات العامة لكل علم من علوم الشريعة، هى ضرورة لكل طالب علم، أما كتب المذاهب التى تحتوى فتاوى وآراء العلماء فى المسائل الفقهية فهذه يتعامل العلماء معها على وجهين، المسائل التى ورد فيها نص صريح بالأمر أو النهى وبالتالى فهى ليست محلا للإجتهاد ، والأمور التى انعقد فيها إجماع الفقهاء ، وهذه ملزمة بالإتباع ، وهى بطبيعتها تخص أمورا فى أحكام الشريعة لا تتغير بها الظروف فى الغالب، أما المسائل الفرعية التى فيها اجتهادات الفقهاء المختلفة والتى اتسعت فيها الآراء وتنوعت فالمفاضلة هنا تكون بين الآراء حسب دليل كل فقيه ويأخذ منها العلماء ما يرونه أولى بالصواب أو يقوم من له حق الإجتهاد بإيراد رأى جديد طالما عنده دليل أو استنباط جديد، وهذا فيما يخص المسائل التى حدثت ولا زالت تحدث منذ العصور السابقة ، وبالتالى فليس فى آراء الفقه المفردة أى إلزام إلا بالدليل ، أما المسائل المستحدثة والتى لا تحتويها كتب الفقه بطبيعة الحال ، فهذه مهمة الفقهاء المحدثين فى كل عصر أيضا باتباع الأدلة، ولتوضيح الإفتراء العنيف على الفقهاء فى هذا الشأن ، فإن القاعدة عندنا تقول (أقوال الفقهاء يُستدل لها ، ولا يستدل بها) وهذا معناه كذب وإفك من ادعى أن العلماء أوصياء

على الأمة أو أن أقوالهم مقدسة ،، بل إن أصحاب المذاهب المشتهرة كانوا لا يدعون الناس لاتباع آرائهم الفقهية على وجه الإلزام ، وكانوا يدعون تلاميذهم لعدم الأخذ بآرائهم والرجوع لنفس مصادرهم فى الكتاب والسنة ، واستنباط الأحكام منهما ، مثلما قال أحمد بن حنبل لأحد تلاميذه (لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الشافعى ، وخذ من حيث أخذوا) وأبو حنيفة ـ رغم جلالة قدره ـ كان يرفض أن يتبعه تلاميذه دون تفكر وتدبر وكان يدعوهم للإجتهاد فى حلقته العلمية ، ولهذا فرغم أن أبا يوسف والشيبانى هما أقرب تلاميذ الإمام وحاملى مذهبه إلا أنهم عارضوا كثيرا من آرائه وخالفوه فيها ووضعوا آراء جديدة ، وكذلك فعل الشافعى مع مالك رغم أنه أستاذه ، والامام مالك عرض عليه ثلاثة خلفاء فى عصور مختلفة أن يجعلوا فقه مذهبه هو المذهب الرسمى للدولة فلا يخالفه أحد ، ورغم هذا رفض الإمام مالك بشدة ، وقال إنه بشر ولا يجوز الاتباع الجبري إلا للقرآن والسنة الصريحة وما ثبت الدليل القاطع على صحته ، وهذا متاح لسائر العلماء ، فقارن هذا بما نلقاه اليوم من بعض منسوبي العلم الذى يقول إننى أرى كذا ومن خالفنى فهو مخطئ أو مبتدع أو كما يقول العلمانيون إرهابي وإقصائي !!

فأين الوصاية وأين المصادرة وأين الإقصاء ؟!

قال الشاب:

ولماذا فعلوا ذلك ، رغم أن أى عالم أو مفكر يرغب فى أن يتبعه الناس ..

قال الكاتب:

لأنهم علماء حقيقيون ، وليسوا قادة ميلشيات أو رهبان أو حاخامات أو تيارات يترأسها عالم فيتبعه فريق محدد من الناس يوالون ويعادون عليه كما لو كان نبيا كما يفعل البعض الآن فيتباهى بعدد أنصاره وأتباعه ، فليس فى الإسلام رهبنة أو كهنوت كما يردد العلمانيون ويتهمون الفقهاء بالوصاية على الناس ، فعلماء الفقه كعلماء أى مجال أنت كمسلم لست مجبرا على إتباع أحدهم قبل أن تقتنع به كعالم ، وحتى بعد اقتناعك ففتواه بالنسبة لك ليست أكثر منها إستشارة لك الحرية فى إتباعها أو رفضها ، وهو راجع إلى عوامل اقتناعك نفسها ، فلو فرضنا مثلا أن المستفتى كان من أصحاب الهوى ويريد أن يشرعن هواه ، فاستفتى الفقهاء فلم يجيزوه على الرأى الذى يريده ، فهل يمكن للفقهاء ساعتها إجباره على إتباعهم ؟!

قال الشاب : كلا بالطبع ، بل إنه لو لم يذهب لأى فقيه وارتكب كل المحرمات فلن

يتمكنوا من ردعه إلا تجاوز القانون فعاقبه الحاكم أو القاضي لأن الفقيه ليس له إلا الحق فى الدعوة .

قال الكاتب :

بالضبط، أما الوصاية والكهنوت ، فهذه عند المسيحية واليهودية وبعض طوائف المبتدعة فى الإسلام ، حيث يكون الكاهن أو الحاخام أو رأس الطائفة شبه مسيطر على أتباعه ويملك أمره عليهم حتى لو لم يستند إلى نصوص كتبهم المقدسة .. والعلمانيون يروجون لهذه الفرية حتى يخلطوا بين أحقية وواجب العالم فى الفتوى وبين وصاية الرهبان .، وهم يرددون حجج العلمانية الأوربية التى ثارت على تسلط الرهبان وكهنوتهم وباعت للناس أراض فى الجنة وقامت بمحاكم التفتيش ، وكانت لهم سلطة هائلة فى ذلك ، فأخبرنى أين هذا من علماء الفقه فى الإسلام ، وأى سلطة بيد الفقهاء اليوم ، وهم بلا حول ولا قوة ، والعلمانيون ينشرون أكفر الأقوال فى مختلف الوسائل ولا يمنحون العلماء مجرد فرصة الرد على تلك الشبهات ؟!

بل عندنا ما هو أكثر من ذلك ، فالإسلام نهى عن التنطع وعن كثرة السؤال والإلحاح فى كل تفصيلة ، ولهذا كان العلماء إذا رأوا متنطعا يلجأ إليهم يسأل فى توافه الأمور وكل تفصيلة فى حياته ، كانوا ينهونه عن ذلك ويدلوه للسؤال فيما يعرض له من نوازل أو مشكلات حقيقية ، بينما رأينا فى عصرنا هذا العجب العجاب ، فتجد من يطعن فى أعراض الناس بغير إكتراث ، وبعد ذلك لا يتورع عن سؤال الفتوى فى لبس القبعة أو نغمات المحمول !

فالعلماء قديما كانوا يزجرون هذه النماذج بمطالبتهم بترك القيل والقال وكثرة السؤال ، وهذا يدل على مدى حرص العلماء على إستقلال إرادة الناس بينما الرهبان والحاخامات كانوا يشجعون هذه النماذج لرهن كل تفاصيل حياتهم بعلمائهم ، وأتباعهم كانوا يهرعون لذلك لأن رهبانهم وكبارهم كانوا يتيحون لهم الشهوات والمكاسب وكل هذا تحت راية الدين ، بينما علماء الإسلام لا يملكون من أمر الناس شيئا ، كما أنهم لا يملكون تعديل أحكام الشريعة للتحايل على الفقه والشرع مهما ألح عليهم الناس ، وكل هذا يرسخ طريق النبوة ويمده على استقامة أجيال الأمة فى أن الرسول عليه السلام ومن بعده العلماء ليس عليهم إلا البلاغ ، وبالتالى فلا معنى على الإطلاق لدعوى وصاية الفقهاء التى يرددها العلمانيون ، وهم يقصدون منها أصلا منع العلماء حتى من مجرد

النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى يطيب لهم الفساد والإفساد فى المجتمع بغير منغصات.

قال الشاب :

إذا ما معنى الإنتماء للمذاهب فيقال أن فلان شافعى والآخر حنبلي وهكذا ..

قال الكاتب :

هذا ليس إنتماء عقائديا أو إلزاميا بل هو إنتماء علمى ، فالعقيدة لا تأمرنا بالإنتماء العقائدى إلا إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، أما غير ذلك فهو محرم تحريما قاطعا ، لأنه بدعة تفرق الناس وتشتتهم إلى جماعات مختلفة كل منها لها رئيس مطاع ، ولهذا يحرم على المسلم أن يتسمى بغير الإسلام أو يضيف إلى الإسلام لفظا آخر إلا لفظ (السنة) وفقط ، وحتى هذا اللفظ أجازه العلماء فقط عندما ظهرت الفتن والفرق فتسمى الخوارج باسمهم وكذلك المعتزلة والشيعة والأشعرية ونحو ذلك ، فأضاف جمهور المسلمين أنفسهم إلى السنة لتمييزهم عن أهل البدع الذين يرفضون العمل بالسنة النبوية المروية عن طريق الصحابة رضي الله عنهم ، ويتخذون سنة أخرى من أقوال علمائهم وأئمتهم حصريا أما الإنتماء للمذاهب فهذا إنتماء علمى بغرض تمييز المرجعية العلمية التى عليها طالب العلم ، تماما كما تنسب أنت نفسك لقسم القانون الجنائي مثلا بكلية الحقوق أو قسم التاريخ الإسلامى فى كلية الآداب ، فانتماؤك هنا هو إنتماء علمى بغرض تعريف الناس بمجال دراستك وفرع تخصصك ، ولهذا فكل عالم أو طالب علم غير مجتهد يدرس ما شاء من أصول المذاهب الموجودة وهى بالمناسبة أكثر من سبعين مذهبا ، ولكن اشتهر منها المذاهب الأربعة والمذهب الظاهرى ،وانتماؤك للمذاهب لا يجبرك حتى كطالب علم أن تتبع مجبرا أقوال صاحب المذهب ، بل تكون حريتك العلمية مصونة للإجتهاد متى بلغت رتبته حتى لو خالفت الآراء المتداولة ، ولهذا كما قلت لك قد يختلف أصحاب المذهب الواحد فى المسألة الواحدة على عدة أقوال،

تساءل الشاب:

وماذا عن عوام الناس ألا ينتسبون لمذهب معين ؟!

قال الكاتب:

كلا ، وبعض العلماء المعاصرين سمى انتماء آحاد الناس للمذاهب وعدم الخروج على أقوالهم ـ فى غير الأصول والعقائد ومواضع الإجماع ـ بالبدعة ، ومعهم الحق فى هذا ،

لأنه فى العصور الوسطى الإسلامية كثر الجمود الفقهى بين الناس وتعصبوا لأصحاب المذاهب تعصبا مقيتا وتصارعوا كأنهم من جماهير كرة القدم عند تعصبهم لأنديتهم ، وسبب هذا فتنة عظيمة حدثت عدة مرات فى التاريخ ..

قال الشاب :

إذا أنا حر فى اختيار القول الذى أريده من أى عالم أيا كان هذا القول ؟!

رفع الكاتب يده محذرا وأضاف :

لا يا صديقي، فقد سبق أن قلت لك القاعدة الأصولية التى تقول (أقوال العلماء يستدل لها ولا يستدل بها) فأنت هنا يجب أن تسعي للدليل الأصرح حيثما كان ، لا أن تذهب لكتب الفقه فتختار ما تشاء فهذه فوضي حقيقية لو أنك تعرف بمحتوى كتب الفقه ، فإذا كنت من العوام ـ غير الدارسين ـ فعودتك لأهل العلم ضرورية حتى يرجحوا لك بين الأقوال ، ويبسطوا أمامك الأدلة ، أما إن ذهبت بنفسك للاختيار ـ كيف شئت ـ بين سائر أقوال العلماء فعندئذ لن يتبقي لك شيئ من الدين ، فكتب الفقه مليئة بالأقوال الشاذة والتى لا تستند لدليل واضح أو تستند لدليل فاسد أو ضعيف أو قول جاء بسبب زلة لهذا العالم أو ذاك ، وهذه الأقوال رد فيها العلماء على بعضهم البعض وأنكروا على بعضهم البعض ، والعوام لا يستطيعون ولا يمتلكون أدوات الترجيح والفصل بين مختلف الأقوال والأدلة ، لهذا فهناك ضرورة للعودة إلى أهل العلم فى ذلك ..

قال الشاب : ولكن دراسة كتب الفقه والعلوم للتمييز بين الأقوال صعبة ولا أستطيعها

فقال الكاتب :

وأنت لست مجبرا على ذلك ولأجل ذلك قلنا أن اللجوء لأهل التخصص ضرورة وأنت بنفسك طلبت منى الحوار العقلي لعدم استطاعتك استيعاب مصطلحات ومفاهيم العلوم ، ولهذا قلنا أن العلماء فى هذا الباب هم أصحاب الفتوى ، بل أكثر من ذلك ، مرتبة الإجتهاد الفقهى نفسها لا يدركها كل عالم، فالمفتى له شروط وضعها الفقهاء أهمها تخصصه فى علم أصول الفقه والفقه المقارن ، وبالتالى فليس كل من درس فرعا من علوم الشريعة يكون له الحق فى الفتوى ، فعالم التفسير وعالم الحديث وعالم اللغة كل هؤلاء ليس من حقهم إفتاء الناس بل يتحدثون فقط فى نطاق تخصصهم وعن الأحكام بوجه عام ، وكل من له علم بالفقه ولم يبلغ درجة المجتهد له أن يتحدث فيه كأحكام عامة أما أن يفتى سائلا فى مسألة خاصة به فهذا لا يجوز، لأن هناك فارق كبير بين نقل العلوم

والمعارف وبين الإفتاء ، نقل العلوم هذا متاح لكل من له دراية ـ مثل حديثنا هذا ـ أما لو سألتنى فتوى خاصة فسأحيلك لمن يفتيك وهو أهل لذلك.

سأل الشاب :

هل تعنى أن الفتوى خاصة بصاحبها المستفتى ولا تصلح الفتوى لكافة الناس

قال الكاتب مؤيدا :

هو بالضبط كما تقول ولا تتشابه الفتاوى بين الناس إلا إذا تشابهوا فى نفس الظروف ، فالفتوى أشبه بالرؤيا المنامية ، قد تتفق الرؤيا ذاتها بين عدد من الناس ولكنها تختلف فى التفسير بحسب طبيعة كل شخص ، واختلاف الفتوى بحسب طبيعة كل شخص أمر مقرر فى كتب الفقه ، لأن ظروف كل إنسان تختلف ، بل إن ظروف الشخص نفسه قد تختلف من زمان إلى زمان ، ومكان إلى مكان ، وكمثال توضيحى فالحج هو ركن مفترض فى الإسلام لكنه قد يسقط عن الفرد ـ حتى لو توفرت له الإمكانية ـ لوجود ظرف يستحق المال بشكل قهرى ، وهذا ما أوضحه الكثير من العلماء مثل أستاذنا الدكتور محمد الشحات الجندى حيث قال أن الناس تظن الحج وتكراره والعمرة وتكرارها ، يتقدم على أساسيات الحياة ، فيترك الواحد منهم إعالة أسرته ويُضيّق عليهم حتى يوفر لنفسه الحج ! مع أن الإستطاعة الخالية من الضغوط هى شرط التكليف بالحج ، وكثير من الناس تبنى المساجد فى كل متر ـ حتى بدون ضرورة مع توافر المساجد الأخرى ـ فى نفس الوقت الذى يقبع فيه جاره جائعا أو تمتلئ طرقات البلد بالسائلين ولا يجدون الصدقة !!

وهذا بالطبع ليس من مقاصد الشريعة ، ولهذا قلت إن الإفتاء مرهون بالفقيه وبظروف المستفتى التى يحددها الفقيه بناء على قياس المصالح والمفاسد ..

قال الشاب فى دهشة :

ولكن الفضائيات مليئة بكل من يفتى ..

قال الكاتب:

لهذا السبب كانت دعوة العلماء لترسيخ مفهوم مقاصد الشرع ، فالسبب فى ذلك هى هذه الفوضي ، ونحن كجمهور لا نعانى فقط من العلمانيين ، بل نعانى من كل من كل من تصدى للفتوى دون الحصول على شهادة أكاديمية معتمدة أو حتى إجازة علمية من الشيوخ فى البلاد التى ينتشر بها هذا النوع من التدريس وتكون هذه الشهادة فى علوم الفقه وآداب وضوابط الفتوى فالحكم فى الدين يختلف عن الفتوى ، حيث أن

الحكم ثابت لكن الفتوى متغيرة ، ومقصدها الرئيسي تحقيق مصلحة العباد ، فمثلا لو سألتنى ما حكم الصلاة أو الصيام لقلت بأنه واجب ، ولكن تحديد الفتوى بالنسبة لحالة استثنائية يحتاج المفتى المتخصص الذى يفتى بسقوط التكليف عن المريض مثلا إن كانت حالته تستحق أو المسافر ونحوه ..

وقد تعلمنا هذا المبدأ من كبار الصحابة كعبد الله بن العباس رضي الله عنهما ، والذى أفتى سائلا بفتوى أثارت دهشة أصحابه .. فقد جاءه سائل يسأل .. هل للقاتل توبة ؟!

فصمت ابن عباس يتأمله قليلا ويتفرس فيه ثم قال .. لا ليست له توبة !!

وهذا بطبيعة الحال مخالف للثوابت التى أثبتها القرآن وأثبتتها والسنة ، حيث أن كل الذنوب مغفورة عند التوبة والندم ، وحتى بغير التوبة إن كان هناك مكفرات ، عدا الشرك بالله والذى يستلزم التوبة والإقلاع التام ، فلما سأله أصحابه عن سبب إفتائه بهذا الجواب الغريب ، قال لهم فقيه الصحابة ، إن هذا الرجل ليس قاتلا وأذنب ، بل هو يريد أن يقتل بغير حق ، فجاء يطمئن لوجود خيار التوبة أولا ،

وبهذا حقق ابن عباس مقاصد الشريعة وحفظ نفسا من القتل بفقهه وفهمه وفراسته

تساءل الشاب فى دهشة : ولكن كيف علم ابن عباس رضي الله عنهما بغرض الرجل

أجاب الكاتب:

قد أدرك ابن عباس حال الرجل من صيغة وطريقة عرضه للسؤال ، فلو كان الرجل قد ارتكب ذنب القتل وجاء للتوبة لقال لابن عباس أنه فعل كذا وكذا ويريد أن يتوب ، أما هذا الرجل فسأله بصيغة المستقبل التى تشير إلى أنه يزمع القتل فى نيته ولكن يمنعه مخافة ألا تكون هناك توبة لفعلته ..

سأل الشاب : ولكنه بهذه الفتوى خالف نص القرآن

أجاب الكاتب :

كلا بالطبع ، بل وافق نص القرآن ، فهو ترجمان القرآن رضي الله عنه ويدرك تماما أن الله عز وجل يغفر الذنب كله ، ولكن بشرط ألا تنوى مسبقا أن ترتكب الذنب ثم بعدها تحتج بأن الله غفور رحيم !!! ، فهذه ليست توبة أو نية توبة بل هى كما سماها العلماء استهزاء بالله والعياذ بالله ، لكنك إن أذنبت الذنوب تحت ضغط الحاجة أو الفتنة أو الجهالة ولم تكن تنوى الإتيان بها أبدا ، ولكن نفسك دفعتك أو أزلك الشيطان ، هنا يتوب

الله عليك مهما تكرر منك الذنب ، طالما لم تنعقد نيتك على الاستمرار فى الذنوب وتصر عليها معتقدا أن التوبة تمثل حصانة ماحية ، فهذا ما يفعله بعض الناس ويتذاكون به على الشريعة وكأنهم يتعاملون مع بشر لا مع خالق البشر عالم النوايا.

قال الشاب: إذا ففتوى ابن عباس أصدرت حكما صحيحا رغم أن ظاهره يخالف النص ،

قال الكاتب : من قال لها أنها خالفت النص هى فقط طبقت النص بضوابطه وعن طريق فهم مقاصد التشريع فليس فى الإسلام الروتين الحكومى الذى يبطل أهداف القانون عن طريق الفهم المغلوط ، لأن المفتى لا يفتى فى المسألة بالنظر إلى نص واحد فيها ، بل يجب أن يحيط بكل ما ورد فى القرآن والسنة فى تلك المسألة ثم يفتى بعد ذلك بالفتوى ..

وخذ عندك مثلا حادثة مشهورة عند الناس ـ لكنها مغلوطة الفهم ـ فقد اشتهر أن عمر ابن الخطاب أبطل تطبيق حد السرقة فى عام الرمادة (عام المجاعة) ، لأن الناس بالفعل لم تكن تجد قوت يومها فكان البعض منهم يضطر للسرقة ويضعف أمام الحاجة ، لكن أصل المسألة أن عمر ابن الخطاب طبق تشريع حد السرقة بشروطه وحذافيره ، فأبطل عقوبة الحد ولكنه أبقي التعزير مراعاة لظروف الجريمة .

قال الشاب مندهشا : كيف طبق الحد وأبطله فى نفس الوقت ؟!!

قال الكاتب:

هناك شروط محددة لكل حد من الحدود الجنائية ، إذا لم تتوافر هذه الشروط كاملة فلابد للحاكم رفع تطبيق الحد للشبهة أو عدم توافر الشروط ، وهذا فى الحالة الشخصية لكل جريمة على حدة ، ولكن هناك حالات استثنائية تجعل للحاكم الحق فى رفع عقوبة الحد عن كافة الناس لوجود ظرف عام يمثل شبهة ومانع من التطبيق ، ويكون الرفع هنا بشكل وقتى ومرهون بزوالها تطبيقا للقاعدة الأصولية (الضرورة بقدرها) ، ويُستبدل الحد بالعقوبة التعزيرية ..

فهذا الذى أقوله لك من شروط تطبيق العقوبة لأن الهدف ليس العقوبة ذاتها بل الردع عند توافر كافة الشروط ، فإذا أبطلت عقوبة معينة لغياب شرطها فهل نسمى هذا تطبيقا عمليا للقانون أم نسميه مخالفة وإبطال ؟!

قال الشاب: بل نسميه تطبيق عملى للقانون ..

عقب الكاتب:

بالمثل ، فعمر ابن الخطاب هنا طبق الشروط لما حدثت المجاعة ولم يُبطل الحد كما

يشاع فلا يحق لأى بشري إبطال حد من حدود الله وإلا خرج من الدين ، لأن من سيسرق فى تلك الحالة لن يكون سارقا أصيلا أو ساعيا دءوبا للحرام - مع توافر الحلال - بل سيكون مضطرا ، وظروف الجريمة - كقاعدة فقهية وقانونية أيضا - هى التى تتحكم فى نوع العقوبة المطبقة ، وفى تشريع الحدود يغفل الكثير من الناس عن حقيقة هامة وهى أن الحدود هى بعض أنواع العقوبات الجنائية وهى الحدود العليا للعقوبات ولها ضوابط صارمة ، لكنها ليست العقوبات الوحيدة قطعا ، فهناك عقوبات مخففة وبديلة بل وهناك عقوبات إضافية يقررها الحاكم إذا انتشرت الجريمة انتشارا واسعا أو ظهرت نوازل جديدة تهدد المجتمع ، وهو ما يسميه الشرع بالعقوبات التعزيرية وهو مفهوم يشمل كل عقوبة لا تمثل حدا ، ولهذا فقد اخطأ كل من نادى بالتطبيق الحرفي والفورى للحدود دون النظر إلى شروطها ، وكذلك أخطأ كل من ظن أن عقوبات الحدود يحق للحاكم إبطال العمل بها نهائيا ، فحد السرقة يلزم لتطبيقه أن تتحقق كفاية الحد الأدنى للمجتمع ، لأن من تنهاه عن الحرام لابد أن يكون البديل الحلال متوافرا ، لكى يكون المجرم هنا مختارا للحرام اختيارا حرا وبالتالى يستحق العقوبة كاملة ، وحد الزنا يلزم له أيضا حد الكفاية ، لا أن يجعل المجتمع ظروف الزواج مستحيلة ثم بعد ذلك تردع الناس بحد الزنا ، وإحراز السلاح جريمة بشرط أن يأمن الناس فى بيوتهم فإذا عجزت الدولة عن حمايتهم فلا يمكن أن تعيب على من يحمل السلاح دفاعا عن نفسه ، وحق القصاص لابد أن توفره الدولة كحق لولى الدم ، فإن عجزت الدولة عن ذلك فلا تعيب على من يأخذ حقه بيده .. وهكذا فإذا توافرت كافة الظروف الضرورية لمعيشة مناسبة - وليست رفاهية - للمجتمع فعندها يحق للحاكم تطبيق العقوبات التشريعية بشروطها ولا يمكن ساعتها أن نستبدل الحدود الجنائية بالتعزير ، ولكن فى غياب حد الكفاية نهائيا فعلي الحاكم أن يعمل أولا على تطبيق أهم مقاصد الشريعة وهى الحفاظ على الكليات الخمسة النفس والعقل والدين والمال والنسل ثم يأتى تطبيق العقوبات المقصودة ، فلكى نطالب الناس بالواجبات يلزم أن نعطيهم الحقوق أولا

قال الشاب مستفهما :

إذا من يدعون إلى تطبيق الشريعة كلها دفعة واحدة مخطئون ، ومن يدعون لعدم تطبيقها أيضا مخطئون ؟!

قال الكاتب :

بل كلا الجانبين متاجر بقضية الشريعة ، وكلاهما لا يري فى الشريعة إلا الحدود

الجنائية ، فالجانب الأول يتاجر بها مستغلا عواطف الناس ، والجانب الثانى ينادى بتركها معتمدا على تنفير الناس من نداءات الجانب الأول ولكى يثبت وجهة نظره فى أن تطبيق الشريعة يجوز إهماله فى المطلق ، والسبب الرئيسي للمأساة يتمثل فى جانب المتاجرين بالدين ، فقد ظلوا فى مصر مثلا يرفعون شعار تطبيق الشريعة ستين عاما فلما جاءوا للحكم فوجئنا بهم يقولون بأن تطبيق الشريعة الآن وفورا غير مناسب للظروف وأن المجتمع غير صالح للتنفيذ الفورى ! بل إن قائدهم محمد مرسي قال نصا (إن الشريعة بالفعل مطبقة فى مصر) ، ورأيناهم بعد ذلك فعلوا أشد مما أنكروه على النظام الحاكم قبلهم ، فتورطوا فى القروض الدولية المجحفة المغرقة فى الربا الفاحش وتورطوا فى إباحة وترخيص كل المساوئ التى كانوا يزايدون بها على الناس ، فعلام إذا كانت التجارة والمزايدة على الفقهاء ممن كانوا يشرحون للناس طريقة التدرج فى إعادة التشريع ؟!!

وهذا ما منح العلمانيين الفرصة فى مصر للمزايدة عليهم أيضا فقام أحدهم برفع قضية أمام القضاء الإدارى لإبطال قرار محمد مرسي بتمديد التراخيص للملاهى ورفع ضريبة الخمور ! ، واستند هذا الرجل إلى نص الدستور الذى يعتبر الشريعة هى المصدر الرئيسي للقوانين ، وعلى سابق منهج مرسي والسلفيين!!

والتدرج سنة كونية وتشريعية ، وهى صالحة الإستخدام عندما تتوفر نفس الظروف التى كانت فى العهد الأول عند نزول التشريع ، وهذا حتى لا نفتن الناس عن دينهم ، وهذا ما طبقه عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد عندما جاء والفساد منتشر فى عهده ـ وهو فساد تافه بالنسبة لعصرنا ـ ورغم هذا حمل الناس على الحق شيئا فشيئا ، فلما عاتبه أحد أبنائه فى ذلك قال :(يا بنى .. إننى لو حملت الناس على الحق جُملة ـ أى دفعة واحدة ـ تركوه جملة) ، وهذا هو عين الفقه وعين الشريعة ، وهؤلاء المتاجرين بقضية الشريعة أين هم من مقاصد الشريعة ذاتها ، وأين هم من قول الفقهاء (إن تطبيق الحكم الشرعى إذا لم يحقق مصلحة الأمة فليس هذا من شرع الله) ، بمعنى أن الحاكم لو طبق أحكام الشريعة ـ كما يتصور هو ـ فلم تحقق أى مصلحة للأمة ، فالعيب هنا ليس عيب النصوص بل عيب التطبيق ، وبالتالى فإن تطبيق الأحكام الجنائية للشريعة ـ على طريقة طالبان وأفغانستان ـ وإهمال كافة شرع الله فى تحقيق كفاء الناس وحاجياتهم فليس هذا شرعا ولا هو من الشريعة ، فالشريعة نزلت لدفع الفساد عن الأرض وإعمارها

فإن تاجر بها متاجر وطبقها على عموم الناس واستأثر هو بكفالة خاصته بعيدا عن أى تشريع ، فهذا هو عين ما حذر منه النبي عليه السلام ، من أن هلاك الأمم فيما قبلنا كان بسبب إنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ،

وهذا ما طبقه الفقيه الربانى العز بن عبد السلام ، وكان مستشارا لسيف الدين قطز إبّـان الإستعداد لحرب المغول ، فطلب منه قطز فتوى لفرض ضرائب على عموم الناس بعد أن فرغ بيت المال والجيش لا يزال فى طور الإعداد ، فقال له ابن عبد السلام بلهجة قاطعة :

تنازل أنت وأمراؤك من المماليك عن فائض أموالكم التى اكتسبتموها من الحكم ، وعندما تتساوون مع الناس ، افرض عليهم ما شئت من الضريبة فتصور لو حدث هذا الموقف اليوم ، ماذا ستكون الفتوى ؟!

سيخرج لك أى عالم من علماء السلطان زاعقا صارخا بأن هذه الضرائب واجب قطعى على الأمة أن تطيع الحاكم فيه وإلا تعطل الجهاد وضاعت البلاد ، وهذا حق يُـراد به باطل وإلا فأين ضرائب رجال السلطة ؟! ،

فإذا اعترض معترض بنفس حجة ابن عبد السلام فلا أستبعد أن يتهموه بالتآمر والفتنة وخيانة الأمة أيضا !!

ولهذا بدأ عمر بن عبد العزيز بنفسه وآل بيته وببنى أمية كلهم فأخذ نفسه بالورع الشديد ورخص للأمة فيما لم يرخص به لنفسه ولأهله، وكان هو القائل (ما سرنى أن أصحاب النبي لم يختلفوا) ، وهو يقصد اختلاف التنوع فى الفقه وأحكام الفروع ، وسبب السرور هنا هو اتساع مساحة الإختيار التى تصلح للاختيار بينها في أمور الخلاف السائغ ، وهكذا ترى أن قضية الشريعة ضاعت معالمها بين نوعين من الناس ، متنطعون لا يرونها إلا فى جوانب محددة تخدم مصالحهم ، وعلمانيون لا يفوتون الفرصة لتنحيتها بكل ما فيها حتى القرآن والسنة.

قال الشاب: لكنى لم أسمع كثيرا من يعالج القضية بهذا المنطق ؟!

قال الكاتب:

العيب فى تقصيرك ، طالما أنك قادر على التحرى والبحث ، وفى زمننا هذا زمن الفتن أصبحت ثقافة التمييز ضرورة بعد أن كانت نافلة فيما مضي ، لأن الثقة أصبحت معدومة الآن بكل أحد بعد انتشار المتاجرين والباحثين عن مصالحهم الضيقة ، أما إن كنت ممن لا يستطيعون البحث فخذ بنصيحة النبي عليه الصلاة والسلام واعتزل تلك الفرق كلها

وطبق الأحكام والعبادات فيما يخصك وأهل بيتك ودع عنك كل هذه الصراعات.

تساءل الشاب : وكيف يمكننى معرفة الحق الذى أستطيع به سياسة نفسي وأهل بيتى ، وأنت تقول أن الثقة ضاعت هذه الأيام ؟!

قال الكاتب : الشريعة الإسلامية ليست كلها على مستوى واحد فى الترتيب ، فهناك العقيدة وهى أخطر ما في الدين وهى أساسه، وهناك الأصول التى تمثلها الفرائض والعبادات وما أجمع عليه علماء الأمة ، ففي هذين الجانبين الأمر سهل ميسور ، فالعقيدة والأصول ليس فيها تحديث ولا تطوير بل هى أمور ثابتة غير قابلة للنقض أو الإجتهاد ، ولهذا عليك بالعودة بنفسك أو عن طريق إرشاد من تثق فيهم من أهل البحث إلى ما كان عليه النبي عليه السلام والصحابة ، فقل بما قالوا ، وتوقف عما توقفوا فيه ،

وأهم شيئ الأمر كله أن تعلم يقينا أن مفهوم أهل السنة والجماعة ـ هو كما قال ابن تيمية ـ هو المفهوم الذى يضم تحته عامة المسلمين فلا يتخذون لأنفسهم سمتا معينا أو إسما بعينه خارج إطار الإسلام والسنة ، ولا يقولون فى العقيدة والأصول بغير ما ورد فى القرآن والسنة وحدهما ، ولهذا فلا تقبل قولا غير قولهما من أصحاب الفرق ولا تنسب نفسك لأى مسمى آخر أى أن أهل السنة والجماعة هم عموم المسلمين ممن لا يعرفون التفرق تحت راية شخص أو حزب أو فرقة أيا ما كان مسماها ، وليس لهم زى معين أو طريقة غير مألوفة فى العبادة أو رؤساء وأتباع ..إلخ هذه التحزبات ، والعقيدة السنية الأصيلة موجودة فى كتاب (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي ، وأقرب الناس لهذه العقيدة هم علماء التيار السلفي ولولا أنهم فصلوا أنفسهم عن عامة الناس بمنهج فقهى ـ لا عقائدى ـ محدد لأصابوا الكمال فيما ذهبوا إليه فخذ منهم العقيدة والأصول وعلم الحديث وصحيح التاريخ الإسلامى ، فهم أهل التخصص فى هذا الباب ، ودع عنك كل ما يضيفونه فى غير ذلك من أمور السياسة والحزبية ونحو ذلك .

سأل الشاب: وماذا عن الفقه والفتاوى والنوازل التى قد تعرض للناس وليس فيها قول محسوم أو سابق.

قال الكاتب:

هذا الأمر فيه سعة، طالما اشتمل على الفروع، ولك أن تبذل طاقتك للبحث عن الفتوى الأقرب للصحة ممن تثق فيهم من العلماء، وطالما كنت محايدا ومخلصا فى نيتك فليس عليك شيئ لو أخذت بالقول الذى يطمئن إليه قلبك وأنت متجرد للبحث عن الحق ، فلا

يكلف اللّه نفسا إلا وسعها ، وقد تعهد اللّه تعالى بحفظ دين من يسعى إليه مخلصا ـ حتى لو أخطأ الطريق ـ فهو اجتهاد مأجور ، وذلك لقوله تعالى (وما كان اللّه ليضيع إيمانكم) ..

ولكن تحريا للثقة عليك بعلماء الأزهر ـ وهم بالآلاف ـ فدع عنك من تورط فى الإدارة أو السياسة ـ وخذ من الباقين ممن لا عمل لهم إلا العلم والفقه ، فهم أهل التخصص والفضل فى ذلك وطريقة التعليم الأزهرى وتركيزهم على الفقه وعلومه تجعلك تطمئن لخبرتهم ، فالواحد منهم قد يقضي ما يزيد عن أربعين عاما قبل حصوله على درجات التخصص العليا ، ولزيادة الاحتياط خذ الفتوى من إحدى لجان الفتاوى لأنها تضم جمعا من العلماء معا ..

قال الشاب : وماذا عن علماء الأزهر الذين ينتسبون لمسميات أخرى كالصوفية أو الأشعرية أو نحوها

قال الكاتب:

هذه ليست مذاهب فقهية ، بل هى معتقدات فرق ، ونحن اتفقنا على أننا سنأخذ العقيدة من منبعها الأول ، وبالمناسبة ليس كل الأزهر ـ كما يقال ـ على العقيدة الأشعرية أو الصوفية ، بل هناك المئات منهم ممن لا ينتسبون إلا لأهل السنة والجماعة والتاريخ الحديث حافل بأمثال هؤلاء كالشيخ البشري والشيخ الشنقيطى وكل هؤلاء لهم تلامذة ساروا على منهجهم وهم الآن علماء

قال الشاب:

إذا هناك متسع فى كتب الفقه للاختيار بين الفتاوى فى الفروع

قال الكاتب:

نعم هناك متسع ، لكن الاختيار نفسه ليست من وظيفتنا نحن العوام بل هو شأن العلماء والفقهاء ، وإلا لما كان هناك داع للتخصص أصلا !

قال الشاب:

ولكنى سمعت أحد المتخصصين فى الفقه يقول بأن الناس لها حق الإختيار بين أقوال العلماء السابقين والمذاهب كما يشاءون ..

أجاب الكاتب:

هذا القائل بذلك هو الدكتور سعد الهلالى رئيس قسم الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر ، وأنا أذكر اسمه هنا للتحذير منه ، فهذا الرجل صاحب فتنة

وتلبيس على الناس ، وهو عندى أخطر من العلمانيين ، لأن أقوال العلمانيين ظاهرة البطلان عند أغلب الناس ، أما أقواله هو فتضل الكثيرين لأنها صادرة من متخصص كما هو مفترض ، بينما هو يلبس الحق بالباطل تحت زعم التيسير على الناس ..

سأل الشاب : اسمح لى ، ولكن هذا عالم متخصص فى الشريعة ، وأنت لست مثله ..

ابتسم الكاتب مجيبا :

إطمئن ورغم أنى متخصص أيضا فى نفس مجاله تحديدا الشريعة والقانون ، فأنا لن أفعل ما أنتقدهُ فى العلمانيين الذين يهاجمون كبار العلماء بينما هم لا يعرفون شيئا أصلا عن مبادئ العلوم التى ينتقدونها ، أما ما أقوله فهو قول العلماء فيه وليس قولى ، ألم أقل لك إن أول مبادئ أصول الفقه أن العبرة فى الأقوال بالدليل وليس باسم العالم أو ثقل قدره ، بالإضافة إلى أن علماء الأزهر هم من حذروا منه فى بيان شهير لهم بعد اعتراضهم على أقوال الضلال التى يقول بها ..

فأرجو منك أن تتعلم أهم مبادئ الشريعة الإسلامية ، وهى أن المقامات محفوظة ، ولكن الأقوال الخالية من الدليل لا عبرة بها ولا مستند مهما كانت شخصية القائل بها طالما أنه ليس من الأنبياء ، ولو أن المهاجمين للشريعة هذه الأيام كانوا ينتقدون العلماء فى أخطاء مستحقة لكان هذا مبررا ومفهوما ، ولكنهم يهاجمون بغرض إسقاط العلماء تمهيدا لإسقاط الشريعة التى نقولها إلينا ولا تأت من طريق سواهم أما الإنتقاد أو الهجوم حتى على أى عالم فهذا لا يعنى الهجوم على الأشخاص أو فى كل أقواله بل بيان الأخطاء لكى لا يغتر بها الناس إذا انتشرت عنه.

قال الشاب: ولكن لا تنتقده بل تُسقط عدالته تماما .

أجاب الكاتب:

نعم لأن الأمر يستحق ، فحدة الإنتقاد تتناسب طرديا مع خطورة القول فمواجهة الداعى إلى بدعة أو إلى زندقة باسم الدين ، تختلف تماما عن حدة المواجهة فى مجرد زلة أو خطأ فقهى بسيط والدكتور الهلالى هو من وضع نفسه فى هذا المحل ، وستفعل نفس الشيئ لو أننى بسطت أمامك حقيقة ما يدعو إليه وخطورته على المجتمع ، وضع فى ذهنك أنه عالم ويعلم تماما خطورة منهجه الذى يدعو إليه الناس ، وهذا يعنى أنه غير معذور بالجهل وليس له أى مخرج نثبت به حسن النية ، بالإضافة إلى أن قيمته العلمية تسقط عنه إذا كان يتعمد التدليس على العلماء وليس أمينا فى النقل عنهم ،

وهذه خطيئة كبري لا يجب أن يقع فيها أى شخص إلا إذا كان من باب الخطأ أو السهو أو عدم الدراية أو الفهم المغلوط ، أما إذا دلس شخص على آخر ثم بيّن الناس له التدليس فأصر عليه فهذا تعمد واضح .

قال الشاب : ولكنى لا أرى دعوته للحرية فى الإختيار بين الأقوال الفقهية تستحق كل هذه الضجة ..

قال الكاتب :

هذا لأنك لست متخصصا فى المجال نفسه لتدرك فداحتها، ومع ذلك فإنه لم يقتصر على هذه الدعوى وحدها ـ فهى رغم خطورتها إلا أنها أقل من منهجه نفسه ـ فلعلك سمعت ما دعا إليه بقوله أن شهادة (لا إله إلا الله) وحدها تكفي ليكون المرء مسلما دونما حاجة إلى شق الشهادة الثانى (محمد رسول الله) ، وبالتالى فكل الكفار حتى كفار قريش فى زعمه هم مسلمون لأنهم لم يجادلوا فى حقيقة وجود خالق أعظم لهذا الكون ولكنهم خالفوا فى شركائه وفى الإيمان بنبوة محمد عليه السلام، والمصيبة أنه زعم أن هذا القول الكفري هو قول لبعض أهل العلم حيث أن المسألة فيها خلاف ـ كما يقول ـ بين العلماء ! ،

مع أنها بديهية من بديهيات الإسلام فضلا على كونها الركن الأول من أركان الإسلام وهو ضرورة الشهادة لله بالوحدانية ، ولمحمد عليه السلام بالرسالة ، وفوق ذلك كله لا يوجد أتباع أى دين لا يعتقدون كفر من خالفهم فى هذا الدين ، فاليهود يرون أنهم أهل الدين الصحيح وحدهم بل إنهم حتى لا يدعون لدخول غيرهم فى اليهودية باعتبار أن اليهودى يجب أن يأتى من أم يهودية فلو كان غير ذلك فليست له نجاة ولو آمن بكل ما يعتقده اليهود ! ، وكذلك النصاري لا يعتقدون بنجاة أحد إلا إذا آمن بالإله الابن المخلص وحتى الهندوس والبوذيون وعبدة الأصنام يعتقدون بآلهتهم وحدها وأن الإيمان بها ضرورة للجنة

تساءل الشاب :

وكيف يمكن أن يغفل عالم أزهرى عن أركان الإسلام ؟!

قال الكاتب :

الضلال والكفر والبدعة ليست مسائل تتعلق بمدى علم العالم ، وإلا لكان إبليس أكبر الموحدين ، فرغم أنه من أعلم العلماء بالله ، بل وخاطب رب العزة سبحانه ـ أى أن إيمانه

إيمان شهود وليس إيمان غيب ـ إلا أنه مع الحسد والحقد لآدم كفر بالله العظيم كفر عناد رغم أنه يعلم يقينا بمصيره بعد ذلك ، بل وصل به الكفر ـ لعنه الله ـ إلى أنه تحدى رب العالمين بالإنتقام من آدم وذريته ، فهل هناك حماقة فى التاريخ أعظم من هذا ؟!

وكما خرج من الأزهر فطاحل الدعوة للإسلام عبر التاريخ ، إلا أنه خرج منهم أيضا زعماء للضلال ، ولعلك تعلم أن زعيم منكرى السنة فى مصر أحمد صبحى منصور كان أستاذا حاصلا على الدكتوراة من الأزهر وخرج رغم هذا يقول بأن الإلزام هو للقرآن وحده وليست هناك سنة ، فحاكمته جامعة الأزهر وسحبت درجته العلمية وتم طرده من مصر وهو الآن يبث ضلاله عبر النت من أمريكا ويدعو إلى إسلامه الجديد !!

ولو تأملت الأسباب التى تؤدى لكفر العناد وللبدع ستجدها مركزة فى تغلب حب النفس للتصدر والرياسة ، وفى الكبر عن الإعتراف بالخطأ ، فسعد الهلالى بعد أن هاج عليه علماء الأزهر ذهب للإعلاميين المؤيدين له وحاول التنصل من مقولته مع الإصرار على أنه لم يخطئ بأن فسر مقولته بأنه يقصد أن ينزل وصف الإسلام على الأمم السابقة قبل ظهور النبي عليه السلام ، ولكن علماء الأزهر واجهوه بحلقته المسجلة والتى يزعم فيها بوضوح أنه يقصد النصاري واليهود فى مصر فى عصرنا الحالى لأن كلامه كان فى معرض الحديث عن حال مصر قبل ظهور الإخوان ، وكيف أن المصريين جميعا كانوا مسلمين بما في ذلك النصاري واليهود ! ، فلما واجهوه وأصروا على تراجعه واعتذاره ، خرج مجددا فى الإعلام وعاد لقوله الأول مُصرا عليه وناسبا قوله إلى ابن حجر الهيثمى وابن تيمية !! ، وللعلم فقد خرج العلمانيون والمتغربين بهذه المقولة من قبل ولم يهتم أحد بالرد عليها أو يلقي لها بالا ، لأن هؤلاء فى الأساس يحكمون بأمزجتهم الشخصية ولا عبرة لديهم لا بقرآن ولا سنة ، ويدافعون عن كل كفر تحت زعم الحرية ، ومنهم من خرج علانية يدافع عن فرعون ويدعو لرد الإعتبار إليه ! ، فموقفهم مفهوم ، أما الكارثة تتمثل فى أن يخرج عالم فيهندس الضلال ويهدم العقيدة بترتيبات ملفقة وينسبها للشريعة

قال الشاب: وكيف يمكنه استخدام نصوص الشريعة لهدم الثوابت ؟!

قال الكاتب:

هذا أمر سهل جدا ، فعن طريق الإقتطاع والإجتزاء تستطيع أن تحلل كل الفواحش بل وتهرب من كل القوانين ، وأشهر مثال ذلك أن تقول (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة) وتصمت دون أن تكمل الآية، وساعتها يمكنك الإدعاء أن القرآن ينهى عن

الصلاة ، ولكنك لو أكملت الآية (وأنتم سكارى) لظهر المعنى الواضح لمقصود الآية وهو عدم الصلاة مع السكر ، وهذه الآية كانت قبل أن تنزل آية تحريم الخمر قطعيا ، فنزل التشريع يحرمها بالتدريج جريا على سياسة الدين فى فرض العبادات ، وأحد الملاحدة الحاقدين والذى يدعو لما يسميه بتجديد الإسلام احتج بأن القرآن لا يعتبر أهل الكتاب كفارا ولو لم يؤمنوا بالإسلام أصلا ، وبالطبع هذا قول خرافة ، فالقرآن ينص على كفر من قال إن الله ثالث ثلاثة أو أن الله هو المسيح ابن مريم ، فلما سألوه عن هذه الآيات قال إن الآية تقول على لسان أهل الكتاب (إن الله ..) وبالتالى فهم مؤمنون بالله وليسوا منكرون لوجوده !!!!

أى أنه حذف تماما بداية الآية التى تقول (لقد كفر الذين قالوا ...) ، وجريا على مذهبه هذا فليس هناك كافر على وجه الأرض إلا الملاحدة ، وحتى إبليس وكفار قريش مؤمنون ، لأنهم آمنوا بوجود الله كمبدأ لكنهم أشركوا به آلهة أخرى على الأرض ، وبالمثل فكل أصحاب ملة حتى من يعبدون البقر والماعز وبوذا هم فى منهجه مسلمون وموحدون، لأنهم يقولون إن الله هو ما يعتقدونه !! ، بل فرعون نفسه مؤمن فى زعمه أيضا لأنه قال (أنا الله) ، فهذا الحاقد الغبي ينفي صريح القرآن والعقل والإدراك على نحو متبجح ويعتقد أن الكفر فقط هو الإلحاد مع أن الإلحاد وكفر الشرك وكفر العناد كلها أساسيات تكفير الشيطان وعابدى الأصنام.

أومأ الشاب متفهما وقال : نعم أفهم ذلك ، ولكن هذا النوع من التدليس ينكشف بسهولة والناس لن تغتر به ، وبالتالى فهو لا يستحق ردا واهتماما ..

قال الكاتب معترضا :

كلا بل يستحق الرد قطعا، لعدة أسباب منها ، أن الناس والعقول ليست سواء فى العلم والجهل والقول الباطل إذا انتشر مهما كان تهافته سيؤثر على المدى البعيد ، وإلا لما اغتر الناس بمصطلح التنوير العلمانى المنتشر هذه الأيام وصدقوه بينما هو فى حقيقته دعوة للإلحاد ، كذلك هناك تدليسات محترفة يجيدها المنافقون الأذكياء ولا يتمكن من كشفها إلا المحترفون ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (أخوف ما أخاف على أمتى المنافق عليم اللسان) ، فضلا على نقطة هامة ، أن أقوال التضليل قد تبدو لك وفى زمانك أنت مقولات شديدة الحماقة لا يقبلها عاقل ، لكنها مع تردى العلم عبر العصور تصبح قابلة للتصديق ، ولهذا فلم يهمل العلماء فى الرد حتى أحمق الشبهات ، ولتصدق

أو لا تصدق ، أنه فى زمن ابن حزم رحمه الله .. ظهرت فئة من الناس تدعى أن هناك رسلا وأنبياء فى الحيوانات !! تصور .

قهقه الشاب ضاحكا وقال : كيف هذا ، وهل هناك عاقل يقول بمثل هذا التخريف ؟!

أجاب الكاتب : بل الأعجب من هذا أنه كانت معهم أدلة يزعمونها فى القرآن واحتجوا بأن الله تعالى وصف مجتمع الحيوانات والطيور بأنها أمم أمثالنا ، ولم يلاحظ المتخلفون أن المثلية هنا فى مصطلح الأمم ذاته أى ممالك وتجمعات لها نظام فيما بينها ، ولم يلاحظوا أيضا أن إرسال الرسل إنما يكون للتكليف ، والتكليف يقتضي العقل والقرآن صريح فى أن الأمانة والرسالة فى تكليف الشرائع لم يحملها إلا الإنس والجن

ولو كانت الشبهات الواهية لا تؤثر ولو بنسبة بسيطة ، فلماذا صدق بعض التائهين ما ردده أحد الملاحدة من أن وصف الكفار فى القرآن لا ينطبق على أى إنسان إلا على كفار قريش فقط فى زمن النبي عليه السلام أما بعد ذلك فكل من أتى بعدهم من أجيال فهم مسلمون وسيدخلون الجنة حتى الملاحدة وحتى لو لم يؤمنوا بمحمد ولم يقوموا بشعائر الإسلام ؟!

بالإضافة إلى ظهور بعض الناس تقول بأن دين الإسلام من زمن الصحابة وحتى اليوم ـ حتى فى زمن الصحابة بعد النبي عليه السلام ـ هو غير الإسلام الحقيقي الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن الإسلام الذى توارثناه من الصحابة والتابعين حتى اليوم إنما هو دين التراث ، أما الإسلام الحقيقي فى زعمهم فليس فيه أى نصوص من السنة أو التفسير وعلوم الشريعة ، بل هو فى القرآن فقط ، وهذا الإسلام ليس فيه الصلاة التى نعرفها بل الصلاة هى مجرد دعاء نقوله مرتين فى اليوم وحسب ، وليس فيه صيام ولا زكاة ولا حج ولا معنى فيه للجهاد ولا الجزية ولا معنى فيه لضرورة الإيمان بمحمد عليه السلام ، وأن كل هذه العبادات لها مفاهيم أخرى غير التى نعرفها لأنها كانت وقتية محددة بزمن النبي عليه السلام وحده !!

وعندما تستمع إلى هذه الأقوال منشورة ومسموعة فى الصحف والفضائيات ، فلك أن تسأل كيف تمكن هؤلاء من قول هذه الأفكار علنا ؟!

بل الأنكى كيف فكروا فيها أساسا وظنوا أن الإسلام الحقيقي ضاع منذ عصر النبي عليه السلام حتى جاء هؤلاء فصححوه لنا ؟!

ونسألهم أيضا سؤالا عقليا مباشرا ، إذا كنتم فاقدى الثقة فى الصحابة والتابعين ،

وتدّعون أنهم حرفوا الدين ، فكيف تثقون فى القرآن الذى بين أيدينا وهم من نقلوه إلينا ؟!

وبالتالى فلازم قولهم يقتضي ترك كل ما وصل إلينا من التراث ، سواء كان قرآنا أو سنة أو فقه ، وبالتالى يتضح الهدف الحقيقي لهؤلاء ألا وهو ترك الإسلام بالكلية

صمت الشاب لحظة ليستوعب ما قيل ثم سأل : وهل سعد الهلالى قال هذا الكلام ؟!

قال الكاتب: لم يقله ولكنه مهد الطريق لكى يشارك القائلين بنفس هذا الكلام ، والقائلون بهذا هم بالمناسبة من معارف سعد الهلالى ويظهر معهم فى الفضائيات ويشاركهم الكتابة فى الصحف دون أن يستحى مرة واحدة فيكتب مقالا واحدا ينتقده فيهم ولو على سبيل ذر الرماد فى العيون ، بل بلغ به التبجح أن مدح أحد هؤلاء الإعلاميين ووصفه بالمفكر الإسلامى المجتهد ، مع أن هذا الإعلامى نفسه ـ وهو الصحفي إبراهيم عيسي ـ وقبل أسابيع من لقائه بالهلالى وعلى نفس القناة ، كان يردد أشباه هذه الأقوال وبلغ به التبجح بأن انتقد مفهوم (الثوابت) فى الإسلام باعتبار أن الإسلام ليس فيه ثوابت ملزمة معصومة من النقد ، وكأن الشهادتين وأركان الإسلام والفروض ليست من الثوابت !!!

كما صرح قائلا بأنه لا يوجد فى القرآن ولا فى السنة شيئ اسمه الشريعة الإسلامية أصلا !! ، ولست أدرى ألم يفتح هذا الرجل مصحفا من قبل ؟!

وبلغت به السفالة والوقاحة أن يقول عصر الصحابة والرسالة ليس عصرا ملائكيا ودلل على ذلك بأن المدينة المنورة فى عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان بها تحرش جنسي !! ـ نعوذ بالله تعالى من هذا الإفك المبين..

وبعد كل هذا يظهر معه سعد الهلالى مبتسما ومرحبا ومادحا ، بل وجاء مناصرا له فى هذا اللقاء حيث استدعاه إبراهيم عيسي على عجل كى يدافع عنه ويعضده ضد الهجوم الذى تعرض له بسبب افترائه على أبي بكر الصديق ، عندما قال بأن الإرهابيين الذين يحرقون خصومهم بالنار استندوا إلى حرق أبي بكر الصديق لأحد الجناة ، وهذا كذب فاضح وجهل شديد وتعمد واضح لإلقاء التهمة على التراث الإسلامى واتهامه بإفراز الإرهاب ، وقد أوضحت تلك القضية بكاملها فى مناقشة علوم الحديث والعقيدة ، وكيف كان منهج العلماء فى نقل القرآن والسنة والتاريخ .. وأن كتب التاريخ والحديث فيها روايات متكاثرة موضوعة حذر منها العلماء ، ومنها تلك الرواية المفتراة على أبي بكر رضي الله عنه.

قال الشاب :

ولكن ما هو منهج سعد الهلالى الخاطئ فى الاختيارات الفقهية ولماذا اعتبرت منهجه مضلا فى الاختيار الحر من كتب الفقه ؟

أجاب الكاتب :

منهجه ببساطة أنه يري دور العالم والفقيه هو عدم الإفتاء بالرأى الذى يراه صوابا معضدا بالأدلة ، بل دور العالم فقط أن يبسط كافة الآراء أمام المستفتى والأخير له حق الإختيار دون أن يجذبه المفتى إلى رأى معين أو يحذره من رأى شاذ !! ، أى أنه يدعو المسلمين لفتح كتب الفقه واختيار ما يشاءون من أقوال العلماء - ولو كان قولا شاذا منتقدا من كافة العلماء - ويفسر ذلك بأننا لو رفضنا بعض أقوال العلماء فسنصبح إقصائيين !!

ولبيان مدى خطورة قوله نوضح الآتى ..

أولا : الإنتقاد والتحذير من أقوال العلماء الخاطئة والمبنية على اجتهاد خاطئ ليست إقصاء ، فالإقصاء هو منع الإنسان من إبداء رأيه ، وهذا ما لم يحدث من عالم تجاه عالم آخر تحت مظلة أهل السنة ، وإلا كيف وصلت إلينا مختلف الأقوال الشاذة منسوبة لأصحابها ؟! ، بل كيف وصلت إلينا أقوال الفرق الشاذة وأهل الإلحاد التى نقلها العلماء فى معرض الرد عليها ؟!

بل إن العلماء كانوا هم من ينقلون أقوال بعضهم البعض فى كتبهم ويناقشونها مناقشة علمية تركت للإسلام تراثا علميا هائلا وفكرا مستنيرا لا يشبع منه طالب علم ، فاختلاف الفقهاء - فى الأمور التى يجوز فيها الإختلاف - كانت نموذجا للقبول والترحيب والنقاش العلمى والتسليم للدليل الأصح ، وقد وردت عن العلماء أقوال عديدة تبين مدى سعة صدورهم لآراء الآخرين مهما اختلفت معهم مثل قول أبي حنيفة المشهور :

(قولنا هذا رأى وهو أقصي ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه)

أيضا كان الإمام مالك يكثر من الإستدلال بالآية الكريمة (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) ، وقول الشافعى (قولى صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب)

ثانيا: الإقصاء لم يكن العلماء ينادون به فى مواجهة الرأى المخالف فيما يجوز فيه الخلاف ، بل كانوا ينادون بإقصاء الرأى الذى يتأكد بطلانه ومصادمته لصريح القرآن والسنة ومقاصد الشريعة ، ولهذا كانوا يردون هذه الأقوال ويقصونها دون المناداة بإقصاء صاحبها طالما كان عالما له عطاؤه العلمى لأن كل عالم له زلة أو هفوة ، فلا يجوز

أن نسقطه لأجلها كما لا يجوز أن نقبلها منه، أما إقصاء الأقوال مع المناداة بإقصاء أصحابها أنفسهم وتحذير الناس منهم وإسقاط عدالتهم ، فهذه الأمر لم يستخدمه العلماء إلا مع المبتدعة ودعاة الفتنة ودعاة الإلحاد فليس هناك قبول للآخر فى هذه الحالة .. ومن غرائب سعد الهلالى أنه يدندن كالعلمانيين بدعوى قبول الرأى والرأى الآخر وفى نفس اللحظة يطالب بمنع وإقصاء السلفيين والتيارات المتشددة والإرهابية مع أن لهم فكرا يعملون به وآراء شاذة يصرون عليها ، وهذا تناقض مألوف من هذه الزمرة فالحرية وقبول الآخر لا يرفعونها إلا لترويج آرائهم هم ويطالبون كل الناس بقبولها ، أما آراء مناهضيهم فليس لها نصيب من الحرية قط !

لكن الدين الإسلامى يمنع كلا الجانبين الجانب المتشدد ، والجانب المتسيب ، لأن فى منعهم وقاية المجتمع من الفتن ..

ثالثا : تعريف الهلالى للفقيه بأن وظيفته فقط هى النظر إلى كتب العلماء السابقين وإبلاغ المستفتى بها دون أن يتدخل فى اختياره ، هذا تعريف يزدرى ويحط من العلم والعلماء على حد سواء بل إنه يمحو أى لزوم لوجود العلماء من الأساس ، ليس فقط لأن كتب الفقه السابقة لا تحتوى على فتاوى النوازل وبالتالى ستحتاج علماء عصرنا للإفتاء فيها ، بل لأنه قام بتحقير العلماء وتهوين شأنهم عند أنفسهم وعند الناس لأن الناس لن تُتعب نفسها فى طلب علوم الشريعة أصلا ولن تلجأ إلى أى عالم ، فيكيفهم أى جهاز كمبيوتر فيه برنامج متخصص لفتاوى كتب الفقه ليصبح أكثر قيمة عندهم من أكبر علماء العصر !!

وليس فى هذا الأمر ترسيخ لحرية الناس كما يقول ، بل هو ترسيخ للفوضي ، فالعالم مهمته الإرشاد والتنبيه وولايته على الناس هى ولاية العلم والتخصص كما سبق أن شرحنا

رابعا : لو أننا طبقنا منهج سعد الهلالى باتباع كافة أقوال العلماء لكان علينا تحليل كل الفواحش كالخمر والزنا والربا وحتى القتل

تساءل الشاب:

وهل هناك فقهاء أباحوا هذه الأشياء بأقوالهم ..

أجاب الكاتب:

ليس الأمر كما تتصور ، فهم لم يبيحوا تلك الفواحش هكذا بصريح أقوالهم ، بل الإباحة هنا تأتى بما يلزم من أقوالهم ، حيث أنها آراء فقهية بها ثغرات كبيرة يستطيع

أهل المعاصي أن ينفذوا منها ويستغلونها لتنفيذ أغراضهم دون أن يعترض أحد ، تماما كالثغرات فى نظريات فقهاء القانون ، فالعيب الرئيسي ليس فى نصوص القانون ذاتها أو أقوال الفقهاء فى ذاتها ، ولكن العيب في من يجد ثغرة تؤهله للنفاذ منها ، مثل قانون الإجراءات الجنائية فى أى بلد وهو اللعبة المفضلة للمحامين لتبرئة القتلة والمجرمين ، فالقانون تم وضعه أساسا لحماية الأبرياء من تلفيقات القضايا عن طريق وضع ضوابط تُلزم الشرطة بإجراءات معينة تكفل عدم إلقاء القبض على برئ ، ولكن المحامين يستغلونها فى إبطال القضايا الحقيقية لمجرد خطأ صغير فى الإجراءات ، فالقانون فى مصر مثلا ينص على أن تهمة السب والقذف يلزم لها أن يقترن السب والقذف الصريح باسم المتهم بشكل محدد ، فيستطيع أى كاتب أن يسب أى خصم له سبا مقذعا ويستخدم فيه اسم شهرة شائعا وليس لصيقا بالضحية وحدها ، فتسقط التهمة بالشيوع ، كما يستطيع الكاتب أن يسب بلفظ متعدد المعنى ومع ذلك تكون الشتائم مفهومة لكل الناس ورغم هذا لا تستطيع الضحية إدانته لأن شرط التحديد مفقود ، مثلا يمكنك أن تسب شخصا بواحد من أبشع ألفاظ السباب العامية الدارجة ، ومع هذا لا يستطيع القاضي إدانتك لأن نفس اللفظ معناه فى الفصحى العربية الخادم أو مؤدى المعروف ! ، وبالتالى فإذا وصفت سياسيا بمقال مدح ساخر بأنه (خادم الأمة) ولكنك وضعت اللفظ الآخر بدلا من الخادم فلن يستطيع إدانتك لأن سياق الكلمة جاء بالمدح !

قال الشاب : ولكنك سبق أن قلت أن التشريع الإسلامى ليس به ثغرات القانون الوضعى

قال الكاتب مؤيدا :

نعم هذا صحيح ، ولكننا نتكلم عن أقوال وتعريفات فقهية لم يأخذ بها العلماء ولم تأخذ بها الأمة بل أخذوا بالنظريات المجمع عليها التى تكفل تحقيق الردع والعقاب وتضمن فى نفس الوقت درء العقوبة بالشك أو التلفيق عن طريق اشتراط الضوابط الموضوعية

قال الشاب: ما هى أمثلة هذه الأقوال التى تحتوى على الثغرات ..

قال الكاتب:

عندما أسس المسلمون الفقه وقننوا قواعد الشريعة الإسلامية فى نصوص فقهية يستعين بها القاضي ، كان لزاما عليهم أن يضعوا تعريفات جامعة مانعة لكل جريمة وكل عقوبة وبأدق التفاصيل ، بحيث أن وصف الجريمة أو الفعل يجب أن يحتوى على كافة أركان الجريمة فلو غاب ركن تسقط العقوبة ، وكان المرجع فى هذه التعريفات هو

نصوص القرآن ونصوص السنة القولية والفعلية ، ولكن الأحاديث النبوية فى زمن تأسيس الفقه الأول لم تكن متوافرة كلها بالضرورة عند كل فقيه ، فكان كل فقيه يستقصي ويقضي بناء على الحديث الذى ثبت عنده، اعتمادا على أنه حتى لو أخطأ فسيصحح الخطأ عندما يبلغه الحديث أو يقوم العلماء الذين وصلهم الحديث بالتصحيح ، لأن علوم الفقه والشريعة كلها كانت تكاملية بين سائر الفقهاء، ولهذا نص أكثر الفقهاء عندما وضعوا فقههم بأن آراءهم إذا خالفت حديثا لم يعرفوه أو فتوى للصحابة لم تصلهم، فإنهم بريئون من هذا القول ، ومن ذلك قول الشافعى (إذا صح الحديث فهو مذهبي)، ويقول أيضا (إذا صح الحديث ولم آخذ به فقد ذهب عقلى) ، وبناء عليه وصل الفقه إلى العصور التالية متكاملا بردود العلماء على بعضهم البعض وعندما بدأ عصر التدوين أصبح للأمة مراجع تحوى الفقه بلا ثغرات لأنها نتاج ذاخر لمجموع العلماء ولهذا لم يأخذ جمهور العلماء بقول أبي حنيفة فى حصر الخمر الذى يحرم قليله وكثيره إلا إذا كان الخمر معصورا من العنب والتمر أما غير ذلك فيجوز شرب القليل منه والذى لا يحقق شربه السكر، ورفض العلماء ذلك لأن الحديث الذى لم يبلغ أبـــا حنيفـــة نص على أن (كل مسكر خمر وكل خمر حرام)، وحديث (ما أسكر كثيره فقليله حرام) وبالتالى فهو يشمل كافة أنواع الخمور بل والمخدرات طالما توافرت فيه صفة الخمر وهى السكر وغياب العقل والوعى..

فهذا أبو حنيفة ـ بكل ما يمثله من ثقل فقهى ـ ولكنه أخطأ فى الإستدلال فهل نأخذ بقوله ـ وفق منهج الهلالى ـ وبالتالى نبيح الخمر المصنوع من البصل والتين أو منقوع البراطيش !![٤٨]

ضحك الشاب وهو يقول: كلا طبعا، وماذا أيضا ؟!

قال الكاتب:

هناك بعض كبار العلماء وضعوا تعريفا للقتل العمد ـ وهو المستحق لعقوبة الإعدام ـ بأنه القتل الذى يتم بسلاح أو آلة هى قاتلة بطبيعتها ، فلو تم استخدام آلة أو شيئ لا يقتل غالبا ، فهنا لا يعتبر قتلا عمديا بل قتل خطأ ، فبعضهم حصر القتل العمد فى الخناجر والسلاح الصريح وقطعة الحديد أو المعدن الثقيلة أو الصخرة العظيمة أو النار ونحو ذلك من الأدوات التى تقتل بطبيعتها ، أما الأدوات التى لا تقتل بطبيعتها فهى الأدوات التى لا

(٤٨) قال بهذا الكلام أحد مجددى هذا الزمان وهو الدكتور يوسف زيدان أستاذ المخطوطات الذى يعالج تاريخ الأمة بالتحقير وبنفس أسلوب الإقتطاع والإجتزاء اعتمادا على جهل الناس بالمراجع.

تقتل غالبا ولا يتم استخدامها فى القتل وإنما تتسبب بالقتل لتوافر ظروف استثنائية كأن يضرب الإنسان إنسانا آخر بعصا رفيعة لكنه يغرسها فى موضع قاتل ، هنا لا يعتبر القتل عمديا وبالتالى فلا قصاص بل تكون العقوبة مخففة.

تساءل الشاب: وما عيب هذه الآراء؟!

قال الكاتب:

عيبها أنها تفتح الباب أمام القتلة والسفاحين باستخدام أساليب لا يظهر فيها التعمد رغم أنهم يقصدون القتل ويدركون أثر أفعالهم كالقتل بحقنة هواء مثلا ، أو القتل باستخدام دواء له أثر جانبي قاتل عند من لديهم مرض معين ، بل تكمن الكارثة فى أن عدد كبيرا من الفقهاء كان يعتبر القتل بالسم ليس قتلا عمديا باعتبار أن الضحية هنا شاركت فى فعل القتل بالغفلة ولا يعتبر القتل بالسم عمديا عندهم إلا إذا تناوله الضحية مكرها وبالإجبار.

قال الشاب: ولكن السم قاتل بطبيعته

قال الكاتب:

هذا الرأى كان مناسبا لعصر أولئك الفقهاء حيث كانت أنواع السم محدودة ويمكن كشفها لأنها تُغير طعم الشراب والأكل ، بالإضافة إلى أن الفقهاء اعتبروا غفلة الضحية ووقوعه فى الفخ هى السبب فى موته وبالتالى اعتبروها شبهة تدرء الحد ، وإن كانت لا تدرء العقوبة التعزيرية .. ، أما فى عصرنا الحالى فحدث ولا حرج فالسموم الكيميائية وحدها تزيد عن آلاف الأنواع ومعظمها من المستحيل كشفه حتى للخبراء ، فضلا على أن الأدوية السامة تملأ الأرض بينما هى ليست سما أصلا ، بخلاف أن هناك أنواع من السموم تقتل باللمس، وهناك الغازات السامة المستخدمة فى الأسلحة البيولوجية وبعضها ليست له رائحة مميزة ، وهناك أنواع من الأشعة غير المرئية وتقتل عن بُعد ، وبهذا يستطيع القاتل حتى لو أمسكوه وأمسكوا سلاحه أن يحتج بأنه لم يقترب من الضحية أساسا ولم يستخدم سلاحا وهناك آراء أخرى لبعض الفقهاء تفتح الباب لجريمة الزنا على مصراعيها ، مثل رأى أحدهم فى أن حد الزنا لا يتم تطبيقه على الذى يزنى بخادمته المستأجرة لتنظيف البيت أو رعاية الأطفال، وحجته فى ذلك أن هناك شبهة تعاقد بينهما والتعاقد يجعلها فى حكم ملك اليمين كالجارية، وبالتالى فهى شبهة تدرأ الحد وتقصر العقوبة على التعزير، وقد أبطل الفقهاء هذا الرأى بالطبع لأن عقد العمل بين المتعاقد والخادمة هو

عقد موصوف ومحدد لفعل معين لا يشمل المواقعة ، وإلا لأصبح كعقد زواج الشرعى تماما وليس مجرد شبهة تدرأ الحد ، كما أن الجارية هى ملك يمين وليست حرة ، وبالتالى لا يجوز قياسها على الحرة حتى لو كانت خادمة، فتخيل لو أننا أخذنا بهذا الرأى فى عصرنا اليوم سيسعى كل الناس لاقتناء الخادمات بل حتى طلبة المدارس والجامعات كل منهم سيعقد مع زميلاته عقد معاونة على المذاكرة وكذلك أصحاب القنوات الفضائية مع المذيعات، وأصحاب الشركات مع الموظفات ليتحول المجتمع فى لحظة إلى مسرح بورنو جماعى ومن أعجب عجائب العلمانيين أنهم استغلوا وجود هذه الأخطاء فى كتب الفقه ليدللوا تارة على تحليل الفواحش، وتارة فى الطعن على محتوى كتب الفقه، فهم فى الحالة الأولى يتجاهلون عمدا أن عشرات العلماء كتبوا وبينوا اعتراضاتهم على تلك الأخطاء وحذروا منها ، وهم فى الحالة الثانية يتعاملون معنا بمبدأ خرافي فاسد ، وهو اعتقادهم أننا طالما نأخذ من هؤلاء العلماء فيبغي أن نعتقد فيهم العصمة !! وأنهم بلا أخطاء !!

فبأى منطق وبأى عقل تُلزم خصومك بما يلتزموا هم به ؟! ، وكيف تحاسبنا على شيئ لا نعتقده أصلا ونؤمن بعكسه ، فهم يقولون مثلا أننا نعتقد بعصمة أئمتنا ، فلما نفينا هذا ووضحنا أن عقيدة المسلم لا يمكن أن تؤمن بعصمة أحد بعد الأنبياء ، يقولون إذا لماذا تأخذوا منه طالما أنه بشري ويخطئ ؟!

وهذا من أعجب القياس الذى تراه فى حياتك ، حتى من خلال منطقهم العلمانى البحت، أين وجدوا من علماء أى مجال من يشترط فى كتب العلماء أن تكون خالية من الأخطاء وإلا لا يأخذ منها شيئا !! ، لو أننا عممنا هذا المنطق فلن يبقي هناك عالم على وجه الأرض تأخذ منه أى علم من أى نوع .

قال الشاب متحيرا : ولكن ألا يعلم الدكتور سعد الهلالى بهذا ..؟!

أجاب الكاتب :

أخبرنى أنت كيف يمكن أن يجهل ذلك وهو رئيس قسم الفقه المقارن فى جامعته أى أنه أكثر من يدرك مختلف أقوال الفقهاء ومنهجهم فى الفتاوى ؟!

بل ما يثير الجنون أنه كاد يتراجع بالفعل عندما حاول تفسير قوله وعزوه إلى وصف الأمم السابقة على الإسلام، وكاد الأمر يمر على هذا الوجه ويتغافل الناس عن صريح قوله ـ طالما أنه تراجع أيا كان شكل التراجع ـ لكن ما حفز علماء الأزهر ضده هو أنه

أثناء تبريره لقوله هاج وماج وأعلن أنه لم يخطئ قط وأن كلامه حمله علماء الأزهر على غير محمله أى أنهم قد ترصدوا له واخترعوا له السقطات إنتقاما منه لأن القائمين على الأزهر فيهم الكثير من الإخوان !!

وبالطبع بعد هذا الإتهام المستفز الذى صار الوسيلة المفضلة للتحريض وإرهاب الناس كى تسكت عن الحق، هو أن ترميهم بالإنتماء إلى العصابات الإرهابية حتى لو كان تاريخهم وحاضرهم يكشف فى وضوح عداءهم الشديد لتيارات الإسلام السياسي، ولكنها وسيلة مفضلة هذه الأيام لابتزاز الخصوم، حتى أن أحد المخرجين أخرج مسرحية تسخر من تيارات الإسلام السياسي ولكنه دس فيها اعتداءات سافرة على ثوابت الدين، فاعترضت الرقابة عليها ، وقديما كان المخرجون عندما يتعرضون لمنع الرقابة لأعمالهم المتجاوزة كانوا يلجئون للإبتزاز عن طريق المتاجرة بحرية الرأى ومحاربة الإبداع ..

لكنهم فى ظل الأجواء الحالية المتحفزة ضد الإرهاب والتشدد وجدوا الوسيلة الناجعة فاتهم هذا المخرج مسئولى الرقابة بأنهم داعشيون وإرهابيون تسللوا لوزارة الثقافة !! ، وهذه نكتة حقيقية والله، فكل من له علاقة بالشأن الثقافي فى مصر يعرف يقينا أن وزارة الثقافة منذ السبعينات وحتى اليوم فى عهد جابر عصفور هى وزارة علمانية التوجه حتى النخاع، وسبق للأزهر أن دخل معها فى معارك مختلفة بسبب إصدارهم لأعمال الملحدين والعلمانيين والترويج لها على أنها من الإبداع، مثل أعمال سيد القمنى والذى حصل على جائزة الدولة التقديرية من الوزارة على ما ينشره من كفر صريح ، وعمل روائي فاضح مثل رواية وليمة لأعشاب البحر .

القصد.. أن سعد الهلالى حاول تهديد زملائه من علماء الأزهر بهذا الأسلوب التحريضي ، لكنهم لم يخضعوا للإبتزاز فردوا عليه كما سبق أن وضحنا وواجهوه بنص كلامه المسجل ، فأخذته العزة بالإثم وتراجع حتى عن توضيحه السابق، ليعود ويصر على قوله الأول فى لقاء جديد له على الفضائيات، ويضيف لطامته السابقة كارثة أخرى وقول آخر لم نسمع به من أحد العلماء أو حتى طلبة العلم فى التاريخ ، عندما استغل الحكم الأصولى الذى يقضي بتوصيف أنواع الكفر، وهى الكفر الأكبر والكفر الأصغر والذى يصفه العلماء بعبارة (كفر دون كفر) ، فالكفر الأكبر كالإلحاد الصريح والشرك الصريح والإنكار الصريح ونحو ذلك، أما الكفر دون كفر ، فنصف بها حالة المسلم عندما يأتى بفعل كفري ـ كعدم الحكم بما أنزل الله فى قضية معينة ـ ولكنه لا ينكر

الشرع أو ينكر أركان الإيمان أو أركان الإسلام وإلا كفر كفرا أكبر ، فنسمي فعلته هذى بأنها كفر دون كفر .. أى أنها كفر عملى وليس كفرا اعتقاديا ، لأن إنكار أى ركن من أركان الإيمان الثمانية وأركان الإسلام الخمسة هو كفر اكبر بإجماع المسلمين ، وهو أمر لا يستحق الإيضاح لفرط وضوحه ، وعلى هذا الأساس حارب أبو بكر الصديق المرتدين وسماها المؤرخون حروب الردة لأن المرتدين لم ينكروا من أركان الإسلام إلا ركن الزكاة وقالوا بأنها فرض فقط حال حياة النبي عليه السلام ! فاستغل سعد الهلالى هذا البيان الأصولى الخاص بكفر العمل ليحمله على كفر المعتقد ، وقال ردا على خصومه، بأن المسلمين يؤمنون بوجود (كفر دون كفر) ، وعليه ـ بالمنطق ـ يجب أن يؤمنوا بأن هناك (إسلام دون إسلام) !! فتصور إلى أى مدى وصل به الضلال والتضليل ، حتى يبرهن على صحة إسلام من اكتفي بالشهادة للّه دون الشهادة بنبوة محمد عليه السلام ، بأن هناك إسلام (نص نص) كما نقول بالعامية !!

قال الشاب : وما هو دافعه لهذا وهو خير من يعلم جزاء تلك الأقوال.

قال الكاتب :

سأعيدك لقضية إبليس ـ لعنه الله ـ ألم يكفر معاندا رغم يقينه باللّه ؟!

قال الشاب فى فضول : ولكن هذه القضية تحيرنى فعلا ، كيف يمكن تفسير هذا التصرف وأمثاله من الأفعال التى تضاد أى منطق عقلي؟

قال الكاتب:

أنت تقيس الأمر بعقلك، وترى أن الأمور غير العقلانية هى سلوك عجيب ومستغرب من فاعلها ، لكنك تنسي أن الحاكم على الإنسان ليس عقله ، وإلا لما كان هناك مذنب على وجه الأرض ، فالحاكم على الإنسان هو القلب ولهذا استخدم القرآن الكريم (القلب) عند موارد وصف العقل والإدراك فقال عز وجل (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، ومع أن الفقه هو مرادف الفهم ، وهى وظيفة العقل ـ كما نتصور ـ لكن القرآن لم يقرنها بالعقل ..

لأن العقل وظيفته الإدراك والتمييز ، أما الفهم والتصرف بناء على هذا الفهم فهو وظيفة القلوب، ولذلك فهى أخطر ما يتحكم فى الإنسان ، وهى موضع النية ، والنية هى أساس الأفعال كلها ، فالقلب عليه مدار التطبيق ويتحكم فى القلب عدة عوامل ومؤثرات تتصارع فيما بينها ، كالنفس والهوى والشيطان من جانب ، والضمير والإيمان والفطرة من الجانب الآخر وقد يكون مفهوما ومنطقيا لنا أن يقع الإنسان فى الضلال إذا تم

تضليله أو دفعه للخطأ ، لكن الذى يحيرك فى سؤالك هو كيف يكون الإنسان مقتنعا بموضع الصواب ويتركه للباطل ..؟

وهذا يفسره الهوى والنية الفاسدة وعدم الإخلاص والتعصب ، هنا تضعف القوى الإيجابية ليتغلب على القلب القوى السلبية فتعمى البصيرة ، فيري الإنسان بوافر بصره الخطر ويقع فيه لغياب بصيرته ، وما فعله إبليس ـ لعنه الله ـ فعله ويفعله الإنسان أيضا رغم يقينه بما يقدم عليه ، وإلا فلماذا يرتكب المسلمون المؤمنون جرائم الفواحش ، مع أن أصغر طفل يعلم مصير من يفعل ذلك ؟!

بل حتى على مستوى القوانين، لماذا يمتهن بعض الناس القتل أو تجارة المخدرات سعيا للمال مع أن الجزاء المتوقع فى أى لحظة هو الإعدام وبالتالى لن ينفعه ماله ساعتها ! ، بل الأنكى من هذا ما حدث فى قصة السامرى مثلا فقد دبر خدعة خوار العجل لبنى إسرائيل وأغواهم بعبادته على أنه ربهم ورب موسي وهارون، رغم أنه هو من صمم ونفذ تلك الخدعة ليُضل بنى إسرائيل ، فلماذا فعل ذلك وهو يعلم يقينا أنه كاذب ، وكيف فعل ذلك وهو يعلم مصيره الأسود ـ حتى المصير الدنيوى ـ عندما يعود موسي عليه السلام فيكشف فعلته للناس !

وأمامك أيضا مثال يثير دهشتنا إلى اليوم ـ كمسلمين ـ فعم النبي عليه السلام .. أبا طالب ، كان يعلم يقينا بصدق نبوته ، وإلا لما حرّض ابنه عليا على اتباع ابن عمه ، وهذا يعنى أنه لم يناصره فقط بدافع الحمية القبلية ، والقرابة ، بل على الأقل يغلب على ظنه أنه على الحق وإلا ما دفع ولده لاتباع الإسلام ، ومع هذا مات مشركا واستجاب لعصبية قريش التى حرضته على تفضيل الانتماء لآبائه على اتباع الهدى ..

كذلك هناك قصة اليهودى الذى كان جارا للنبي عليه السلام ، ومرض ولده مرض الموت فجاء النبي عليه السلام يزوره فى مرضه ، وقال للولد أمام أبيه : أسلم واتبعنى ..

فنظر الولد نظرة تردد إلى والده ، فبادره والده اليهودى قائلا : أطع أبا القاسم !!

وبالفعل استجاب الولد ومات مسلما ، لكن القصة لا تنقل لنا أن والده نفسه قد آمن بما أحب لابنه ؟!!

فالطبيعة البشرية عدوها الأول من نفسها ـ وليس من الشيطان ـ فالعناد كما قالوا يورث الكفر ، والعصبية المقيتة ـ أيا كان نوعها للقبلية أو الفكر أو الجنس ـ أشد ما حذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته منه بعد البدع ..

وليست العصبية للنفس فقط تتمثل فى النفاق الظاهر ، بل هناك نفاق أشد يظهر فى صورة الحق والنضال والشجاعة !!

قال الشاب: وكيف هذا ؟!

أجاب الكاتب:

لقد أدرك فقهاء الامة من السلف الصالح مقاصد الشرع وحقيقة الإيمان كما لم يدركها بعدهم أحد، ولهذا قالوا حكمة بالغة الدقة والجمال ، ومعناها :(ليس القاضي العادل هو من يقضي للضعيف المظلوم فى مواجهة الحاكم الظالم فقط، بل القاضي الأعدل والأشجع هو من يقضي للحاكم صاحب الحق على المحكوم الظالم دون أن يخشي اتهام الناس لهم بالنفاق) فلو أنك تمثلت هذه المسألة ، ستجد أن الناطق بالحق لمناصرة الضعفاء فى مواجهة الحكام الظلمة ، هى شجاعة كبري نعم ، وتكررت فى التاريخ كثيرا لأنها موضع البطولة المشهور، والناس درجت على احترام وتبجيل من يقف أمام الحكام بغض النظر عن حقيقة الموقف ذاته ، ولكن الشجاعة الأكبر والأصعب فى الاختيار أن تنطق مناصرا للحاكم فى قضية تراها أنت ـ حقا لا نفاقا ـ ولا تخشي بعد ذلك تشنيع الناس عليك بنفاق الحاكم ، وهذا ما يسميه أهل الفكر بنفاق الرعية أو الغوغاء ، ولو أنه نادر الحدوث الآن مع شيوع الظلم فى مجتمعات المسلمين ..

لكنه يتكرر كثيرا بين أهل العلم والجمهور ، فتجد بعض العلماء يفتى الناس فى مسائل معينة برأى متشدد ـ هو نفسه غير مقتنع به ـ وذلك كى يظهر أمام الناس بأنه مدافع أصيل عن الشريعة، لأن الناس بطبيعتها درجت على الإفتتان بالجانب المحافظ مع كثرة المتاجرين بالتجديد .. خلاصة هذا كله أن حب الظهور والشهرة بالذات لمن كان يستحقهما فعلا هو أمر فى منتهى الخطورة إن لم ينله الإنسان ، وغالبا ما يقف خلف التنازلات التى يقدمها بلا حدود وتبدأ بخطوة واحدة فقط على طريق التخلى عن المبادئ ثم تستمر وهذا فى الواقع هو معنى الفتنة التى حذرنا منها النبي عليه السلام ألا وهى فتنة الشبهات وأوصانا أن نتقي الشبهات كى نستبرئ لعرضنا منها تماما فقال (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات ، فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) وفى الفصل القادم سنتعرف التفاصيل التاريخية لموجات الشبهات التى عصفت بتاريخنا وعقيدتنا وثوابتنا ، ومتى وكيف حدثت ولماذا ؟!

الفصل الثالث

كيف اخترقت ثقافة التغريب والشبهات المجتمع المسلم
وكيف أصبح الإستقطاب هو دين العصر

قال الشاب: وما الذى يحتاجه الفقيه إلى جوار العلم والذكاء كى يفتى الناس ؟

أجاب الكاتب:

قبل أن أجيبك عن هذا السؤال نحتاج لنقطة تضبط الحوار، لأن إجابة هذا السؤال ستحتاج منى إلى ذكر أمثلة لفتاوى شاذة يقول بها تيار معين أو عالم معين ، وهذا النقد الموضوعى لا يعنى إسقاط هؤلاء العلماء كليا ، فكما نؤكد دائما فى حواراتنا أننا لا نتبع معصومين ، بل نتبع علماء لهم حتما أخطاء معدودة ـ وكفي بالمرء حُسنا أن تُعد معايبه ـ وإسقاط عدالة أى شخص أو أى عالم لا تكون أبدا للأخطاء ، أو الزلات ، بل تكون للجرائم المتعمدة والنية المبيتة للتضليل،

قال الشاب : ولكن جيلنا يفهم تماما هذه الضوابط .

أكمل الكاتب :

أنا أحب تكرار هذا دائما لأن تجارب الحوار المختلفة أثبتت لى أن ثقافة تمييز النقد عن الهجوم غائبة عن بلادنا بشكل فادح ، وهى نتيجة طبيعية لما نتكلم عنه دوما من حالة التعصب والتحزب القاتلة ، فكل شخص يناصر عالما او مفكرا أو تيارا .. لا يقبل عليه عيبا ، ولا يأخذ من غيره معرفة أو معلومة !!

فهؤلاء يظنون العلماء أنبياء، وقد واجهت تعبيرات دهشة كثيرة وغريبة من عدد كبير من المثقفين عندما يعلمون مثلا ـ رغم أنى لست ناصريا ولا يساريا وبدون أى انتماء أيديولوجىـ ، أننى أقرا لهيكل وفؤاد زكريا ـ رغم تناقضهما وعدائهما المعروف ـ واعتبرهما من رواد مجالات الفكر السياسي والفلسفي ، ومعهم فى نفس الوقت أنيس منصور ـ رغم أنى قلت لك رأيي فى الفلسفة الغربية وأنيس منصور رحمه الله من أعلام الفلسفة ـ ومصطفي محمود ، كما آخذ من علم السلفيين وعلوم الأزهر ـ رغم تضاد الجانبين ـ ، وأقرأ كتب التراث ، وأيضا أقرأ روايات الشباب ، وأحب الصحابة وآل البيت معا !! ، ولا أرفض القراءة بهدف التأييد والاستفادة ، إلا إذا الكاتب مبتدعا صريحا فى الدين ويروج لبدعته هادفا لطعن السنة ، أو كاتب صاحب اتجاه معروف يعمل ببرنامج

محدد موجه للدين أو للعروبة أو اللغة أو أى شيئ يمس ثوابتنا ، أو كاتب سياسي مضلل يعلم بأنه يضلل الناس ومع ذلك يصر على ما يفعل أما من حيث القراءة ـ كمبدأ ـ وليس بهدف الاستفادة أو التقرير ، فهذه بلا محظورات نهائيا حيث نقرأ لأعدائنا بهدف الرد

تعجب الشاب قائلا : ونحن جميعا نفعل ذلك وأكثر .. فما الغريب ؟!

قال الكاتب:

أنت تراه أمرا طبيعيا ، لكنك لم تجرب النقاش مع بعض الأجيال التى سبقتنا ، فنادرا ما تجد من يجمع بين هؤلاء المفكرين والعلماء ويحترمهم جميعا ، نظرا لأن الثنائيات التى ذكرتها لك ، بينهم خلافات سياسية وخصومات مذهبية وأنصارهم على نفس هذه الخصومة ، وما نفعله نحن الآن ـ كجيل مستقل ـ هو نفس ما كنا نفعله نحن العرب فى زمن حضارتهم ، حتى أن علماء الحديث قرروا قاعدة تقول (لا نقبل قول العلماء الأقران فى بعضهم البعض) ومهما كانت مكانة العالم وأمانته العلمية لم يكن تلاميذهم يعملون بأحكامهم فى خصومهم من أقرانهم ، لأن الأقران متنافسون ـ خاصة لو عملوا فى مجال واحد ـ ومن الطبيعى أن يتحامل الإنسان على قرينه المنافس ، وليس عيبا فى العلماء أن يفعلوا ذلك ، لأنهم بشر وهذه الطباع طباع بشرية .. لكن العيب أن نتخذها أحكاما لإسقاط العدالة.

قال الشاب:

نحن عملنا بهذه القاعدة التى ذكرتها دون أن نعرفها ..

قال الكاتب:

لأنها فطرة ، وهكذا كل فضيلة تعلمناها ستدرك فى لحظة ما ، أن مصدرها عميق فى الحضارة الإسلامية ، وهذا طبيعى لأن أجيال الإسلام الأولى اختارها الله لحمل الرسالة وزكاهم ومدحهم ، فلابد أن يكونوا أفذاذا ..

قال الشاب:

بدأت أعرف ذلك عندما نفذت نصيحتك بقراءة السير الذاتية للأعلام القدامى ، ولكن بالنسبة لأخطاء المعاصرين هل ستذكر الأخطاء بأسماء أصحابها ؟

قال الكاتب :

هناك أخطاء متكررة بسبب المرجعية الفكرية أو الحزبية ، لذلك فعندما اضرب لك مثالا على خطأ من علماء الأزهر ، فهذا لا يعنى إطلاقا أن كل علماء الأزهر على نفس

النهج ، وكذلك إذا قلنا بأخطاء فى المدرسة السلفية العامة ـ وليس السلفيون فى مصر ـ فلا يعنى هذا تعميم الخطأ على المدرسة بكاملها ، لان الاختلاف داخل المدرسة الواحدة اختلاف كبير فى كل تيار ، ولكن شذوذ الأقوال والفتوى انتشرت بسبب سرعة انتشار الأقوال الغريبة غير المألوفة ، وكذلك فإن الخصومات لها شعبية بين الناس ، لكن هذا لا يعنى إسقاط الحكم على الجميع .. بل إن معظم الأخطاء التى سأذكرها للتمثيل هى أخطاء انتقدها على صاحبها علماء من نفس تياره لهذا فلا داعى لذكر الأسماء إلا إذا كانت أسماء محددة بمناهج كاملة مضللة وليست مجرد أخطاء ، فهنا يجب أن نذكر اسم صاحبها للتحذير منه وحتى لا نأخذ منه العلم لأنه غير مؤتمن .

سأل الشاب:

هل معنى هذا أن العلمانيين مثلا ليسوا كلهم على درجة واحدة من مهاجمة الثوابت ؟

قال الكاتب:

القاعدة التى قلتها لك إنما تنطبق على التيارات صاحبة الفضل فى العطاء العلمى والفكرى للأمة بمعنى أنها تيارات تهدف فى الأصل لخدمة العلم والدين ، أما التيارات التى نشأت بدافع تحطيم الحضارة الإسلامية بعقيدتها وسنتها وتاريخها أو التجارة بهم لغرض الحكم ، فهذه التيارات حكمها عام ومتحد لأن من يدخلها ويصبح داعية لها ، يدخلها وهو عارف تماما بمحتواها ويوافق عليه ، بخلاف من يدخلها بظن الخير ولا يعلم حقيقتها ، .. كذلك إن وجدتنى اذكر لك اسم احد العلماء محذرا منه بشكل كامل ، فهذا يعنى انه عالم انحرف بعلمه ، ولم يراع أمانته ، وبالتالى فلا يمكن أن نقبل منه حقا أو باطلا ، ولن يكون هذا الحكم منى قطعا بل من علماء متخصصين.

سأل الشاب: أفهم أننا لا نأخذ منه الباطل ، ولكن لماذا لا نأخذ الحق منه مع أننا نقبل الحق حتى من الأعداء كما قال بعض المفكرين ؟

أجاب الكاتب:

خذ الحق ولو من أعدى أعدائك طالما انه عدو صريح ، ولكن لا تقبل الحق أبدا من المنافق المغرض، أى صاحب الهوى حتى لو كان من حلفائك ، لأن العدو الصريح أمامك أنت بالفعل متأهب له ومستعد لما يأتيك به ، ولكن الذى يقدم لك الحق على طبقٍ من غرض خفي فلا تأخذه منه ولو كنت واثقا من صدق ما يقول ، لان غرضه الخفي من قول الحق هنا من المؤكد انه ليس فى مصلحتك ، هذا إن أعطاك الحق والحقيقة كما هى ،

لأنه فى الأغلب الأعم سيقدم لك الحقيقة ولكن منقوصة أو مجتزأة بحيث تقلب نظرتك إليها تماما وتتخذ منها موقفا لصالح هذا المنافق وخطورة المنافق أعلى من خطورة الكافر المحارب ، نظرا لأنه مراوغ ، ولهذا جعل الله عز وجل المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، أى أنهم فى أسفل المراتب بجهنم على الإطلاق ـ عياذا بالله ـ وتفوقوا حتى على الكفار المحاربين أصحاب الجرائم الظاهرة ، لأنهم فعليا أخطر فى جسد الأمة من المحاربين الصرحاء ، وقد قال النبي عليه السلام (أخوف ما أخاف على أمتى منافق عليم اللسان) ، فمواجهة هذا النوع من المنافقين مواجهة صعبة جدا لأن الناس تظن به الخير ويكون هذا المنافق من أصحاب العلم والجدل وبالتالى يزين الباطل للناس ببراعة بحيث يشقي كثيرا العلماء فى محاولة توضيح منهجه وخطورته ، وأمثالهم فى أيامنا هذى كثير وهذا ما كان يفعله علماء السلف فقد كانوا ينتبهون للمنافقين بأكثر مما ينتبهون للكفار الواضحين ، ولهذا قيل فى الأثر (ما شتمك إلا من بلّغك) فالذى يُبلغك بالسب هو صادق بالفعل ويقول الحق ، لكنه بلغك إياه لتحقيق غرضه فى الوقيعة ، فقد يكون من شتمك هو صديق لك أو حتى عدو ولكن جاء السب فى لحظة انفعال أو نوبة غضب ، لا داعى لاعتبارها مبرر للعداء التام بل إن المنافق المغرض قد يقدم لك ما تظنه أنت خدمة كبري ، بينما هو فى الحقيقة يهدف لمنعك من شيئ اكبر ، مثال ذلك القصة الطريفة التى رواها أهل النوادر عن أحد الصالحين ذهب لصلاة الفجر ، فتعثر وسقط على الأرض الموحلة ، فعاد لبيته مجددا واغتسل وذهب للصلاة مرة أخرى ، فوقع مرة ثانية بسبب الظلام ، فعاد واغتسل وذهب فى المرة الثالثة ، وعند البقعة الموحلة وجد رجلا ينتظره وهو يحمل مشعل نور ، وقال له سأصحبك للمسجد حتى تصل بأمان ، فشكره الرجل وعند باب المسجد دعاه للدخول فرفض ، فسأله لماذا ، ومن أنت ؟!

قال له أنا الشيطان ، فاندهش الرجل وسأله .. ولماذا ساعدتنى فى الوصول للمسجد ؟

فقال له : لأنك فى كل مرة كنت تسقط فيها وتعود وتأتى للصلاة مرة أخرى كانت الملائكة تكتب لك الحسنات بأضعاف أضعافها فى كل مرة ، فخشيت أن تسقط مرة ثالثة وتعود ففضلت أن تأخذ ثواب الصلاة وحدها !!

ضحك الشاب معلقا : ياللخبيث ؟!

أكمل الكاتب :

ونعود للسؤال الأصلي ، ما الذى يحتاجه الفقيه إلى جوار علوم الفقه .. ؟

يحتاج إلى قدر كبير من الثقافة العامة ، فى مختلف المعارف ، ويحتاج إلى معرفة قضايا عصره وأحوال أمته وأسباب تفوقها أو ضعفها ، ويحتاج الخبرة بعوالم السياسة إقليمية ودولية وأساليب الحكم والحكومات فى سياسة الشعوب ، كما يحتاج الخبرة بالإتجاهات الفكرية كافة وأصولها ورجالها ومصادرها ، باختصار ينبغي للفقيه أن يحيط بثقافته أجواء عصره بحيث يكون مثقفا ومفكرا قبل أن يكون فقيها ، وإلا لن يستطيع مواجهة عصره أبدا ، وعلماء السلف كانوا كلهم كذلك، فالفقيه منهم كان عبارة عن موسوعة متنقلة فى شتى صنوف الفكر والآداب والفلسفة ولبعضهم مؤلفات ضخمة في نقد الفكر الفلسفي الإغريقي مثل ابن تيمية وابن الجوزى وأبي حامد الغزالى[٤٩]وغيرهم ، واستمر حال الفقهاء وعلماء الدين على هذا الوضع حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولهذا كان الفقهاء منذ بداية عصر الخلافة وحتى طرد الحملة الفرنسية من مصر هم ضمير أمتهم ، وهم قادة الرأى العام فى كافة قضاياه وهم المستشارون وأصحاب الثقل الإجتماعى الذين يحركون الجماهير ويقودونهم فى قضاياهم المختلفة بل إن بعضهم شارك بنفسه فى قتال العدو المحتل كما فعل ابن تيمية مثلا ، وبعضهم كان قائد الإحتجاجات والمظاهرات على ظلم الحكام مثل شيوخ الأزهر الشيخ الشرقاوى والشيخ الجوهرى والشيخ الخراشي لكن الأمر اختلف فى عصرنا الحالى ، وبالتحديد من نهايات القرن التاسع عشر ، حيث ابتعد الفقهاء عن مجالات الحياة واقتصروا فى معالجة الفتاوى الضيقة المتعلقة بأحكام الدين وحدها دون أحكام السياسة الشرعية والسياسة وقد عانينا أشد المعاناة من بعض العلماء الذين قضوا عمرهم فى صومعة كتب الفقه وحدها ، حتى وجدنا لهم أقوالا وأحكاما تثير البلبلة لغياب ثقافتهم السياسية ، ومعرفتهم بالتاريخ الحديث ، ورغم أن علماء الأزهر حتى عصر محمد على كانوا هم قادة الجماهير ، والممثلون للشعب ، وكانوا أشبه بالبرلمان الشرعى ، وهم الذين قادوا ثورة القاهرة الأولى والثانية فى بداية عصر القومية [٥٠]، وقبلهم فى العصور الأولى كان الفقهاء بالذات هم الذين يسعى الناس إليهم فى المُلمات أيا كان نوعها ، لأن الناس وجدت عند الفقهاء الحلول التى تتفق مع الشرع كبديل لخيارات الحرام فى قضايا النوازل ..

---

(٤٩) للإمام ابن تيمية كتاب شهير فى الفلسفة وهو كتاب ضخم من عدة مجلدات بعنوان (درء تعارض العقل والنقل) ، وللإمام ابن الجوزى كتاب شهير أيضا فى الرد على الفلاسفة والمبتدعة بعنوان (تلبيس إبليس) ، وللغزالى أيضا كتب كثيرة فى هذا المجال أشهرها تهافت الفلاسفة وهى مؤلفات كم ترون بعيدة تماما عن مجالات الفقه أو الحديث.

(٥٠) يرجى مراجعة الجزء الأول والثانى من تاريخ الرافعي بعنوان (تطور الحركة القومية فى مصر) ـ طبعة دار المعارف

إلا أن علماء الأزهر فى العصر الحديث تحاشوا السياسة تماما ـ نظرا لأنها مجال موبوء ـ ولكن كان عليهم اتخاذ حصيلة ثقافية منها تسمح لهم بمعرفة أحوال وطنهم والناس والعالم من حولنا ، وهو ما لم يحدث للأسف ، وعلماء الشريعة بمختلف تخصصاتها يجوز لهم الانغلاق على تخصصاتهم إذا أرادوا ، إلا علماء الفقه ، فطبيعة تخصصهم تقتضي الثقافة والمعايشة التامة مع المجتمع ، بل إن طبيعة عملهم لا تحتاج منهم فقط الحد الأدنى من السياسة والتاريخ الحديث بل تحتاج منهم حدا أعلى يماثل أو يعلو على ثقافة الحكام ، وذلك حتى يتمكنوا من إبداء الرأى الصحيح دون أن ينخدعوا بتبريرات السياسيين الذين قد يسعون لأهدافهم الشخصية، ولهذا ففقهاء عصرنا عندما داهمتهم قضايا أمتهم الكبري وجدنا لهم آراء وقياسات سياسية لا علاقة لها بالواقع، بل وتناقضات هزّت صورتهم أمام الرأى العام ، عندما استجابوا لطلبات الحكام وانخدعوا بما ساقوه إليهم من حجج فأفتوا برغبات الحكام لعدم خبرتهم بآثار القضايا محل النقاش ، ومعظمهم لم يكونوا منافقين للحكام فى ذلك بل كانوا بالفعل تحت تأثير حجة مصلحة البلاد التى دلس الحكام بها عليهم ولعل اكبر مصيبة عملية حدثت كمثال على هذا ، ما أفتى به بعض الفقهاء بالموافقة على أحداث قوضت القوة العربية وكانوا يحسبونها حلولا للمشكلات بينما هى مؤامرات غربية كاملة ، وأكتفي هنا بالإشارة فقط إليها دون تفاصيل منعا لتوريط الحوار فى الخلافات السياسية والعصبية المألوفة

قال الشاب: ولكن كيف كان الفقهاء سيعرفون عن المؤامرات شيئا وهى أمور لا تظهر فى حينها.

أجاب الكاتب:

أحسنت.. سؤال جميل وذكى فعلا ، فكيف نحكم على أصحاب الحدث بما عرفناه نحن بعد وقوع الحدث ، ولكن مع الأسف الشديد أقول إن المؤامرة التى أقصدها ، كانت معروفة بل ومعلنة أيضا ومنشورة على مستوى العالم قبل التنفيذ بأكثر من ١٢ عاما كاملة ، فالرئيس الأمريكى نيكسون الذى عاصر حرب أكتوبر وذاق مرارة منع النفط عن بلاده ، لم يكن ليسمح بتكرار تلك التجربة ويدع البترول سلاحا يستخدمه العرب ضدهم كلهم كلما أرادوا .. ولأن الأمريكيين والإسرائيليين لا يكتفون بالبكاء على اللبن المسكوب ، ولأنهم ـ كما أعلنوا مرارا ـ يثقون فى أن العرب لا يقرءون ، وإن قرءوا فلا يفهمون ، وحتى إن فهموا فلا يتصرفون وفقا لنتائج هذا الفهم ، لهذا كله كان الأمريكيون يكتبون

تصوراتهم السياسية فى مذكراتهم وخططهم للمستقبل ونصائحهم للحكام المقبلين ، وينشرونها دون خوف، ولهذا فبمجرد خروج نيكسون من الرياسة كتب مذكراته بعنوان (نصر بلا حرب)، أو (الفرصة السانحة) وشرح التصور العام لخطته المستقبلية للسيطرة الأمريكية على المنطقة وتأمين منابع النفط بقوة ثابتة على الأرض العربية تمنع تلقائيا أى تفكير مستقبلي لاستخدام النفط كسلاح استراتيجى وتم نشر مذكرات نيكسون مترجمة للعربية فى معظم بلادنا منذ عام ١٩٨٥ م ، ورغم هذا تم تنفيذ الخطة بحذافيرها، بل إنهم أعادوا استخدامها مرتين بعد ذلك لتتم السيطرة التامة على المنطقة تقريبا، والمضحك أن المؤامرة ما كان لها أن تتم لولا دور حكام المنطقة فى تأييدها بل واستدعاء الأمريكيين والإلحاح فى طلبهم ومعاونتهم بكل السبل ، ثم كانت الطامة الكبري عندما تكفلت أموال البترول العربي بدفع تكاليف هذه الحروب مع تكاليف بقاء القوات الأمريكية فى المنطقة دون أن يتكلف الغرب سنتا واحدا !

قال الشاب: لا بأس ، فالإدراك والفهم هو نصف العلاج ، وحتما ستخرج أجيال جديدة تفهم واقعها ويفهمها .. ولكن هل هناك أمثلة لفتاوى أخرى حتى نتعلم طريقة تحليل الفتوى بالواقع ؟

أجاب الكاتب مؤيدا :

نعم ، فمثلا ، هناك من علماء الفقه من لا يعرف حتى الحد الأدنى من الثقافة السياسية المعاصرة ، ولا من التاريخ السياسي ، ولا وضع الأمة الإسلامية فى ظل سيطرة القوى العظمى على العالم ، بينما لو أنهم طالعوا بعض هذه الثقافة لما استهجن الناس آراءهم ، فمثلا أحد كبار العلماء من أصحاب الفضل قال أنه سجد لله شكرا يوم حدوث نكسة ٦٧ ، وأنا من الممكن أن أتفهم هذه المقولة لو برر هذا العالم مقولته بأن وقوع النكسة هو الذى نبّهنا لأخطائنا الفادحة سياسيا وعسكريا ولهذا أسرعنا بتصحيح هذه الأخطاء وحققنا نتيجة مبهرة فى ست سنوات فحسب عندما قامت حرب أكتوبر ..

لكن الذى لا أفهمه أن عالمنا الجليل برر مقولته بأنه لو كانت مصر انتصرت فى حرب ٦٧ ، لانتصرنا ونحن فى ركاب الشيوعية التى يمثلها الإتحاد السوفياتى فى ذلك الوقت ، وبالتالى فسنكون قد انتصرنا بدعم الملاحدة السوفيات لكن الهزيمة نبهتنا إلى هذا الخطأ !!

وفى الواقع أن هذا المبرر يثير الدهشة والتعجب ، لأن العالم فى ذلك الوقت كانت

تتقاسمه القوتين العظميين الإتحاد السوفياتى والولايات المتحدة ، وهذا واقع فعلى ينبغي التعايش معه شئنا أم أبينا ، ولم تكن الدول الصغيرة تستطيع تصنيع السلاح الملائم للعصر لفقر الإمكانيات ، وبالتالى فلابد من استيراد السلاح من إحدى هاتين الدولتين فضلا على الإستفادة من الدعم الدبلوماسي فى مواجهة الطرف الآخر وأمريكا فى ذلك الوقت كانت المتعهد الرسمى لإسرائيل وتمدها بأحدث أنواع السلاح ومن المستحيل أن يتم فك الإرتباط بينهما ، فضلا على أنها رفضت مساندة مصر فى النهوض الإقتصادى وبناء السد العالى ، فى نفس الوقت الذى قام فيه الإتحاد السوفياتى بدعم القضايا العربية على طول الخط ـ فالسياسة مصالح متبادلة ـ فوقف مع مصر فى حرب ٥٦ ، وهدد بضرب العواصم الغربية لو لم تنسحب قوات العدوان الثلاثي[٥١] ، فضلا على أنه أمدنا بالدعم المادى والتقنى لبناء السد العالى ، إلى جانب أنه تولى تسليح الجيش المصري والسورى والعراقي والجزائري للوقوف أمام إسرائيل التى تحظى بدعم أمريكى غير مسبوق ، وعندما وقعت النكسة ..

بادر الإتحاد السوفياتى بتعويض مصر عن سلاحها المدمر وأعاد تسليح الجيش من جديد تسليحا كاملا ، ولكن تم التسليح هذه المرة بتقنيات بالغة الحداثة ، وقام خبراؤهم بتدريب ضباطنا حتى قامت حرب أكتوبر وانتصرنا ، وأثناء الحرب عندما هدد كيسنجر مصر بضربها مباشرة إذا قامت بتصفية قوات الثغرة ـ كما انتوى السادات ـ اشترط السادات انسحاب القوات الإسرائيلية ومغادرتها دون شروط حتى يوقف قرار الهجوم ، وكانت مصر تعتمد هنا على وجود الإتحاد السوفياتى الذى يستطيع ضمان حصول مصر على الشرط الذى اشترطته ، ولو لم تكن الولايات المتحدة تعمل حسابا لتدخل القوات السوفياتية ، لما اهتمت بإنذار مصر أصلا ولضربتها مباشرة وتدخلت بأسطولها لتعيد الحال كما كان عليه ، وهذا هو ما حدث بعد ذلك مع العراق وأفغانستان عندما انهار الإتحاد السوفياتى وانفردت أمريكا بقمة العالم فتدخلت بجيوشها فى كل منطقة أرادتها ، وبعد هذا الشرح المبسط للوضع السياسي فى تلك الآونة يتضح لنا كيف أن المقياس التى اتبعه الشيخ هو مقياس بالغ السذاجة وبالتالى فالنتيجة المبنية واضحة التناقض والخطأ

---

(٥١) يعرف هذا التهديد فى التاريخ باسم (إنذار بولجانين) نسبة لوزير الخارجية السزفياتى بولجانين بذلك الوقت ، وقد كان التهديد حقيقيا وجديا وعندما استفسر الكاتب الكبير هيكل من أحد كبار المسئولين السوفيات عن هذا التحذير وهل كان السوفيات ينوون ذلك فعلا قال المسئول بأن السوفيات كانوا جادين بالفعل ولكنهم لم يكونوا ينتوون ضرب باريس ولندن ولكنهم كانوا سيضربون مدنا أخرى أقل أهمية.

ففي ضوء ما سبق شرحه يحق لنا أن نسأل الشيخ إذا كانت الهزيمة قد أتت بسبب التعاون مع الاتحاد السوفياتى ، فما الذى تغير فى انتصار أكتوبر وقد حاربنا بسلاحهم واستمرت العلاقات بيننا حتى انتهاء الحرب ، والنظام الإشتراكى الذى ظنه الشيخ نسخة مطابقة من العقيدة الشيوعية كان لا يزال قائما فى مصر أثناء الحرب ولم ينقلب النظام إلا فى عام ٧٥ ؟!

بالإضافة إلى أن المقياس الذى طرحه الشيخ يوجب علينا أن نسأل ما هو الحل البديل الذى يمكن أن تنتهجه مصر فى ذلك الوقت ، هل كانت تذهب إلى ركاب الولايات المتحدة العدو الأول للإسلام فى العصر الحديث ؟! فضلا على أنها الدولة التى قادت كل المذابح ضد بلاد العرب والمسلمين ، والنصير الأول لإسرائيل عدونا المتربص ؟!

أم كان الحل أن تقوم مصر بقطع علاقتها بالسوفيات والأمريكان معا وهى فى ذلك الوقت لا تملك إمكانيات تصنيع السلاح التى كانت حكرا على الدول الكبري ، وعلى فرض جدل أننا استطعنا تحقيق هذه المعجزة ، هل كانت إسرائيل ستنتظر مصر حتى يمكنها تصنيع سلاحها والذى نفترض أنه سيصلح لمجابهة السلاح الأمريكى المتقدم عند إسرائيل ، الأهم من هذا وذاك أننا لو عادينا القوتين العظميين فى نفس الوقت فسنكون كمن يشجعهم للتحالف علينا وإعادة احتلال مصر مرة ثانية وهى حديثة عهد بالإستقلال !

وليس فى رأى الشيخ بالطبع أى مستند سياسي أو حتى من الشريعة لهذا القول ، لأن النبي عليه السلام فى زمن استضعافه لم يشمر عن ساعد الحرب مباشرة ، بل تأجل ذلك حتى اكتملت الاستعدادات وتم بناء الدولة ، وكان فى الفترة الأولى فى مكة يلجأ للتحالف مع بعض مشركى قريش ممن لا يكنون العداء المستحكم للمسلمين ، وقد لجأ إلى النجاشي ملك الحبشة عندما علم بتسامحه معهم ، فلما استوى الإسلام مستقرا فى المدينة نسخ هذه الرخصة ومنعها وحرم التعاون أو قبول العون من غير المسلمين ما دامت لديهم الدولة القادرة ، فالقاعدة أنك عندما تكون مضطرا لحقائق الواقع فإنك تلجأ إلى الحل الذى يكفيك المئونة بأقل الخسائر ، وهذا ما فعلناه ، فالعرب هم من حاربوا بأيديهم بمعاونة حلفائهم والمعادين لعدوهم ، فالشيخ هنا لغياب الرؤية السياسية الواقعية خلط ما بين الحكم الفقهى المثالى ، وبين النظرة الموضوعية المبنية على الواقع ، هذا فضلا على عدم إدراكه لطبيعة العلاقات بين الدول والتى لا تقوم إلا على أساس المصلحة المطلقة

وليس على معانى التحالف الفكرى أو الحب المتبادل وعبد الناصر عندما تحالف مع السوفيات لم يفعل ذلك لغرامه بالشيوعية ، بل على العكس لقد بدأ اتصالاته بالجانب الأمريكى لتمويل مصر بالسلاح اللازم بعد غارة إسرائيل على غزة والتى استغلت فيها إسرائيل أن الجيش المصري كان بلا أنياب ونظام الحكم بعد رحيل الإنجليز لا زال نظاما فى المهد ، ورفضت الولايات المتحدة والدول الغربية تزويد مصر بما تحتاج فى نفس الوقت الذى فتح فيه الإتحاد السوفياتى الخيار البديل ، وحافظ عبد الناصر على استقلاله فى هذه العلاقة ، فرفض نهائيا مبدأ وجود قواعد عسكرية سوفيتية فى أرض مصر، رغم أن الإتحاد السوفياتى وأمريكا يستخدمون أراضي حلفائهم بعشرات القواعد العسكرية ، ثم رفض عبد الناصر أن يتلقي العسكريون المصريون المتدربون فى الإتحاد السوفياتى أية مناهج فكرية شيوعية ، بل إن الحركة الشيوعية المصرية التى انتشرت فى ذلك الوقت بمصر كانت تتلقي الضربات والتضييق الأمنى العنيف والإعتقالات المتكررة من نظام عبد الناصر الذى أنشأ وحدة فى جهاز مباحث الأمن العام مختصة بمطاردة النشاط الشيوعى برياسة العقيد حسن المصيلحى ، رغم أنه كان حليفا للدولة الشيوعية الأم ، وقد تقبّل الإتحاد السوفياتى هذا التحالف المشروط من مصر والهند ويوغسلافيا والدول الإفريقية التى شكل منها عبد الناصر قوى عدم الإنحياز التى كانت تتصدى لمخططات الغرب ،ولكن كل هذه الإنجازات ضاعت عندما أعلن السادات تغيير بوصلة التوجه المصري إلى التحالف الأمريكى الحذر مستغلا ضغط نتائج حرب أكتوبر والذى قلبه مبارك ليصبح تحالفا شاملا لغرامه بالأمريكيين ! ، ورغم هذا فلم يعترض الشيخ على هذا التوجه الجديد بل ناصر نظام السادات وقَبِل أن يكون وزيرا فى حكومته ، فإن كان يؤمن بمبررات الأمر الواقع فى تلك السياسة فلماذا لم يعالج الأمر بنفس الطريقة مع السوفيات ..؟!

وما الذى يتميز به الأمريكيون عن السوفيات فى وجهة نظره من ناحية الدين ، فالسوفيات ملاحدة بلا شك ، ولكن هل الأمريكان من بقية الصحابة والتابعين مثلا !

هذا بالإضافة إلى أن المقياس الدينى نفسه الذى اتبعه الشيخ يُلزمه كفقيه بتشجيع التحالف مع السوفيات ولو كانوا من عبدة البقر، لأن الخلاف العقائدى معهم ليس مقترنا بعداوة حربية ضد العرب من ناحية الدين والسياسة فهم لم يعتدوا علينا فى شيئ بل هم حلفاء بمعنى الكلمة ، بينما ملاحدة الأمريكيين والغرب لم يكتفوا بأنهم أصل الكفر

والبطش والدموية فى العالم كله، بل زادوا على ذلك تاريخ وحاضر عريض فى الكيد للإسلام فكريا ، والفتك بالمسلمين حربيا واحتلوا أراضينا احتلالا عسكريا واقتصاديا وزرعوا وكيلهم الإسرائيلي فى المنطقة فضلا على دعم كافة أنواع التطرف التى ترد المسلمين عن دينهم وتمسخ صورة الإسلام فى العالم وبالتالى فلا مجال للمقارنة أساسا بين موقف السوفيات وموقف الأمريكيين من العرب والمسلمين لكن كما سبق أن قلت لك ، غياب الثقافة السياسية يجعل الفقيه فى جزيرة منعزلة عن واقع مجتمعه وظروفه ، ومسألة تغيير التحالفات أو مبدأ التحالف ذاته حتى مع بعض الأعداء هى من السياسة الشرعية الأصيلة فلم يكن النبي عليه السلام يجمع عليه عدوين فى وقت واحد أبدا ، بل كان يحارب عدوا ويحالف الآخر إلى أن تتغير البوصلة وهكذا .. فقد تحالف مع اليهود بعهد أمان فى المدينة حتى يتفرغ لقريش ، ثم تفرغ لليهود عند مهادنة قريش ، وهذه هى طبيعة فقه الواقع التى تتغير بتغير المستجدات لكن مع الحفاظ على ثوابت العقيدة والأصول ..

ومثال آخر بالغ الخطورة يوضح كيف يمكن أن يقع العالم فى كارثة لو أهمل إدراك ثقافة الواقع أو اكتفي ببعض النصوص معزولا عن بقيتها ، فهذا لا يؤدى به فقط للخروج على مفاهيم عصره ، بل يؤدى به للخروج حتى على ثقافة السلف ومقصود مصطلحاتهم ويمهد الأرض ـ سواء أراد أو لم يرد ـ لكى يأتى كل أعداء الدين ويستغلون الفرصة كعادتهم للترويج للعلمانية ..

فأحد العلماء المنتسبين للتيارات السلفية أفتى فى أحد كتبه بأن الشهادة فى سبيل الله ، لا تتضمن الشهيد فى سبيل الوطن !! ،

واستند فى ذلك إلى نص حديث النبي عليه السلام فى أنه من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله ، ففهم منها أن الشهادة تكون فقط فى جهاد الدفاع عن العقيدة أو تيسير نشرها بين الناس وهذا فهم غريب وعجيب وشديد القصور عن بديهيات العقل فضلا عن صريح النصوص ونقول نعم الشهادة فى سبيل الله ونشر دينه هى أعلى الدرجات فى مراتب الشهادة ، لأن الشهادة ليست على مرتبة واحدة ، فبنص الحديث هناك الشهادة فى سبيل الدفاع عن حق النفس والعرض والمال ، فالمسلم إذا قُـتل دون عرضه ونفسه وحتى ماله فهو شهيد رغم أنه لا يدافع عن العقيدة هنا ولا يسعى لنشر الإسلام ، ومن أراد قتله قصد إلى ماله أو أهله ولم يقصد دينه بل ربما كان

قاتله أصلا من المسلمين ، ومع ذلك فالقتيل شهيد ، فما بالك بمن يُقتل من المسلمين وهو لا يدافع عن شيئ يخصه مباشرة كالنفس والعرض والمال ، بل يدافع عن مجمل وطنه وأرض بلاده وعوام الناس من خلفه ، كيف لا يعتبره الشرع شهيدا وهو خارج فى سبيل الدفاع عن سائر المسلمين فى وطنه ـ أى بلا أى غرض شخصي مباشر ـ وبالتالى فهو خروج لله وفى سبيله ؟!

وهذه الدرجات كلها هى فروع للجهاد فى سبيل الله ، وكلها تعتبر قتالا فى سبيل الله ، لأن أصل الشهادة هى الموت فى سبيل تحقيق مقصود الشرع الإلهى ، وتحقيق مصالح عباده ، حتى لو كان هذا الموت نتيجة لكلمة حق يقولها المسلم بغض النظر عن القضية التى قيلت فيها ..

فقد نص حديث النبي عليه الصلاة والسلام على أن (سيد الشهداء حمزة ، ورجلٌ قام إلى حاكم ظالم فأمره ونهاه فقتله)

أى أن هذا الحديث الشريف جعل كلمة الحق فى وجه سلطان جائر تجعل صاحبها سيدا للشهداء يوم القيامة ، وهذه الكلمة قد يقولها المسلم فى وجه حاكم مسلم أيضا لكنه ظالم ، وقد يقولها المسلم لمناصرة حق مظلوم سلبه هذا السلطان ببطشه ، أى أنها كلمة حق فى قضية دنيوية بحتة ، ولكن لأن قائلها قد جهر بها دفاعا عن مظلوم ، وفى وجه ظالم دون خشية الموت ، فقد جعله الله سيدا للشهداء وفى مرتبة حمزة رضي الله عنه ، وإن كانوا جميعا شهداء عند الله ومن أصحاب الفضل ..

فالشهادة فى سبيل الله هى كل شهادة ينالها المسلم وهو يدافع فى سبيل الحق الذى ارتضاه الله لعباده ، بغض النظر عن طبيعة هذا الحق هل هو الدفاع عن نشر الدين ، أو الدفاع لحفظ النفس أو الدفاع لحفظ أى مقصد من مقاصد الشريعة ..

الأمر الأهم أننا لو حصرنا مفهوم الشهادة فى سبيل نشر الدين أو الدفاع عنه فقط ، لما كان للدفاع عن أرض الوطن وأراضي المسلمين أى اعتبار !!، فما الذى يجعلنى كمسلم أورط نفسي فى قتال قد أموت فيه دون أن يحفزنى جزاء الآخرة على ذلك ، وهذا ما لم يقل به أحد من علماء السلف ، بل صنفوا الأبواب فى أن الجهاد يصبح فرضا عينيا ـ وليس كفائيا ـ إذا ديس شبر من أراضي المسلمين .. أى أنهم جعلوا الدفاع عن الأرض والوطن هنا من أعلى مراتب الجهاد حال احتلال العدو لأرض المسلمين ، لأنهم جعلوا التكليف هنا لكل مسلم ولا يسقط عن بعض المسلمين بقيام البعض الآخر به ، بل يلزم

للكل أن يجاهد بشتى أنواع الجهاد لا القتال وحده ، وهذا يوضح لك قيمة أرض المسلمين فى الدين لأنها الأساس الذى يجعل للمسلمين شوكة ودولة وقوة وهذا معناه أن الحرب هنا قد تكون حربا لا علاقة لها بالعقيدة أصلا ، كأن يهاجم العدو بلاد المسلمين بغرض احتلال الأرض واستهداف ثرواتها لا بهدف فتنة المسلمين عن دينهم بل إن لازم هذا القول الفاسد يُفضي إلى ما هو أكثر خطورة ، فليس فقط يثبط المسلمين فى الدفاع عن أراضيهم وأوطانهم ، إذا لم يقصد عدوهم إلا احتلال الأرض وخيراتها وثرواتها ، بل إنه ينشر لافتراء القوى على الضعيف ، فلو كان المدافعون عن أوطانهم ليسوا خارجين فى سبيل الله ، لكان معنى هذا أن من يقع قتيلا فى مواجهة اعتداء على وطنه من مسلمين بغاة ليس شهيدا لأنه ليس قتيلا فى معركة حق !

وهذا ينافي حتى القرآن، فالله عز وجل يقول (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي ...) أى أن هناك من المؤمنين من قد يتورطوا فى قتال بعضهم البعض بسبب البغي، وساعتها علينا الإصلاح بينهما فإن أبي البغاة أن يرجعوا فالله أمرنا بقتالهم ، إذا هى معركة فى سبيل الله وفى الحق ، وقتيلها شهيد فهذا الفهم المغلوط لحصر الشهادة فقط فى معارك العقيدة ، استدلال خاطئ نظرا لأن هذا القائل نظر إلى المعنى الحرفي لعبارة (فى سبيل الله) وحصرها فقط فى معانى القتال لنشر عقيدة الإسلام أو الدفاع عن عقيدة الإسلام إذا حاربنا عليها العدو، وكأن القتال فى سبيل حفظ نفوس المسلمين وما يخصهم ليس داخلا فى مفهوم سبيل الله ، رغم أن حرمة دم المسلم أكبر وأعظم من حرمة الكعبة المشرفة وفق نص الحديث الشريف فكل مقاتل مسلم فى سبيل معركة حق إذا سقط .. سقط شهيدا وفقا للمفهوم العام لدرجة الشهادة ،

قال الشاب: ما معنى المفهوم العام للشهادة ؟!

قال الكاتب :

المقصود أن العقيدة الإسلامية تمنع المسلمين من وصف المعيّن ـ أى شخص محدد بعينه ـ لا بالشهادة ولا حتى بالكفر ، إلا بشروط معينة ، ففي الكفر ـ إن لم يكن كفرا بواحا ـ فلا يمكن الحكم به على شخص معين إلا بعد تحقق شروط وانتفاء موانع ، والحاكم هنا ينبغي أن يكون من أهل العلم أو القضاء حتى يقرر ذلك فليس هذا الحكم لأحد لأن التكفير هو حق الله لا حق العباد ، ولكنك كمسلم تستطيع فقط أن تحاكم الأفعال ـ لا

الأشخاص ـ بأنها أفعال كفرية ، وذلك وفقا لأوصاف الكفر المحددة فى الشرع ، ولا يجوز الشهادة بالكفر لمُعينّ أو بأنه فى النار إلا لمن جاء النص عليه فى القرآن والسنة كذلك مرتبة الشهادة أو الإيمان أو دخول الجنة فلا يجوز الحكم بهم لمعين إلا لمن جاء نص صريح عليه فى ذلك كالصحابة مثلا ، ولكن يمكننا فقط أن نطلق لفظ الشهادة على عموم من يقاتل ويقتل فى سبيل الله ولا نشهد لأحد منهم خاصة بالشهادة ـ إلا على سبيل الدعاء فنقول نحسبه شهيدا والله حسيبه ـ لأننا لا نعرف حقيقة نيته التى يعلمها الله عز وجل وحده ، فهناك من قاتل مع النبي عليه السلام ومات وأبلغ النبي عليه السلام بأنه فى النار، فتعجب الصحابة ثم عرفوا بعد ذلك أن هذا المقاتل أوجعته إصاباته وجروحه فلم يحتملها فقتل نفسه.

قال الشاب: ولكن ما سبب ظهور القول بأن الدفاع عن الأوطان ليس فيه شهادة، بل ما هو سبب أمثال تلك الفتاوى أصلا؟!

قال الكاتب:

هناك أسباب كثيرة ومن أهمها..

أولا: ان هذه الأقوال جاءت مما يسمى بالحركات الإسلامية أو الإسلام السياسي، وكافة هذه الحركات بلا استثناء ـ علم أصحابها أم جهلوا ـ كانوا مخترقين من أجهزة الإستعمار التى مارست عليهم اللعبة السابق شرحها فى الفصل الأول ، وبالتالى جاءت فتاوى الفصل بين الدين والأوطان فى مصلحة مموليهم وفى مصلحة منابع الفساد فى الإحتلال الإنجليزى وغيره[٥٢] وتم ابتكار هذا الفصل عن طريق التركيز أن القتال فى سبيل الله معناه القتال فى سبيل نشر الدعوة فقط !

ثانيا: مشكلة تاريخية عميقة الجذور كانت هى السبب الرئيسي فى ظهور التفرق وشذوذ الفتاوى، ألا وهى المشكلة التاريخية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ففي العصور الإسلامية الأولى عندما نشأت المذاهب الفقهية ، لم يكن هناك إشكاليات فى التخصص نظرا لأن العقليات والقدرات كانت كبيرة والنوازل قليلة وشبه معدومة لا تحتاج الدقة فى التخصص، وهذه طبيعة العصور الأولى فى أى علم حيث تكون درجة استيعابهم لكافة التخصصات أمرا عاديا، وبالتالى كان علماء الشريعة يحيطون علما بمختلف أنواع العلوم من الفقه والحديث والتفسير واللغة، وما ساعدهم على ذاك قرب عهدهم بالعهد النبوى

(٥٢) حول هذه العلاقة يرجى مراجعة (التاريخ السري لعلاقة بريطانيا مع الأصوليين) ـ مارك كورتيز ـ مصدر سابق.

فهم شبه تلقوا العلم عن مصدره الأصلي، وعندما تكونت المذاهب كان فقهاء المذاهب الفقهية جميعا محدّثُون - أى علماء حديث - وفى نفس الوقت علماء فقه وفتاوى - فيما عدا أبو حنيفة إمام مدرسة الرأى اهتم بالفقه والعقيدة فقط - ولهذا فمالك والشافعى وأحمد والجيل السابق عليهم كانوا يروون الأحاديث ويصنفون فيها ويكتبون الفقه ويتدارسونه..

وعندما امتد الزمان وجاءت عصور الضعف والتفرق ، وكعادة أى مجال علمى، تفرعت علوم الشريعة إلى الفروع الرئيسية العقيدة والفقه والحديث والتفسير واللغة والتاريخ ، ثم تفرعت الفروع الرئيسية إلى فروع أصغر وأدق تخصصا وهكذا دواليك ..

ونظرا لاتساع مدارك علوم الفقه فقد تخصص فيها علماء بعينهم ، ونظرا لأن علم الحديث صارت له قرابة الفروع الستة ، فقد تخصص فيه أيضا علماء آخرون ، ثم قامت القيامة بين الفريقين لأن كل منهما أحب أن يتدخل فى مجال الآخر ، فبدأ الفقهاء يفتون الناس استنادا إلى الأحاديث التى يحكمون هم فيها بالصحة والضعف متجاهلين أن هذا المجال له متخصصون هم أقدر عليه وهم من قاموا بجهد ضبط الأحاديث وحكموا عليها وبينوا أحوال رواتها ووضعوا القواعد لذلك العلم الجليل، ورد علماء الحديث بأنهم تدخلوا فى الشأن الفقهى دون أن يراعوا أن مجال الفقه يلزم له الإحاطة التامة بأصول الفقه ، والنظريات الفقهية العامة ، وترتيب الأدلة ، وكلها علوم تقتضي التخصص لأن مهمة الإفتاء تقوم على تحقيق مصالح الشريعة وليس على مجرد العلم بالنصوص دون معرفة كيفية تنزليها على الواقع ، ودون مراعاة اختلاف الأحكام باختلاف الأحوال ..

وهكذا كان العلماء المتأخرون فى عصر الجمود والتعصب مختلفين تماما عن العصور الأولى التى شهدت التكامل بين العلماء لفائدة الأمة، واستمر هذا الصراع حتى ورثته الأجيال المعاصرة لكن برؤية مختلفة،

سأل الشاب : هل تعنى أن الصراع بين أهل الفقه وأهل الحديث توقف فى عصرنا ؟!

أكمل الكاتب: كلا ، بل تجدد ، ولكنه بدوافع سياسية ودوافع عقائدية أو فقهية ، ولم يكن منهجا كاملا للتضاد ، بل هو للأسف تعصب سياسي أو دوافع شخصية فى الحب والكره ، من بعض المنتسبين للجانبين وكانت البداية عندما قامت المدرسة السلفية - التى ورثت أهل الحديث - وعند ظهورها كانت هناك مؤسسة الأزهر العريقة وتكاملت المدرستان وعندما انتشرت البدع والخرافات والفلسفيات على يد الصوفية وفرق الشيعة والعصرانيين وغيرهم ، ظهرت المدرسة السلفية الحديثة التى رفضت كل هذه البدع ،

وعملت على تنقية ثقافة الناس فى العقيدة والتاريخ والحديث ، وهو انجاز كبير تحقق على يد الرعيل الأول منهم فى الجزيرة العربية ، وفى نفس الوقت كان الأزهر فى النصف الأول من القرن العشرين قائم على العقيدة السلفية أيضا ، وهذا لا ينفي وجود المنهج الأشعري ، وهكذا تكاملت المدرستان بالفعل ورحل كثير من علماء الأزهر للعمل فى تدريس علوم الشريعة فى الجزيرة ، وكان الشيخ الأزهرى محمد الأمين الشنقيطى من مؤسسي وشيوخ كبار علماء السلفية فيما بعد والشيخ محمد شاكر وأحمد شاكر وغيرهم كثير ولم يكن هناك خلاف بين المدرستين يمكن ملاحظته ، إلا وجود المنهج الأشعرى ضمن مناهج الأزهر الذى كان يُدّرس مناهج كافة علماء أهل السنة ، بينما فضلت المدرسة السلفية عقيدة أهل الحديث وركزت على فقه الإمام احمد بن حنبل نظرا لأن الجزيرة العربية عانت كثيرا جدا قبل السلفيين من داء التعصب للمذاهب الأربعة ، ومن خرافات الصوفية وانتشار بدعهم فى ذلك الوقت وظلت الأمور كذلك حتى ظهرت الأجيال الجديدة من المنتسبين للمدرسة السلفية فى مصر فى السبعينات ، ولم يكن هؤلاء على درجة رسوخ شيوخهم ، ومع بداية التسعينات ظهرت فتاوى السلفيين ولم تقتصر على المجال الذي تخصصوا فيه ، فذهبوا إلى إفتاء الناس ونشر المظاهر المعينة على أتباعهم ، دون الاهتمام بالدراسة الجادة لأصول الفقه ، وكان معظمهم من الشباب المتحمسين الذين لم يدرسوا تخصصات الشريعة من قبل وهذا بالطبع يخالف ما كان عليه الرعيل الأول من المدرسة السلفية بالحجاز وفى غير أرض الحجاز ، وهكذا ابتكر السلفيون فى مصر طريقة التلقين السريع للمتون على عوام أتباعهم وبعدها كانوا يصعدون إلى المنبر مباشرة ، وطاح سلفيو مصر يمينا وشمالا وجعلوا من الدعوة معركة هجوم لا تألف لقلوب الناس ، وكل هذا بسبب قلة الفقه، ويكفيك لتدرك المصيبة التى تسببوا فيها وسبب غريب فتاواهم أن أحد أشهر رموزهم صاحب أعلى نسبة تكفير للمسلمين ، يروى دائما فى سيرته الذاتية أنه بدأ التزامه عام ٦٩ ، وصعد المنبر عام ٧٠ !!

وهذه مصيبة كبري لكل من يدرك منهج الدراسة لعلوم الشريعة حتى ولو كانت الدراسة لفرع واحد فقط، حيث يقضي الدارس فى الأزهر قرابة ربع قرن قبل أن يتصدى للخطابة أو الإفتاء ، وحتى فى المنهج السلفي الأصلي فى الجزيرة لا تقل سنوات الدراسة عن ذلك سواء فى حلقات الدروس أو فى الجامعات ، فكيف يقضي هذا الداعية عاما واحدا ثم يصعد المنبر ويطلق لسانه بما شاء !

وبالطبع كانت النتيجة ما رأيناه من أقواله وأفعاله بعد ذلك ..

فليت أنه اكتفي فقط بإفتاء الناس فى مختلف الأمور كبيرها وصغيرها وحتى النوازل بل ذهب إلى أطم من هذا فقام بتكفير كل من ليس على منهجه ، فأفتى بكفر كل من قال أنه علمانى أو ليبرالى أو حداثي ، ثم زادت الطامة عندما أفتى بجواز قتل معارضي حكم الإخوان الخارجين فى المظاهرات !! ، ثم قام بتكفير كل من خرج فى مظاهرات ثورة يونيو التى أطاحت بالإخوان ،وكل من يؤيدها أو يؤيد الحكومة المصرية ، ورئيسها !

ويكفي لتعرف المدى الذى وصل إليه أن تدرك أن الحكم بتكفير المعين المسلم الواحد ، له ضوابط فى الشريعة الإسلامية يجب ان تتوافر مجتمعة كلها فى نفس الشخص ، فالقول نحكم عليه بالكفر إن كان كذلك ، أما الشخص فلا وحتى لو توافرت فيه شروط التكفير جميعا ، فالذى يحكم بكفره وردته هو ـ كما نص العلماء ومنهم الشوكانى ـ العالم الراسخ فى العلم ، أى أنه لا يكفي للفقيه العادى الحكم بذلك ، بل لابد من الرسوخ العلمى وليس هذا فقط بل يلزم مناقشة القائل أو الفاعل للعمل الكفري والتيقن من أنه ليس متأولا ـ أى لا يظن انه قد ارتكب كفرا ـ أو مكروها ، حتى لو كان ما ارتكبه هو كفر بواح أى واضح كالشمس والعلماء يقولون لو أن المسلم تلفظ بقول يمكن تفسيره من مائة وجه على أنه كفر محض ، وبقي فقط وجه واحد يحتمل الإيمان ، وجب حمله على الإيمان حتى يتضح العكس ، ولاحظ أننى أتكلم عن ضوابط تكفير المسلم العادى !

سأل الشاب: ماذا تعنى ؟!

قال الكاتب:

أى لا يوجد شيئ فى الشريعة اسمه التكفير الجماعى ـ كما فعل هذا السفيه فكفّر الملايين ـ بل لابد من تطبيق الضوابط والشروط ، بالإضافة إلى أن تكفير الحكام له ضوابط خاصة تضاف إلى كل ما سبق ، وهى ما نص عليه الفقهاء من أن الحكم فى تلك المسألة يكون لخواص أهل العلم ، وليس حتى عالما واحدا من الكبار ، نظرا لأن ما يترتب على هذا الحكم أكبر كثيرا من مسالة كفر شخص واحد ، ونفس هذه الضوابط تقريبا يحكم بها العلماء فى مسائل الدماء ، لأنها من عواظم الأمور فى الشريعة ويتم تفاديها بكل وسيلة ممكنة ، فقارن كل هذا بما فعله هذا الرجل الذى لا علاقة له بالفقه من الأصل ، ومن أعجب عجائبه أنه يفتخر مرات وكرات بالدكتوراة التى حصل عليها ، وهذه الدكتوراة ـ لو كانت فى أصول الفقه ـ ما أجازت له ما يفتى به ، فما بالك وهى فى

دراسات السياسات الشرعية ، وتاريخ السيرة النبوية !!

ولم تقتصر المهزلة على هذا ، بل النكتة الحقيقية أنه حصل عليها من أمريكا ! ، أى من جامعات الغرب ، أى من منابع المستشرقين ؟!

قال الشاب : أليست جامعات الغرب بها دراسات عن الإسلام والعربية ؟!

أجاب الكاتب :

نعم طبعا بها أكبر الجامعات والمعاهد المتخصصة فى ذلك ، لكن هل يدرسون الشريعة الإسلامية من منطلق أنها رسالة سماوية ؟!!

وهل علماؤهم يمكن أن نعتبرهم علماء فقه لنا ، فضلا على أن يُجيزوا لنا الفقهاء ويعلموهم ؟! ،

بمعنى هل يجوز لمتخرج من إحدى جامعات الغرب الإستشراقي أن يتقدم للإفتاء فى أمور المسلمين ؟!

هذه نكتة والله !

لأن الدراسة هناك كما قلت لك دراسة فلسفية محضة تقوم على فكر الإستشراق خارج نطاق الإيمان بهذه الأفكار تماما ، وبالتالى الدارس فى تلك الجامعات لا يمكن اعتباره دارسا لعلوم الشريعة يجوز له الفتوى كما هو الحال مع جامعات العلوم الدينية ف العالم الإسلامى.

قال الشاب: ولكن هذا تناقض غريب ومريب بين أقوالهم وأفعالهم ، وقد سمعت كثيرا من فتاواهم العنيفة ضد الغرب وتكفيرهم للناس على أى تعاملات معهم.

أجاب الكاتب:

التناقض كاد أن يكون دينا للسلفية السياسية فى مصر وللإخوان ، وهذا الذى يكفر كل الناس وأفتى بكفر العلمانيين بعموم وكافة معارضيه وأفتى بكفر الديمقراطية وآلياتها هو من ناصر الإخوان ومرسي وقد جاءوا بانتخابات ديمقراطية نزيهة كما يرددون دوما ، وعاش فى قطر وقطر لا تطبق الشريعة وعلى أرضها اكبر القواعد الأمريكية ومع ذلك قال عنها أنها بلده الأول ، ثم ذهب الى تركيا منافحا لها محرضا ضد مصر وتركيا علمانية صرفة بنص الدستور ، وبإعلان صريح من اردوغان وصور أتاتورك الذى اسقط الخلافة تملأ كل ركن هناك حتى الفندق الذى يقيم به هذا المكفراتى ، والجيش التركى له تعاون استراتيجى كامل مع الجيش الإسرائيلي وبينهما مناورات مشتركة ، فضلا على الطامة الأعظم ..

أن تركيا عضو ف حلف الناتو ، وهذه وحدها تكفي لإخراجها من معادلة القوة الإسلامية على طول الخط ، فعضوية الناتو تعنى ببساطة أنها لا تملك لنفسها رأيا فى الحرب والسلم يتعارض مع أهداف الحلف الغربي بزعامة الولايات المتحدة.

فأين هذا الشخص من تكفير نظام أردوغان وهو أكبر المسئولين الأتراك تعاونا مع الولايات المتحدة ومرسي وجماعته تاجروا بمقولة (الإسلام هو الحل) فلما وصلوا للحكم قال مرسي أن الشريعة مطبقة فعليا فى مصر وزاد قائلا أن الحدود أحكام فقهية (أى أنها فقه يجوز تغييره) ثم قال نفس ما قاله العلمانيون إن عقيدة المسلمين والنصاري فى مصر ليس بينها خلاف عقائدى بل خلاف آليات ووسائل ! ، وغازل إسرائيل فى خطابه الشهير لبيريز ، ومع هذا يتعاملون معه كأنه عمر بن عبد العزيز ويكفروننا نحن !

ومعظم متبعى التيارات الإسلامية بل وبعض قياداتها ، حاصل على جنسيات تلك الدول وتعلم فيها ، بل وذهبوا إليها طلبا للدعم السياسي بل أكبر رءوس الخوارج من الجماعات الإرهابية يقيم فى لندن منذ الثمانينات وحاصل على الإقامة فيها وعلى حق اللجوء السياسي ويصدر إرهابه لبلادنا من هناك ! ، فصدق فيهم وصف العلماء للخوارج قديما (يتركون أهل الأوثان ويقتلون أهل الإيمان) أما الإخوان ، فحدث ولا حرج ، الأطفال فى مصر يعرفون عمق علاقتهم بالولايات المتحدة التى صدعوا رءوسنا ستين عاما بعدوانها !! ، ويقفون صفا واحد معها حتى فى عدائها لمصر بعد عزل الإخوان ويحج سفراؤهم للبيت الأبيض ويدلون بتصريحات يندى لها الجبين ويحرضون من بلاد التحالف الغربي ضد مصر ويفتون الشباب بقتل خصومهم والتصدى للجيش والشرطة ويكتفون هم بالبقاء مع باقي القيادات حيث نعيم التحالفات وهذا مألوف ومعتاد من قادة الإخوان عبر تاريخهم وهو التخلى عن سائر أنصارهم إذا قامت أى معركة بينهم وبين الدولة وقديما قال حسن البنا عن الإخوان الذين قتلوا خصومه بأوامره أنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين !!!

أما سلفيو السياسة والفضائيات فى مصر فدخولهم للسياسة بعد الثورة جعلنا نشهد منهم الأعاجيب فالكارثة جاءت من أن الغالبية ـ وليس الجميع ـ من متبعي السلفية فى مصر ظنوا الالتزام وقراءة بعض المتون يكفي لجعلهم علماء ، كما أن التحزب فيما بينهم دفعهم لمناصرة بعضهم البعض بالحق وبالباطل ، وللأسف الشديد سار على دربهم بعض شباب أجيالنا على الانترنت ممن يستهويهم العلم ولكنهم لا يقوون على الصبر عليه ،

فظنوا أن قدرتهم على الرد على الشبهات وقراءتهم فى العقيدة وعلم الحديث تجعلهم أيضا قادرين على الفتوى والحكم على العلماء !

مع أنهم لو اكتفوا بمرتبة ـ الباحث وطالب العلم ـ وهى المرتبة التى نحتاجها منهم للرد على الشبهات لقاموا بواجبهم خير قيام دون إثارة المشكلات فى التعصب للآراء

ومنذ عدة سنوات شاهدت على الانترنت إعلانا فى احد المنتديات السلفية عن دورة علمية فى الفقه مدتها أسبوع واحد ، ويقول الإعلان (نحن نؤهلك لتصبح فقيها فى أسبوع) !!

فقارن هذا الكلام بما قاله بعض علماء الأزهر القدامى ممن تعلموا بطريقة (شيخ العمود) ، حيث شرحوا تجربتهم فى أنهم كانوا يدرسون كتاب (المغنى فى الفقه) لابن قدامه الحنبلي وهو أشهر متون فقه المذهب ، فى مدة أربعين عاما كاملة ، والسبب أنهم لم يفتحوا المغنى إلا بعد أن استكملوا حفظ القرآن وأحاديث الأحكام ومتون اللغة والنحو والصرف ومتون أصول الفقه ثم يبادرون لفقه المذاهب كى يتأهلوا للفتوى بعد أربعين عاما بشهادة العالمية !!

وبعدها تعرض السلفيون فى مصر لبعض علماء الأزهر بالغمز واللمز وخلطوا بين شيوخ المؤسسة الرسمية الذين حكمتهم السياسة ، وبين سائر علماء الأزهر من المستقلين فقام العلماء بالتحذير منهم ومواجهتهم بعنف القول ، فزاد السلفيون من حرارة الخصومة واستنصروا ببعض دعاة السلفية خارج مصر ، ليستدعوا من بطون التاريخ الخلاف الشهير بين أهل الحديث والأشاعرة ، وتورط للأسف بعض كبار الدعاة من الجانبين فى المعركة التى افتعلها الصغار ، وكان التعميم والافتراء هو ميزة الصراع فالسلفيون بدّعوا الأشاعرة ، والأشاعرة اتهموهم بانغلاق الفكر وتكفير الناس ، وبالطبع ككل معركة تكون الافتراءات هى سيدة الموقف، وبمطالعة مؤلفات الجانبين نجد أن تَسقُّط الأخطاء بينهما كان سببا فى انتشار الاتهامات ، فالسلفيون يصفون الأفعال بوصف البدعة والشرك ، ولكنهم ـ طبقا لمنهج أهل السنة ـ لا يحكمون بالكفر على المعين ، فضلا على التكفير العام ، وهو الاتهام الذى انتشر عنهم ، بسبب حماقات عوام منتسبيهم كذلك فليس الأزهر بعمومه على معتقد الأشاعرة أو من الصوفية ، بل منهم رموز سلفية كبيرة ، وحتى الأشاعرة المعاصرون يختلفون بالطبع عن غلاة الأشاعرة الذين يقصدهم السلفيون بالنقد بينما وقفت غالبية الطرفين من العلماء الكبار موقفا

يليق بهم فرفضوا هذه المهزلة ، وما أقوله لك من انتقادات ضد المتصارعين صادرة أصلا عن علماء السلفية والأزهر الرافضين للحرب المفتعلة ، خاصة أن الإمام ابن تيمية رأس مراجع السلفيين ، وهو شيخ الإسلام ، قال عن الأشاعرة بانهم يمثلون أهل السنة فى البلد الذى ليس فيه أهل سنة ، وبالمقابل فالأزهر ترجم لشيخ الإسلام ضمن مطبوعات المجلس الأعلى للشئون للشئون الإسلامية مجلدا ضخما فيه الكثير من حياته وفقهه ، وكذلك الشيخ محمد أبو زهرة أحد كبار علماء الأزهر كتب فيه كتابا فيه تلخيص شامل لحياته وفقهه وجهاده وأيضا رد الشبهات التى أثارها خصومه ضده منذ زمانه وحتى اليوم والحقيقة أن أكبر مظلوم ظلمه سلفيو مصر هو شيخ الإسلام وهكذا ..

بدلا من أن يتكامل المتصارعان ويتكاتفا لصالح محاربة الفرق البدعية التى عاد انتشارها من جديد ، دخلوا فى صراعات مع بعضهم البعض ، وخسر كل منهم ما عند الآخر من منهج صحيح ، فخسر الاتجاه الأشعري ثقل ورسوخ المدرسة السلفية فى نقل ونقد الحديث والتاريخ ، وخسر السلفيون مقومات وعمق أصول الفقه و فقه الواقع وفقه الأولويات مع أن عوامل الاتفاق بين الجانبين أقوى ، وأهمها اتفاقهم على مواجهة الفكر الرافضي وفكر الخوارج وكان من نتيجة ذلك أن رفض كل اتجاه ما عند الآخر من علم ، فتجاوز بعض علماء الأزهر فى حق بعض الأحاديث الثابتة لمجرد أن السلفيين يتمسكون بها ، وتجاوز السلفيون عن عمق علم أصول الفقه وخلطوا بين الثابت والمتغير ، فالثابت الذى لا نقاش فيه هو العقيدة والأصول ، أما المتغير فهو فقه الفروع لكنهم تعاملوا مع كل شيئ على أنه من الثوابت ووقعوا فى تناقضات مخزية عندما تشبثوا بالمتغيرات على أنها ثوابت واضطروا لمخالفتها بعد ذلك واتخذوا لأنفسهم شعارا هو بالفعل شعار لأهل السنة فى العقيدة والأصول ، لكن بعضهم عممه على الفقه ، فقالوا بأن منهجهم (قرآن وسنة بفهم السلف الصالح) ، ونقول هذا العنوان يحتاج إضافة جوهرية ، أن الفهم المقصود هنا هو الفهم فى العقيدة والأصول ، لا فهم وفقه الفروع وإلا كنتم مخالفين للسلف الصالح أنفسهم ، لأن سلفنا فى الصحابة والتابعين وهما أعلى الطبقات فى السلف اختلفوا فى الفروع على آراء متعددة ومذاهب متكاملة ، وكلها كانت اجتهادات صحيحة ومأجورة عملت بها الأمة وهى من باب التيسير المشروع ، بالإضافة إلى أن آيات الأحكام فى القرآن الكريم لا تتجاوز ٣٠٠ آية ، وباقي القرآن كله هو مجال للتفكر والتدبر والتفسير والتأمل لعلماء كل جيل طالما استوفوا شروط النظر فى القرآن ، لهذا فالأمة

قبلت تفسير السلف فى آيات الأحكام ، لكن لا يمكن قبول تفسيرهم ـ المناسب لعلوم عصرهم ـ فى آيات الكون والخلائق ، وإلا لقلنا أن الكواكب السبعة التى كانت مكتشفة فى زمان السلف هى نفسها السماوات السبع وفقا لتفسير بعض علماء السلف فى ذلك !

هذا فضلا على حقيقة وركيزة أساسية ، أن الأمة والسلف الصالح لو كان مشروطا عليها تفسير وفقه معين ومحدد فى غير مجال العقيدة والأصول ، لما ظهر علم الاجتهاد أصلا ، ولجاءنا النبي عليه السلام بتفسير محكم للقرآن ، لكن ما حدث عكس ذلك فاختلفت الاجتهادات وتنوعت بحسب ظروف كل عصر ، والنبي عليه السلام فتح باب الاجتهاد والتدبر لفهم آيات القرآن بقوله عن القرآن (لا يشبع منه العلماء ولا يخلق من كثرة الرد) ، لهذا فأصل مشكلة الفقه عند بعض السلفيين هى عكوفهم ـ فى أمور الاجتهاد ـ على ما ورد من علماء الأمة السابقين دون أن يلاحظوا أن الفقه نفسه طبقا لعلم الأصول يتغير بحسب الزمان والمكان و أن أجيال السلف المتتابعة كان لكل منها فقه واجتهاد وإضافات للتفسير .

قال الشاب: وكيف ظهرت الفتاوى الغريبة ؟!

قال الكاتب: معظم الفتاوى الغريبة ظهرت فى السنوات الأخيرة ولم تصدر من الرموز أو العلماء المؤسسين بل من المعاصرين ، وهذا يعود إلى ظاهرة الجمود وتفضيل طابع التشدد خوفا من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من المبالغة فى التيسير الفقهى ، وكما قلنا مرارا أن التطرف يولّد التطرف ونظرا لأن قناعات السلفيين فى النظام السياسي قاصرة فقط على نفس متون الفقه القديمة فى السياسة الشرعية المناسبة لأحوال الخلافة الإسلامية فى وقتها ، ولطبيعة عرف الحكم فى تلك الأوقات ، فكان طبيعيا أن يعتبر بعض السلفيين مفهوم الأوطان والدفاع عنها بشكل يشابه الدفاع عن العصبيات القبلية المرفوضة ، متجاهلين مفاهيم الدولة فى العصر الحديث.

قال الشاب: هذا هو السبب الأول والثانى لأزمة الفتاوى، فماذا عن الثالث؟

قال الكاتب: الفهم المغلوط من هذا المفتى ، فالحديث الشريف يحصر الشهادة على من قاتل فى سبيل الله وهذا مفهوم عام وليس مفهوما خاصا للأعمال ، ولو قرأنا نص الحديث كاملا لوجدنا أن الصحابة كانت تسأل النبي عليه السلام عن مصير من يُقتل وهو يقاتل لإظهار شجاعته أو يقاتل بنية الدفاع عن عصبيته القبلية ، أو يقاتل فى سبيل الحمية الجاهلية ، وبالقطع فإن القتال فى هذه الحالة قتال بنيّة فاسدة ، ولكن

لا ينبغي أن نعمم تلك الأنواع على كل قتال ، لأن القتال فى سبيل الله يشمل حتى الدفاع الشرعى عن النفس بل والمال ـ طبقا لنصوص باقي الأحاديث ـ وكذلك دفاع المسلم عن أخيه المسلم دفاع حق ، وهذا يشمل بصورة أوسع الدفاع عن الوطن ككل..

وقد وقع من أفتى بالرأى السابق فى فهم خاطئ أشد ، فحب الوطن والإنتماء إليه والدفاع عنه ، لا يقع تحت مفهوم العصبية الجاهلية التى حذرنا منها النبي عليه الصلاة والسلام عندما قال لأصحابه ناهيا (دعوها فإنها منتنة)، فالعصبية هى التعصب للوطن أو حتى للنسب والأهل والإفتخار بهما ومعايرة الغير بالإنتماء إليهما ، وهذا محرّم قطعا ، ولكن هل نقيس هذا على مجرد إنتماء الفرد لأبيه وحبه واعتزازه بأهله؟!

وبالمثل فى قضية الأوطان، فحبك للوطن والدفاع عنه هو فرع من إيمانك ولازم من لوازمه ، ولا علاقة لها قطعا بمسألة التعصب المذموم وإلا لكان دفاع المسلمين عن أرضهم أو دفاع المرء عن أرضه تعصبا وفقا لهذا المنطق الفاسد والتعصب بطبيعته ممقوت حتى فى الدين نفسه ، لأنه يؤدى إلى غمط الناس وبطر الحق ، وكمثال فإنك تناصر أخاك المسلم إذا كان مظلوما ، ولكنك تناصره إذا كان ظالما بنصرة المظلوم غير المسلم إذا اعتدى عليه المسلم كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ابن عمرو بن العاص فى خصومته الشهيرة مع القبطى المصري ، ولم يتعصب عمر الفاروق هنا للدين ولا تعصب لانتمائه القبلي المشترك مع أن عمرو بن العاص من كبار الصحابة ومن أشراف قريش

ثالثا : داء الإستقطاب الذى عصف بالأمة ، وخلق عصبيات مذهبية مختلفة ، وأشهر مثال له ما وقع من منتسبي المذاهب الفقهية المختلفة فى عصور متأخرة ، فرغم أن أصحاب المذاهب الأربعة كانت علاقتهم ببعضهم البعض أوثق من روابط النسب وكان بعضهم تلاميذ بعض ، كالشافعى الذى تتلمذ على يد مالك ، وابن حنبل الذى تتلمذ على الشافعى ، وأحبه حبا عظيما جدا وكان يدعو له فى صلاته لمدة أربعين عاما حتى أن ولده سأله عن سر ذلك ، فأجابه ابن حنبل بأن فضل علم الشافعى عليه وعلى الأمة يستحق هذا الحب وأكثر ، فالشافعى هو أول من أسس لعلم أصول الفقه ، وعلم أصول الحديث ، وناسخ ومنسوخ الحديث أيضا..

ورغم كل هذه الروابط إلا أن من انتسبوا للشافعية والحنابلة بعد ذلك قامت بينهم معارك دموية وكل منهم يظن أنه يناصر مذهبه وإمام مذهبه ! بينما الأئمة أبرياء من

هذا التعصب فالإستقطاب ومبدأ (إن لم تكن معى فأنت ضدى) هو السبب الرئيسي لفرقة الأمة كلها ..

والشاهد من هذا الشرح أن من أفتى بأن القتال فى سبيل الأوطان ليس قتالا فى سبيل الله يعود إلى أن بعض غلاة العلمانية اتهموا الدين بأنه لا يعترف بالوطنية ولا يؤسس لها ، وقال فرج فودة ـ أحد أكابرهم ـ أنه لو خيروه بين اختيار الوطن وبين الدين فسيختار الوطن !!

وبدلا من أن ينتبه العلماء لهذا الفخ المنصوب من العلمانيين ، بادروا على الفور إلى اتخاذ أبعد طرف عن مقولتهم ، والتطرف يولد التطرف بطبيعته ، مع أن الرد على فرج فودة وغيره سهل ميسور ، لأن عقد المقارنة بين الوطن والدين لا يجوز أصلا ، فالمقارنات ـ كأصل منطقي ـ إنما نعقدها بين المستويات المتساوية المتنافسة أو المتعارضة ، فتقارن بين وطن ووطن ، وبين دين ودين ، أما أن تقارن بين وطن ودين ، فهذا من المقارنات التى لا تجوز لعاقل ، ويشبه بالضبط من يقارنون بين الأب والأم !! ،

فالذى يطالبك بالإختيار بين الأب والأم أيهما أغلى اعلم أنه خبيث يريد الوقيعة ، لأن الأب والأم متكاملان ، لا متنافران حتى نقارن بينهما ، وبالتالى فالرد الأصوب على العلمانيين يكون بكشف خبثهم وبأن حب الدين والوطن معا يتكاملان ، ولا تنافر بينهما ،

قال الشـاب: ولكن العلمانيين يقولون أن القبطى المقاتل عن وطنه هو شهيد ..

أجـاب الكاتب:

ألم أقل لك مرارا أن هؤلاء القوم لا يريدون إلا الفتنة وحسب ، وإذا كان المسلم الشهيد نحن لا نضمن له صحة الشهادة فكيف بغير المسلم ، أليس هذا تدبير متعمد لإثارة الفتن وإلا فأخبرنى بأى هدف نثير هذه القضايا؟!

وهؤلاء لا يعتقدون بأن غير المسلم يكون شهيدا فحسب ، بل إنهم ينادون باعتبار أكفر الكفرة شهداء رأى فى زعمهم ، فخرج إبراهيم عيسي يقول بأن الصحفيين الفرنسيين الذين رسموا رسوما تسيئ وتسب النبي عليه الصلاة والسلام هم شهداء من وجهة نظره لأن المتطرفين قتلوهم بسبب ذلك ، وبغض النظر عن هذه التمثيلية المكررة وهى استخدام أذناب الخوارج الجدد لتنفيذ عمليات إرهابية فى الغرب بغرض تحقيق مكاسب سياسية وابتزاز العرب ، وفى عصرنا الحالى لم يكتف الغرب باختراق ودعم تلك التنظيمات سرا بل يدعمونهم الآن بشكل شبه علنى بالمال والسلاح بغض النظر عن هذا ،،

فهؤلاء العلمانيون لا يكفيهم أن الناس تتركهم على معتقداتهم الفاسدة وحسب ، بل يصرّون إصرارا عجيبا على أن يحصلوا على اعتراف منـّا بالباطل التنويري الذى يدعون إليه ؟!!

والسر فى ذلك أنهم يشعرون فى أعماقهم بأنهم على باطل محض ، ويشعرون بغيظ كبير من احتقار الناس لهم ، لهذا فلم يعودوا يكتفون بارتكاب فضائحهم ونشر أقوالهم فيما بينهم ، بل يحاولون نشرها بين الناس لتتخذ الشكل الشرعى والإعتراف المجتمعى ، وهذا يدلل على مرضهم النفسي وانعدام ثقتهم بأنفسهم ، وبما يروجون له ، فأى إنسان يعتقد فعليا أنه على الحق ، تجده جريئا فى اعتقاده ، صارما فى الإعتزاز به بل ولا يهمه عدم اعتراف المجتمع به لأن الشعور بالحق يكفيه ، ولهذا تجد العلمانيين يستفزون الناس استفزازا رهيبا بلا مبرر ، فالعلمانيون ينشرون الآن أقوالهم ويمارسون شذوذ الأفعال والناس تهملهم ، ومع ذلك يأبون إلا الإعتراف المجتمعى بهم وهو محال ، وهم يرغبون فى أن يصبحوا هم قادة الفكر والرأى ـ ليس فى السياسة فحسب ـ بل فى الدين ، مع أنهم حتى عندما قاموا بقيادة الناس سياسيا والترويج لحكم المدنيين وجدناهم فشلة فى كل شيئ وليس لديهم أى تصور للحكم أصلا ، بل يريدون المقاعد فحسب ، تماما كتيارات الإسلام السياسي ، ولهذا وثق عامة الناس فى العسكريين لأنهم ـ فى أقل الأحوال ـ لديهم حدود صارمة يقفون عندها ، بعكس المدنيين من التيارين المتناطحين ولأن الناس تحتقرهم ، لذلك هجموا الآن هجمة رجل واحد على القرآن والسنة وتراثنا الإسلامى والحضاري ـ استغلالا لجمود السلفيين ونفعية الإخوان ـ وأخذوا ينقبون فى سواقط كتب أهل البدع ليعايرونا بما نؤمن به ، على أمل أن يخشي الناس بعد فترة أن يعتزوا أو يفتخروا أو حتى يذكروا مجرد ذكر ، آية من القرآن أو حديثا نبويا أو قولا لأحد العلماء ،

وعندما لم يجدوا فى تراثنا الحضاري ما يمكن أن يستغلوه فى ذلك ، هرعوا إلى الأكاذيب والتدليس ، أو محاولة لى أعناق النصوص ، أو محاولة إلصاق أفعال الخوارج بأهل السنة، ومن أحاديث الإفك التى يروجونها ، قولهم بأننا نـُكفـّر النصاري واليهود ؟!!

والكلمة عجيبة وغريبة فعلا فهل المسلمون من كفروا الكفار أم القرآن والسنة وأساس الدين يقول بذلك ، وقد أغفلوا عمدا حقيقة راسخة ، وهى أن أتباع كل دين لا يعتقدون بصحة أى دين آخر بالتبعية وإلا ما ظلوا على دينهم ، ولبيان خبثهم ونية بث الفتن الطائفية ، تراهم لا يوجهون هذا السؤال للقساوسة مثلا ولذلك وحتى يـُنـهى أحد

الدعاة المسلمين هذا الجدل ظهر فى إحدى الفضائيات مع قسيس ، وتوجه إليه بسؤال مباشر : ألا تعتقد بأنى ـ كمسلم ـ لا يؤمن بألوهية المسيح ، كافر من وجهة نظرك فأجاب القسيس بوضوح وصراحة: نعم بالطبع ، وإلا فلن أكون مسيحيا!!

فأين الإعلام المغرض من هذا التصريح الواضح وضوح الشمس، الرجل يقول لو لم أعتقد بكفركم لما كنت مسيحيا..

انتهت القضية إذا ، فعلام الطنطنة ؟!

ثم توصلوا إلى لعبة جديدة، وهى أنهم قرنوا لفظ التكفير الإعتقادى بضوابط المعاملة ، حتى يظن الناس أن قولنا بكفر أهل الكتاب يعنى بالتبعية استحلال دمائهم وأموالهم !!

فنقول أين هذا من معتقد المسلمين، بل ومن أفعال المسلمين عبر التاريخ ؟!

فعلى مستوى النصوص نحن نحمل للأقباط[٥٣] مبادرات من البر والمودة ، لا يمكنهم إطلاقا أن يردوها بالمثل ، فنحن فى معتقدنا كمسلمين ، نؤمن بنبوة ورسالة عيسي عليه السلام ، بل وبأنه أيضا من أولى العزم من الرسل ، بل ونتفوق عليهم فى أننا نعتقد بكفر من أنكر نبوة عيسي أو حتى قام بالطعن فيه بأى صفة من صفات الإنتقاص ، فهل يجرؤ القساوسة على رد هذا بالمثل فى نبينا عليه السلام؟!

أجاب الشاب: كلا بالطبع ، فهم لا يعترفون بنبوته..

أكمل الكاتب:

بل نحن نتفوق عليهم حتى فى أساسيات معتقدهم، وهى الحقيقة التى استخدمها الداعية الفذ الراحل أحمد ديدات ، عندما أحرج قساوسة أوربا وسألهم.. كم مرة ذكرتم (مريم) عليها السلام فى كافة كتب الأناجيل عندكم؟!

فلم يجيبوا ..

ففاجأهم أحمد ديدات بأن القرآن ذكر اسم (مريم) ثلاثة أمثال عدد اسم مريم فى كافة الأناجيل سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد، وهذا بخلاف الأحاديث النبوية التى ذكر فيها النبي عليه السلام مريم عليها السلام وهى الأحاديث التى اعتبرت وقررت لنا كعقيدة بأن أكمل نساء الأرض خمسة ، هن مريم وفاطمة وآسيا بنت مزاحم ـ زوجة فرعون ـ وخديجة، وعائشة رضي الله عنهم ، ثم زاد التخصيص فجعل أفضل الخمسة هن مريم وفاطمة وذلك فى نص حديث (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا

---

(٥٣) لفظ القبط هو وصف لسكان مصر الأصليين قبل الفتح الاسلامى بغض النظر عن عقيدتهم ، فالمصريون الذين دخلوا أفواجا فى الإسلام أيام الفتح ظلوا على وصفهم كأقباط لأنه وصف جنسية لا وصف دين، لكن الاصطلاح المعاصر درج على وصف مسيحيي مصر بذلك.

أربع مريم وفاطمة وآسيا وخديجة ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)، ثم جاء الحديث الأكثر تخصيصا ، فقال النبي عليــه الصـــلاة والســـلام (فاطمة سيدة نساء العالمين ما خلا مريم ابنة عمران) ..

وحتى فى تفضيل الحسن والحسين رضي الله عنهما، استثنى النبي عليه السلام ابنى الخالة عيسي ويحيي عليهما السلام ، فقال (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابنى الخالة عيسي ويحيي) ليس هذا فقط ، بل إن القرآن الكريم أفرد لمريم وقصتها سورة كاملة ومُعنوَنة باسمها مع أن القرآن الكريم لم يذكر فى القرآن اسم أيـاً من زوجات النبي عليه السلام أو بناته أو أمه أو أبيه ، بل ولم يذكر صحابيا باسمه إلا الصحابي زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وكل الصحابة وزوجات النبي عليه السلام وردوا فى القرآن بالإشارة فقط دون النص ودون أن تكون لأحدهم سورة أو حتى آية فى القرآن تشتمل اسمه ، ولكنه ذكر مريم باسمها كاملا (مريم ابنة عمران) فى مرة وفى مرات أخرى باسم مريم ، ومرات يذكر اصطفاءها وعائلتها على العالمين ..

بينما فى أناجيل المسيحيين كلها لا يوجد فصل ـ وهو مقابل السورة عندنا فى القرآن ـ باسم مريم عليها السلام ، وآخر القول أننا فى عقيدتنا من يسيئ إلى مريم أو إلى عيسي عليهما السلام بأى انتقاص فضلا على أن يكون إنكارا لنبوته فهو كافر عندنا ، بينما عندهم من يؤمن بنبوة محمد فهو كافر فى معتقدهم فمن منا صاحب السبق والبر يا صديقي ؟! ومن منا أحق بأن يرفض محاولات الوقيعة ؟!

أجاب الشاب: رغم معرفتى بهذا الكلام إلا أنى أشعر وكأنى أسمعه لأول مرة..

قال الكاتب:

زد على هذا ما تقوله شريعتنا فى حقهم وما تقوله شريعتهم فى حقنا ، فنحن ننظر لأهل الكتاب على أنهم نوعان ، نوع محارب وهؤلاء نحاربهم متى اعتدوا علينا ، والنوع الثانى يشمل أهل الذمة والمستأمنون ، والمستأمنون عندنا هم كل كافر ـ حتى لو كان كافرا حربيا ـ يدخل إلى بلاد الإسلام بعهد أمان ، وأهل الذمة والمستأمنون فى الإسلام حمايتهم واجبة على الدولة ، فضلا على أن المسلم الذى يقتل ذميا أو مستأمنا هو بريئ من ذمة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، بل لو أن مسلما أوقع الأذى فقط بهم فهو فى خصومة مع النبي عليه السلام رأسا ، لنص الحديث (من آذى لى ذميا فانا خصمه يوم القيامة) وهم بعهد عمر بن الخطاب آمنون على كنائسهم وعبادتهم وصلبانهم تعالى

معى إلى ما تقوله عقيدة النصاري فينا ـ وللأمانة فإن من طبقوها هم نصاري الغرب وحدهم ـ لأن هذا الكلام لا ينبطق على معتقد قبط مصر عبر التاريخ أما نصرانية الغرب فهى أصل البلاء فى المعاملة ولن أذكر إلا مثالا واحدا فقط وهو محاكم التفتيش التى أقامها القساوسة والرهبان فى الأندلس بعد هزيمة المسلمين هناك ، وكانت المحاكم تنشر التنصير الإجباري على المسلمين ومن يرفض يتم قتله بأبشع أنواع القتل ، هذا بعد استيفاء سائر أنواع التعذيب طبعا ، وملف محاكم التفتيش أكبر من أن يحتويه كتاب واحد ، وهى جرائم ستظل بعارها تلاحق الأوربيين مدى الحياة مهما حاولوا محوها

ولاحظ أن هذا القتل المنظم تم استنادا إلى ما تنص عليه كتبهم المحرفة التى تستحل صراحة دماء المسلمين ودماء أطفالهم ، فقارن هذا بما رويته لك من نصوص القرآن والسنة فى حقهم ..

قال الشاب: وماذا عن المتطرفين الذين استحلوا متاجر الأقباط فى موجة الإرهاب فى التسعينيات ؟!

قال الكاتب:

أنت بنفسك أجبت على سؤالك ، هؤلاء المتطرفون حكمهم فى القرآن والسنة أنهم خوارج ، والخوارج كلاب أهل النار بنص الحديث ، فكيف نتحمل فاتورة أفعالهم ، بالإضافة إلى أن هؤلاء الخوارج كفّروا المسلمين بعموم قبل أن يكفروا الأقباط ، والدليل على ذلك أنهم قتلوا من المسلمين أضعاف ما قتلوه من الأقباط ..

قال الشاب: وماذا عن الفتنة الطائفية ؟!

أجاب الكاتب:

أى متصفح للتاريخ سيدرك فى سهولة كيف أن موضوع الفتنة الطائفية هذا لا وجود له على الإطلاق فى تاريخ مصر من ألف وأربعمائة سنة وحتى بداية عصر الإحتلال الأجنبي الذى بدأ بالفرنسيين ثم الانجليز ، وقد فاجأ أحد الباحثين الناس جميعا عندما نفي وجود أى فتنة طائفية بين المسلمين والأقباط فى مصر حتى مجئ الحملة الفرنسية ، وتحداهم أن يأتوه بحادثة واحدة من كتب التاريخ المصري ولأن الغرب هو من ابتكر سياسة (فـرّق تسد) فقد بدءوا فى استخدامها منذ ذلك الحين عن طريق استغلال متطرفي الجانبين ، فذهبوا إلى أحد الأقباط واشتروه بالمال كى يعاونهم علنا فى احتلال البلاد حتى يظهر الأقباط وكأنهم خونة الأمة ، ولكن ذكاء ووطنية الأقباط أفسدت اللعبة

، وتبرأت الكنيسة من هذا الرجل ووقفوا صفا واحدا مع المسلمين فى مواجهة الاحتلال

كذلك حاول الانجليز مرارا اللعب على هذا الوتر ، ثم جاء عصر السادات ، وتفجرت الفتن أكثر ، والسبب يعود إلى أن الدولة أحبت استغلال الدين فى السيطرة على الشعب ، وفى اللعب مع الغرب لتحقيق مكاسب سياسية ، ولهذا كانت الحكومة ترعى المتطرفين من الجانبين لتفجير فتنة هنا أو هناك أو ابتزاز الكنيسة أو الأزهر نفسه وتضخيم أى حدث إعلاميا ومعنى عدم وجودها فى التاريخ رغم المعايشة الكاملة طيلة أربعة عشر قرنا ، يوضح أنها أزمة سياسية مفتعلة لا علاقة لها بأى صراع دينى ، وابلغ دليل فى التاريخ على ذلك هو موقف الأقباط من الحملات الصليبية وهى سبع حملات متتالية رفض الأقباط فيها إغراءات نصاري أوربا رفضا قاطعا وحاربوا ضدهم مع جنود المسلمين وأى مصري يعيش فى المجتمع سيدرك أن الناس بعمومها مسلمين وأقباط لم ينجروا وراء الإستدراج طويلا ، وهكذا كلما قامت فتنة ، انطفأت ، ويكفي تعبير أحد شيوخ الإسلام والذى زار مصر فى أحد أيام عام ٢٠١٢ ، حيث قال الرجل فى دهشة واضحة : قد كنت أظن أن الأقباط فى مصر يتم ذبحهم فى الشوارع !! ، فأين ما يتحدثون عنه فى الإعلام من وجود فتنة طائفية فى مصر !!

وهى كلمة تلقائية وواضحة الصدق ، فضلا أنها تعبر عن الفارق الرهيب بين الشحن الإعلامى والمعايشة الفعلية ، ولو أن نظام مبارك مثلا كان يريد لهذه الفتنة أن تنتهى لبادر إلى توقيع العقوبات المستحقة على أى متطرف من الجانبين لكنه لم يفعل لأنها كانت إحدى أوراق اللعبة، تماما مثلما تفعل الولايات المتحدة وانجلترا ، فعلى أرضها يعيش زعماء الإرهاب آمنون هناك ، فضلا على وجود الأقباط الداعين لتقسيم مصر فى قلب أمريكا، فهل يجيبنى أى عاقل يا عباد الله ، كيف يعيش الطرفان فى الغرب بالذات وهما ـ كما يفترض ـ طرفي نقيض وأعداء ديانة ؟!!

أجاب الشاب: شيئ مريب بالفعل ، خاصة أن التنظيمات الإرهابية تعادى الغرب كما يقولون ؟

قال الكاتب:

سنتناول ذلك بالتفصيل، ولكن ما يهمنى هو ترسيخ مفهوم أن مبتدأ الفتنة جاء به الغرب ، ثم كرره العلمانيون ، وقد انفضح هذا الأمر من خلال إثارة القضايا المفتعلة بين الجانبين على غير أساس واقعى، تماما كما أثاروا قضية التنافر بين الدين والوطنية ،

وهى كرة تم تداولها بين المتطرفين والعلمانيين فخرج أذناب التيارات الإسلامية السياسية لترويج مفهوم أن الوطن هو حفنة من تراب ، وخرج العلمانيون ليقولوا أن الوطن أقدس عندنا من الدين .. والهدف هو تشتيت المجتمع وحتى تتيقن أن الهدف هو إثارة الفتن والقلاقل بدون أى داعى ، فهل يمكنك أن تفسر لى ما هى الضرورة أو المناسبة التى تجعل أحد العلمانيين يكتب موضوعا بعنوان (رد الاعتبار إلى فرعون) ! ، وليروج بأن فرعون مصري ويجب الدفاع عنه ؟!!!

ثم جاء أحمد عبد المعطى حجازى ـ أحد تلاميذ طه حسين ـ ليكتب فى الأهرام ـ الجريدة الرسمية ـ مقالا ينتقد فيه قصة فرعون وموسي عليه السلام ، ويقول بان محتوى القصة فى القرآن يسبب إشكالية للمصريين باعتبار أنهم بعاطفتهم الدينية يميلون لمناصرة موسي عليه السلام ، وبعاطفتهم المصرية يميلون إلى فرعون !!!

وبغض النظر عن هذا الكفر الشنيع ، هل لك أن تجد لى سببا واحدا أو حتى ربع سبب لإثارة هذا الكلام من الأصل !!

وبالمثل ، هات لى سببا واحدا لإثارة قضية أن الجنود النصاري المدافعون عن الوطن هم شهداء !! ، ما هو الداعى والدافع لافتعال أى معركة بين المعتقدات هى أصلا خارج أى حوار ونقاش باعتبارها قناعات عقائدية وغيبية يؤمن بها كل إنسان حسب اختياره ! ، ولا يمكن توفيقها بالحوار أصلا فما هو الهدف الذى يسعى إليه هؤلاء ؟!

تساءل الشاب : لا يوجد هدف منطقي إلا إذا كانوا يريدون الفتنة وفقط ، ولا اعرف لماذا يشعلون هذه النيران أصلا ؟!

قال الكاتب:

الفتنة التى يسعون لتوسيع نيرانها ، ليست هى الهدف ، بل الفتنة هى الوسيلة التى توصلهم إلى هدفهم ، فلا يوجد من يشعل حربا لهدف الحرب وفقط بل يفعلها ليبيع السلاح مثلا أو يتخلص من خصومه معا ، وهكذا وبنفس المنطق فالغرب لم ينفخ فى نار الفتنة إلا لتحقيق مصالحه كما فعلها فى لبنان فقامت الحرب الأهلية ، وفعلها فى السودان فانقسمت ، وحاول إشعالها فى مصر فعجز، والعلمانيون هذه الأيام يشعلون الفتنة عن طريق استغلال الجو العام الغاضب ضد المتطرفين المنسوبين للإسلام ، ليس بهدف إبطال معتقدات هؤلاء الإرهابيين ، بل بهدف ضرب كل ثوابت العقيدة الإسلامية ، والانتقام من الأزهر وشيوخه ، وتصفية حسابات معركة التسعينات الشهيرة !

قال الشاب فى دهشة : وما هى معركة التسعينات هذى ؟!

قال الكاتب:

يحق لك السؤال بالطبع لأن أجيالنا فى فترة نهاية الثمانينات وبداية التسعينات كانت لا تزال فى طور الطفولة ، ولم يتشكل وعيها بعد، ولكننا نستطيع عن طريق القراءة المتعمقة لكتب تلك الفترة ، وغيرها ، أن نُكوّن صورة كاملة تماما لما كان يحدث ، لا سيما مع التشابه الشديد بين حوادث الإرهاب فى التسعينات وبين حوادث الإرهاب فى ما بعد ثورة يونيو ٢٠١٣ م ، ومن حسن الحظ أن أسواق الكتب القديمة لا تزال منتشرة وهكذا عثرنا على الكتابات التى خرجت فى تلك الفترة سواء من زعماء الإرهاب أو العلمانيين أو شيوخ الأزهر ، وقرأناها جميعا ، ولم أربط بين ما حدث فى تلك الفترة وما يحدث اليوم إلا عندما اكتشفت أن الإعلاميين الذين يقودون الحملة ضد ثوابت الإسلام اليوم ، هم بأنفسهم نفس الصحفيين المبتدئين خريجى مدرسة مجلة (روز اليوسف) العلمانية الشهيرة التى كانت تروج للعلمانية والتحرر فى التسعينات ، وكانت دأبها ـ ليس مهاجمة الفكر الارهابي ـ بل مهاجمة الفكر الاسلامى وثوابته ورموزه الكبري فى ذلك الوقت ،

رغم أن هؤلاء الرموز مثل الشيخ الشعراوى والشيخ الغزالى والشيخ عطية صقر والشيخ جاد الحق على جاد الحق ـ رحمهم الله جميعا ـ كانوا هم الجبهة الكبري التى اعتمدت عليها الدولة لدحض أفكار الخوارج التى كانت تغري العشرات من الشباب فى ذلك الوقت للانضمام للإرهاب واعتقاد كفر المجتمع والدولة ..

ولأن العلمانيين دوما ما يصطادون فى الماء العكر ، ولأن لهم ثأرا كبيرا مع هؤلاء الشيوخ منذ الستينيات ، لأن هؤلاء الشيوخ هم من تصدوا قبل ذلك لأفكار الشيوعية التى قادها الصحفيون والإعلاميون اليساريون ، وتصدوا أيضا لأفكار العلمانيين وحملة الفكر الفلسفي الغربي ، وكانت المعركة ضارية بين الجانبين ، فاليساريون والعلمانيون اتخذوا الصحف والمجلات وأفلام السينما ميدانا لنشر أفكارهم حيث أن الصحافة والإعلام كان حكرا عليهم تقريبا ، واتخذ الشيوخ الكبار منابر المساجد وبعض الوسائل الإعلامية المتاحة لهم كبرامج الإذاعة، وبالطبع انحازت الجماهير وبشكل ساحق لجانب شيوخ الأزهر الفطاحل ، وكانت الشعبية الساحقة لهؤلاء الدعاة ناجمة عن الثقة المطلقة التى أعطاهم الناس إياها ، ولم تكن ثقة من فراغ ، فعندما نذكر أسماء هؤلاء القامات كالشعراوى والغزالى وجاد الحق ، ونذكر مواقفهم من القضايا العامة ، ندرك تماما

أنهم حصدوا ما زرعوه هيبة فى نفوس الناس والسلطة ، ولم ير منهم الناس تناقضا بين أقوالهم وأفعالهم ، وكانت سيرتهم فى الحياة خير شاهد على الزهد وعدم طلب المناصب وعدم النفاق أو السعى لمركز مادى أو حتى معنوى ، وبالتالى لم يستطع العلمانيون أن يجدوا لهم ثغرة واحدة ينتقصونهم فيها ..

بعكس ما عانته أجيالنا من أفعال السلفيين والإخوان والتى جعلتهم محط سخرية وازدراء الناس بعد أن تنازلوا عن كل ثوابتهم طمعا فى أقل المكاسب السياسية فلما فقدوا السلطة عادوا من جديد للنغمة القديمة الإسلام هو الحل ، ولكن بعد أن فقدوا كل مصداقية أما شيوخنا الأجلاء رحمهم اللّه ، فلم يكن لهم إلا وجه واحد يظهرون به ،

ففي لقاء تليفزيونى مباشر للشيخ الشعراوى مع الإعلاميين ، فى إحدى مناسبات درء الفتنة بسبب الهجوم على الكنائس ، تكلم الشيخ الشعراوى وأوضح وأبان حكم الإسلام فى هذه الأفعال وكيف أن فكر الخوارج لا علاقة له بفكر الإسلام ، وتكلم أيضا على مبدأ (الدين للّه .. والوطن للجميع) والتى انتشرت أيامها والعبارة كان من الممكن قبولها فى سياق حق المواطنين بالاتفاق على الوطنية ، بغض النظر عن الديانة التى هى علاقة للعبد مع ربه ، وهذا لا غبار عليه كفكرة عامة ، لكن العلمانيين استغلوها لتنحية الدين عن الحياة كلها ..

ففي تلك الفترة كانت فترة تنتشر فيها دعوة العلمانيين بفصل الدين عن الدولة وحصره فى العبادات فقط ووصل الأمر بفرج فودة لانتقاد توسعة أحد المساجد بعد أن ضاق بالمصلين ، فلهذا لم يسكت الشعراوى ورغم حساسية الموقف بادر إلى أخذ ناصية الكلام قائلا : (كلا إننى ارفض هذه الكلمة ، فوطنٌ بلا دين لا يلزمنا)

فلك أن تتصور موقفا مثل هذا ، والجو ملبد بالغيوم ومتحفز ضد كل ما ينتمى للإسلام ، ومع هذا لم يسكت الشعراوى وكما نطق بالحق فى مواجهة الإرهاب ، نطقه فى كلمة ظن فيها ظننا أنها تساند العلمانية ..

وكذلك الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر الأسبق وكان معروفا عنه حدة الطباع ، وحدث أن أرسلت رياسة الجمهورية أحد القوانين فى الأحوال الشخصية والتى وضعته سوزان مبارك ، حرم رئيس الجمهورية ، واحتوى القانون على بعض بنود (حقوق المرأة) بالمفهوم الغربي ، ولأن الأحوال الشخصية محكومة بالكامل بنصوص الشريعة الإسلامية ، لهذا كان لزاما موافقة شيخ الأزهر على القانون الجديد ، وبالفعل قرأ الشيخ رحمه اللّه بنود

القانون ووجد فيها تلك البنود التى تروج للمفاهيم العلمانية وتتصادم مع الشريعة ، فثار الرجل ، وألقي بأوراق مشروع القانون بعيدا معتبرا إياه عبث غير مقبول بأحكام الشريعة

فما كان من الرياسة إلا أن سحبت القانون فى هدوء ولم تصدره ، وفيما بعد ، وبعد رحيل كل هؤلاء القامات الفقهية تم إصدار القانون !!

القصد .. دارت المعركة بين هؤلاء الشيوخ وبين الإعلام ، واستخدم فيها الإعلام أرخص الأساليب ، منها تعمد السخرية من شيوخ الأزهر فى السينما ، وإظهارهم على أنهم قوم لا يهتمون إلا بالطعام والفتة ! ، وإظهارهم على أنهم جميعا يفسرون الدين على مزاج الحاكم ، هذا فضلا على الأسطوانة المشروخة ، أنهم يعادون العلم والتطوير والحرية والإبداع !!

وبالطبع خسر هؤلاء القوم معركتهم فى الستينات والسبعينات ، كما خسرها من قبل دعاة التنوير الغربي طه حسين وسلامة موسي ولويس عوض فى الأربعينات من القرن الماضي حتى جاءت موجهة الإرهاب الأولى فى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات ، وكانت أول مصائبها هى حادثة الاغتيال المروعة لرئيس الدولة والتى أعطت تصورا غير صحيح عن قوة الجماعات المنسوبة للإسلام ثم استمرت ضربات الإرهاب وتزايدت فى بداية التسعينات ، ومنحت هذه الجماعات قبلة الحياة للعلمانيين ، وجاءت الدولة بكبار العلماء والدعاة ليردوا على أفكار شباب الجماعات الإرهابية حتى تكون مواجهة الإرهاب متكاملة بالفكر والأمن وليس بالأسلوب الأمنى وحده ورغم أن اتفاقية كامب ديفيد كانت هى الحجة الرئيسية التى تفسر تكفيرهم للحاكم ، إلا أنها لا تفسر تكفيرهم للناس بعموم ، ولهذا جاءوا بالشيوخ الكبار السالف ذكرهم ليناقشوا هؤلاء الشباب ، فرفض بعضهم ، وقبل البعض الآخر وكانت نتيجة النقاش أن أدرك الشيوخ أن ما يفعله إعلام الدولة الرسمى كان إحدى الحجج الرئيسية عند تلك الجماعات لإقناع الشباب بكفر الدولة والناس ، لا سيما وأننى قلت لك من قبل كيف أن العلمانيين اصطادوا فى الماء العكر فهاجموا الإرهابيين مع شيوخ الأزهر وثوابت الإسلام ووضعوا الجميع فى سلة واحدة واستغلوا الدولة نفسها لترويج منهجهم.

قال الشاب مأخوذا : إذا فهى حيلة قديمة للعلمانيين باستغلال المناخ العام فى الهجوم على الثوابت.

أكمل الكاتب:

نعم، ولهذا بالغ العلمانيون منذ بداية التسعينات فى استغلال الصحف والإعلام الرسمى فى الهجوم على الشعراوى والغزالى بالتحديد ، لان الشيخان ـ رغم انشغالهما بمحاربة الفكر المتطرف ـ إلا أنهم لم يغفلوا عن إعلان الحرب ضد عتاة العلمانية فى ذلك الوقت فرج فودة، ومحمد خلف اللّه ، وغالى شكرى وغيرهم ، وكان فى نفس الكتيبة تلاميذهم إبراهيم عيسي وزملاء جيله ، وكان معظمهم صحفيين مبتدئين فى روز اليوسف.

قال الشاب : إذا إبراهيم عيسي له معركة قديمة فى هذا المجال.

قال الكاتب:

نعم وأفكاره هذى جلبها من معركة التسعينات ، وستجد أشهر مقالاته فى تلك الفترة فى كتاب قديم له ، وهو كتاب (أفكار مهددة بالقتل) هاجم فيه بعضا من شيوخ التطرف ،لكنه خصص الجزء الأعظم منه للهجوم المقذع على الشيخ الشعراوى ، مع أن الشعراوى والغزالى كلاهما انضم للإخوان فى الخمسينات لفترة قصيرة وخرجوا منها معلنين الحرب عليها بعد اكتشاف حقيقة أفكارهم ، فتحدث الشعراوى بعد ذلك عن فساد الجماعة بسبب وجود النظام الخاص ، وكيف أن هذا النظام كان أداة إرهاب لا أداة دعوة ، كما واجههم الغزالى بكتاب شديد اللهجة اتهم فيه الإخوان بأنهم انضموا للحركة الماسونية وشربوا من أفكارها أى أن عطاء الشيوخ فى حرب الإرهاب كان أكبر من أمثال ابراهيم عيسي وأمثاله بمراحل[٥٤] فكيف يمكن تفسير مهاجمة العلمانيين للشيخين، بينما يسعى الشيخان لمواجهة فكر الإرهاب بالمفاهيم الدينية الصحيحة، فلو كان العلمانيون مخلصون حقا للوطن، لما هاجموا أصلح جبهة تتصدى لفكر الخوارج، والشخصيات الوحيدة التى قد يقتنع بها الشباب المضلل لكن كما قلت لك كان هم الجيل الجديد من العلمانيين بقيادة فرج فودة ، هو استغلال الفرصة السانحة للقضاء على فكر الخوارج وفكر الإسلام نفسه وإعلاء العلمانية كدين جديد للدولة ، فكثفوا هجماتهم التى تحمل طعنا شديدا فى القرآن والسنة ، وبلغت الوقاحة بفرج فودة أن يسخر فى مجالسهم ونواديهم من السنة النبوية ومن الحدود الجنائية ثم يغرق هو وجمهوره فى الضحك

---

(٥٤) من مضحكات تجربة ابراهيم عيسي أنه هاجم الاخوان فى التسعينات ثم اتحد معهم اتحادا كاملا فى الألفية الجديدة أيام الكفاح ضد مبارك حيث كان ابراهيم يعتمد على الاخوان فى توزيع جريدته لتصل لارقام قياسية ثم واصل التحالف معهم حتى وصولهم للسلطة ثم عاد فانقلب عليهم كما هو معروف.

والتندر ، ولم يكتفوا بذلك بل سجلوا هذه الندوات على أشرطة فيديو وكتبها بعضهم فى مقالات صحفية ، وكانت مشكلة ذلك العصر أن الصحف كلها والإعلام المرئي كله ، كان يقتصر على ملكية الدولة فلم تكن هناك فضائيات خاصة ولا صحف خاصة ، ولهذا استغلت الجماعات هذه الحقيقة فرسخوا فى أنصارهم اعتقاد كفر الدولة التى ترعى هؤلاء العلمانيين وتنشر أفكارهم وطعنهم فى صحفها الرسمية ..

أى ان العلمانيين الذين يتهمون التراث الاسلامى بتربية الإرهاب ، هم أنفسهم من كانوا الوقود الذى استخدمه الإرهابيون لتبرير جرائمهم الوحشية وإقناع أتباعهم بأنهم يدافعون عن الدين ..

قال الشاب: وماذا فعل الشيوخ فى تلك المرحلة.

أجاب الكاتب :

انتبه الشعراوى والغزالى إلى اللعبة العلمانية ، وكما قلت لك قاموا بالرد والهجوم على الفكر العلمانى ونبهوا المسئولين لخطورة مسالك العلمانيين فى صحف الدولة ، وجاء فى أيامها من بداية التسعينات وزير داخلية جديد هو اللواء محمد عبد الحليم موسي ، وكان الرجل ـ فيما يبدو ـ مقتنعا جدا بما حذر منه الشيوخ ، ولهذا عقد مع العلماء عدة لقاءات وأخبرهم أنه ينوى اتباع سياسة أمنية جديدة تهدف الى تجفيف منابع الفكر المتطرف ، ولهذا خفف من التعذيب الذى كانت الشرطة تلجأ إليه مع المعتقلين ، وعقد أول جلسات المراجعات لمنسوبي تلك التنظيمات ، وبالطبع لم يستجب كل المعتقلين ، ولكن عددا لا بأس به من القيادات استجاب وتحول عن اعتقاده ، ولكن قبل أن تثمر التجربة تسرب الخبر الى صحفيي روزاليوسف.

قال الشاب: وماذا فعلوا ؟!

قال الكاتب:

قاموا بأكبر عملية تحريض ضد وزير الداخلية وضد الشيوخ الذين رعوا تلك المراجعات ، واتهموا الدولة ساعتها بأنها تبيع الصحفيين الأبطال ـ فى زعمهم ـ الذين يتصدون للإرهاب ، وتتحاور مع الإرهابيين الذين لا ينفع معهم إلا الاعتقال أو الإعدام ، وأن كل من يزعم توبته منهم يخادع الدولة وسيخرج ليعيد الكرة من جديد ، وهذا الأمر قد يبدو مفهوما لبعض القيادات ، لكنه قطعا لم يكن هذا صحيحا بالنسبة للكل ، فالذين استجابوا فعليا لهذه المراجعات ظلوا كما هم بل وكانوا حتى فى أيامنا هذى من أفضل

من تصدى لفكر رفاقهم السابقين فى الجماعات ، مثل نبيل نعيم مؤسس تنظيم الجهاد نفسه ، ومثل الدكتور ناجح إبراهيم ، ومثل الآلاف الذين انشقوا عن تنظيم الإخوان بمجرد وقوع أحداث ثورة يناير ـ عقب موقف الجماعة المخزى من الانسحاب منها ـ فلما عادت الجماعة لاستغلال نجاح المظاهرات أعلن الشباب كفرهم بتلك القيادات واستمرت الإنشقاقات تترى مع الأحداث حتى فى ظل حكم الإخوان وهم أسماء لامعة ومعروفة من الباحثين الشبان ، وكل هؤلاء كانوا من المعارضين الشرسين فى فترة حكم الإخوان ، بينما فضل الباقون من المستفيدين من التنظيم ، البقاء على معتقدهم القديم سواء كانوا من الإخوان أو من تنظيمات الإرهاب المتحالفة معهم مثل عاصم عبد الماجد وطارق الزمر الخلاصة أن من يقرأ مذكرات شباب الجماعات المتراجعين فى تلك الفترة ويعود لأحداثها ، يكتشف بالفعل أن الداخلية نفسها ـ وليس النظام وحده ـ كان بها إتجاه شديد القوة لردع الأفكار المتطرفة عن أذهان الشباب المغيّب والذى يمثل رقما مهولا ، ومعظمهم يفعلون ما يفعلونه وهم على قناعة تامة ، ولهذا كان من السهل جدا عقد الأمل على المناقشات معهم لأنهم ليسوا إرهابيين مستأجرين أو منتفعين كبعض قياداتهم أو حال قيادات الإخوان اليوم ، وكما قلت لك من قبل ..

فشلت التجربة الأولى للمراجعات نسبيا بسبب فرعى وهو غلو وحماقات بعض القيادات فى الجماعات ، ولكن كان السبب الرئيسي لتراجع الدولة نفسها ما فعله صحفيو روزاليوسف من إعلان الأمر صحفيا وتصويره كما لو كان مؤامرة عليهم !

فكان أن تم اتخاذ القرار بإقالة وزير الداخلية ـ صاحب الفكرة ـ وتعيين حسن الألفي الذى أعاد السياسة الأمنية القديمة فى استخدام القوة الأمنية وحدها وكان من نتيجة ذلك أن استمرت فترة معاناة الدولة من الإرهاب حتى نهاية التسعينات واضطروا للعودة مرة ثانية لفكرة المراجعات فى محاولة لتقليص عدد المنتمين لتلك الجماعات ، وكانت تجربة المراجعات الجديدة هى التجربة الناجحة قطعا وفككت أغلبية تلك الأفكار عند منتسبيها بنسبة كبيرة جدا .

سأل الشـــاب:

ولكن هل كانت الدولة تفرج عن المتراجعين ؟!

قال الكاتب:

لم يتم الإفراج عن احد إلا عن بعض المعتقلين على سبيل الاحتراز، أما المتورطون

فى عمليات الإرهاب فكانوا يقضون فترة عقوبتهم كاملة ، وما يكسبونه من المراجعات هو منطق ردهم لمفهوم المواطنة مرة أخرى ، وهذا مكسب كبير فى حد ذاته ، بالإضافة لمكسب أمنى بالغ الأهمية ، وهو أن بعض المتراجعين كانوا من قيادات التنظيمات كما سبق القول ، فأفادوا الأمن كثيرا بالمعلومات المتوافرة لديهم ولهذا تحققت النتيجة الأكبر فى تلك الآونة أن أصبحت التنظيمات المتطرفة لا تحتوى شبابا غريرا بأعداد ضخمة كما كان يحدث بالماضي ، واقتصر الإرهاب على زعماء الإرهاب فى الخارج بمؤامراته الدولية المعروفة أى أنه أصبح مرهونا بأعمال العصابات المستأجرة وفقدت تلك الجماعات كل أرضية لها فى مصر فى نهاية التسعينيات ..

قال الشاب: وهل يمكن استخدام المراجعات والدعوة للمصالحة كما يردد البعض هذه الأيام ؟!

أجاب الكاتب :

لا مفهوم لمعنى المصالحة الآن أصلا ، فالظرف الآن يختلف كليا عن تجربة التسعينات فمنسوبي الجماعات فى نهاية القرن الماضي كان من الممكن القول بأنهم من المخدوعين أما بعد تجربة الإسلاميين فى الحكم والتناقض الفاضح والكاسح بين شعاراتهم قبل الحكم وبعده ، واعترافاتهم الصريحة وتبنيهم لكل أعمال الإرهاب فى ما بعد ثورة يونيو فضلا على تبجحهم بخيانتهم علنا واستعانتهم المعلنة بحلفائهم فى الغرب وتدخل الغرب تدخلا غير مسبوق لمحاولة إنقاذهم ، كل هذه العوامل لا تجعل هناك عذر بالجهل لكل من ساندهم ويساندهم الآن ، ففي معيار الوطنية لا يوجد اختلاف مقبول فى الرأى بل يوجد حق واضح وباطل واضح .. ولهذا لم يعد مع الإخوان إلا من استفادوا ويستفيدون من التنظيم ، أو يرتبطون معهم بمصالح مشتركة.

تساءل الشاب: وماذا عن تكرار العلمانيين لنفس لعبة التسعينات فى التحريض ضد ثوابت الدين ..

قــال الكـاتب:

رغم أن العلمانيين يكررون نفس التجربة وبنفس الأسماء القديمة، عن طريق تصدر صحفيي التسعينات للمشهد اليوم بنفس الأسلوب ، وإعادة طبع كتب فرج فودة، ونصر أبو زيد، وزيادة درجة الوقاحة والسفالة والطعن فى الدين ، والدعوة لترك الإسلام بالكلية، إلا أن كل هذا لا يمثل عذرا من أى نوع لمناصرة الإخوان أو مناصرة الإرهاب ، وذلك

لأسباب ظاهرة الوضوح ، فالإعلام الخاص هو الذى يقود معركة العلمانيين اليوم وليس إعلام الدولة كما كان فى السابق ، والإعلام الخاص بتمويله المعروف من رجال الأعمال لا يعمل إلا لما يخدم مصالحه، حتى لو ضد الدولة، فضلا على حقيقة هامة كررتها كثيرا لك من قبل، فحتى لو ناصرت الحكومة هجمات العلمانيين صراحة وتبنت أفكارهم ، فلا يعنى هذا أن نكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فنذهب لمناصرة الإرهاب !

فهذه المعادلة الملعونة يجب أن تنكسر، والعلمانيون هم من فرضوها على المجتمع وابتزوا بها الناس ، حتى لا يبقي فى الساحة إلا أنصار الإلحاد وأنصار الإرهاب !!

مع أن الشعب المصري يضم الملايين ممن يرفضون الجانبين بنفس القوة، ويحاربونهم بنفس القوة أيضا، ولو لم تنتبه الدولة لهذا الفخ الذي دبره العلمانيون، فإن حالة الاستقطاب ستزيد وتتسع ، وتبتلع الوطن بأكمله، ولكن بفضل الله تعالى فإن الوجه العلمانى والإخوانى يحظيان بنفس الكراهية عموم الناس، ويكتب الكثيرون ضد الجانبين ، ولو انضمت الحكومة بمؤسساتها إلى الجانب العلمانى كما يتمنى العلمانيون ، فسنكتب ضد توجهها هذا دون أن نتنازل عن مناصرتها فى معركة الإرهاب فى نفس الوقت ، وهذا هو موقف كل مسلم معتدل منذ نشأة الفرق المنشقة عن أهل السنة وحتى اليوم ، فقد حارب أهل السنة فرقة الخوارج ، كما حاربوا المعتزلة أيضا.

قال الشـــاب: والمعتزلة هم كالعلمانيين اليوم ، أليس كذلك ؟!

قال الكاتب:

المعتزلة هم الآباء الشرعيون لاتجاه العصرانية الذى ظهر فى بداية القرن الماضي واعتمد على الفلسفة فى نقد الثوابت، وهم يشابهون العلمانية وكافة أهل البدع فى إنكار العمل بالسنة الثابتة، ولو أنك تأملت أقوال الفرق جميعا ورغم تناقضها الكبير فى أفكارها إلا أنهم جميعا اشتركوا فى العداء الشديد للسنة النبوية الواردة عن طريق الصحابة ، واشتركوا فى بغض الصحابة أنفسهم ، فضلا على كافة علماء السلف، وعليه سنعرض لقضية الفلسفة الكلامية وشبهاتهم ، وعلاقة فلاسفة الماضي بالعلمانيين والمتغربين اليوم فلسفة الأديان وتيار التغريب.

قال الشاب: توقفنا سابقا عند فلسفة الغرب ولكن ما السبب فى تحريم فلسفة الأديان ؟!

أجاب الكاتب:

لقد هاجم العلماء نوعا واحدا من الفلسفة فقط وهو ما يسمى (بفلسفة الأديان) لأنها فلسفة ضلال فضلا على أنها فلسفة غير منتجة أصلا فهى تبحث عن حقائق الأمور الغيبية ، وهذا تخلف محض لأن إدراك حقيقة الغيب أمر مستحيل ، لهذا فكل فلاسفة الأديان مجموعة من مرتادى مستشفيات الأمراض العقلية وانظر بنفسك إن شئت ما تقوله فلسفة أفلاطون وأرسطو ـ وهى المصدر الرئيسي لفلسفة الأديان عند المعتزلة ـ انظر ما يقولون فى وصف الكون والخالق والقانون الطبيعى والعقل الأول والمدينة الفاضلة ، والحاكم الفيلسوف .. إلخ ، وربما كان هؤلاء الفلاسفة القدامى معذورين بالجهل لكن ما هو عذر المعاصرين من الذين عظموا نفس أفكارهم وأحبوا تطويع المعارف الدينية لفلسفتهم.

قال الشاب فى دهشة: ألا تعتبر وصف الجنون قاسيا على أفلاطون وأرسطو رغم تعظيم الناس لهم.

أجاب الكاتب:

لقد قلتُ ذلك استنادا إلى ما طرحوه من أفكار، أما أنت فتردد ما تسمع دون أن يخبروك بفحوى هذه الأفكار وهذا يثبت صحة وجهة نظرى بأن معظم المتشدقين بالفلسفة لا يعرفون عنها شيئا ويتخذونها فقط للظهور بمظهر المتنورين، ولن أكثر عليك بشرح مطول فى هذا الباب ، فيكفي أن أذكر لك بعض الأمثلة لتصورات أفلاطون وأرسطو وسأترك الحكم على تلك الأفكار لك وللقارئ ما الذى تحكم به على إنسان يدعو إلى مفهوم المدينة الفاضلة ـ أى المدينة المثالية فى وجهة نظره ـ بأنها المدينة التى تحتوى ثلاث طبقات، طبقة الحكام الفلاسفة فى الأعلى وطبقة الحراس والشرطة فى الوسط وطبقة عوام الناس من الحرفيين ، ويحكم بعنصرية مطلقة بمنع أى فرد من ترك طبقته إلى طبقة غيرها مهما كانت الأسباب ، حيث أن الطبقات محددة سلفا ، بمعنى أنك لو كنت من أبناء العوام وأظهرت نبوغا يؤهلك للحكم فهذا غير مسموح لك به ، وهذه هى أفكار أفلاطون للمدينة المثالية وهى نفس الأفكار التى أسست فيما بعد لعنصرية الطبقة الحاكمة فى أوربا عبر تاريخها ، والتى عاشت بسببها أوربا فى عصور الظلام بينما حضارة الإسلام تنير العالم شرقا وغربا أما الجنون الحقيقي فيتمثل فى أن أفلاطون لا يعترف بحق الملكية الفردية بل يجب أن تمتلك الدولة كافة وسائل الإنتاج ـ وهى بذرة الشيوعية بالمناسبة ـ ثم بلغ به الجنون إلى حد دعوته بتخصيص فترات معينة تسمح

فيها الدولة بالإنجاب حفاظا على قوة النسل ، فإذا خالف الناس هذه القاعدة فعلى الدولة أن تقضي على النسل الناتج !!

أما أصحاب العاهات وأصحاب الأمراض المزمنة فيري أفلاطون أنهم عالة على المجتمع ويجب تركهم وعدم علاجهم لأن الطب ينبغي أن يظل فى خدمة الأصحاء والأقوياء للحفاظ على صحتهم تكريسا لمفهوم قوة الدولة [٥٥]

فما رأيك يا ترى بهذه الفلسفة ؟!

قال الشاب فى دهشة: هل هذا هو معنى المدينة الفاضلة أو يوتيوبيا الشهيرة ؟!

ثم أضاف : ولكن هذه فلسفة حكم فماذا عن فلسفة الأديان؟!

قال الكاتب:

لا تختلف كثيرا عن هذه الهرطقة وهى فلسفة وثنية تعتقد بقدم العالم ـ أى أن الكون أزلى وغير مخلوق ـ وتصف الخالق بأوصاف لا تليق ، وهى نتاج طبيعى لإنكارهم مفهوم الأديان والرسل ولهذا عندما نقل المعتزلة أفكار أفلاطون وأرسطو وحاولوا صبغتها بصبغة الإسلام تصدى علماء السنة لهم بشدة فعلماؤنا لم يهاجموا الفلسفة أو التفكير أو إعمال العقل بل هاجموا تضييع العقل فى قضايا غير منتجة، والفارق ضخم جدا، فجمهرة كبيرة من المثقفين مع الأسف الشديد نظرت إلى الفلسفة على أنها مجال محدد كالعلم له قواعد وتاريخ يجب الإلتزام به لكل من أراد أن يمارس الفلسفة!

وهذا خلط رهيب قد وقعوا فيه وسبق أن شرحت لك الفارق بين العلم وبين الفلسفة، فالعلم ميراث مشترك يمكن أن تتبادله الشعوب أما الفلسفة فتراث إنسانى يخص كل أمة حسب مصادر معرفتها وبالتالى ففلسفة الغرب تختلف تماما عن فلسفة الشرق لإختلاف مصادر التلقي واختلاف الموروث الثقافي والنظرة للكون والعالم، لكننا للأسف وقعنا كمسلمين فى فخ التغريب بسبب تصدير الغرب أفكاره إلينا، فاقتنع به المفكرون ممن يشعرون بالضعف والضآلة أمام التقدم الغربي فظنوا أن الفلسفة لا تعنى إلا أفلاطون وأرسطو ونيتشه ومونتسيكيو!، وظنوا أن الفكر لا يكون فكرا إلا إذا اقترن بالأفكار الغربية

والمفارقة المضحكة حقا أن الغرب الآن يراجع هذه الفلسفات وينتقدها، وبعض المفكرين الغربيين اتهموا نيتشه وديكارت بإفساد العقل الغربي، ففلسفة الشك التى ابتكرها ديكارت يقول الدكتور مصطفي محمود أنها أدت بأحد الفلاسفة إلى القول عن

---

(٥٥) للمزيد عن مفاهيم الدولة والكون عند أفلاطون وأرسطو يرجى مراجعة كتاب (القانون الطبيعى) ـ د/ طه عوض غازى ـ رئيس قسم فلسفة القانون بحقوق عين شمس.

نفسه أنه الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم والباقي كله عبارة عن أوهام فى خياله هو !! ومفكرنا العظيم عبد الوهاب المسيري له أفكار نقدية رائعة وضح فيها مصائب ما بعد فلسفة الحداثة الجارية فى أوربا الآن ، وجاء الإعلام المغرض ليكمل التغريب وانظر معى مثلا إلى الإعلام منذ بداية القرن العشرين ستجد أنه يُعظم ويطلق الألقاب الفخمة على أناس بعينها ، فسمعنا لقب عميد الأدب على طه حسين ولقب أستاذ الجيل على أحمد لطفي السيد ولقب الأستاذ الإمام على محمد عبده ، وغيرهم كثير .. وأنا لا أنكر الألقاب ومعرفة فضل أصحاب العلم والفكر ولكن السؤال لماذا اهتمت دوائر الإعلام والدولة ودعاة ما يسمى بالتنوير بهؤلاء المفكرين تحديدا ، وصيغت باسمهم المؤتمرات والندوات واحتفت بهم الدولة فأنتجت عنهم الأفلام والمسلسلات بل وقاموا بتدريس حياتهم على طلبة المدارس حتى خرجت أجيالنا ومن سبقونا وهم يرددون ما تم تلقينهم إياه دون أن يقرأ أحد منهم حرفا واحدا من حقيقة أفكار هؤلاء المفكرين فى نفس الوقت الذى تمت التعمية المقصودة على أعلام أفذاذ جاءوا فى نفس العصر ولكنهم لم يكونوا سفراء للفكر الغربي بل تصدوا له بالفكر الإسلامى وسحقوهم سحقا فى معارك فكرية مشهودة مثل كتابات محمود شاكر[٥٦] وشقيقه العلامة أحمد شاكر[٥٧] وكتابات الرافعى[٥٨] فى الرد على طه حسين وردود الشعراوى والغزالى على العلمانيين، فتم تحجيم كتب هؤلاء حتى اختفت أسماؤهم تقريبا من عالم الإعلام والتعظيم ؟!

وعندما تعددت وسائل المعرفة ولم تعد تحت سيطرة الحكومات، وخرج فى نفس الوقت أجيال جديدة من المثقفين احتكت بغيرها، هنا أحب هؤلاء المثقفون أن يتعرفوا على الرموز بعد القراءة عنهم ، وبالطبع اكتشفنا ساعتها ما كان يحدث لنا، وعرفنا أن هناك شخصيات أخرى كثيرة أجدر بالإتباع والتقدير ولأن العقل العربي المعاصر ترك القراءة وأهملها حتى وصل الأمر الآن إلى مستويات غير مسبوقة فى التقليد حتى بين الصحفيين والإعلاميين، وتأمل واقع كتاباتهم ستجد أنهم يقعون فى أخطاء غريبة

---

(٥٦) محمود شاكر الأديب والناقد الكبير وشقيق العلامة المحدث أحمد شاكر ، ويعتبر محمود شاكر من أعيان مفكرى مصر فى حقبة الخمسينات وله كتاب معتبر فى الرد على طه حسين ولويس عوض بعنوان (أباطيل وأسمار)

(٥٧) العلامة أحمد شاكر المحدث المصري المعروف وهو واحد من أكبر أربعة علماء حديث فى القرن العشرين وهو من قام بتحقيق مسند الإمام أحمد بن حنبل كما له كتابات ومقالات رائعة فى التصدى للتغريب أشهرها كتاب (حكم الجاهلية) وهو وشقيقه محمود شاكر نجلا الشيخ محمد شاكر أحد أكبر شيوخ الأزهر فى العشرينات

(٥٨) للرافعي كتاب شهير فى الرد على طه حسين بعنوان (تحت راية القرآن) يعتبر أقوى وأقدم وأشمل الردود المكتوبة على مفتريات كتاب الشعر الجاهلى.

ويجهلون حتى بعض المسلمات التاريخية والثقافية ، وبالتالى فالذى نظر للقراءة على أنها عناء اضطر إلى ركوب موجة الإعلام الموجه فصدق كل ما يُـقال عن الشخصيات الشهيرة دون أن يكلف نفسه عناء البحث خلفها حتى بهدف التعلم والفائدة وليس هدف النقد، ولهذا تجد الإعلاميين والكتّـاب اليوم يرددون كالببغاوات كلام من عينة رواد الفكر التنويري طه حسين وسلامة موسي ومحمد عبده دون أن يقولوا لنا ـ ولو لمرة واحدة ـ مثالا واحدا أو فكرة واحدة أتى بها هؤلاء المفكرين وساهمت فى إحياء العقل العربي أو التجديد الدينى كما يزعمون ! ، ولم يخبرونا بطبيعة هذه الأفكار ومصدرها وأهدافها ونتائج تطبيقها على الدين والحياة..

ولهذا لو قمت اختبار بسيط لأى مؤيد لأفكار طه حسين أو محمد عبده وسألته نفس السؤال فسيعجز عن ذكر مثال واحد أو عمل واحد لهؤلاء يصلح أن يكون مسوغا لوصفهم بالنبوغ والتفرد!

قال الشاب فى دهشة : ما معنى هذا الكلام ؟ هل تعنى أنهم يؤيدون الأسماء دون أفكار محددة ؟!

قال الكاتب:

ليس كل مؤيديهم كذلك، فتلاميذ طه حسين ومحمد عبده الذين أخذوا منهم مباشرة ـ وبينهم قيادات وزارة الثقافة وقيادات الجامعات على مدار نصف قرن ـ يعلمون تماما أبعاد المشروع الفكرى لأساتذتهم ويؤيدونه قلبا وقالبا، ولكنهم يتعمدون عدم ذكر التفاصيل لأنهم لو ذكروا الأفكار والتفاصيل سيفزع منهم الناس جميعا حتى من يشجعونهم، أما بقية المثقفين المعاصرين فهم يرددون التعظيم والتفخيم دون إدراك لحقيقة المكتوب ذاته ، وأنا لا أعرف يقينا رد فعل هؤلاء لو سمعوا التفاصيل، لكن بالتجربة العملية وجدت كثيرا من الشباب استنكروا بشدة أفكار طه حسين وغيره من دعاة ما يسمى بالتنوير بل إن بعضهم لم يصدق ما ورد فى كتبهم حتى رجعوا إليها بأنفسهم أما المثقفين المعلبين الذين يرددون الألقاب والأوصاف العامة دون تحديد ، فقد جرت لى معهم تجربة بسيطة تدلك فى بساط على مدى ضحالة العقول عندما تفتقر المنطق، فقد سألت بعضهم سؤالا واحدا فقط، ما هو سبب إطلاق لقب عميد الأدب العربي على د. طه حسين ، وما هى أفكار التجديد والتنوير فى الدين والأدب التى جددها وأعلاها ليستحق هذا اللقب..

وهو سؤال بالغ البساطة وسؤال مشروع جدا ، لأن خلفية الألقاب تاريخيا من المفترض أن تكون مقترنة بأصحابها ..

تماما كما نطلق على البارودى وشوقي وأم كلثوم وعبد الوهاب ألقاب خاصة بهم بسبب أن لكل منهم عمل إبداعى ونهضة تسبب فيها ، فالبارودى وشوقي أعادوا إحياء الشعر العربي من مرحلة الإنحدار المملوكى الفادح إلى آفاق اللغة الرصينة والمتمكنة ، وأم كلثوم وعبد الوهاب نهضوا بموسيقا الشرق من إنحدار الحدود الضيقة إلى آفاق العالمية .. وهكذا ورغم بساطة السؤال عن طه حسين ، فقد عجزوا تماما عن الإجابة ، بل الأفدح أنهم يجهلون حتى الظرف التاريخى لهذا اللقب ، وأجابنى أحدهم أن الغرب وجامعات الغرب هم من أطلقوا على طه حسين هذا اللقب وهذا مخالف للواقع على طول الخط ، لأن طه حسين كان عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة واشرف وسمح بمسرحية إلحادية على مسرح الكلية هاجت بسببها الجماهير ، فصدر قرار إقالته من رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، فناصر العلمانيون وصحف التنوير طه حسين فأطلقوا عليه هذا اللقب !!

أى أنها تسمية صحفية معاندة جاءت من بعض مناصري الإتجاه الحداثي والثقافة الغربية وتتعلق بواقعة المفترض أن يخجل منها طه حسين ، فانظر كيف أبقوا على اللقب وروجوا أنه لقب مستحق لعطاء طه حسين فى الدين والأدب ، ويكفيهم للفضيحة الكبري أن بعضهم لا يعرف أن طه حسين نفسه ليس متخصصا فى الآداب العربية أساسا والدكتوراة التى حصل عليها فى تخصص آخر تماما من تخصصات التاريخ بل إن معظم معاصري طه حسين وأساتذته فى جامعة القاهرة لهم شهادات مؤثرة جدا لا يعلمها أحد حول حقيقة علاقة طه حسين بالأدب العربي منها شهادة زكى مبارك مثلا وهو قامة علمية كبري كان من أشد المستنكرين لقبول جامعة القاهرة تعيين طه حسين عميدا لكلية الآداب باعتبار أن أكابر أساتذة المجال أولى منه أما عطاؤه من الناحية الدينية هو كما رأينا فى كتبه ولا يمت لصحيح الدين والتاريخ بصلة ، وفى مجال الأدب فليس هناك عطاء عملاق يستحق اللقب فى ظل وجود رموز أدبية فاقت طه حسين إبداعا ونقدا فى كافة مجالات الأدب كالرواية والشعر وغيرها ، لأن أصحاب العمادة الحقيقيين هم أصحاب المدارس الأدبية نثرا وشعرا مثل محمود تيمور ومحمد حسين هيكل فى الرواية ومثل شوقي والبارودى وحافظ ومطران فى الشعر ومثل العقاد ومحمود شاكر

والرافعى فى النقد والتاريخ الأدبي ، وبالتالى فلقب العمادة هنا يستحقه أكثر المعاصرين والسابقين لطه حسين ناهيك عن أن طه حسين لو نظرنا له نظرة أدبية بحتة فسنجد أنه طعن الأدب العربي طعنة نجلاء تستثير كل غيور على تاريخ الشعر العربي ، وكيف لا وهو الذى شكك فى نسبة الشعر الجاهلى كله لأصحابه وشكك فى نهضته وأصوله ، وهذا ما لم يقل به إلا المستشرقون بدوافعهم المعروفة ، لهذا كان من المثير للسخرية حقيقة أن يمنحوا طه حسين لقب عميد الأدب العربي والرجل نفسه شكك فى التراث الأدبي العربي كله ! لكن القصة ليست قصة إبداع وعطاء من الأصل، وإنما القصة مجملها يدور فى فلك التغريب الذى يمثل فيه طه حسين ثقلا ومكانة ، وأنا هنا أتحدث عن فترة كتابته وترويجه لأفكار المستشرقين.

قــال الشــاب:

أعطنى بعض الأمثلة على ما قالوه .

قـال الكـاتب:

أما ما قاله الشيوعيون والعلمانيون معتنقي الفكر الغربي فهذا منتشر ومعروف لأنهم لم يتدثروا بالإسلام لنشر أقوالهم ، ولكن الكارثة كانت فيما ينسبون أنفسهم للفكر الإسلامى ثم يدسون أفكار العلمانية والوجودية وكلام المستشرقين فى طيات كتبهم، وأكبر هؤلاء هما الأديب أحمد امين صاحب سلسلة فجر الإسلام وضحى الإسلام ويوم الإسلام والتى حشاها بتلك الأفكار التى أخذها عن المستشرقين ، وطه حسين فقد كتب هذا الرجل كتابا سماه (فى الشعر الجاهلى) ثم قرره على طلبة كلية الآداب بجامعة القاهرة والتى كان عميدا لها فى ذلك الوقت عندما كان لطفي السيد رئيسا لها ، وتسرب الكتاب ومحتواه للصحافة فانقلبت الدنيا رأسا على عقب لأن طه حسين شكك كما قلت فى نسبة الشعر الجاهلى لأصحابه، وانخذ هذا الأمر فرعا ليشكك ويقول فى القرآن الكريم أقوالا شنيعة لا يمكن أن تصدر من مسلم مثل قوله أن آيات القرآن المكية يظهر فيها أثر شدة الصحراء وحياة البداوة ، وأن آيات القرآن المدنية فيها الرقة واللطف النابع من جو المدينة ! وهذه مصيبة قطعا لأن معنى الكلام أن النبي عليه الصلاة والسلام هو مؤلف القرآن وهو الذى تأثر باختلاف البيئة !!

كما أنه أنكر صحة وقوع قصة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام وبرر إنكاره لها بأنه لا يوجد دليل على حدوثها إلا ورودها فى القرآن ! ولست أدرى أين دليل يريده بعد ذلك ؟!

وقد رد علماء الأزهر والمفكرون على كلام طه حسين ردودا عنيفة كان أجملها ما كتبه

الرافعى فى كتابه المتقن (تحت راية القرآن) حيث فند بالأدلة تهافت أقوال طه حسين وأنها مكتوبة بلهجة لا يمكن صدورها عن مسلم ..

وليته اقتصر على ذلك..

بل حاول أن يسلب العرب تاريخهم ونبوغهم فى أشرف مجال نبغوا فيه، ألا وهو التراث الأدبي واللغوى فزعم أن الشعر الجاهلى كله لم ينتجه شعراء العرب فيما قبل الإسلام ، بل هو من وضع وتأليف شعراء المسلمين فى العصر العباسي، والهدف واضح بالطبع وهو أن يسلب الجنس العربي أى دليل على النبوغ فى أى مجال، وبالطبع هذا تصرف حاقد يمكن أن نفهمه من المستشرقين لكن لا يمكن فهمه ممن ينتسب إلينا خاصة وأن الحضارة العربية حضارة بيان لا حضارة بنيان، وقد نزل فيهم القرآن الكريم متحديا إياهم فى مجال تفوقهم وهو اللغة والتعبير، وهذا دليل على وصلوا إليه فى الإنتاج الأدبي ثم كانت الطامة الكبري عندما كشف العلامة محمود شاكر بعد ذلك أن طه حسين لم يكتب هذا الكلام من عنده !!

بل إنه أخذ أفكار الكتاب من المستشرق اليهودى المعروف مرجليوث والتشابه بين نصوص الكتاب وأفكار مرجليوث لا يمكن الزعم بحدوثه مصادفة لأنه بلغ حد التطابق حتى أطلق عليه محمود شاكر عنوانا ساخرا (هذا الكتاب عنوانه الحقيقي يجب أن يكون حاشية طه حسين على متن مرجليوث)[٥٩]

أما بقية كتب طه حسين وبالذات كتاب (الفتنة الكبري) الذى أخرجه فى جزءين فهو من الناحية العلمية محشو بالروايات الضعيفة والمنكرة لأحداث التاريخ الإسلامى وكلها روايات مدسوسة فندها العلماء المحققون ، لأنها منكرة سندا ومتنا ونصيحتى لكل من أراد قراءة التاريخ الإسلامى عدم اللجوء لمصادر التاريخ الأصلية مثل تاريخ الطبري لأنها مكتوبة للمتخصصين حيث أن العلماء الأقدمين كان من طريقتهم إيراد كافة الروايات الصحيحة والضعيفة مع ذكر أسانيدها وترك الترجيح بينها للمحققين ، ولهذا فالقارئ العادى عليه اللجوء لمؤلفات المحققين مثل كتاب العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ، ومؤلفات العديد من المعاصرين مثل كتابات الدكتور محمد أمحزون والدكتور أكرم العمرى والدكتور خالد كبير علال، ومؤلفات الدكتور علال تناسب الشباب الذى لا يصبر على قراءة المراجع الضخمة فبحوثه مختصرة ودسمة وموثقة..

---

(٥٩) يرجى مراجعة كتاب (أباطيل وأسمار) للعلامة محمود شاكر ـ طبعة دار الخانجى بالقاهرة وكذلك كتاب (تحت راية القرآن) ـ مصطفي صادق الرافعى ـ مكتبة مصر .

القصد .. فطه حسين لجأ إلى كتابات المبتدعة وأصحاب العداوات مع الصحابة كما لجأ إلى سقط الروايات ليعطى تصورا رهيبا عن أحداث الفتنة الكبري لم يقع منه شيئ قط [٦٠] وهناك مصيبة يجب الإنتباه إليها، وهى أن السرقات العلمية لأصحاب هذا الإتجاه من كتابات المستشرقين كانت تتم بموافقة أهل الإستشراق الغربي الذين سكتوا عنها فعلا حتى أن أحمد أمين نصح أحد الكُتاب الذى نقل أفكار المستشرقين ونشرها فحوكم بسببها ، فقال له ناصحا بأن ينقل الأفكار ذاتها ولكن لا ينسبها لأحد من أهل الإستشراق حتى لا يستعدى عليه الناس وليجعلها من عند نفسه.

قال الشاب : وماذا عن محمد عبده ؟!

قال الكاتب :

محمد عبده كان شيخا ومفتيا وإماما كبيرا لكن مشكلته الكبري تتمثل فى أنه وارث ومجدد لفكر المعتزلة متأثر بهم لأبعد الحدود فى رؤيته الدينية ،

وثانيا انضمامه لفترة طويلة مع جلال الدين الأفغانى بكل ما يحيط بهذا الرجل من تاريخ مشبوه ، وثالثا عداوته الشديدة مع علماء الأزهر المحافظين أورثته رفضا عنيفا لكل فكر وفقه أهل السنة ، فجنى على نفسه حقيقة عندما ترك الفكر السنى ولجأ إلى أفكار المعتزلة فأحياها من جديد فى تفسيره للقرآن ، والمعتزلة كما هو معروف هى فرقة نشأت فى صدر الإسلام ترفض العمل بالحديث النبوى بل وحتى بنصوص القرآن إذا عارضت العقل ـ فى زعمهم ـ ولهذا تسببوا فى الفتنة الشهيرة فى زمن الخليفة العباسي المأمون المعروفة بفتنة خلق القرآن ، ويمكنك العودة لتفاصيلها فى كتب التاريخ لتعرف أحداثها[٦١] ومحمد عبده اتبع خطى المعتزلة فى إنكاره للعديد من مسلمات ومعجزات النبوة تحت زعم أنها ضد العقل ! فقام بتفسير الطير الأبابيل والحجارة من سجيل بأنها ليست حجارة من جهنم بل هى أمراض وميكروبات خبيثة من التى نعرفها فى عصرنا ولكنها

(٦٠) لمن أراد الروايات الصحيحة فى قصة وأحداث الفتنة الكبري بأكملها ، يرجى مراجعة دراسة الدكتور محمد أمحزون للدكتوراة بعنوان (تحقيق موقف الصحابة من الفتنة) وكذلك كتابات وبحوث د. خالد كبير علال فى نفس الموضوع وهى منشورة بموقع (صيد الفوائد ، وكذلك سلسلة تاريخ الإسلام للدكتور على الصلابي كتاب (الخلافة الراشدة) وكتاب (الدولة الأموية).

(٦١) المعتزلة هى واحدة من كبريات الفرق العقائدية التى ترجمت فلسفة اليونان وكان من رموزها الجاحظ وأحمد بن أبي دؤاد وانتشر نفوذهم فى زمن الخليفة العباسي المأمون وفرض المأمون أفكارهم المنكرة للسنة على الناس بالجبر والقوة واستمرت فتنة خلق القرآن طيلة زمان المأمون والمعتصم والواثق حتى جاء المتوكل فرفع هذه الغمة وكان من أبطال أهل العلم الذين أصروا على رفض أفكار المعتزلة الإمام أحمد ابن حنبل الذى تم سجنه وجلده طيلة هذه الفترة ، وكذلك أحمد بن نصر الخزاعى ومحمد بن نوح وقد لقيا مصرعهما بسبب موقفهما المساند للإمام بن حنبل.

لم تكن مكتشفة فى تاريخ النبوة الأول ! ، كما أنكر وقوع معجزة إنشقاق القمر تحت نفس المبرر ! وبالطبع هذه كلها أفكار مريضة لا تتفق حتى مع العقل الذى يزعمون اتباعه فكيف يمكن لعاقل أن يقول بأن العقل يجب أن يستوعب المعجزات ، كيف يستوعبها وهى معجزة أى أنها أمر خارق للعادة يورده الله تعالى كدليل على نبوة الأنبياء ، فمعنى استيعاب العقل لها أى أنها ممكنة الحدوث لغير الأنبياء وهذا يُبطل مغزى المعجزات من أساسه ،كما أن محمد عبده تورط مع الشيعة وشجع أفكارهم المنحرفة رغم تضاده الفكرى العنيف معهم ولكن للغرابة تبنى بعض أفكارهم ، حتى أنه قام بتحقيق كتاب نهج البلاغة ـ أحد أشهر كتبهم ـ والمنسوب زورا للإمام على بن أبي طالب وهو كتاب بلا إسناد أصلا ويحتوى على طوام وبذاءات بحق الصحابة كما هى عادة كتب الشيعة، وما يثير الجنون أن محمد عبده يقف من المعتقد الشيعى موقفا رافضا لهم من الأساس ومع هذا حقق هذا الكتاب المكذوب من أوله إلى آخره.

قال الشاب: ولكن الإسلام حريص على تفعيل العقل..

قال الكـاتب:

بالطبع ما في ذلك شك وقد ورد التحفيز على التفكر فى القرآن بكثرة كاثرة، ولكن العقل عندنا نحن أهل السنة وظيفته التفكر المنتج ، كالتفكر فى شرع الله وكيفية تطبيقه ومعرفة مقاصد الشريعة فى الحياة البشرية ولأجل ذلك تم تأسيس علم كامل يعتنى بهذا الأمر وهو علم أصول الفقه ، كما أن العقل عندنا وظيفته التفكر فى خلق الله لا التفكر فى ذات الله لنص حديث النبي عليه الصلاة والسلام (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا) وهذا ليس مصادرة لحق العقل فى التفكير بل هو توظيف منهجى للعقل حتى لا يضل إذا خرج عن حدوده المرسومة له، لأن أول أوليات العقلانية هى إدراك حدود العقل البشري باعتباره مخلوقا لله ومن الله، وبالتالى فعندما نقول أن العقل من المستحيل أن يدرك كنه الخالق وذاته وصفاته وأمور الغيب المطلق نكون بهذا قد وظفنا العقل كما ينبغي له، وليس العكس فمخترع الأسلحة النارية مثلا يعلم أنه سلاح مؤثر ولكن لكى يصبح مؤثرا فهو يقيس المدى الذى تبلغه الرصاصات المنطلقة من السلاح لكى تكون مؤثرة بالفعل فلو جاءه واحد يقول له اصنع لى سلاحا ذى مدى مفتوح لأصبح فى نظر صانع السلاح مجنونا ، لأن لكل سلاح له مدى يقف عنده وينعدم تأثيره بعده وكذلك العقل، فهو مخلوق من إبداع الخالق وهو أقوى ما خلق فى علمنا المحدود ،

ولكن مهما بلغت قوته سيظل محدود القدرات .. أما العقل عند المعتزلة وجهلة العلمانية وفلسفة الأديان فهو عقل مطلق لا يصح منعه من التفكر فى أى شيئ وكل شيئ ولا يصح منعه أو حجبه عن أى قضية مهما كان إدراكها مستحيلا، فضلا على أن العقل عندهم حاكم على النص وليس محكوما بالنص ، وهذه كارثة كفيلة بتضييع الدين لأن المعتزلى يرفض العمل بأى أمر إلهى ما لم يدركه بعقله أولا وبالتالى فأبسط نتيجة لهذا الكلام أن نصوص القرآن والسنة إذا قالت بشيئ ترفضه عقولهم فلا اعتبار عندهم لهذه النصوص مهما بلغت صراحتها وإلزامها !!، ولهذا أنكروا الصراط وأن القرآن كلام الله وأنكروا المعجزات وغير ذلك من المصائب ومصادر التشريع عند المعتزلة تنص صراحة على أن العقل هو المصدر الأول وليس القرآن أو السنة ! ، ولكى تدرك أن علماء السنة كانوا على حق فى تحذيرهم من فلسفة الأديان ، فيكفي أن تعرف أن المعتزلة لم يفعلوا ما فعلوه إلا بسبب إطلاعهم على كتب فلاسفة اليونان التى قاموا بجلبها فى زمن المأمون وترجمتها للعربية فاغتروا بها وتسببوا فى فتنة عظيمة لا زالت قائمة لليوم عند من يتشدق بحرية العقل والفكر.

قال الشـــاب: وهل هناك حدود لحرية الفكر ..؟!

اعتدل الكاتب قائلا: كل شيئ فى الدنيا مرسوم بحدود معينة ، أما أن تقول بأن الحرية ليس لها حدود فهذا هو التعريف المثالى للفوضي وليس للحرية ، فالحرية مفهوم له ضوابطه القانونية والشرعية ، أما أن تقول أنك مسلم ملتزم بالكتاب والسنة ولكنك ترفض العمل ببعض الفرائض أو الإقتناع بها تحت زعم رفض عقلك لها فهذا لا يستقيم أبدا .. وإلا فما هو معنى الإسلام؟!

إن كنت مسلما فلابد لك من التسليم لأمر الله الثابت بالقرآن والسنة ، أما إن قلت لا ألتزم به فحينئذ عليك البحث من جديد عن إثبات وجود الخالق من البداية ، ثم إثبات صدق رسالة الإسلام وبعدها ألزم نفسك به..

الأمر الهام فى تلك النقطة أن المعتزلة ـ رغم أنهم دعاة العقل ـ إلا أنهم أول من خالفوا المعقول قبل المنقول ، فقد أقحموا العقل إقحاما ليفكروا فى صفات الخالق وكنه ذاته العلية ، متجاهلين مسلمة عقلية ثابتة وهى أن المصنوع لا يمكن له إدراك حقيقة الصانع وإلا كان شريكا له فى المستوى، بمعنى أن تسليمنا لله تعالى بأنه ليس كمثله شيئ ، فهذا يعنى بالضرورة أن العقل البشري مهما بلغت قدراته سيظل عاجزا عن

إدراك كنه خالقه ، ليس هذا فحسب بل إن العقل البشري سيظل عاجزا حتى عن إدراك بعض أسرار المخلوقات كالروح والزمن ومدى إتساع الكون ، فكيف يمكن للعقل بعد ذلك الإدعاء بقدرته على معرفة صفات الخالق على حقيقتها ؟!

فالإسلام عندما حرّم على العقل الخوض فى تلك المسائل إنما حرمها عليه لأنها معركة طاحنة بلا أدنى مبرر أى أنها خاوية من جوهر الفلسفة القائم على إدراك أسباب التفكير وعدم التفكير فى شيئ عبثي لا نتيجة له ، فلك أن تتصور التناقض الواضح بين من يدعو لفلسفة الإلهيات وبين جوهر الفلسفة ذاته..

وهذا ما حدث مع المعتزلة عندما رفضوا الوقوف عند حد العقل البشري ، فلا هم تمكنوا من إدراك حقيقة أى صفة من صفات الله، ولا هم وقفوا عند حدود النهى فالتزموا بالسنة، وعندما عجزوا تماما عن فك طلاسم الصفات اضطروا إلى القول بنفي الصفات كلية عن الله تعالى ! وهذه النتيجة المضحكة تبدو غريبة جدا على من يدعى العقل والفكر ، فهل إذا عجز العقل عن إدراك حقيقة شيئ معين يكون الحل فى نفي وجوده ؟! هذه فضيحة فكرية بكافة المقاييس، فنحن لا ندرك أى معلومة عن الروح ، ما هى وما طبيعتها ، وهل هى مادية محسوسة يفقدها الإنسان بالموت أم أنها معنوية لا علاقة لها بجسم الإنسان ومادته ، وقد عجز العلماء تماما عن إكتشاف أى فارق بين حالة الميت قبل الموت وبعده ، وبالتالى ووفقا لمنهج المعتزلة فى الصفات يكون الحل فى إنكار وجود الروح !! وبالمثل فالإنسان مهما بلغ علمه التجريبي لن يستطيع الوصول إلى دليل مادى على وجود السماوات السبع ولا كيفية العبور فيما بينها ، فهل يكون الحل بإنكار وجودها طالما نعجز عن استيعابها؟! ولذلك تورط المعتزلة فى كفريات شنيعة لا يمكن لمسلم قبولها، ومن ذلك قولهم بأن القرآن ليس كلام الله وأن الله لا يتكلم !! ، ضاربين عرض الحائط بآيات القرآن الصريحة فى أن الله كلم موسي تكليما ، ولاحظ معى أن القرآن استخدم المفعول المطلق (تكليما) لتوكيد المعنى ، وبرروا ذلك بأن القول بكلام الله معناه تشبيه الخالق بمخلوقاته وهذا كفر ، ونحن نقول نعم إن تشبيه الخالق بمخلوقاته كفر ، ولكن من قال لكم إن كلام الله ككلام البشر ، فالإنسان فيه صفة الحياة ، والله عز وجل حى لا يموت ، فهل نقول أن الله ليس حيا ـ تعالى الله عن ذلك ـ حتى لا نشبهه بمخلوقاته ؟!

قال الشاب مذهولا : ولكن ما هو الداعى لفتح هذه القضايا من الأساس ضرب

الكاتب على يده مؤيدا وقال : أحسنت .. هذا بالضبط ما نقوله نحن أهل السنة من أن فلسفة الإلهيات كلام فارغ المعنى ولا يقدم نفعا من أى وجه فضلا على كونه كفرا صريحا بإنكار النصوص ، والمعتزلة هم المُثل العليا للعلمانيين اليوم فكل ما لا يفهموه أو يقبلوه من نصوص الشرع يرفضونه على الفور ولو كان واردا فى القرآن ؟!

سأل الشاب : هذا يقودنا للجدل الدائر حول ثبوت السنة وهل هى ثابتة كالقرآن ، وانتقاد البعض لأحاديث البخارى ؟!

قال الكاتب :

هل تعلم أن أحد الأسباب لرواج هذه الأفكار أن العلماء المتخصصون عندما قاموا للرد عليها غفلوا عن حقيقة هامة ، وهى أن هؤلاء الجهلة من المهاجمين لا يفقهون شيئا من علوم الشريعة حتى ترد عليهم استنادا إلى قواعد تلك العلوم ، أضف إلى ذلك أن العوام بل وبعض المثقفين لا يمكنهم استيعاب علم مصطلح الحديث أو قواعد التفسير ، وبالتالى فعلماؤنا يجدون أنفسهم فى مأزق حقيقي عندما يريدون الرد على المهاجمين لأن الجمهور لا يستوعب معظم إجاباتهم

سأل الشاب: ما هو الحل إذا ؟!

قال الكاتب: الحل بسيط للغاية ، لا تناقش هؤلاء الطاعنين إلا مناقشة عقلية بحتة، عن طريق إلزامهم بالتفاصيل فلا تدع لهم الفرصة أبدا للكلام الهلامى العام بل اجبرهم على ذكر أمثلة تطبيقية لما يدعون إليه من فكر ، وعندها سيكتشف الناس تلقائيا أن هؤلاء الداعين للتجديد إنما هم ملاحدة فى الأصل.

قال الشاب : ولكن هذا اتهام خطير ..

عقب الكاتب قائلا :

بدون شك، لكنه اتهام حقيقي مائة فى المائة لمعظم الطاعنين بالسنة هذه الأيام ، وسأثبته لك بسهولة ، ودعنى أسألك ، ألم تسأل نفسك عن سر اتفاق كل أولئك الطاعنين على الصحيحين البخارى ومسلم كهدف استراتيجى للهجوم ، لماذا فى نظرك ركزوا كافة الإتهامات على صحيحى البخارى ومسلم رغم أن الصحيحين لا يحتويان إلا على ٢٠ ٪ تقريبا من السنة الصحيحة العامر بها بقية كتب السنة ، فى نفس الوقت الذى تركوا فيه مئات من كتب الحديث مثل كتب السنن والمعاجم والمستدركات والمسانيد وغيرها ..

السبب الرئيسي لذلك هو أن هدف الهجمات ليس النيل من صحيحى البخارى

ومسلم بل الهدف هو الطعن فى القرآن ، لكن لأنهم يعلمون أنهم لو طعنوا فى القرآن بشكل مباشر لنفر منهم الناس ، لجئوا إلى استخدام الهجوم بالتدريج ، وقد قالها أحد هؤلاء الملاحدة علنا فى ندوة له مع بعض أنصاره تم تسريبها له بالصوت والصورة ، حيث أنه روى كيف بدأ هجومه على البخارى ومسلم بالتأكيد على أنه لا يقصد الطعن فيهما وإنما فقط ينتقد بعض الأحاديث ، ثم طور الهجوم شيئا فشيئا فقال بأن الكتابين بمجملهما لا يثبت فيهم شيئ ، ثم عبر إلى المرحلة التالية ليقول بأن السنة كلها تخالف القرآن ويجب إهمالها وحرقها لأن كل ما فيها أكاذيب ، وجاءت المرحلة الأخيرة ليعبر بهجومه إلى القرآن فيقول صراحة أن آيات القرآن وأحكامه وقتية مرهونة بعصر النبي عليه السلام وحده ، وبالتالى لا محل لها بيننا اليوم ، وأن أوصاف الكفر لا تنطبق على أحد إلا على كفار قريش فقط أما من بعدهم حتى النصاري واليهود والمجوس والذين أشركوا فهم مسلمون من وجهة نظره !!

الشاب : ؟!!!!

أكمل الكاتب:

لماذا تندهش ، هذا الكلام نتيجة طبيعية وقد توقعناها حرفيا ، ولو عدت لكلامى عن هذا الملحد ـ فى بدايات ظهوره ـ ستجد أنى قلت بالنص أنه سيأتى فى يوم قريب ليطعن فى القرآن ، واتهمنا البعض ساعتها بالمبالغة ، لكنها كانت قراءة واقعية للمشهد فقد سبق هذا الملحد ملاحدة على شاكلته اتبعوا نفس الأسلوب ، والهدف من تركيز الهجمة على البخارى ومسلم أنهما أصح كتابين بعد كتاب اللّه ، ويغتاظ العلمانيون كثيرا من هذا التعبير ويتهمون أهل السنة بتقديس البخارى، بينما هم جهلة لأنه لا يوجد عالم قال عن البخارى أنه معصوم بل لا يوجد عالم قبل ما في صحيح البخارى لأجل جلالة مقام البخارى نفسه، بل جاء قبول الأمة لهذين الكتابين بالذات لأن علماء الأمة على مدار ثمانية قرون من أيام البخارى راجعوا الكتاب وأثبتوا صحة كل حديث ورد فيه على شرط البخارى وألفوا فى شرحه أكثر من ثلثمائة مؤلف ، فالتقدير هنا لإجماع علماء الحديث على صحة الكتابين وليس لأجل البخارى ، والدليل على ذلك أن البخارى كتب كتاب (الأدب المفرد) وحكم العلماء على بعض أحاديثه بالضعف ، فلو كان الإجلال لمقام البخارى فلماذا رفضوا إعتماد الأدب المفرد بكامله بل إن كتب الصحاح التى أخرجها العلماء ليست صحيحى البخارى ومسلم وحدهما بل هناك صحيح ابن خزيمة وصحيح

ابن حبان ورغم جلالة مقام ابن خزيمة وابن حبان إلا أن العلماء المحققون راجعوا أحاديث الكتابين فحكموا على بعضها بالضعف والوضع وبهذا فقد الكتابان أهميتهما فى الإستدلال لأن صاحبيهما اشترطا إيراد الأحاديث الصحيحة فقط لكنهما أخلا بهذا الشرط ، ونفس الوضع مع كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى ، ورغم جلالة مقام الحاكم إلا أنه توفي قبل أن ينقح كتابه مما حدا بالعلماء ـ بعد تحقيق كتابه ـ إلى الحكم على ثلثه تقريبا بالضعف والوضع ونظرا لقيمة كتابي البخارى ومسلم فقد ركز أعداء الدين سهام النقد عليهما لأنك إن نجحت فى هدم الصحيحين لن يكون هناك قيمة لأى كتاب آخر من كتب السنة وبالتالى تضيع السنة كلها والأهم تنهار قواعد علم الحديث والنقل وبالتالى يتسرب الشك إلى القرآن نفسه ، وهذا هو هدفهم.

قال الشاب : وكيف عرفت بأهدافهم ولماذا لم تتصور أنهم مخدوعون أو متأولون ؟!

أجاب الكاتب:

حديثي هنا يخص فئة محددة وهى التى تهاجم لمجرد الهجوم دون استناد أو اعتبار لقواعد علم الحديث ، فالعلماء لم ينتقدوا أبدا أى عالم متخصص فى علم الحديث قام بالإعتراض العلمى على بعض أحاديث البخارى ومسلم بل على العكس رحبوا بهذه الإنتقادات وقاموا بالرد عليها الحجة بالحجة ، والدليل أمام الدليل وكانت الغلبة لكتاب البخارى بل إنه حتى بعض المفكرين من أصحاب الفضل فى الدعوة للإسلام قاموا ـ بحسن نية ـ بإنتقاد بعض أحاديث البخارى من جهة الإسناد أو المتن ، لكنهم كانوا معذورين فى هذا بسبب وجود مبرر قوى لديهم حتى لو كان هذا المبرر غير واقعى ، مثل الإمام الدارقطنى وهو إمام جليل من أئمة السنة ، وقد رد العلماء المتخصصون عليهم أيضا مراعين جلالة مقامهم ، والسبب فى حسن الظن بهؤلاء العلماء هو أنهم علماء أصحاب فضل وسبق فى خدمة علوم الإسلام ، أما هؤلاء المجترئين ففيهم من الصفات ما يقطع بسوء النية المبيّت مثل الجهل الشديد والذى وصل إلى درجة عدم إتقان قراءة نصوص القرآن والسنة بل وأحيانا يخطئون لغويا كما لو كانوا من أطفال المدارس ، ومثل ندائهم المتكرر بترك السنة كلها بالإضافة إلى البذاءة وسوء الأدب الذى يفوق الوصف فمع هؤلاء لا يمكن القول بأنهم حسنى النية ، فلا يوجد مسلم يستطيع أن ينادى بترك السنة أبدا .

قال الشاب : ولماذا ؟!

أجاب الكاتب:

رغم غرابة السؤال سأجيبك ، إذا تركنا السنة فلن يتبقي شيئ من الإسلام فالقرآن والسنة صنوان لا يفترقان ، فتفاصيل كافة العبادات وردت إلينا بالسنة أما صفتها العامة فوردت بالقرآن ، فالقرآن أمر بالصلاة والزكاة والحج ، ولكن كيفية الصلاة والزكاة والحج كلها جاءت بالسنة هذا بالإضافة إلى حقيقة عقلية يغفل عنها الكثيرون أن ظهور الطاعنين والداعين لترك السنة هو فى حد ذاته إثبات لصحة السنة الواردة إلينا ..

عقب الشاب مندهشا : كيف هذا ؟!

أجاب الكاتب: لأنه وببساطة قد ورد فى الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه سيأتى قوم من بعده يدعون لترك أقواله ويدعون إلى الإكتفاء بالقرآن وحده ، فحذر منهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وبالتالى فمجرد ظهورهم الفعلى هو دليل كاف على صحة السنة كلها بالإضافة إلى معلومة بديهية تغيب عن أذهان الكثيرين وهى أن هؤلاء الداعين للإكتفاء بالقرآن يخالفون القرآن نفسه فالله عز وجل تعهد بحفظ الإسلام عندما قال فى محكم كتابه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فالله عز وجل استخدم لفظ (الذكر) ولم يقل (القرآن) والمقصود بالذكر هنا هو القرآن والسنة معا لأنهما عنصري الإسلام ، وليس القرآن وحده كما هو منتشر ، والدليل العقلي على ذلك أنه لا توجد فائدة فعلية للإسلام لو حفظ الله القرآن ولم يحفظ السنة ، لأنه لا إسلام بغير القرآن والسنة معا ، وبالتالى فعن طريق العقل وحده تستطيع إن تثبت حفظ الله تعالى للدين بشقيه، ودليل عقلي آخر ..

لو أن الله عز وجل لم يحفظ دينه بحفظ القرآن والسنة معا ، لما قامت الحجة الإلهية على أهل الأرض جميعا ـ فى عصور ما بعد النبي عليه السلام ـ وبالتالى إذا لم تقم الحجة على الخلائق فسيسقط التكليف بالتبعية إذ كيف يمكن أن نتصور أن الله عز وجل سيحاسبنا على الفرائض دون أن يكون هناك مصدر متوفر يشرح لنا المطلوب منا فى العبادات وكيفية هذه العبادة؟!

ولاحظ أن الهجمة موجهة لعلم الحديث ـ وليس لكتب الحديث ـ وهو ما يغفل عنه الكثيرون ، فهؤلاء المهاجمين لا يهاجمون الأحاديث بقدر ما يقصدون إلى تسفيه وتحطيم علم الحديث ذاته لأن هذا العلم الجليل الذى انفردت به أمة الإسلام عن سائر الأمم السابقة هو الذى حفظ القرآن والسنة وحتى التاريخ والأشعار والتراجم بل وحتى

الطرائف والفكاهيات ونقلها إلى الأجيال المتعاقبة كما هى دون تحريف ، وبالطبع هذا إنجاز حضاري يثير غيرة وحقد الغرب والمستشرقين لأن حضارتهم وكتبهم نالتها يد التحريف الفج ، ولا يوجد لديهم إسناد صحيح أو حتى ضعيف بالكتب التى بين أيديهم ، والإنقطاع بين رواية أقدم الأناجيل وبين زمن المسيح عليه السلام تفوق القرون الخمسة من الزمان ، وحاول المستشرقون مرارا هدم قواعد هذا العلم ولكنهم فشلوا ، وجاء أذنابهم اليوم لتحقيق نفس الهدف ألا وهو فصل المسلمين اليوم عن حضارتهم وما يثير الحسرة حقيقة أن مبادئ هذا العلم غائبة إلا عن المتخصصين بينما هى أولى بالتدريس لطلبة المدارس كونها مفخرة المسلمين فى تاريخهم وطريقهم إلى معرفة إنجاز أجدادهم ، فى نفس الوقت الذى يحترم فيه الغرب حضارته المحرفة وكتبه الطافحة بحكايا الأساطير والخرافات ، والعلمانيون العرب حقيقة لا يخجلون إطلاقا ، فالواحد منهم تراه يشمئز إذا استدل أحد بآية فى القرآن أو حديث نبوى أو معركة تاريخية للمسلمين ، وفى نفس الوقت تجدهم يحتفون بأقوال فلاسفة الغرب ويحفظونها عن ظهر قلب ، بل إن دور النشر العربية تحتفي بكتاب المُنجم الغربي الشهير (نوسترادموس) ويصدقون ما فيه ويطرون موهبته الخارقة ـ على حد زعمهم ـ فى النبوءات التى يزعمون أنها تحققت ، !! ، بينما النبي عليه السلام يقول (من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد)

فى نفس الوقت الذى يتركون فيه ويسفهون أحاديث النبي ونبوءات آخر الزمان التى تحققت بنصها وفصها فى عالمنا المعاصر ، أى أنهم يصدقون دجالا مثل نوستمراداموس ويرفضون أحاديثا جاءت بوحى النبي عليه السلام ! ويشيدون بعبقرية الفنان الإيطالى (دافنشي) وينشرون بين الناس غزلا هائلا فى عبقريته التى فاقت عصره وكيف أن نظرياته كانت معجزات تنبأ بها ، فى نفس الوقت الذى يستهجنون وجود الإعجاز العلمى فى القرآن ! ويستغربون أن يحتوى القرآن على إشارات الإعجاز فى مختلف المجالات رغم أن شطرا كبيرا من مسلمى الغرب دخلوا الإسلام بسبب وجود الإعجاز العلمى ، بل وألفوا الكتب فيه ، وأشهر هذه الكتب كتاب العالم الفرنسي موريس بوكاى والذى تمت ترجمته بعنوان (القرآن والإنجيل والعلم) ،

والنظرية العلمية تقول أن وجود الصنعة دليل وجود الصانع ، وبالتالى كيف يمكن تصور عدم وجود إعجاز علمى فى القرآن بينما أمامنا طابور طويل من علماء الغرب أسلموا بسبب دلالات هذا العلم في آيات الله ؟!

فهل يمكنك تصور مدى الخلل النفسي الذى يعيشه هؤلاء القوم ، ينادون بالعقل وهم أول من يخالفون البديهيات ، ويتهمون القرآن والسنة بالخرافة وهم يستضيفون المنجمين فى برامجهم بل ومنهم من يبرمج حياته على نبوءاتهم والأنكى من ذلك أن بعض المذيعات حرصن على توكيد أنهن ضد خرافات التنجيم وأنهم يستضيفون فقط المنجمين الذين يستخدمون علم الفلك فى قراءة الطالع !!!

واللافت للنظر أن بعض الباحثين الغربيين كتبوا عن فضل حضارة العرب على العالم مثل الباحثة الألمانية (زيجريد هونكة) صاحبة كتاب (شمس الإسلام تشرق على الغرب) ، ومؤرخ غربي آخر كتب عن عبقرية خالد ابن الوليد الحربية ، وهناك مؤتمرات علمية سنوية فى الجامعات الغربية تم تخصيصها لدراسات وشخصيات الفكر الإسلامى فهؤلاء العلمانيين أو المتغربين فى بلادنا ، مرضي نفسيين بما يُسمى (احتقار لذات) فهم لا يعترفون ولا يثقون حتى بأنفسهم إلا إذا اعترف بهم الغرب، وحتى فى اللغة، ستجد أن مثقفي العلمانية يفتخر الواحد منهم بإجادته للانجليزية أو الفرنسية ويحشر كلماتها بين ثنايا اللغة العربية، بل وتجد الإعلام يسخر سخرية محرقة ممن يخطئ فى قواعد اللغة الإنجليزية ويتهمونه بالتخلف ، فى نفس الوقت الذى لا يجيد الواحد منهم حتى العامية العربية فضلا عن الفصحى ، ولو تجولت قليلا فى صفحات مواقع التواصل الإجتماعى وفى الصحف ستجد كما مهولا من الأخطاء اللغوية وفى لقاءات الفضائيات لا يستطيع الواحد منهم أن يتحدث بالفصحى لدقائق معدودة دون أن يلحن لحنا فاحشا !

وبعض نجوم المجتمع العربي الآن لا يفرقون حتى بين الحديث النبوى والآية من القرآن ، فقد تكرر كثيرا من هؤلاء رواية حديث على أنه آية قرآنية أو رواية آية ونسبتها للحديث ثم جاءت النكتة الحقيقية أن أحد هؤلاء المتغربين والذى يزعم أنه درس بالأزهر قرأ عنوان كتاب الصحيح للبخارى أن مؤلفه اسمه (جُمعه أبي عبد الله البخارى) ولم يدرك الجاهل الجهول أن عنوان الكتاب مكتوب فيه (جَمعه) ـ أى قام بجمع أحاديث الكتاب ـ أبو عبد الله البخارى ! فقرأ فعل (جمعه) على أنه الإسم الأول للإمام البخارى !! [٦٢]

وبعد هذا يزعمون أمام الناس بأحقيتهم فى انتقاد علماء الأمة وهم لا يجيدون قراءة العربية أصلا.

---

(٦٢) هذه الفضيحة المخزية جاءت على لسان أحدهم ممن يزعم التجديد وينتحل رتبة الدكتوراة فى لقاء تليفزيونى على الهواء ولمزيد من التبجح أصر على قوله أيضا !

قال الشاب: إذا هؤلاء المهاجمين هم من أصحاب الفكر الغربي وفكر الإستشراق الذى يهاجم السنة.

ابتسم الكاتب فى سخرية مجيبا:

دعنا فى البداية قبل مناقشة الفكرة أن ننبه إلى أمر ضرورى أن وصف المفكرين السائرين على درب الإستشراق إنما يخص جيل طه حسين وأحمد أمين لأنهم كانوا بلا شك مفكرين كبار متمكنين من لغتهم وأفكارهم بمعنى أوضح كانوا عمالقة فكر متخصصين يحلو للعلماء أن يجادلوهم ، أما المعاصرون فشيئ آخر تماما فهؤلاء الجهلة المعاصرون لا هم من أصحاب الفكر، ولا العلم وليسوا حتى من أصحاب الشبهات من أعداء الإسلام كالمستشرقين بل هم ببغاوات يرددون فقط ما وجدوه، وعندما حاولوا إبتكار شبهات جديدة من عقولهم جاءوا بكلام ينتزع الضحك من صدور الموتى لفرط جهله ، فمثلا أحد منكرى السنة فى إحدى المنتديات الثقافية دخل فى نقاش لإثبات أن عدم صدق حديث البخارى بزواج النبي عليه الصلاة والسلام من صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها ، فلما سألناه عن سر اعتراضه على وقوع هذا الزواج وهو أمر متواتر فى السيرة باعتبار صفية من أمهات المؤمنين ، أجاب ـ لا فض فوه ـ بأن البخارى يروى أن صفية رضي الله عنها كانت أسيرة من حرب النبي عليه السلام مع يهود خيبر ، وقد خيرها النبي عليه السلام بين أن تبقي معه بشرط الإسلام وبين أن يطلقها لقومها وتظل على اليهودية ، وذلك لأن صفية كانت بنت زعيمهم ، فاختارت الإسلام رضي الله عنها ، فتزوجها النبي عليه السلام لشرفها وجعل مهرها عتقها من الأسر، وعقّب الرجل قائلا ، أن هذه الحكاية غير منطقية لأن الله عز وجل نهى النبي عليه السلام عن اتخاذ الأسري حتى يثخن فى الأرض ، أى حتى يستقر له أمر الدولة وذلك عقب إطلاق النبي عليه السلام لأسري بدر من قريش ، وحقيقة أنا لم أستوعب قصد الرجل فى بداية الأمر وسألته ما علاقة هذا بذاك ، فأجاب بأن غزو خيبر كانت بعد غزوة بدر وبالتالى فلم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام أن يأخذ الأسري من اليهود !!!

لك أن تتصور كيف أن هذا المهرطق ظن أن مقصود الآية هو قتل كافة الأسري حتى النساء والأطفال!!!، ولم يكلف نفسه بقراءة صفحة واحدة من السيرة توضح له هذه الحقيقة البديهية وهى أن جزاء المحاربين بالقتل إنما هو للجنود المقاتلة حاملى السلاح !!، وليس المقصود قطعا بالإثخان أن يقتل النبي فى غزواته كافة الأسري حتى النساء!!

فهذا هو مستوى فكرهم وهذا هو نتاج عقولهم التى يستخدمونها فى نقد عباقرة علماء الأمة، وبالطبع فإن أفراخ العلمانية اليوم تختلف تماما عن المستشرقين ، وتختلف حتى عن الدفعة الأولى من مفكرى التغريب ، حيث كانت لهؤلاء بعض من الحرفية فى طرح الشبهات متقنة قامت على أساس دراسة متعمقة لأصول الإسلام تعبوا واجتهدوا حتى خرجوا بها ليتحدوا بها علماء المسلمين ، وجاء علماء المسلمين عبر العصور ليجعلوا منهم عبرة عندما قاموا بالرد على سائر الشبهات المتقنة بردود علمية منمقة وبارعة للغاية من أيام الإمام ابن حنبل وحتى أيام الشيخ الشعراوى، وما يثير الضحك حقيقة أن بعض المستشرقين ندموا على إثارتهم لتلك الشبهات لأنها حفزت علماء المسلمين على الإبتكار والتفكر فى القرآن والسنة فأسسوا صروحا عظيمة من العلوم شملت علوم الحديث والنقل والتفسير ما كان للمسلمين أن يهتموا بإنشائها لو لم يتعرضوا لضغوط أصحاب الشبهات .. خاصة بعد أن قدم المستشرقون لعلماء المسلمين خدمة لا تقدر بثمن دون أن يقصدوا.

قال الشاب فى فضول : كيف هذا ؟!

ضحك الكاتب رغما عنه :

المستشرقون كانوا من صفوة علماء الغرب وعندما فشلت الحملات الصليبية فى تقويض الإسلام قرروا ـ كما هو معروف ـ هدم الإسلام بالتشكيك فيه وإبراز ما يرونه من نقاط ضعف فى التشريع الإسلامى ، وهذه بالطبع مهمة علمية ثقيلة للغاية ، ولهذا تفرغ الآلاف من علمائهم لدراسة كل ما يتعلق بالإسلام وآدابه وتاريخه وتشريعه ، وقاموا بدراستها كما لو كانوا جامعة أزهر موازية ، ونقلوا مئات الآلاف من المخطوطات وفهرسوها وحققوها وبلغ مجموع مؤلفاتهم فى هذا المجال قرابة ستين ألف كتاب ، واستمرت جهودهم حتى عصرنا الحالى ، ففي أوربا وحدها يوجد فى كل جامعة من جامعاتها أقسام كاملة لدراسة الشريعة والحديث والتاريخ والأدب ونظرا لأنهم محترفون فقد ركزوا جهودهم على دراسة علم الحديث بسبب انبهارهم به من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإدراكهم أن هدم الإسلام لن يكون إلا بالطعن فى أساسيات علوم النقل والإسناد لأنهم إن نجحوا فى ضرب علوم النقل سيصبح هدم الدين سهلا ميسورا بالتشكيك فى صحته ولكن واجهتهم عقبة كبري فى هذا العلم بالذات لأنه أكبر وأضخم علوم الإسلام على الإطلاق ، والإحاطة به والتخصص فيه لم تتسنى حتى لأكابر علمائه عبر العصور

نظرا لاتساع مراجعه ومؤلفاته وفروعه ، فهناك علم المصطلح وعلم الرجال وعلم الناسخ والمنسوخ وكتب طبقات المحدثين وكتب الأحاديث المتخصصة التى روت كل ما ورد فى السنة بمختلف مراتب صحته بخلاف كتب الشروح التى تشرح متون الأحاديث وكتب العلل، حتى الأحاديث الموضوعة جمعها علماء الإسلام فى كتب مستقلة ..

قال الشاب : ولكن لماذا جمعوا الأحاديث الموضوعة وما هى فائدتها ..

قال الكاتب : لها فائدة عظمى وهى حصر هذه الأحاديث فى دواوين مستقلة يسهل على أى مسلم بعدها أن يعرف أصل الحديث المكذوب وسبب حكم العلماء عليه بالوضع ، والأهم من ذلك قطع الطريق تماما على من يريد تأليف ووضع أحاديث مزورة جديدة ولولا وجود كتب الحديث الموضوعة لكان من الممكن إستمرار الوضع حتى اليوم.

قال الشاب فى دهشة : هذا جهد رهيب بالفعل ، ولكن ماذا فعل المستشرقون لتسهيل مهمتهم فى الوصول إلى الأحاديث ؟!

قال الكاتب :

مع اتساع المصنفات لكتب الحديث ، وعدم القدرة على الوصول إلى الأحاديث بحسب الحاجة إليها ، كان الحل عندهم أن يبتكروا وسيلة علمية تعينهم ، ولأجل تسهيل مهمتهم فى الوصول إلى الأحاديث المبثوثة فى آلاف من كتب السنة عكف علماؤهم على تأليف أكبر معجم موسوعى لألفاظ الحديث النبوى ، بمعنى أنهم اخترعوا شيئ شبيه بمحرك البحث (جوجل) يقودهم بسهولة إلى أى حديث يريدونه عبر كلمة واحدة أو عبارة أو حسب الموضوع ، وبهذا تكون مهمتهم البحثية سهلة فكل باحث منهم يريد معالجة موضوع معين أو معرفة أين يقع الحديث الفلانى وأين ورد ما عليه إلا أن يفتح المعجم وسيجد إشارة ترشده إلى موطن هذا الحديث ولكن لان الله سبحانه تعالى يجعل مكر السوء على أهله فقد استخدم علماء المسلمين هذا المعجم ، ليستغله المسلمون أحسن إستغلال فى استكمال تصنيف الحديث النبوى ، أى أننا استخدمنا سلاحهم ضدهم !

قهقه الشاب ضاحكا ومتعجبا : ولكنها ضربة معلم فعلا.

قال الكاتب: بل هى تطبيق عملى للقول المأثور (الباطل جندى من جنود الحق) فقد سخر الله ألد أعداء الإسلام لخدمته ، فهل علمت الفارق الآن بين محترفي الغرب وبين هواة اليوم.

قال الشاب: إذا كيف نجح هؤلاء الهواة فيما فشل فيه كبارهم ؟!

قال الكاتب:

هم لم ينجحوا بفضل الله ، ولعلك تتابع أن العلمانيين فى مصر مثلا فشلوا عبر القرن الماضي كله فى حشد جمهور يتقبل أفكارهم ، لكن فكرة المستشرقين كانت ماكرة فعندما انهزموا فى المعركة الفكرية بيننا وبينهم جاءوا بفكرة جديدة ومؤثرة فأنشئوا حركة التغريب التى بدأت مع القرن الثامن عشر واستمرت حتى القرن العشرين ، وقاموا بتربية جيل جديد من المفكرين فى الغرب ، لكنه جيل من أبناء المسلمين هذه المرة ، فتشربوا منهم الفكر الغربي الناقد لكل ثوابت الإسلام ثم أعادوهم إلينا فى الجامعات ليقوموا بنفس الدور القديم، لأن المسلمون إذا استمعوا للشبهات من مستشرق غير مسلم لن يتأثروا بها أصلا ، أما لو سمعوها من مسلم يزعم أنه مجدد فى الدين فسيلاقي بعض التأثير حتما ومن أغرب الغرائب أن هؤلاء المتغربين رددوا نفس الشبهات القديمة بحذافيرها ، ولكنهم اقتطعوا الشبهات دون أن يذكروا ردود علماء المسلمين عليها ، لأنهم عجزة وفقراء فكريا إلى أقصي درجة ، ولن يمكنك أن تجد شبهة موجودة ضد السنة ومنتشرة فى الإعلام اليوم إلا ولها أصل فى الشبهات القديمة التى ابتدعها المستشرقون ومنقولة نقلا حرفيا..

قال الشـــاب فى دهشة : إذا كيف تأثر بها الناس الآن؟!

قال الكــاتب:

السبب الرئيسي أن العصر الحديث ليس بعصر العلم والقراءة ، ولو فتح الناس كتب التراث القديمة لوجدوا العلماء قد ردوا على هذه الشبهات عشرات المرات، وكدليل بسيط أدعوك إلى قراءة كتاب (شرح مختلف الحديث) للعلامة ابن قتيبة وهو من علماء القرن الثالث الهجرى ، وستجد فى هذا الكتاب ثلاثة أرباع الشبهات المثارة حول البخارى اليوم ومعها الردود العلمية كاملة، هذا فضلا على مئات الكتب والمراجع القديمة والحديثة التى ردت على كل ما يمكن أن يخطر ببالك من شبهات ولكن للأسف لا أحد يكلف نفسه عناء البحث أما السبب الثانى للتأثير، فهو أن الإستعمار الغربي لعب دورا هاما فى تجهيل الناس باللغة العربية وبكتب الفكر الإسلامى وسعى إلى تغريب الثقافة تغريبا كاملا ، وعندما رحل الإحتلال الغربي جاءت الأنظمة الجديدة لتكرس نفس المفهوم تحت زعم التحديث والتطوير ، وهذا خلط عجيب لا يوجد إلا فى بلاد العرب، فالذى أفهمه أن مجال التحديث والتطوير يصلح للوسائل ، لكنه لا يصلح للثوابت والأساسيات ، فيمكنك

تحديث وسائل النقل مثلا أو وسائل البناء ، لكن كيف يمكنك تحديث فكرة السكن فى حد ذاتها ، وبالمثل فى المعارف الإنسانية عامة ، والدين خصوصا ، فلك أن تدعو بترك التقليد والجمود وإثراء الفقه بتحقيق مقاصد الشريعة، أما أن تدعو لتحديث الثوابت الدينية فى الأصول والمعتقدات فهذا هو عين التلبيس لأن العقيدة لا تتطور لأنها ليست نتاجا بشريا بل هى وحى ثابت ، والشيئ الوحيد القابل للتطوير هو أحكام الفقه فى مجال الفروع ـ الفروع فقط ـ أما العقيدة والأصول والفرائض فليس فيها مجال للعبث ، فكيف يمكنك تطوير شهادة التوحيد أو فرضية الصوم والصلاة والزكاة مثلا!

وجاء دعم الإعلام المغرض ليزيد من فداحة الأمر حيث تم تغييب علماء الدين القائمين على السنة وفتح الباب أمام المبتدعة، وبهذا لم يجد الناس من يثقون به وينير لهم الطريق ثم جاءت الطامة الكبري حقيقة..

وهى إختراق الإستعمار الغربي لما يُسمى بالحركات الإسلامية، التى انخدع بها معظم أتباعها وتركوها بعد ذلك ، وقد انفضحت هذه الحركات بوثائق الإحتلال البريطانى نفسه والتى أخرجها كثير من المفكرين الإنجليز للنور بعد مرور فترة الحظر لنكتشف أهوالا عن حقيقة العلاقة بين قيادات الحركات الإسلامية وبين الغرب، والتى اخترقها الغرب لتحطيم نزعة المقاومة فى النفوس عن طريق المبدأ الشهير (فرق تسد) ويمكنك مطالعة كتاب (العلاقة بين الأصوليين والغرب) لمؤلفه مارك كورتيز، وكتاب (لعبة الشيطان) لروبرت دريفوس لتعرف الدور البريطانى فى صناعة الإرهاب وإلصاقه بالإسلام ، وقد أدت الحركات الإسلامية ـ بجهل أو بتعمد ـ كافة الدور المطلوب منها فى تفتيت الهند بحركة البريلوية والقاديانية، وتفتيت الشرق الأوسط بحركات ما يسمى بالجهاد الإسلامى، ثم تلقفتهم الولايات المتحدة التى ورثت الدور البريطانى لتستخدم هذه التنظيمات فى تحقيق أهدافها بأيدى المسلمين وتوفر على نفسها عناء المعارك والحروب، واليوم لم يعد المسلمون بحاجة إلى وثائق سرية ليعلموا هذه الحقائق ، فنظرة واحدة إلى أنشطة هذه التنظيمات تكشف فى وضوح أن مجال نشاطهم موجه ضد بلاد العرب والمسلمين بينما تقبع إسرائيل فى أمان تام من عملياتهم ، بالإضافة إلى هذه الحركات تميزت هذه الأيام ببجاحة منقطعة النظير..

فرغم أنهم خدعوا الناس عشرات السنين بشعارات تحرير القدس والموت لأمريكا وإسرائيل، وجدناهم يتحالفون علنا مع الولايات المتحدة بل ويستنجدون بها لإعادتهم

لمقعد الحكم، بل إن المرء لتأخذه الدهشة ممن يناصر هذه التنظيمات كيف أنهم لم ينتبهوا إلى أن تجنيد الشباب العربي فى حرب أفغانستان على خلفية أفكار الجهاد، أنشأته الولايات المتحدة وحلفاؤها لضرب السوفيات فى أفغانستان ، والذى يعود لوقائع تلك الفترة سيجد أن أمريكا جندت وسائل إعلامها كافة للإشادة والتعظيم بمن أسمتهم المجاهدون ضد الغزو السوفياتى الملحد ، وزودتهم بالسلاح والمال ، بل ودعمتهم صناعة السينما الأمريكية أيضا ، فإذا شاهدت أفلام الحركة الشهيرة فى تلك الفترة ستجد أن سيلفستر ستالونى أشهر ممثليهم قدم فيلما كاملا عن بطولات المجاهدين العرب فى أفغانستان(٦٣) وورد فى سيناريو الفلم عبارات تثير الذهول إذا قارنتها بعد ذلك بالموقف الأمريكى من نفس التنظيمات عقب إنتهاء دورها المرسوم ..حيث قام الإعلام الأمريكى بعكس الصورة تماما ليصبح المجاهدون هم الإرهابيون ، ولم تتوقف خدماتهم عند هذا الحد بل عاثت تلك التنظيمات فسادا فى بلاد العرب حتى أصبح حال منطقة الشرق الأوسط فى فوضي كاملة ،، وكله بما لا يخالف شرع الله !!!

قال الشــاب:

ولكن كيف يؤيد الغرب التنظيمات المتطرفة فى نفس الوقت الذى يؤيد فيه العلمانيين ؟!

أجــاب الكــاتب:

بل السؤال يجب أن يكون كيف لا يؤيدهم جميعا .. فالجانبان هدفهم واحد فالتنظيمات المتطرفة التى استدعت فكر الخوارج القديم لم يقتصر دورها على التخريب فحسب ، بل كان لها دور فكرى أكثر خطورة ، وهو تشويه وتلبيس فقه الإسلام كله بهذه الأفكار ، وهو دور مرسوم ومتعمد يجهله أغلب أتباع هذه التنظيمات ، والهدف الرئيسي هو تهيئة المناخ والأجواء لتقبل الناس أفكار العلمانيين والملحدين دون أن يستنكروها كما كان فى الماضي ، لأن الناس بعد تجربة الإسلاميين فى الحكم كادوا يكفرون بالإسلام كله لأنهم رأوا من رفع راية الإسلام لمدة ستين عاما يأتى بأفعال لا يجرؤ عليها اليهود.. وكدليل على صدق هذا الكلام، تأمل جرأة وتبجح العلمانيين اليوم فى عرض أفكارهم الإلحادية، وقارن هذا بما كانوا يفعلونه فى الماضي من الحديث المنافق المستتر الذى يصاحبه الكثير من الجبن فقبل تجربة الإسلاميين فى الحكم كان أكبر ما يقدر عليه العلمانيون أن يُـلمّحوا ولا يُـصرّحوا، وحتى إذا تجرأ أحدهم فصرح بفكرة صادمة تعتدى على أحد الثوابت

(٦٣) فلم رامبو (الجزء الثالث) والطريف أن الفلم تم تصويره كاملا فى إسرائيل فى إطار عملية الدعاية لنشاط المجاهدين ضد السوفيات فى أفغانستان والتى كانت أهم أسباب سقوط الإتحاد السوفياتى وخلو الجو لأمريكا وحلفائها.

كانت الدنيا تنقلب عليه فيتراجع فورا ، ولتتذكر ما قاله فاروق حسنى وزير الثقافة فى عصر مبارك عن الحجاب عندما تحدث عنه ولم يقل أكثر من أن الحجاب ليس فرضا،

فانطلقت المظاهرات الغاضبة فور إنتشار تصريحه وهاجمه العلماء والدعاة وتفاعل معهم الناس، وعندما أصدر الملحد سيد القمنى كتبه التى ينتقد فيها حقائق القرآن واجه من الهجوم عليه ما جعله يعلن على الملأ فى وقتها اعتزاله الكتابة والبقاء فى بقيته خوفا على نفسه من فتك الناس به ، وعندما اعتدت إحدى الجرائد العلمانية على مقام الصحابة حاصرها المتظاهرون وأشعلوا النار فى مقرها أما بعد تجربة الإسلاميين فى الحكم لك أن تتأمل الساحة الإعلامية وتخبرنى كيف ومن أين وجد العلمانيون آذانا تستمع إليهم وهم يسبون الله والرسول عليه السلام علانية هذه المرة ، ويعلنون عن أفكار لو صرحوا بها قبل أعوام قليلة فقط لرجمهم الناس بالحجارة ، وسل نفسك ما الذى أعاد سيد القمنى لتصدر الشاشات من جديد ليعلن فى كفر صريح أن القرآن كتاب تراثي وتاريخى !! هكذا صراحة ..

وسل نفسك كيف تمكن الملاحدة من الخوض فى ذات الله والدعوة لترك القرآن وهجره ووصف أئمة المسلمين بالإرهابيين رعاة الإرهاب والدعوة لإغلاق الأزهر ؟!!

قال الشاب فى حيرة : ما الذى دفعهم إلى ذلك ؟!

قال الكاتب:

ألا زلت تسأل يا رجل .. لقد زرع العلمانيون الأرض التى مهدها لهم الإسلاميون بفكرهم الشيطانى ، بعد أن نسبوا أفعالهم وجرائمهم للدين وكتب التراث ، ألا ترى شيوخ الخوارج الجدد على شاشات الفضائيات وهم يستدلون على أبشع وأشنع الأفعال بأقوال ينسبونها للقرآن والسنة وعلماء المسلمين ؟!

قال الشاب : وهل هذه الأقوال موجودة فى كتب التراث ؟!

قال الكاتب :

سؤالك هذا دليل دامغ على نجاح المخطط مع الناس، وأنا أعلم أنك تفعله بحسن نية ولهذا سأوضح لك طريقة الإستدلال المنحرفة التى يلجأ إليها الإرهابيون ، هذه الطريقة يا عزيزى هى ذاتها طريقة الخوارج القديمة ، فالخوارج عندما ظهروا فى زمن الإمام على بن أبي طالب وكفروه وكفروا عثمان ابن عفان وكفروا سائر المسلمين كانوا يستدلون بآيات القرآن بعد أن يقتطعوها من سياقها ، فيأخذون الآيات الواردة فى الكفار المحاربين

وينزلونها على عامة المسلمين ! ، مع فصل تلك الآيات عن تخصيص السنة لها بالتفسير ضمن آيات الأحكام والخوارج الجدد يذهبون إلى آيات الجهاد والردع فيوجهونها إلى خصومهم السياسيين، فهل بعد ذلك نقول أن العيب فى آيات القرآن أم أن العيب كل العيب فى الفهم المعوج ؟!

قال الشاب: بل العيب فى أفهامهم طبعا.

قال الكاتب:

بالضبط، وهذا ما يفعلونه فى كتب التراث وأقوال الأئمة، نعم الأقوال والأحكام بعضها موجود فى الفقه ولكنه محصور بالحكم على حالات معينة وفئة محددة تخص الكفار المحاربين، أى أنها لا تخص حتى الكفار المسالمين أو أصحاب الذمة، فيذهب هؤلاء إلى إقتطاعها من سياقها وإنزالها على عامة المسلمين من خصومهم ، هذا بالإضافة إلى أن المهاجمين ينسبون لأئمة الإسلام وللصحابة وقائع وآراء لم تقع منهم أصلا اعتمادا على أن الناس لن ترجع للكتب وحتى لو رجعوا لها فهم يفتقرون إلى الوسائل التى تحدد لهم مفاهيم المصطلحات العلمية ، وهذا أشد ما يلعب به المهاجمون ، فهم يلقون بشبهاتهم فى دقائق بينما يحتاج العلماء لساعات طوال من الشرح لدحض الشبهة ولهذا يحرص الدعاة اليوم على رد الشبهات بالأسلوب العقلي البحت لبيان عوار تلك الأقوال وهو ما يوفر الرد الكافي والشافي بأقل الجهد، أما المثقفون وأولئك الذين يمتلكون صلاحية التتبع العلمى فإن أمامهم عشرات الكتب والمحاضرات على الإنترنت مليئة بالردود العلمية المتخصصة والشيئ الذى يجب أن ننتبه إليه .. أننا لسنا فى حاجة أصلا للدفاع عن الإسلام والسنة أو إثبات براءتهم من تلك الأفعال لأن أى عاقل يفتح أى كتاب فقه أو حديث ويتأمل عقوبة القتل فى الدنيا والآخرة يعلم يقينا موقف الإسلام الحضاري الذى يحرّم حتى قتل الحيوان بلا مقتضي بل إن البخارى روى فى صحيحه أن إمرأة دخلت النار فى قطة ، لك أن تتصور دخلت النار فى قطة قامت بحبسها فلم هى أطعمتها ولا هى تركتها حرة تلتمس الطعام!

أما القتل فحدث ولا حرج فقد جعله الله عز وجل سببا فى الخلود فى النار وهو الذنب الوحيد الذى يخلد صاحبه فى النار بعد الشرك، وعندنا فى الحديث أن حرمة الكعبة نفسها ليست أعظم حرمة عند الله من دم إمرئ مسلم بغير حق وحتى فى قتل غير المسلم الذمى أو المستأمن جعله النبي عليه السلام بمرتبة الخروج من الملة، عندما وصف فاعله

بأنه برئ من ذمة اللّه ورسوله، وحتى فى ضوابط الحروب مع الكفار المحاربين ستجد أن الفقه الإسلامى كان أول من أسس لفقه معاملة الأسري ومعاملة المدنيين حتى فى بلاد الكفر ، فحرّم الإسلام تحريما قاطعا أن يقتل الجنود أهل بلد لم يحملوا السلاح حتى لو حمل جيشهم السلاح فى مواجهة المسلمين وحرم قتل المرأة والطفل والشيوخ أو تخريب الزروع والبيوت ، بل إنه حرم التمثيل بالجثث ولو كان بجثة الكلب العقور !!

وكان تحريم التمثيل بجثث المحاربين قاعدة غير قابلة للإنتهاك حتى لو تعرض جنود المسلمين لهذا الفعل ، فالنبي عليه الصلاة والسلام عندما قامت قريش بالتمثيل بجثة عمه أسد اللّه ورسوله عليه السلام وغضب النبي صلي اللّه عليه وسلم من هذه الوحشية وأقسم على الإنتقام من قريش بنفس الوسيلة ، هنا جاء الوحى ناهيا للنبي عليه الصلاة والسلام من ذلك رغم أن الشهيد هنا هو أسد اللّه حمزة رضي اللّه عنه وكل هذه الأحكام التى أرويها لك هى أحكام مجمع عليها من لدن عهد الصحابة إلى يومنا هذا ، ولكن التجهيل المتعمد هو السبب فى هذا التغييب ..

ثم ضحك الكاتب مضيفا :

أما ما يضحك حقيقة ـ وشر البلية ما يضحك ـ أن الغرب وأنصاره من المتغربين العرب ينددون بما يسمونه الإرهاب الإسلامى جنبا إلى جنب مع نداءات نتنياهو وبوش وغيرهم من مجرمى الحرب ، فانظر إلى مدى وصلوا إليه وهم يقفون ضد دينهم صفا واحدا مع ألد أعدائهم ، ويروجون لنفس الأكاذيب غافلين عن حقيقتين صارختين ..

أول هذه الحقائق:أن أفعال الخوارج الجدد هذه ليس لها علاقة بالإسلام والسنة أصلا بل إن أفعالهم على مر التاريخ لم يدفع ثمنها إلا المسلمون وحدهم فمنذ نشأة الخوارج وسلاحهم موجه إلى أهل الإسلام وتركوا أهل الأوثان وكانت بدايتهم مع اغتيال الإمام على رضي اللّه ثم استمرت فتنتهم عبر التاريخ تريق دماء المسلمين فى كل بلد ظهروا فيه ولم تتوجه سيوفهم ـ ولو لمرة واحدة ـ ضد أعداء الإسلام ، أما الخوارج الجدد فساروا على نفس النهج ولكن بشكل أكثر تبجحا وإحصائية ضحايا الجماعات الإرهابية فى البلاد العربية والإسلامية موجودة وشاهدة، وحتى عمليات الإرهاب التى نفذوها فى دول الغرب تمت برمجتها لتحقيق مصالح السياسة الغربية نفسها ، وتقديم المبرر الكافي لغزو بلاد المسلمين والسيطرة على موارد ثرواتهم، فهؤلاء الخوارج الجدد أشر من أجدادهم ، لأنهم لم يكتفوا بتحريف فهم النصوص بل مدوا يد التحالف مع

العدو الغربي فخضعوا للغرب خضوعا تاما وها هم ينفذون أهدافهم بحذافيرها ، وهذا الأمر أصبح مدعاة للسخرية من فرط وضوحه ، فمثلا تنظيم داعش يعيش أساسا على الدعم الغربي عن طريق بيع البترول من آبار النفط التى سيطر عليها ، والسؤال هنا كيف يتسنى لداعش أن تبيع البترول فى الأسواق العالمية عبر تركيا رغم أن صناعة البترول تحت السيطرة التامة من الشركات الغربية ؟! ، ومن الذى يسدد لداعش هذه المليارات ، وهل تقوم داعش ببيع النفط من تحت أنف القط الأمريكى مثلا ؟!

وراجع هذا الموقف بموقف أمريكا من العراق عندما حاصرت الولايات المتحدة النفط العراقي ولم تسمح بتداوله فى الأسواق العالمية ، وتم هذا بمنتهى البساطة وبمجرد إصدار الأوامر .. والأكثر طرافة من ذلك أن طائرات التحالف الأمريكى التى تحارب الإرهاب فى زعمهم هى ذاتها الطائرات التى تلقي بإمدادات السلاح ـ صدفة ـ إلى مناطق التنظيم الإرهابي ، وصدق أو لا تصدق أن هذا التنظيم بأتباعه الذين تجاوزوا الآلاف يستخدمون أحدث تقنيات السلاح الغربي والسيارات الأمريكية ، وبعد ذلك تقف الولايات المتحدة لتعلن أنها شكلت تحالفا عنتريا من دول الغرب لتقضي على داعش ، ولكنهم أضافوا على استحياء ، أن القضاء على داعش قد يستغرق عشر سنوات على الأقل !! وبالطبع لابد أن نتفهم هذا المنطق لأنهم يرغبون فى استثمار أموالهم فى التنظيم لتحقيق طموحاتهم بأيدى التنظيم فى الفتك بالجيوش العربية عقب إنتهائهم من تدمير سوريا والعراق وليبيا ثانى هذه الحقائق : أن إعلامنا وإعلام الغرب لا يكف ليل نهار عن التنديد بالإرهاب الإسلامى ، هكذا فى تبجح منقطع النظير ، اعتمادا على أن ذاكرة الشعوب العربية كذاكرة السمك تفقد محتواها كل دقيقة ، وإلا هل تريد أن تقنعنى بأن هؤلاء الإعلاميين يجهلون أن الغرب فى أوربا وأمريكا هم أحقر فئات الإرهابيين على وجه الأرض ، والمغول أنفسهم إذا قارناهم بالغرب اليوم فلن تبلغ جرائم المغول عشر معشار الإرهاب الأوربي والأمريكى ..

ونحن عندما نريد أن نحاكم أمة من الأمم ، فعلينا أن نحاكم فكرها الذى تعترف به وتعتنقه ، وليس الفكر المحرف المدسوس عليها ، ثم بعد ذلك نحاكم أفعالهم المبنية على هذا الفكر..

فإذا وضعنا عقيدة أهل الإسلام وأفعالهم فى الصراع بيننا وبينهم وذكرنا تطبيق عقيدتنا لما وجدنا حادثة واحدة مخزية ارتكبها جيش مسلم استنادا إلى عقيدته أو حتى

إستنادا إلى صراعات الحكم ، ولن نكرر ذكر التاريخ بل سنكتفي بفضل الله بشهادة أعدائنا ، والحق ما شهدت به الأعداء ، وتاريخنا فى معاملة الأسري لا زال يدرس فى جامعاتهم ، فإذا قمن بمقارنة ذلك بماضي الغرب وتاريخه وحتى حاضره المعاصر ، فأتحدى أى مؤرخ أن يأتينى بمعركة واحدة أو حرب واحدة شريفة خاضتها جيوش الغرب ضدنا ، وكل ما فعلوه إنما فعلوه استنادا إلى كتبهم المحرفة وفلسفتهم الدموية والعنصرية ، فالذى يتأمل تلمود بنى إسرائيل أو حتى أناجيل الكنيسة الغربية سيجد فيها نصوصا صريحة بإنكار أى قيمة إنسانية فى أى بشري ليس منهم وعقيدة هذه الكتب قائمة على إستعباد سائر الشعوب لصالحهم وحدهم ، ولو قرأت قليلا فى التاريخ الرومانى ستجد أن احتقارهم لإنسانية الفرد امتد حتى إلى أفراد شعوبهم من العوام ، ومعاملة العبيد عندهم معاملة أقل من معاملة الحيوانات ، ويكفي أن تقرأ تاريخ ساحات المسرح الرومانى التى كانت تعقد حفلات المصارعة بين العبيد حتى الموت فى وجود الملوك والجماهير الذين يقضون الساعات الطوال فى متعة المشاهدة لهذه المعارك الدموية ، واستمر التاريخ العنصري الأوربي على هذه الشاكلة حتى ظهور الإسلام وفى معاركهم معنا لم يلتزموا بأى عهد أو معاهدة قطعوها معنا ، فضلا على جرائم الحملات الصليبية التى قتلت آلاف الأسري ولم تعاملهم الخلافة الإسلامية عبر عصورها بنفس المعاملة ، وجاء العصر الحديث الذى يسمونه عصر النهضة والتحضر وإعلاء قيم حقوق الإنسان !! وأنا لم أقرأ فى حياتى تبجحا أكثر من هذا فالتاريخ الأوربي والأمريكى الحديث يتفوق حتى على تاريخهم القديم فى الوحشية ، فالنازية والشيوعية والرأسمالية والفاشية كلها مذاهب دموية قامت استنادا إلى الفلسفة الجديدة التى حلت عندهم محل الأديان ، وقامت المعارك الطاحنة بين الدول الأوربية بسبب هذه العنصرية ، فى حروب ألمانيا وفرنسا فى حرب السبعين ثم الحرب العالمية الأولى ثم الحرب العالمية الثانية وقبلها حروبهم على تقسيم المستعمرات فى إفريقيا وآسيا وكل هذه الحروب بلغ عدد الضحايا فيها ما يفوق مئات الملايين من البشر بخلاف أضعاف هذا الرقم من المصابين ! ولست أدرى أى حقوق إنسان هذى التى يتبجحون بها وقد أبادت فرنسا وألمانيا وإيطاليا والمجر مئات الملايين فى دول إفريقيا لمجرد التوسعات الإقتصادية ، وليتهم قتلوا هؤلاء الضحايا بقتلة حسنة بل مات معظم هؤلاء بأبشع أنواع قنابل الغاز والحرائق ، وسجل أوربا الدموى فى افريقيا لا زال يحفل بمئات الصور التى يتباهى جنودهم فيها بالرءوس المقطوعة

للضحايا وهم يحملونها بين أيديهم !! ناهيك عن مليونى مسلم تمت إبادتهم قتلا وتعذيبا فى البوسنة والهرسك على مرأى ومسمع من الحضارة الأوربية وتحت رعايتها ومن أراد الزيادة والتوثيق فى هذا الملف فسأكتفي بمصدر بسيط ومتاح بعيدا عن المراجع الثقال ، قوموا فقط بمراجعة برنامج (العلم والإيمان) للدكتور مصطفي محمود رحمه الله، فى حلقة من البرنامج بعنوان (الجلادون) ، ففيها مئات الحوادث والوثائق والصور التى تفضح إدعاءات الحضارة التى يتشدق بها الغرب ، ويوضح للناس من هم الإرهابيون حقا وحتى فى التاريخ الحديث والقريب، قامت الولايات المتحدة كدولة على أنقاض وجثث شعب بأكمله هم الهنود الأحمر تمت إبادتهم تماما بما يعادل ١٠٠ مليون هندى أحمر ليخلو الجو لعصابات أمريكا لإنشاء دولتهم الحديثة، كما تسببت الولايات المتحدة فى مقتل ٢ مليون فيتنامى لمجرد إثبات العنترية أمام الإتحاد السوفياتى فى حرب لا زال نجوم المجتمع الأمريكى يعتبرونها وصمة عار لا تمحى، وقد قتلت الولايات المتحدة الملايين فى أفغانسان والعراق وبلا أدنى مبرر واقعى وبلغ التبجح بجورج بوش الإبن أن يخرج بعدها معتذرا بأن أجهزة معلوماته قد أخطأت التقدير عند احتلال العراق ، هذا بخلاف الحصار الإقتصادى الذى دمر المدنيين العراقيين فى حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل استمرت طيلة السنوات فيما قبل الإحتلال الأخير بخلاف جرائم الدماء المهولة والغير متصورة للأمريكيين والإنجليز فى الهند والشرق الأقصي وكذلك فى أمريكا الجنوبية وفى أستراليا ، وكل تلك الجرائم تمت بمبرر الوحشية المحض حتى لو لم يكن لها أدنى منفعة سياسية أو اقتصادية !!

فعندما أرادت أمريكا إثبات قوتها العظمى فى العالم قامت باستخدام القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما دون أى مبرر عسكري أصلا ، لأن اليابان كانت على وشك الإستسلام الفعلى ، ومع هذا استخدمت أمريكا القنبلة ليتبخر مائة ألف إنسان فى لحظة واحدة قبل حتى أن يدركوا ما أصابهم !!

وليت الأمر اقتصر على هذا ..

فبعد إفناء هيروشيما جاء العسكريون الأمريكيون إلى رئيسهم ترومان ليطلبوا موافقته على استخدام قنبلة أخرى لمحو مدينة نجازاكى ، وعندما سألهم ترومان عن السبب أجاب العلماء بأن قنبلتهم الذرية الأولى كانت إنشطارية والقنبلة الثانية إندماجية وهم يرغبون فى تجربة تأثيرها هى الأخرى كما جربوا أختها !!

هل يمكن لإنسان أو حتى شيطان أن يستوعب هذه الوحشية ، والمصيبة أن رئيسهم وافقهم على اختبار القنبلة الأخرى لمحو مائة ألف بشري آخر لمجرد قياس الفارق بين تأثير القنبلتين !!

صمت الشاب لحظة ليستوعب ما قيل له ثم عقب قائلا :

لقد كنت أظن أن القنابل النووية هى التى حسمت الحرب !

أجاب الكاتب :

كلا بالطبع فالحرب كانت محسومة بعد اختراق السوفيات لألمانيا ، وانهيار الجيش اليابانى ، وسقوط إيطاليا فى قبضة الحلفاء ، ولا يوجد أى مبرر عسكري لاستخدام هذا السلاح الرهيب فعليا ، فهل استوعبت الآن كمية التناقض التى يقع فيها المتغربون وهم يشيدون بالغرب لاحترامه حقوق الإنسان ؟!

حقوق الإنسان لديهم إنما هى شماعة اختراق سياسي لا معنى لها على الإطلاق حتى فى بلادهم نفسها ، فالذى لا يعلمه أكثر الناس أن الأمريكيين بعد أن أبادوا الهنود الحمر قاموا بأسر الأفارقة وشحهنم فى سفن نقل الحيوانات للولايات المتحدة وفى ظروف بالغة القسوة تسببت فى هلاك أكثر من نصف أعداد الضحايا المنقولين ، وعندما تم نقلهم تم استخدامهم بالسخرة التى كانت سببا فى إنشاء الإمبراطورية الإقتصادية الضخمة للأمريكان وبعدها وعلى الرغم من تغنى الأمريكان والأوربيين بحقوق الإنسان ظل الأفارقة والزنوج يعاملون معاملة العبيد وبرعاية الدولة دون ضمان لأى حقوق من أى نوع حتى تم إلغاء الرق ولكن ظل الزنوج بغير حقوق سياسية على الإطلاق ، واستمرت هذه المعاملة حتى مطلع الستينات !!

ولك أن تتخيل كيف أن الأمريكيين حتى منتصف القرن العشرين كانت لديهم شرعنة الاستعباد الكامل دون أدنى ضمان إنسانى ، وعندما قامت حركة التمرد الناجحة التى قادها الزنجى المسلم مالكوم اكس وتضامن معه الزنوج اضطر الأمريكيون لإلغاء تلك المعاملة ومحاولة الإقرار ببعض الحقوق لهم كمواطنين ، ولكن بعد أن قاموا باغتيال مالكوم إكس نفسه بالطبع ، وهو إجراء مفهوم وسياسة معروفة ..

ورغم هذا.. إلا أن عنصرية الغرب والرجل الأبيض لا زالت تحكم الأوربيين والأمريكيين بشكل فادح وخاصة فى الولايات المتحدة ، وقد أشار محمد حسنين هيكل إلى ذلك بأن تمثيلية تصعيد أوباما للرياسة جاءت كسياسة تقليدية للولايات المتحدة التى

تميل للغرائب والمظهريات ، وأن التفرقة العنصرية فى أمريكا متجذرة حتى الأعماق وفى شرايين المجتمع بل وتعبر عنها الكتابات الأدبية أيضا والولايات المتحدة تُصدّر لأى دولة برامج حقوق الإنسان كورقة ضغط على تلك الدول ، لكن عندما يتعلق الأمر بالمسلمين بالذات .. ، ها قد رأيت بنفسك كيف أن أمريكا أبادت مليون طفل عراقي فى حصار العراق إقتصاديا ، وكيف استخدمت اليورانيوم المنضب لإخضاع ولايات العراق المتمردة لتصبح العراق صاحبة أكبر نسبة تشوهات جنينية فى العالم الآن وكل هذا فى سبيل إعلاء القوة والسيطرة وإثبات القهر ليس إلا والمسلمون فى سائر أنحاء العالم تعرضوا لمذابح على الهوية ، لم يتعرض لمثلها فئة من الناس عبر التاريخ إلا المسيحيين فى عهد الرومان ، وتأمل كم من المسلمين تم حرقهم وقتلهم فى البوسنة والهرسك وفى إقليم الإيجور وفى بورما ومن قبل هذا فى فظائع محاكم التفتيش الأسبانية وفى الإتحاد السوفياتى السابق فى الجمهوريات الإسلامية التى حاولت الإستقلال ، وعشرات المواطن ..

ولاحظ أننى لم أذكر لك أفاعيل إسرائيل عبر ستين عاما كاملة من الإرهاب المنظم ، باعتبارها مشتهرة بيننا ولا تحتاج ذكرا أو توثيقا ثم بعد ذلك يخرج الغرب علينا بما يسميه الحرب على الإرهاب الإسلامى !! ولكى تكتمل الملهاة الساخرة ينضم لحشد المحرضين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي ،، وأنا والله لا أستنكر ما يفعله الغرب أو اليهود ، فهم يعملون لمصالحهم ولا ننتظر منهم إنصافا حتى لو كنا نحن قد أنصفناهم أيام كانت الدنيا لنا ، لكن المثير للخزى والعار أن تجد إعلامنا المبجل يمشي على نفس الموجة مع أحقر أهل الأرض وبدلا من أن يدافع عن حضارته وكرامته ودينه يشارك أعداءه فى إهالة التراب عليها !

سأل الشاب فى حيرة مصدومة :

ولكن هل هؤلاء الإعلاميين لا يعلمون بتلك الحقائق ؟!

قال الكاتب:

هل تحاول أن تخدع نفسك أم تخدعنى ، يا صديقي إن إرهاب الغرب وماضيه ضد الإسلام والمسلمين منقوش حتى فى ذاكرة العوام ، ودعنى أسألك أنت .. ألم تعلم على الأقل بجرائم الولايات المتحدة ضدنا.

قال الشاب: نعم وعشنا بعضها أيضا.

أجاب الكاتب :

إذا كيف تأثرت بدعاوى الإرهاب التى يطلقها العملاء على ماضينا وحضارتنا ؟!

السبب واضح كالشمس ، فالكذب عند تكراره ليل نهار فى ألف وسيلة إعلامية يكتسب من الشهرة ما يجعله أشبه بالمسلمات ، ولأن الغرب صناعته الكبري هى الإعلام فهو الذى يملك أن يبسط أى معلومة يريدها عبر نشرها بكثافة فى آلاف الفضائيات ، فالإعلام شيطان العصر الحقيقي ، ولو أنك تأملت إعلامنا العربي وما فعله فى السنوات الأربعين الأخيرة ستجد أن تمكن من تغيير تركيبة المجتمع وتحطيم بعض الثوابت لديه باستخدام الأفلام والبرامج الثقافية واللقاءات المتلفزة ، فالإعلام التليفزيونى لا يمكن مقارنة تأثيره بالكتابة والكتب ، لأن الشاشات تدخل فى كل بيت ، ولهذا فإن إذا تأملت مقاييس الشهرة مثلا فى فترة حكم مبارك بالذات ، ستجدها قد انقلبت رأسا على عقب فالمثلون والمطربون وغيرهم من الشخصيات المعدودة ضمن المتردية والنطيحة وما أكل السبع ، هؤلاء هم نجوم المجتمع رغم أنه منذ أقل من نصف قرن كان العلماء والدعاة وأصحاب الفكر والعلماء هو الصفوة والنخبة .. والإعلام فى الألفية الجديدة لم يعد شيطانا فحسب بل تفوق عليه ، بل إننى أشك أن إبليس قد اعتزل النشاط فى بلادنا بعد ظهور الفضائيات !

ضحك الشاب مستفهما : وما الذى يختلف به إعلام الفضائيات عن القنوات القديمة ؟

قال الكاتب:

فارق ضخم جدا، وأضرار الإعلام فى الماضي كانت تروج للتغريب نعم، ولكن التأثير كان محدودا بالإضافة إلى أن الساحة كانت مفتوحة لأهل الفكر الإسلامى للرد ودحض الشبهات ، وعندما كان الإعلام تحت سيطرة الدولة لم تكن الشعوب تعانى إلا من دكتاتورية القمع وسيطرة الإعلام الرسمى على الأخبار ، وكانوا يتغلبون على ذلك بسماع الإذاعات الأجنبية المفتوحة على الراديو ، وفيما عدا ذلك كانت برامج وأفلام ومسلسلات التليفزيون مقسومة مناصفة بين تيار الفكر المحترم المتمثل فى البرامج الدينية التى يقدمها كبار العلماء والثقافة التى يقدمها المفكرون، ومسلسلات التاريخ الإسلامى والعربي، وفى الجانب الآخر كان الجانب العلمانى يمارس بعض نشاطه فى نشر فكر التغريب ولكن بمدى محدود وعام ليس فيه تفاصيل ، ومعدوم التأثير على الجماهير ، وحتى فى المجال الفنى لا زال النقاد يطلقون عليه زمن الفن الجميل فى عصر عمالقة

الغناء والموسيقا والشعر والأدب والرواية ، فالسينما التى كان ينتقد دورها العلماء قديما كانت قائمة على روايات وأعمال كبار رجال الأدب أى أنها تحمل الفكر ابتداء بغض النظر عن إختلافنا أو اتفاقنا لما تروجه ، أما اليوم فلا تعليق !!!

فعندما تمكنت مافيا رجال الأعمال من إنشاء الفضائيات لم يتحرر الإعلام كما يروج البعض ، بل صار مُقنّعا يرتدى ثوب الحرية بينما هو محكوم بالسياسة المرسومة لصالح أصحاب القنوات والصحف ، ويعتمد على مصالح أشرس فئة فى المجتمع وهى فئة رجال المال الحرام، وهؤلاء لا تحكمهم إلا المصلحة ، فبدلا من البيانات الرسمية الرتيبة فى تليفزيونات الدولة أصبح البديل المطابق لها النفاق الفج والتزوير الفاجر للحقائق السياسية، وفوق هذا وذاك سادت دعارة الإعلام فى كل شيئ فانقلبت القنوات إلى ملاهى ليلية فعليا ـ ليس على مستوى الأخلاق فحسب ـ بل على مستوى الفكر نفسه فبدلا من أن تتم صناعة الأفلام والمسلسلات للشخصيات التاريخية أو حتى السياسية فوجئنا بعشرات المسلسلات والأفلام التى تروى قصص الممثلين والراقصات فضلا على البرامج التى تتناول بذاءاتهم وفضائحهم وفى المجال الدينى جاهر المتغربون بأفكارهم علانية وبشكل منظم ومستمر وتم استبعاد كل أهل العلم والتخصص فى المجال الدينى تحديدا ، لتفتح القنوات الفضائية مجالها المتسع لكل من أراد الطعن فى الثوابت سواء بغرض الشهرة أو بغرض أداء الدور المرسوم له !

فانقلب الحال رأسا على عقب ، وبدلا من أن يخجل أهل الباطل من باطلهم أصبح أهل الحق يستحون من المجاهرة به خوفا من إتهامات الإرهاب والتخلف ، حتى صدقت فينا المقولة المأثورة التى قالها أحد الصحابة (سيأتى زمان على الأمة يعير فيه المؤمن بإيمانه كما يعير العاصي اليوم بعصيانه) وتعدد خصوم الدين وتعددت أهدافهم ، فلم يعد الهدف التغريبي وحده على الساحة ..

تساءل الشاب : ما الأهداف الأخرى إذا ؟!

قال الكاتب:

الفساد الأخلاقي المقنن والمشرعن، ففئة رجال الأعمال ومن يرتبط بها أصبحوا ينضمون للعلمانيين فى نداءات التجديد والتنوير سعيا لاكتساب شرعية المجتمع لحياتهم المنحرفة ، والتحلل من كل قيمة أخلاقية ، فبعد أن كان هؤلاء المفضوحون يمارسون أفعالهم فى الخفاء خوفا من استنكار المجتمع ، أصبحوا يمارسونها علنا ، ثم تطور الأمر

إلى محاولة فرضها على المجتمع فرضا لتصبح عرفا مقبولا ،وفى زحمة الحرب على الإرهاب خرج المذيعون على الفضائيات ليستضيفوا من يدعو لاحترام حقوق الشواذ من الجنسين ، ووصفهم أحد المذيعين بالعبقرية وفسر ذلك بأن الشواذ ليس لدهم عقد جنسية ولهذا ينطلق إبداعهم ، ودعت صحفية أخرى إلى ممارسة حق المساكنة بشكل مشروع فى المجتمع ، أى أن يتخذ كل شاب وشابه سكنا مشتركا بلا أى علاقة زواج ، وطرح آخر فكرة أن يجرب المخطوبون العلاقة الجنسية قبل الزواج حتى لا تحدث مشكلات مستقبلية بينهم فيما بعد !!

ابتسم الشاب رغما عنه قائلا:

سمعت وقرأت كل هذا ..

عقب الكاتب قائلا:

وهذه الدعوات الفاجرة انطلقت برعاية إعلام الإثارة الذى يسمح لهؤلاء الخنازير بالظهور ويدعم انتشار آرائهم فضلا على إنتشار الإلحاد، وهؤلاء الفئة قال عنهم الدكتور مصطفي محمود سابقا (إن أصحاب هذه الدعوات يريدون من مجتمعنا المسلم أن يصبح مثل جبلاية القرود كل منهم مهتم بأعضائه التناسلية فقط !!)

قال الشاب : وهم يرددون هذا تحت زعم الحرية وقبول الآخر ..

عقب الكاتب:

هذا القول ينطبق عليه المثل العربي الشهير (شنشنة نعرفها من أخزم) ، وكل الذين نادوا بحرية الرأى وقبول الآخر واتخذوها شعارا لهم عبر التاريخ إعلم أنهم أكثر نازية من هتلر وأكثر فاشية من موسولينى ، فالمؤمنون بالحرية يمارسونها فعليا ولا يتخذونها شعارا يرددونه ليل نهار ، والعلمانيون يستخدمون الحرية فقط فى مواجهتنا أما إذا طلبناهم بالإلتزام بها نحونا فعندئذ تنقلب المفاهيم رأسا على عقب ويكون المنع والمصادرة والتضييق ،وخذ عندك بعض الأمثلة ، فوزارة الثقافة فى عهد مبارك كانت تخرج صحيفة باسم جريدة القاهرة ، وهى جريدة تهتم بالفكر، وقد استخدمها العلمانيون ـ مع كافة أدوات وزارة الثقافة ـ للترويج فقط لأفكارهم وما يتفق معها، رغم أنهم يضعون شعارا للجريدة يقول (الحرية الحقيقية هى الدعوة لكل فكر ولكل مذهب) !!

ورغم هذا تم منع كافة الكُتاب والمفكرين والمؤرخين المتمسكين بالثقافة الإسلامية بل إنهم منعوا إصدار أى مطبوعات لأى عالم أو مفكر سنى عبر التاريخ وفى المقابل

طبعوا آلاف النسخ ـ من أموال دافعي الضرائب ـ لكل كتابات أصحاب البدع والفلاسفة والزنادقة وعتاة الصوفية وكتب الفكر الشيعي ومؤلفات المعتزلة ، إلى جوار نشاطهم الأصلي في الترويج للشيوعية والعلمانية ، وهذا يقودنا إلى نقطة بالغة الأهمية،،

تساءل الشاب: ما هي ؟!

قال الكاتب :

أن المستهدف الحقيقي لهؤلاء الناس هو ميراث الإسلام والسنة المعتقد الأصلي الذى يدين به عامة المسلمين عبر التاريخ ، بالتحديد علماء السنة وميراثهم المعتمد على القرآن والحديث النبوى الصحيح ، ولهذا أبرز العلمانيون أنيابهم على كتب السنة وسمحوا فى نفس الوقت لكل أصحاب البدع والفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة بنشر كتبهم وميراثهم وإحيائه ، رغم أن هذا يتناقض ـ كما هو مفترض ـ مع دعوتهم لترك الأديان لكنه يتكامل تماما مع الهدف الحقيقي ألا وهو هدم الإسلام الصحيح سواء بأفكار العلمانية والإلحاد أو استخدام التيارات البدعية المنشقة على صحيح الدين وقد مارسوا هذا بجرأة منقطعة النظير، ففي نفس الوقت الذى ينتقدون فيه فكر السنة ويتهمونه بالخرافة والدجل، نجدهم يُعظمون كتب الصوفية والشيعة ـ وهم أعتى فرق الإسلام فى ترويج الخرافات ـ وصدق أو لا تصدق أن وزارة الثقافة قامت بطباعة كتب فيلسوف الصوفية محيي الدين ابن عربي عشرات الطبعات وفى مجلدات ضخمة وبأسعار زهيدة ، رغم أن هذه الكتب فيها من الكفريات الشنيعة ما لا يخطر على بال ككتاب الفتوحات المكية وكتاب فصوص الحكم الذى قال عنه الإمام الذهبي أن هذا الكتاب لو لم يكن فيه كفر ، فليس هناك كفر على وجه الأرض ! ، بالإضافة إلى كتب الفلاسفة المطعون فيها كرسائل إخوان الصفا .. كما قاموا بطباعة كتب التاريخ الإسلامى المطعون فيها، مثل تاريخ المسعودى والفهرست لابن النديم وكلها كتب حكم عليها العلماء حكما قاطعا بالسقوط لأن معظمها ليست له أسانيد والذى له أسانيد منها اعتمد فى رواياته على رواة الشيعة المطعون فيهم ، هذا مع أن مخازن وزارة الثقافة تحتوى كافة مخطوطات التاريخ الإسلامى التى كتبها كبار المحدثين كابن كثير والطبري وخليفة بن خياط وابن شبه وغيرهم .. وزادت الطامة بطباعة بعض الكتاب التراث الإسلامى وهى مزدانة بتحقيق وتعليقات المستشرقين !! ، وكأنه قد ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا إلا المستشرقين لتحقيق الكتب والمخطوطات العربية !

وأنا لا أنكر أن وزارة الثقافة قد أصدرت جانبا من الفكر الإسلامى الصحيح كتاريخ ابن خلدون ، والطبقات الكبري لابن سعد ، لكن هذه الكتب تعد من قبيل النذر اليسير أمام جحافل المطبوعات المسممة ، وكانت حجتهم الجاهزة والمعلبة ، أن الوزارة مهمتها نشر كافة الكتب من كافة الإتجاهات ، وبغض النظر عن أنهم لم يلتزموا بهذا المبدأ أصلا وانحازوا لكتب البدع ، فإن هذا المبدأ بالغ الخطورة لأن الكتب المسممة يجب أن تظل فى إطار البحث الجامعى وبين أيدى العلماء وطلبة العلم ، لا أن يتم إصدارها بطبعات متكررة ونشرها بين آحاد الناس وهى تحوى الطوام العقائدية التى تشكك فى أصل العقيدة بل إنهم ارتكبوا جريمة ثقافية وفضيحة فكرية متكاملة الأركان عندما قاموا بطباعة كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب زورا وبهتانا إلى إمام من كبار أئمة السنة وهو ابن قتيبة الدينورى، طبعته وزارة الثقافة ضمن سلاسلها وعليه اسم الإمام ابن قتيبة رغم أن الكتاب مدسوس عليه بإجماع أهل النقل والتحقيق.

تساءل الشاب : كيف يمكن نسبة كتاب هذا الكتاب المزور لغير مؤلفه ..

أجاب الكاتب:

بدون أن أغرقك فى تفاصيل علم الحديث وجريا على قاعدتنا فى هذا الحوار بالإعتماد على الحوار العقلي، دعنى أسألك ماذا لو أننى طبعت كتابا بعنوان (إباحة الزنا) وأصدرته فى الأسواق وعليه مثلا اسم الشيخ الشعراوى وملأت الكتاب بأدلة ملفقة على إباحة الزنا ، ما الذى سيحدث ؟!

قال الشاب:

تنقلب الدنيا طبعا ويتهمونك بالتزوير على الإمام الراحل ..

قال الكاتب: وما هو دليلهم على أن الشعراوى لم يكتب هذا الكلام ؟!

قال الشاب مندهشا : ألف دليل ، فكُتب الشعراوى معروفة للناس كلها ، فضلا على أن الرجل إمام من أئمة الدين وآراؤه فى تفسيره معلنة وتخالف محتوى الكتاب

قال الكاتب: ماذا لو أننى دافعت بأن الشعراوى كتب الكتاب فعلا ولكنه أخفاه وجئت أنا فأظهرته للناس.

أجاب الشاب: بكل بساطة سيطالبونك بمخطوطة الكتاب بخط الشعراوى.

ابتسم الكاتب قائلا: بالضبط، وهذا هو مربط الفرس، ولتعلم أن العلماء فى الماضي كانت لهم ضوابط أشد من ضوابط اليوم للكتب المنسوبة للعلماء، فنحن فى

عصرنا هذا نعتمد على التوقيع وتسجيل الكتاب بدار الكتب والنسخ المخطوطة للكتاب بخط الكاتب ، وكل هذا من الممكن افتعاله اليوم ببعض الإتقان والمهارة أما قديما فلأنهم كانوا يشتغلون بضوابط علم الحديث ، فلم يكونوا يعترفون أصلا بأى مخطوطة كتاب عليها اسم أحد العلماء إلا إذا طبقوا عليها شروطا من المستحيل افتعالها ، فمثلا لابد أن تكون المخطوطة من كتابة أحد الرواة المأمونين الذين أخذوا عن الشيخ المنسوب له الكتاب ، أى لابد من توافر إجازة من الشيخ للراوى برواية الكتاب ، وهذه الإجازة يمنحها الشيخ لتلاميذه علنا حتى يعتد بها ، فضلا على ذلك يجب أن يكون الكتاب معروفا عن الشيخ نفسه ، فلو جاء حتى أحد تلامذته بمخطوطة لكتاب غير معروف عن الشيخ عند أهل التحقيق فلا يعتد بالمخطوطة أصلا ، وفوق كل هذا يجب أن تتطابق المخطوطة الجديدة مع محتوى مخطوطات نفس الكتاب عند بقية التلاميذ وإلا رفضها العلماء ، ولهذا فكتب العلماء وصلت إلينا من عشرات المصادر المختلفة بعشرات المخطوطات المتطابقة وكل مخطوطة كتبها واحد من تلاميذ هذا العالم أو ذاك.

فهل تتخيل مدى الدقة ؟!

قال الشاب مستغربا : هل يعنى هذا أن الكتابة والتدوين لم تكن هى الأساس فى نقل الكتب ؟!

أجاب الكاتب:

نعم بالطبع فالتدوين كان وسيلة لنشر الكتاب ومُدارسته ، ولكن التدوين لم يكن طريقة يعتد بها للنقل أو الإثبات بغير الإسناد، فأمة الإسلام معروفة بأنها أمة إسناد وبهذه الطريقة ذاتها تم نقل القرآن والسنة والتاريخ، وهذا لا يعنى أن الكتابة ليست أساسية، فهى أساسية فى المحتوى الموثوق منه أما فى عملية النقل فالعبرة بالإسناد، فالعلماء لم يكونوا يحفظون الكتب حفظا ويستغنوا عن الكتابة ، بل كان الشيوخ يعتمدون على الكتب بعد انتشار عصر التدوين ولكن لابد للكتاب من إسناد مذكور فى مقدمته ومتصل للعالم المؤلف وبرواية واحد من أقرانه فى عصره ، هذا فيما يخص كتب العلوم المختلفة والفنون والآداب أما القرآن والسنة فالدقة كانت أكثر من ذلك بمراحل ، حيث كانت محتويات الكتب محفوظة بالفعل فى صدور العلماء والتلاميذ ، ولو اعتمدت الأمة على الكتابة وحدها لما وصل القرآن إلينا سالما ، لأن تشكيل وضبط القرآن لم يتم إلا فى عصر الطباعة ، والتنقيط تم فى عهد الحجاج على يد نصر بن عاصم، فلو لم يكن

القرآن منقولا بالحفظ حرفا حرفا لوقع التحريف والتصحيف نظرا لإختلاف الحروف والتشكيل ، ولهذا قال العلماء (لا تأخذ العلم من صُحفي ـ من يعتمد على الصحائف ـ ولا تأخذ القرآن من مصحفي ـ أى يعتمد على القراءة من المصحف وليس القراءة على الشيوخ) واستمر الأمر كذلك حتى فى عصرنا الحالى ، فكل من أراد حفظ القرآن يلجأ إلى شيوخ القراءات ويستمع منهم لطرق قراءة الآيات كما وردت سماعا بالإسناد ، ومعاهد القراءات المنتشرة فى العلم الإسلامى لا زالت إلى اليوم تمنح إجازة بالأسانيد المتصلة لكل من يحفظ القرآن فى مدارسها ، ويكون السند متصلا من الشيخ المحفظ حتى يصل السند إلى أحد كبار أئمة القراءات ثم إلى الصحابة ثم إلى النبي عليه السلام ،ونقل السنة تم بنفس الطريقة ، فيقال مثلا هذا كتاب الموطأ لمالك برواية تلميذه الشيبانى ، وهذا كتاب المسند لأحمد بن حنبل برواية ابنه عبد الله ، وهكذا من راو إلى راو حتى وصل إلينا ، وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب الواحد كان يرويه عشرات ومئات التلاميذ ممن حصلوا على الإجازة ، فلم يكن الأمر نقلا فرديا.

قال الشاب : عودة على كتاب ابن قتيبة ، كيف أثبت العلماء تزوير الكتاب ؟

قال الكاتب:

بطريقة بسيطة جدا، وهو عدم وجود سند لهذا الكتاب لابن قتيبة كدليل على صحة صدور الكتاب منه، فضلا على أن ابن قتيبة ليس مجهولا بل هو من كبار الأئمة وبالتالى فله ترجمات مطولة عند أصحاب التراجم ، وهذه التراجم ليست مجرد سيرة ذاتية للعلماء بقصد التعظيم ، بل هى ملف كامل وشامل ويحتوى على مسيرته العلمية وآرائه وشيوخه الذين أخذ عنهم العلم ، وتلاميذه الذين أخذوا العلم منه ، وكل هذا لتأمين وحماية كتب الشريعة من الدس والتلفيق ، ولهذا ففي تراجم طبقات الحفاظ كافة عناوين كافة الكتب التى صنفها العالم المترجم له ، وكل تراجم ابن قتيبة خالية من عنوان كتاب الإمامة والسياسة ، أما الدليل العقلي القاطع ، فهو أن كتاب الإمامة والسياسة كتاب طافح بالروايات الشيعية المفضوحة عن الصحابة ، كما أن الكتاب يحتوى على معتقدات الشيعة البدعية كالإمامة الإلهية لأئمة آل البيت وأنهم معصومون ، وكل هذه المعتقدات تخالف أبجديات عقيدة أهل السنة ، ولا يمكن لعالم سنى ومحدث مثل ابن قتيبة الدينورى أن يروى ويقر هذا الكلام..

قال الشاب : ولكن ربما لم تعلم وزارة الثقافة بهذا

قال الكاتب:

بل يعلمون ، لأن تزوير كتاب ابن قتيبة كان موضوعا بحثيا للعديد من رسائل الدكتوراة والماجستير بل إن المعلومة منتشرة حتى فى الإنترنت ، فضلا على أنه من المعروف أن أى كتاب تراثي تتم طباعته ، يخضع للتحقيق من أحد المتخصصين ، وبالتالى فكشف تزوير الكتاب سهل وميسور ، بالإضافة إلى أننى أخبرتك أن هذا الأمر هو منهج لوزارة الثقافة فهى لم تطبع هذا الكتاب إلا لمحتواه البدعى ، وسبق أن أوضحت لك أنها لم تهتم بطباعة كتب أهل السنة فكل همهم الترويج للمبتدعات وأى فكر يطعن فى أهل السنة بل إن وزارة التعليم شاركتهم هذا التضليل لطلبة المدارس أيضا ، ألم تدرس فى مراحل التعليم الأساسي ما تسميه وزارة الثقافة بالدولة الفاطمية ؟

قال الشاب:

نعم بالطبع درسناها ودرسنا المعز لدين اللّه الفاطمى بانى القاهرة الفاطمية

عقب الكاتب قائلا :

ولو أنك رجعت لنشاط وزارة الثقافة لوجدتها أعادت تجديد وإحياء مبانى القاهرة الفاطمية وشارع المعز لدين اللّه ، أليس كذلك ؟!

قال الشاب: نعم فما هى المشكلة فى هذا ؟!

أجـاب الكاتب:

المشكلة أنه يجب عليك وعلى كل شاب من جيلنا أن يشك فى أصابع يده إذا صافح بها مسئولا فى وزارة الثقافة فى عهد مبارك بالذات، فالدولة المسماة بالفاطمية زورا وبهتانا، سماها مؤرخو الإسلام على مر العصور بالدولة العبيدية الخبيثة، ومؤرخو مصر الإسلامية مثل السيوطى والسخاوى والعسقلانى والذين تزعم وزارة الثقافة أنها تمجدهم باعتبارهم مصريين ، هم من أطلقوا على الدولة العبيدية هذا الإسم، لأن مؤسسيها لا علاقة لهم بفاطمة الزهراء رضي اللّه عنها، ولا بآل البيت بل جدهم الذى نشأ فى المغرب هو ميمون القداح كان يهوديا فادعى الإسلام، والدولة العبيدية لا تنتمى لأهل السنة أصلا بل تنتمى إلى الفرقة الشيعية الإسماعيلية وقد دخلوا مصر بمذبحة هائلة وحكموها بعد أن أطاحوا بعلماء السنة، وأنشئوا المدارس الشيعية فى البلاد وكان أشهرها الجامع الأزهر والأقمر والأنور ، واشتهر الأزهر بعد ذلك باعتباره معهدا لعلوم الشيعة ، كما خربوا مساجد أهل السنة وأنشئوا مساجدهم وملئوها بعبارات لعن

الصحابة وعلماء السنة ، وأجبروا المصريين على ترديدها ، ونشبت حركة مقاومة عنيفة ضدهم وابتكر الشعب المصري أساليب طريفة لمقاومة الغزو الشيعى ، منها ابتكارهم لتهاليل الفجر التى لا زالت قائمة لليوم وهى عبارة عن أدعية بالصلاة والسلام على النبي عليه السلام وصحابته وآل بيته ، وذلك ردا منهم على لعن الشيعة للصحابة فى الآذان المحرف الخاص بهم ، بل ابتكر المصريون العوام فى الأسواق شتائم جديدة كانوا يستخدمونها للتهديد والتنديد بمن ينتمى للرافضة مثل كلمة (ابن الرفضي) وأصلها (ابن الرافضي) وكان المصريون يعتبرونها من أقذع الشتائم ، وأيضا كلمة (حشيعك) والتى يستخدمها المصريون لليوم عندما يستخدمون خطاب التهديد، أى أن الخصوم كانوا يهددون بعضهم البعض بتحويلهم لشيعة وكانوا يعتبرون هذا من الردع ، كما يستخدم المصريون لفظ (الحاكم بأمره) لوصف كل حاكم ظالم ، وهذه إشارة للحاكم بأمر الله أحد أبرز سلاطين العبيديين فى مصر والذى تم اغتياله بعد إدعائه الألوهية ..

وامتدت المقاومة ثلاثة قرون حتى جاء الناصر صلاح الدين فأجلى الرافضة من مصر، وأغلق معاهدهم ، ثم تحول الأزهر على يد العلماء المصريين إلى أكبر معاهد أهل السنة.

والسؤال الآن ..

أين هذه المعلومات والحقائق فى مطبوعات وزارة الثقافة وفى مناهج التعليم التى سقوها لأجيالنا، وهل هى مصادفة أن يتركز نشاط وزارة الثقافة ووزارة التعليم على تكريس كتب البدع وتزييف حقائق التاريخ ؟!

قال الشاب فى صدمة :لو صح هذا الكلام فمعنى هذا أننا لم ندرس شيئا صحيحا فى التاريخ الإسلامى؟!

قال الكاتب:

لا تتصدم سريعا، فالكارثة الحقيقية ليست فى هذا فحسب بل امتد التزوير حتى للسيرة النبوية ولسيرة الصحابة وتاريخهم، ألم يقرروا فى المدارس كتاب طه حسين (الفتنة الكبري) بكل ما احتواه من تدليس وتزوير وروايات خرافية ظل الإعلام يبثها للشعب المصري اعتمادا على أن علم الحديث ليس له رواج فى العصر الحديث، والأزهر ركز على علوم الفقه لأن أصحابها لهم احتكاك بالناس والفتاوى ألم نتعامل كشباب ومثقفين مع أحداث الفتنة الكبري المشتهرة باعتبارها حقائق تاريخية لا تقبل الجدل

، فرددنا مع الناس خدعة عمرو ابن العاص لأبي موسي الأشعري فى قضية التحكيم ، ورددنا معهم رواية رفع معاوية وجيشه للمصاحف على أسنة الرماح ، وتندرنا على رواية مبارزة الإمام على لعمرو بن العاص والتى قالوا لنا فيها أن عمرو كشف عورته أمام الإمام لكى ينجو بحياته .. ألم تسمع وتدرس هذه الروايات ؟!

أجاب الشاب : بل إننى درستها حتى فى كلية الآداب وليس فى المناهج الدراسية فحسب وقرأتها فى كتب العقاد وخالد محمد خالد ومحمد حسين هيكل وغيرهم

عقب الكاتب قائلا :

العقاد وخالد محمد خالد ومن هم فى مستواهم مفكرون عظام ، ودفاعهم عن عقيدة الإسلام موجود وظاهر فى كتبهم ومؤلفاتهم، لكن كتاباتهم عن التاريخ الإسلامى مع الأسف الشديد تأثرت بإنتشار الروايات الباطلة، لأنهم ذهبوا لاستقاء التاريخ من كتب التاريخ الإسلامى الأصلية دون دراسة لمنهج الأقدمين فى الرواية ، وتعاملوا معها كما نتعامل مع الكتب فى عصرنا الحاضر، فافترضوا أن كل ما ورد فى هذه الكتب يعنى أن مؤلفيها يقصدونها ويؤمنون بصحتها ، ولهذا أخذوا روايات الفتنة الكبري المشتهرة وأوردوها فى كتبهم ، ولجئوا إلى تبرير تلك الروايات الشنيعة بمختلف المبررات مراعاة منهم لقيمة الصحابة ، مع أنهم غير مضطرين لذلك أصلا

اعتدل الشاب سائلا فى اهتمام : هل تشير إلى زيف رواية التحكيم ونحوها.

قال الكاتب:

وهل خالجك شك يا رجل فى أننى أعنى هذا، والمفروض ألا يثير دهشتك هذا الموضوع لأن إنتشار الإنترنت ودور الكتب الإسلامية وكثرة الباحثين ساهم فى دحض تلك الروايات تماما، ويكفي أن تعلم أن نقد روايات الفتنة الكبري بمختلف تفاصيلها وبيان الروايات الصحيحة بأسانيد الأئمة الثقات كان ولا يزال هو الموضوع المفضل فى الأعوام الأخيرة فى المعاهد والجامعات، وقد أحصيت قرابة المائة بحث فى هذا الموضوع وحده وكلها من إنتاج جامعات الجزيرة العربية ومن أنشطة الدعوة السلفية ، بالإضافة إلى كتابات بعض الباحثين فى المغرب العربي.

سأل الشاب: وأين مؤلفات المؤرخين المصريين فى ذلك؟!

أجاب الكاتب:

موجودة طبعا، ولكنها غير منتشرة لأنه لم تدع الحاجة فى مصر إلى الإهتمام بهذا

الموضوع إلا فى الأعوام الأخيرة ، لأن عقيدة حب الصحابة وآل البيت راسخة فى المصريين ، بالإضافة إلى عدم وجود تيارات تناقض هذا الأمر إلا كتابات العلمانيين وهؤلاء بلا وزن لدى الجمهور ، أما فى الجزيرة العربية وبلاد الخليج والعراق فالأمر يختلف لأن الشيعة الإثناعشرية منتشرون بمعتقداتهم ومؤلفاتهم ، وكل هذه المعتقدات تدور حول الطعون الموجهة للصحابة ، ولأن الحاجة هى أم الإختراع فقد ركزت الجامعات وركز طلبة العلم فى هذا الموضوع ونشروا قواعد علوم النقل والإسناد ورد الشبهات حتى بين العوام ، وقد اختبرت ذلك كثيرا فهناك شباب فى مقتبل العمر ولم يدرسوا الدراسة الأكاديمية إلا أن غيرتهم على الصحابة دفعتهم لإتقان هذا التخصص بالجهد الشخصي ولو لم يقم الشيعة بنشر معتقدهم لما قامت الهمم لرد تلك الإتهامات ، ولهذا فحتى الأطفال فى الجزيرة العربية يعلمون الروايات الصحيحة فى الفتنة الكبري بل وربما يعلمون أسماء الرواة المطعون فيهم من الشيعة والذين حملوا راية نشر هذه الروايات وأشهرهم سيف بن عمر الضبي ولوط بن يحيي، أما فى مصر فلا يوجد شيعة بل ولا توجد حتى بين المثقفين أى معرفة بمعتقداتهم وغاية ما كنا نعرفه عنهم أنهم يحبون ويفضلون آل البيت ، حتى جاءت الفضائيات والإنترنت فى بداية القرن الحالى واطلعنا لأول مرة على حقيقة المعتقدات الشيعية ولم يكن يدر بخلدنا ـ ولو حتى فى الكوابيس ـ أن هناك مسلما من الممكن أن يطعن فى أبي بكر وعمر أو يعتبر آل البيت مفهوما قاصرا على الأئمة الإثنا عشر فقط، ولهذا تكرر معنا نفس المبرر الذى دفعنا لإتقان قراءة التاريخ ، وكتجربة شخصية لى ولبعض زملائي ممن لهم هواية قراءة التاريخ الإسلامى كانت صدمتنا كبيرة جدا عندما سمعنا لأول مرة أن وجود الروايات التاريخية فى الكتب لا يعنى صحتها ووقوعها الفعلى وعلمنا أن هناك علوما اسمها علوم الحديث منها علم الرجال الذى يبين حال الرواة ودرجات الرواية ، والكتب المعتمدة وغير المعتمدة ، ولهذا وجهنا جهدنا كله للدراسة والبحث خلف هذا العلم وقام الكثيرون بإعادة قراءة التاريخ الإسلامى من جديد وتعلمنا ثقافة الشك والمطالبة بالدليل وعشقنا مبادئ علوم الحديث خاصة بعد أن اكتشفنا أن هناك أحاديث موضوعة كثيرة يرددها الناس دون علم أو دراية ..

وقبل أن تسأل عن الروايات الصحيحة وأدلتها سأعطيك بحثا مختصرا قمت بإعداده ليصلح دليلا سهلا على القارئ فى معالجة هذه الروايات ، وهو على هذا الرابط :

http://www.mnaabr.com/vb/showthread.php?t=392

سأل الشاب: ما زلت لا أفهم كيف وقع كبار مفكرينا فى فخ الروايات الضعيفة ؟!

قال الكاتب :

لهم عذرهم الكامل يا صديقي ، فأدوات المعرفة فى أيامهم كانت قاصرة جدا ، بينما نحن الآن نمتلك وسائل خرافية للبحث والتنقيب والوصول لآلاف الكتب والمحاضرات المسموعة والمرئية ، وهؤلاء المفكرين الكبار كانوا يبذلون الغالى والرخيص للوصول للكتب القليلة المتاحة على أيامهم ، فأخذوا منها ، ولم يدركوا طبيعة منهج كتابة التاريخ عند علماء السنة، ولم ينتبهوا إلى أن الإمام الطبري مثلا قال فى مقدمة كتابه (تاريخ الأمم والملوك) أنه التزم فقط برواية سائر الروايات مع بيان سندها بالكامل وبالتالى فلا يتحمل مسئولية من أخذ بالرواية دون فحص السند اعتمادا على القاعدة الأصولية التى تقول (من أسند فقد أحال) ، لأن جمع الروايات شيئ وتحقيق الروايات شيئ آخر ومهمة أخرى، وهو نفس منهج كتابة الحديث فكل كتب السنة عدا صحيحى البخارى ومسلم تحتوى الأحاديث مسندة دون إلتزام بصحتها ، لأن البخارى ومسلم وحدهما التزما بجمع عدد معين من الأحاديث الصحيح فقط تكون محتوية على أحاديث الأحكام والعقيدة والعبادات وبشكل مضغوط مختصر يصلح دليلا للمسلم على شريعته ولهذا فعدد الأحاديث فى الصحيحين مختصر بالنسبة لباقي الكتب، أما باقي السنة فقد روتها كتب الأئمة شاملة وجامعة مثل مسند أحمد ابن حنبل الذى احتوى أربعين ألف حديث بالمكرر ، ومثل كتب السنن والمسانيد وغيرها ، وكل هذه الكتب جاء علماء التحقيق بعد ذلك فأخضعوها للفحص فبينوا الصحيح والضعيف والموضوع بيانا واضحا ، ونفس الشيئ حدث فى كتب التاريخ ولكن بدرجة دقة أقل ، لأن الحديث كان يتم فحصه كلمة كلمة، دون حرف زائد أو ناقص أما التاريخ فتجوز روايته المعنى أو رواية الواقعة بعموم ولكن دون إدخال روايات موضوعة، لكن كل هذه المعلومات غابت عن أذهان مفكرينا لأنهم غير متخصصين فى هذا الفن، وإذا كان بعض الفقهاء يقع فى فخ الروايات الضعيفة ويضطر للجوء لعلماء الحديث فما بالنا بالمثقفين والمفكرين..

تساءل الشاب:

ولكن لماذا التمست العذر للعقاد وخالد محمد خالد ولم تفعله مع طه حسين ؟!

أجاب الكاتب:

دعنى أوضح لك أولا أن من هم مثلي ومثلك ومثل آلاف الشباب الباحثين عن المعرفة،

لم نعش عصور هؤلاء الناس ، ولا نعرفهم شخصيا حتى نحبهم أو نكرههم بشكل شخصي بل كل أجيالنا اليوم شباب بعقول محايدة تماما ولا تحمل أى ثقافة مسبقة للتأييد أو الرفض وكل من قرأنا لهم هذه الكتب رحلوا عن عالمنا قبل حتى أن نولد نحن ، ولهذا لا توجد عندنا ـ كشباب عاشق للقراءة ـ أي موقف سلبي أو إيجابي مسبق ، نظرا لأننا جئنا فى عصر الجمود الثقافى الذى بدأ مع عصر مبارك، وكان عصر الأيديولوجيات والإنتماءات السياسية والدينية والثقافية سابقا لنا لحسن الحظ ، وبالتالى فقد خرجنا بلا أى خصومة مع أى تيار ، فأجيالنا ليست ناصرية أو ساداتية ، وليست شيوعية أو رأسمالية ، ولسنا صوفية أو سلفية ـ بالمعنى التنظيمى ـ أو أشعرية ، بل معظمنا كان حتى عهد قريب لا يعرف المذاهب العقائدية من الأساس ويعبد الله بعقيدة العوام التى امتدحها العلماء نظرا لأنها عقيدة صافية لم تخض فيما ليس لها به علم ..

ولهذه الميزة الجميلة،، فقد خرجنا نطلب العلم والثقافة من الجميع ، بينما ظلت أجيال آبائنا وأجدادنا رهينة المحبسين ، الإنتماء الأيديولوجى ، والإنتماء لأشخاص المفكرين لأنهم عاصروهم جميعا فنشأت لديهم العاطفة سواء بالحب أو الكره ، وفى الأجيال السابقة علينا ستجد أنه من المستحيل أن يوجد ناصري يحب السادات ، أو ساداتى يحب عبد الناصر ، ولن تجد صوفيا يحب علماء وأفاضل السلفيين أو سلفيا يُقدّر أكابر الصوفية ، ولن تجد شاعرا من شعراء ما يسمى بالحداثة يحب الكلاسيكيين أو الرومانسيين ، ولن تجد شيخا أزهريا يحتمل الوجود فى مكان واحد مع مثقف علمانى والعكس صحيح .. إلخ ..

فهذا الإستقطاب الرهيب جعل كل طرف يخرج عيوب الآخر ، وبطبيعة الحال كل الناس بها عيوب ، وحتى على مستوى فكرنا وحضارتنا وإسلامنا لا يوجد أحد معصوم بعد الأنبياء والرسل عليهم السلام ، والحكم على المناهج والعلماء إنما يكون بمدى حسناته وسيئاته ، وعلى هذا الأساس يتحدد الحكم بالصلاح أو الفساد .. لكننا لم نعان من الاستقطاب ..

ولأنه لا يوجد لدينا كمسلمين مقياس أفضل من مقياس القرآن والسنة باعتبارهما المقياس الثابت الوحيد المعصوم ، فقد استعملناه نحن الشباب فى قبول المعارف أو رفضها ومن أساسيات وأبجديات مقياس القرآن والسنة أن الجيل الوحيد فى الأمة الذى يصلح للقياس عليه فى الحكم على الأشخاص هو جيل الصحابة ، ليس لأنهم معصومون

بل لأنهم محفوظون ، فصريح آيات القرآن جعل حبهم إيمان وبغضهم كفر ونفاق ، ولهذا بدأنا السلم من أوله .. فوجدنا أن علماء أهل السنة هم جمهور الأمة، وليس هذا فقط بل إنهم المتفردون بالمنهج الوحيد الذى يطبق مبدأ الجمع بين حب الصحابة وآل البيت وحفظ جميلهم على الأمة ، وبالتالى ذهبنا لنأخذ العلم من أصحاب المذاهب الأربعة، ومن ابن حزم وسفيان الثورى وبن عيينة وابن أبي شيبة وابن المبارك ، ثم نزلنا درجات السلم خطوة خطوة حتى وصلنا لأجيال العلماء الحاليين ، ورفضنا فى نفس الوقت كل علماء الفرق البدعية التى انشقت عن أهل السنة لسبب بسيط أنهم يرفضون العمل بالحديث النبوى إما لرفضهم المطلق كالمعتزلة فى تفضيل العقل ، وإما لعملهم بأحاديث لم تأت عن طريق الصحابة أو من رووا عنهم ، وإنما من طرق مجهولة لا تثبت ، ثم وجدنا الفرق البدعية تجتمع على كره جيل الصحابة ، والتنقص منهم والخوض فى أعراضهم وهذا مخالف للثابت المطلق لدينا وهو القرآن .. وبتطبيق ذلك على كتابات مفكرى وعلماء العصر الحديث، قمنا باستبعاد المذاهب التى تتخذ من الإلحاد مذهبا كالشيوعية ، والمذاهب التى تطعن فى الصحابة وتعتبره من أساسيات أفكارها كدعاة التغريب ، ولهذا رفضنا منهج طه حسين كله ، لأننا قرأناه وطالعناه بالفعل ووجدنا الأفكار التى أوضحتها لك ، لكن العقاد وخالد محمد خالد ، كتبوا فى الفكر الإسلامى والصحابة بأجمل آيات التبجيل ودافع العقاد عن الإسلام وحضارته فكتب عن فضل الحضارة العربية على الغربية ، وجاء خالد محمد خالد فكتب عن خلفاء الرسول وصحابته عليه وعليهم الصلاة والسلام ، ولهذا فإن ما وقعوا فيه أخطاء استنادا إلى روايات ضعيفة فى الكتب ، حملناها على عذر ظروف عصرهم ، وهم لا يختلفون عن علماء الإسلام السابقين الذين حمل تابعوهم أخطاءهم على نفس العذر لأنهم من أهل الفضل ، أما طه حسين فلم نجد منه إلا الطعن فى القرآن وفى الصحابة فضلا على محاولته سلب أمة العرب آدابها وثقافتها !! فلماذا نعذره وبأى مبرر ؟!(٦٤)

كما أن العقاد وخالد محمد خالد كانا جنديان عملاقان فى معركتهم ضد التغريب مع عدد قليل من المفكرين، ورغم قلة إمكانياتهم صمدوا، بل إن خالد محمد خالد أثبت صدق نواياه بتجربة مشهورة ، فعندما كان فى شبابه تأثر كثيرا بدعاوى التغريب المنتشرة وظنها فيها بعض الحق ولو أنه لم يوافقهم على سائر ما يدعون إليه فهدفه بالفعل كان

(٦٤) رحم الله طه حسين وغفر له ، فقد جاءت روايات عديدة تقول بتراجعه عن أفكار المستشرقين وندمه عليها لا سيما فى المرحلة التى كتب فيها روايته المعروفة (الوعد الحق).

التجديد كما يفهمه، فكتب أول كتبه وهو (من هنا نبدأ) ، وكان الكتاب محتويا على أفكار مخالفة لصحيح الدين والتاريخ ، فرد عليه الشيخ الغزالى ردا قاسيا بكتاب (من هنا نعلم)، ورغم أن هذه القسوة كان يمكن لها أن تجعل خالد محمد خالد يتمسك برأيه، إلا أن هناك عاملا آخر جعله يتراجع على الفور عن أفكاره تلك، وهذا العامل تمثل باحتفاء دعاة التغريب بكتابه إلى درجة مبالغ فيها، وترحيبهم بهذه الأفكار ووصفها بالأفكار التنويرية ، هنا توقف خالد محمد خالد مع نفسه وبدأ يراجع موقفه لأنه نظر بعين الريبة لاحتفاء دعاة التغريب به ، فترحيبهم به ـ وهو يعلم يقينا بموقفهم من الإسلام ـ جعله يدرك أن هناك دافع خبيث خلف هذا الإهتمام ، فمنذ متى يحتفي هؤلاء القوم بمفكر إسلامى أو فقيه .. وبالفعل جلس إلى الشيخ الغزالى وراجع معه كل أفكاره ثم انضم لكتيبة المقاتلين ضد التغريب ..

ونفس الشيئ حدث مع الدكتور مصطفي محمود ، وقد كان رحمه الله والذى كان تائها كمعظم أبناء جيله من المثقفين ولا يدرى أين الحقيقة ، فالعوام والأميون فى ذلك الوقت كانوا فى مأمن من أفكار التغريب وليس هناك مجال لوصولها إليهم ، أما المثقفون فكانوا عرضة لذلك فمنهم من وافقهم ومنهم من حاربهم ، وبقيت فئة ثالثة حائرة بين علماء الأزهر وبين دعاة التغريب ، كان منهم مصطفي محمود ، فقرر أن يمحو من رأسه كافة الأفكار التى اكتسبها فى بيئته سواء مع الدين الإسلامى أو ضده ، وبدأ يتفكر بعقله من البداية، بدأ يتساءل أولا عن وجود الله ، وبعد إثبات ذلك انطلق لإثبات صحة الرسالة المحمدية، ونظرا لأنه لم يؤمن بالإسلام بطريقة التعلم من الأسرة ، وقرر اختيار الطريق الوعر ، فجاء بحثه مثمرا لأنه كان محايدا بعقله تماما ، والعقل المحايد يهديه الله تعالى بالفطرة، فبدأ رحلته بإبطال الفلسفة الشيوعية القائمة على الإلحاد وعندما تبين له ذلك وآمن أن الإلحاد هو أغبي عمل فكرى فى الوجود لأنه لا يفسر أى شيئ فى أى شيئ، بدأ البحث باطمئنان فى معجزات الخالق فى خلقه وفى قرآنه الكريم ، ونظرا لأنه طبيب وصاحب عقلية علمية ، فالذى لفت نظره فى القرآن هو آيات الخلق للكون وللكائنات الحية ، فكتب لنا سلسلة من أجمل إبداعات العقل المسلم وقدم سلسلة حلقات العلم والإيمان التى جذبت آلاف المسلمين للتفكر فى القرآن تنفيذا لوصية النبي عليه الصلاة والسلام بالتفكر فيه لأنه منجم لا يشبع منه العلماء،وميزة القرآن الكريم عن أى كتاب سماوى آخر ، أنه ـ وباعتباره دعوة للعالمين ـ فكان لازما أن يحتوى فى آياته على إعجاز

يبهر كل العقول على اختلاف الأمم والثقافات، فهو لم ينزل للعرب وحدهم حتى يتميز بإعجاز البلاغة وحدها، وإلا كان هذا ظلما لغير العرب ممن لا يتذوقون جمال العربية وبلاغتها، ولهذا كان القرآن يلفت نظر العلماء فى كل تخصص فى مراحل خلق الإنسان وفى وصف الكون، وفى النظام التشريعى المحكم الذى يصلح لكل الأمم على مر العصور وفى ذكر الأمم السابقة وحكايا الرسل السابقين عليهم السلام ، وهكذا بلا حدود.

قال الشـــاب:

لكن مصطفي محمود له أخطاء حول السنة وحول بعض تفسيرات القرآن الكريم ..

أجاب الكاتب:

وما الغريب فى ذلك، ألم أقل لك منذ قليل أن جهابذة الدعاة والمتخصصين وقعوا فى فخ الجهل ببعض روايات علوم الحديث ، فما بالك برجل لم يتخصص فى هذه الفنون أصلا ؟! ثم هل تظننا نطلب من علمائنا أن يكونوا معصومين أو بلا أخطاء كشرط لأخذ العلم عنهم ، لو فعلنا هذا فلن نجد عالما واحدا نأخذ منه، والعبرة بقياس الحسنات والسيئات كما قلت لك ، فالعلماء مثلا حفظوا للحاكم النيسابورى قدره رغم أنه كان صاحب هوى وميل للشيعة ورواياتهم ، فاكتفي العلماء بالتنبيه على هواه حتى يتجنبوا هذا الهوى عند حديثه فيه ، والإمام أبو حامد الغزالى وهو واحد من أعظم فقهاء عصره فى مجال الأصول له أخطاء جسيمة جدا فى كتابه الشهير (إحياء علوم الدين) وله أقوال تتصادم مع بعض الثوابت وقد تتبعه فيها الإمام ابن الجوزى ونبه على تلك الأخطاء ، كما قام الحافظ العراقي بتخريج أحاديث كتاب (الإحياء) ، وهناك من اشتد من العلماء فى نقد الكتاب وبالذات فى الجزء الخامس الخاص بالتصوف، لكن هذا قطعا لا ينفي جلالة مقام الإمام أبي حامد الغزالى فى الفقه وأصوله ورسوخه فى هذا، والشعراوى له ميول صوفية مشهورة وآراء سياسية غير مقبولة، فهل نرفض إبداعاته فى تفسير القرآن وتاريخه العتيد فى محاربة أفكار الإلحاد والإستشراق لأجل ذلك، وكذلك خالد محمد خالد فيه نفس النزعة الصوفية لكن الرجل مفكر من طراز فريد ويتميز بلغة أدبية سهلة ومحببة للنفس فى روايته عن الصحابة ولولا استناده للروايات الموضوعة والضعيفة فى كتابيه (رجال حول الرسول) و (خلفاء الرسول) لقلت بأن هذين الكتابين من أروع ما يمكن أن يتم تدريسه فى مناهج التربية والتعليم، لأن الرجل مخلص جدا فى حبه ودعوته لجيل الصحابة ويظهر هذا بجلاءوكذلك مصطفي محمود ، وهو بعطائه لا

يخفي على أحد، وربما يركز الناس على عطائه الباذخ فى حلقات برنامجه الشهير (العلم والإيمان) ، وهو أعظم أعماله لا شك ، ولكن له فى كتبه عطاءات باذخة من الناحية الفكرية فى التصدى للإلحاد والمذاهب الهدامة ، بل إنه كتب عدة كتب فى طرق المواجهة مع إسرائيل والغرب تعتبر مرجعا لمن أراد أن يفهم لعبة السياسة فى منطقة الشرق الأوسط وهو فى كل كتاباته جعل الإسلام قرآنا وسنة نصب عينيه، ثم إنه ـ وهو المهم ـ رجل يعود للحق فور اقتناعه ، وهى ميزة تكفي تماما لاستيعاب أخطائه مهما عظمت ، لكن المصيبة أنك عندما ترد بعنف وقسوة على مفكر كبير كهذا فإنك تعين شيطانه عليه دون أن تدرى فالمفترض أن نعتبره متأولا ـ وهو كذلك بالفعل ـ فقد غاب عنه جلالة علم الحديث كما غاب عن غيره من بعض متخصصي علوم الشريعة، فالمفترض أنه أولى بالعذر، وقد أصاب فى معظم أفكاره، بل الأشد من هذا أنه كان صاحب الفضل الأكبر فى التصدى للفكر الشيوعى داخل مصر وكتب فيهم سلسلة كتب شهيرة مزق فيها حجتهم وكانت المكتبة العربية فى حاجة إلى ذلك لأن ردود علماء الشريعة على الشيوعية لم تكن كافية لأنها اعتمدت على النصوص التى ينكرها الملاحدة بطبيعة الحال ولهذا كان الحل التصدى لهذا الفكر بالفكر والعقل أيضا ، تماما كما فعل علماء السلف عندما ناقشوا الفلاسفة ، ومن الأخطاء الكبيرة أن علماء الأزهر عندما قاموا بالرد عليه اتهموه بأبشع التهم، دون أن يضعوا فى اعتبارهم منهج السلف الصالح فى استيعاب المخطئين المتأولين ، فاتهموه بإنكار السنة كلها فى كتابه عن الشفاعة ، رغم أنه قال فى كتابه مرارا أنه لا ينكرها بل يطلب فهمها وفق عقيدة الإسلام ولو أنهم تعاملوا معه كما تعامل الغزالى مع خالد محمد خالد لتراجع مصطفي محمود عن أفكاره تلك كما سبق وأن فعلها مرارا من قبل .. ثم هناك حقيقة مريرة كان ينبغي التنبه لها ..

كان جديرا بمن هاجم مصطفي محمود دون أن يكتفي بإيضاح خطئه ، أن ينتبه إلى طبيعة المعركة المحتدمة الآن وأن الجنود المدافعون عن العقيدة الإسلامية قلة قليلة تواجه جحافل مدعومة بالسلطة والمال ، فليس منطقيا أن تستعدى عليك واحدا من أبرز المحاربين فى صفك وتعامله معاملة ألد أعدائك.

قال الشاب:

نخلص من ذلك إلى أن انتشار الروايات الموضوعة فى الفتنة الكبري كان فيه شق عمدى يهدف للتشويه ، وشق آخر نشره بجهل

أجاب الكاتب:

نعم ، وليس فى مدار روايات الفتنة الكبري فقط ، بل امتد التشويه للخلافة الإسلامية بأكملها حتى الخلافة الراشدة وذلك بالترويج لتشنيعات الروايات الموضوعة والأساطير الموجودة فى كتب المسامرات، وهى كتب تؤخذ للتسلية فى الأصل ، ولكن المغفلون فى عصرنا اعتبروها أحد مصادر التاريخ ونقلوا عنها ، وكتب المسامرات الأدبية هذى تشبه ألف ليلة وليلة وكتاب الأغانى للأصفهانى ، فيمكن قراءتها كتاريخ أدبي أو روايات مصنوعة للطرافة كالمؤلفات الروائية الحديثة ، أما أن تأخذها كمصدر لأحكام الشريعة أو كمصدر موثق للتاريخ الإسلامى فهذه مصيبة .. لأنك لو فعلت هذا لكنت شبيها بمن يأخذ وقائع التاريخ من أفلام السينما أو الروايات الدرامية.

تساءل الشاب:

وما هى أمثلة كتب المسامرات ؟!

قال الكاتب:

مثل كتاب المستطرف للأبشيهى ، ومثل كتاب الأغانى لأبي الفرج الأصفهانى ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الكشكول للعاملى ، وكتاب ربيع الأبرار للزمخشري

قال الشاب:

ولكنهم لا زالوا إلى اليوم يحتجون بوجود هذه الروايات فى كتب التاريخ الأصلية كما يحتجون بانتشارها فى مئات المؤلفات والكتب.

ضحك الكاتب قائلا:

كتب التاريخ الأصلية لا تحتوى أمثال الروايات الخرافية التى يجلبها بعض هؤلاء المهاجمين وتبلغ حد السفه العقلي، بل توجد هذه الروايات فى كتب المسامرات المشار إليها ، مثل تلك الرواية العجيبة التى جلبها خالد منتصر من كتاب الأغانى عن طريقة تعذيب ابن المقفع ، وخالد منتصر بالذات له باع طويل فى الكذب والتدليس بهذا الشكل ولكنه يتميز عن الآخرين بأنه ينتقي الروايات التى لا يصدقها عاقل أصلا ! مثل قصة تعذيب ابن المقفع التى اتخذها مثالا [٦٥] أما الروايات الضعيفة والمكذوبة فهى روايات مغلوطة لأحداث بعينها وقعت فى التاريخ الإسلامى ، وهى معروفة بسندها ومصدرها،

---

(٦٥) هى رواية عجيبة من روايات كتب المسامرات تحكى أن السلطة عاقبت ابن المقفع عن طريق قطع أطرافه وشيها فى النار ثم إجباره على أكلها !! ، ولست أدرى كيف لطبيب مثل خالد منتصر يقتنع أنه يوجد بشري يمكنه احتمال ربع هذا دون يلقي مصرعه فورا قبل حتى أن يجبروه على مضغ لقمة واحدة.

أما الخرافات فهى بلا أسانيد من أساسه، مما يعنى أنها ركام والذى يثير الضحك حتى النخاع أن هؤلاء العلمانيين يرفضون احتجاجنا بالبخارى ومسلم وهما أصح الصحيح والآن يريدون أن يحتجوا علينا بالموضوعات والمكذوبات لمجرد أنها تحقق غرضهم فى الطعن وهذا المنهج يضربهم هم قبل غيرهم للأسباب التالية:

أولا، لو أننا أخذنا بمنهج العلمانيين باعتماد كل ما فى الكتب لضاع الدين نفسه وليس التاريخ فحسب، فسبق أن قلت لك أن الأحاديث الضعيفة موجودة فى كتب السنة الأصلية جنبا إلى جنب مع الروايات الصحيحة ، لكن المحققين بينوا وفرزوا وأخرجوا كتب التحقيق التى توضح الأحاديث الضعيفة ، وهناك كتب متخصصة ألفها العلماء لجمع الأحاديث الموضوعة، فلو أخذنا بمنهج العلمانيين فمعنى هذا أن نحتج بوجود الأحاديث المزورة فى كتب الموضوعات لكى نعمل بها !!

ثانيا، احتجاجهم بانتشار الروايات الموضوعة للفتنة الكبري لا يعنى شيئا فى البحث العلمى، فالشائعات أكثر انتشارا وتأثيرا ألف مرة من الحقائق ، فهل يكون للشائعات عندئذ قيمة الحقيقة ؟!

ولو أنك قمت ببحث متقصي خلف إحدى روايات الفتنة المشتهرة وهى قصة خدعة التحكيم ، فهذه الرواية مصدرها الوحيد هو الراوى الرافضي لوط بن يحيي وقد حكم علماء الرجال على هذا الراوى بالكذب وسقوط العدالة ، وهو الذى ألف كتاب (وقعة صفين) وحشاه بهذه الروايات ، وعنه أخذتها سائر كتب التاريخ بعد ذلك فمنهم من رواها مبينا كذبها ، ومنهم من رواها مبينا سندها تاركا الحكم للمحققين، ولو أنك أفنيت عمرك فى البحث فلن تجد لهذه الرواية إسنادا يخلو من لوط بن يحيي، ولن تجد كتابا واحدا يروى الرواية بسند مختلف صحيح أو حتى حسن .. وبالتالى فلو أن آلاف الكتب أوردتها فسيظل المصدر المكذوب واحدا لا يتغير..

ومنذ سنوات كتبت ردا مفصلا على أحد المفكرين الكبار ممن تناول هذه الرواية المشتهرة فى أحد مقالاته وكتبه، ثم ناقشته مباشرة فى تلك الرواية فى محاورة معه على صفحته بالفيس بوك ، فأصر على صحتها واتفقنا على أن يأتينى بهذه الرواية نفسها ولكن من طريق وسند آخر غير السند الطعون فيه إلى لوط بن يحيي ، وأمهلته الوقت كما طلب ، ولم يأت بشيئ إلى اليوم!

سأل الشاب: ولكن لماذا لم تنتشر واقعة التحكيم الصحيحة مثل هذه الرواية ..

قال الكاتب:

فى العصور الإسلامية الأولى وحتى نهاية القرن العاشر الهجرى لم تكن هناك خطورة من هذه الروايات ، لأن العصر كان عصر علم وثقافة الإسناد موجودة حتى عند العوام بمعنى أن الحاجة إلى البيان غير متحققة لأن الرواية المكذوبة ظلت بإسنادها لا تشتهر إلا بين الشيعة والمبتدعة، فالإنتشار لهذه الرواية إنما جاء فى عصر الطباعة الحديثة ولك أن تبحث بعقلك عن السبب الذى دعا لنشر هذه الرواية عمدا ـ كما سبق الشرح ـ وترك الرواية الصحيحة التى رواها الإمام الدارقطنى شيخ البخارى ، ونقلها عنه الإمام أبي بكر ابن العربي فى كتابه (العواصم من القواصم) .. فالرواية الصحيحة موجودة وفى مصدر معروف فما السر فى انتشار الزائفة إذا؟!

وفى المائة عام الأخيرة حدث ما يشبه التكالب الغريب على انتقاء تلك الرواية بعينها من كافة الروايات الأخرى والحرص على نشرها نشرا هائلا حتى لا تكاد تجد مفكرا معاصرا إلا ونقلها سواء بعلم أو بجهل أما الرواية الصحيحة فقد ظلت فى مكانها وعند المتخصصين طيلة القرون السابقة لا سيما وأن هناك ملحوظة هامة توضح لنا لماذا لم يركز العلماء على نشر ومناقشة أحداث الفتنة الكبري السبب الأصلي يعود إلى أن أهل السنة كانوا يعملون بقاعدة (الكف عما شجر بين الصحابة) واكتفوا بالإشارة إلى أحداث الفتنة بإشارات مختصرة، حتى انتشرت كتب التاريخ الشيعية فتحرك المحققون لاستخلاص الرواية الصحيحة وأثبتوها.. ومن استطاع منهم الوصول بأدوات عصره للإسناد الصحيح نشر رواية الدارقطنى ومن لم يستطع سكت عنها أما السبب الرئيسي الذى منح رواية التحكيم المكذوبة تلك الشهرة، أنه مع بداية عصر ما يسمى بالتنوير لم تعد هناك أصلا ثقافة التمييز بين العلماء الثقات وبين الكذابين بل ولم يهتموا أساسا بالتاريخ الإسلامى ، وحتى عندما أخذوه لم يكتفوا بأخذه من كتب الوضاعين بل أضافوا إليها شروحات وتحقيقات المستشرقين وتعاملوا مع هذا الأمر وكأنه امر عادى جدا، وبالتالى فلا أحد كان يعلم أو يهتم بمن هو الدارقطنى أو ابن العربي ولا ما هو مقدار اختلافهم عن لوط بن يحيي، فضلا على غياب العلم بمنهج البحث التاريخى عند المسلمين ولهذا تساوت الرءوس ووقع الغالبية فى الفخ بحسن نية ، لكن هناك من كان يعلم بهذا كله ويفعله عامدا، لا سيما وأن مصادر الثقافة والتعليم منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت فى يد الإحتلال البريطانى..

قال الشاب: أى أن المتغربين تتلمذوا على يد المستشرقين ثم وجهوا كتاباتهم للناس

أجاب الكاتب:

نعم ورغم أن المستشرقين لم يؤثروا فى المسلمين بشيئ يذكر، إلا أن دور دعاة التغريب كان مؤثرا هذه المرة ـ ولو بنطاق محدود فى شباب المثقفين فى تلك الأيام ـ لأن المتحدثين بالشبهات كانوا من أبناء المسلمين والمنتسبين إليهم وهو ما غرر بالكثير من العوام الذين استمعوا إليهم، وهذا أمر طبيعى .. فالمستشرق الغربي مهما تحدث وطعن وشكك فى الإسلام والنبوة فلن يجد له أذنا صاغية بين المسلمين لمعرفتهم بعداوته وأهدافه..

أما المسلم إذا تكلم بالشبهات فهو يتكلم هنا من منطلق الدعوة إلى الإصلاح فيما يزعم بينما هو منافق يردد ما لقنوه فى الغرب من أجل ذلك كانت حكمة الله تعالى من التحذير العنيف بشأن المنافقين ، بل جعلهم الله يوم القيامة فى الدرك الأسفل من النار أى أنهم أعتى جرما عند الله من الكفار الأصليين، وهذه قمة الحكمة الإلهية، والتى تثبت صحتها حتى فى المعاملات العادية بين الناس، فعدوك الظاهر مهما بلغت قوته، ومهما بلغ ضعفك ، إلا أن هزيمتك أمامه غير مضمونة إذا توافرت فيك الإرادة وعدم الإستسلام ، أما العدو الخبيث المداهن المتدثر بثوب الصديق فهذا هو الخطر الحقيقي والذى يتمكن من تحقيق أهدافه دون إستخدام أى سلاح إلا سلاح المكر وانظر معى وتأمل فى تاريخ العالم القديم والحديث ، ستجد أن اليهود دائما كانوا قلة قليلة ولا يمتلكون القوة وبالرغم من هذا فهم يسيطرون وينتصرون ويحققون من المكاسب ما تعجز عن الإمبراطوريات العظيمة ، لأنهم دائما لا يواجهون إلا إتكالا على دعم غيرهم ، وعندهم الإستعداد الفطرى للغدر حتى لو لم يكن الغدر ذو فائدة فعلية!

ورغم أن الولايات المتحدة هى مركز قوتهم الحقيقي إلا أنهم تجسسوا عليها أمنيا واقتصاديا فى قضايا شهيرة ولعبوا فى السياسة الداخلية الأمريكية كيفما شاءوا [٦٦]

---

(٦٦) مارس الإسرائيليون ضد الولايات المتحدة اختراقات بلا حدود رغم أنهم فعليا ليسوا بحاجة إلى هذا نظرا للإتفاق الإستراتيجى الكامل بينهم وبين الأمريكيين، والتعاون على مستوى القيادات فى كافة المستويات، ورغم هذا اقام الموستد بتجنيد عملاء كبار للغاية ف الأوساط الامريكية أشهرهم جواثان بولارد الذى نقل لهم بعض خبايا الأمن القومى الامريكى وتم كشفه ومحاكمته بالسجن مدى الحياة لتظل اسرائيل تضغط للافراج عنه خمسة عشر عاما حتى نجحت ومما هو جدير بالذكر أنه رغم نفوذ اللوبي اليهودى فى امريكا وقوة منظمة الأيباك فى المجتمع الأمريكى إلا أنه يوجد تيار كبير وملحوظ من كبار الساسة والقيادات الأمنية لا يرضون عن المعاملة الامريكية تجاه إسرائيل ولكن أصوات هذا الفريق دوما مهضومة وقد فضح السيناتور الامريكى (بول فيدنلى) بعض صور الافاعيل الاسرائيلية فى كتاب شهير مترجم للعربية بعنوان (الخداع) وتمت مطاردته قضائيا من اللوبي اليهودى بسبب ذلك.

قال الشاب: وهل كل من يردد الشبهات على السنة هو مدفوع أو مأجور من الغرب
قال الكاتب نافيا:

كلا بالطبع .. والقصة ليست بهذه البساطة ولها جذور تاريخية فمحاولات اختراق المجتمع المسلم بعموم تمت منذ قرون عن طريق حركة الإستشراق ، لكن حركة الإستشراق قديما كان تأثيرها ضعيفا ولم يهتم بها الغرب اهتماما كاملا مع تركيزه على استخدام قوة السلاح ، وقد نجح علماء المسلمين فى عصور الحكم الإسلامى المختلفة من التصدى لها ببراعة كما ذكرنا ..

ولكن الإستشراق بدأ الموج العاتى له مع ظهور قوة الخلافة العثمانية التى حشرت أوربا فى أرضها وأنهت عقودا من الحروب الصليبية على الشرق الإسلامى، ثم توسعت وأسقطت عمالقة أوربا وصارت سلطنة العالم كله لمدة تربو على ستة قرون ، ولم ينجح الغرب فى تحقيق إنجاز ضدها إلا عندما بدأ الضعف ينتابها قبل مائتى عام من الإنهيار الفعلى، وعندما ضعفت قبضة الحكام ونجح الغرب الأوربي فى اختراق مقر الخلافة نفسه بدعاوى التجديد والتحديث والتطوير ونجحوا فى تغيير النظم الشرعية والقانونية القائمة على الشريعة ، هنا تمكن الغرب من أخذ مكان الخلافة فى الشرق العربي بسهولة ولم يقم الغرب بالإحتلال الكامل دفعة واحدة ولكن مهد لذلك ، وكانت أول الإختراقات نجاحا مع بداية عصر محمد على فى مصر، ومحمد على صاحب تجربة نهضة عملاقة من الناحية العملية لكن ولأنه كان أميا فى الأصل لم ينتبه لمدى خطورة الإختراق الفكرى وبعد موقعة ومعاهدة صلح (كوتاهية) الذى بموجبه أجبره الأوربيون على الإحتجاب داخل مصر اتجه محمد على إلى النهوض بمصر فأسس المدارس المعاصرة وشق القنوات والترع وقام بإرسال البعثات العلمية إلى جامعات الغرب بهدف واحد ألا وهو هدف إتقان العلوم العملية الحديثة ..

ولأن أى حضارة فى أى زمان لا تميل إلى تصدير علومها المعملية دون علومها العقائدية وأخلاقها وطبائعها، أحب الغرب أن يستولى على عقول هؤلاء الشباب الغرير القادم من أقصي الشرق من بيئات منغلقة غير مفتوحة ، ورغم إهتمام محمد على بالجانب العقائدى لطلبة البعثات عن طريق الحرص على إرسال شيخ أزهرى مع كل فوج دراسي يتابعهم فى أمور دينهم ويقوم بإمامتهم فى الصلاة ، إلا أن الإختراق حدث رغم هذا !!

قال الشاب : وكيف تم ذلك رغم وجود الشيوخ .

قال الكاتب:

من الغرائب فى هذا الموضوع أن أحد هؤلاء الشيوخ أساسا كان سببا مباشرا فى هذا وهذا الشيخ هو الأزهرى رفاعة رافع الطهطاوى !

الشاب: !!!

أكمل الكاتب: الشيخ رفاعة ذهب لفرنسا فى بعثة علمية ووظيفته هناك محددة بإمامة الطلبة فى أمور الدين فجذبته علوم وحياة أوربا فدرس هناك ، ولكن الكارثة أنه تأثر بالحياة الأوربية المنفتحة والخالية من كل القيود الإخلاقية وانبهر بمدى الإختلاط والتحرر الظاهرى هناك ولك أن تضع فى اعتبارك أن الشيخ رفاعة كان قادما من مجتمع محافظ إلى أقصي مدى ، فكتب هناك من الناحية الفكرية مؤيدا ومشجعا لنمط الحياة الأوربي بشكل مخجل ، وكتابه المشهور (تلخيص الإبريز)[٦٧] فيه من الأوصاف والعبارات التى يمتدح بها حياة اللهو والمجون الأوربي ما يندى له الجبين ، ولهذا السبب بالتحديد يحظى رفاعة الطهطاوى بتقدير وإعزاز التنويريين حتى اليوم ، ويعتبرونه قديس التجديد فهم لا يحترمون أو يقدرون شخصية تاريخية إطلاقا إلا إذا كان لها باع كبير فى مهاجمة الثوابت أيا كان نوعها واستمر الإختراق الفكرى ينمو شيئا فشيئا حتى حظى بالتشجيع الرسمى مع مجيئ حكم إسماعيل باشا الرجل الذى فتح للغرب الأوربي أوسع الأبواب لاستعباد مصر إقتصاديا وعسكريا وأخلاقيا ، فلم يكن إسماعيل يشبه أباه محمد على أو أخاه الأكبر المجاهد الكبير إبراهيم باشا[٦٨] فى حفاظهم على ثوابتهم العقائدية وإعتزازهم بها بل كان مفتونا أشد الفتنة بالغرب الأوربي وعندما حدث الإحتلال البريطانى بمؤامرة الخديو توفيق ابن اسماعيل بدأت الخطة الكبري للإختراق على يد البريطانيين وهم كما سبق أن قلنا أكبر عباقرة التاريخ فى اختراق واستغلال خلافات الشعوب وزرع الفتنة.

قال الشاب: متى نستطيع أن نقول أن الإختراق بدأ موجته الكبري؟!

---

(٦٧) تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز ـ رفاعة الطهطاوى ـ طبعة دار الهلال

(٦٨) كان إبراهيم باشا ابن محمد علىّ أفضل شخصية جاءت فى أسرة محمد على بأكملها ، فلم يكن ميالا لسفك الدماء كأبيه ولم يكن منحلا كباقي إخوته بل كان إماما مجاهدا بحق وقائدا عسكريا من طراز رفيع وأخاه طوسون كان أيضا مميزا بذلك لكن إبراهيم كان قائدا ملهما ومتمسك بعقيدته ومدرك تماما لأهداف الغرب ، ولولا وفاته فى حياة أبيه لسارت مصر ومن خلفها الشرق العربي مسيرة أخرى تماما غير تلك التى حدثت بعد مجيئ سعيد واسماعيل للمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة بحث بعنوان (قراءة فى التاريخ السياسي لقضية الأقصي ـ محمد جاد الزغبي ـ شبكة منابر ثقافية ، على هذا الرابط http://www.mnaabr.com/vb/showthread.php?t=123

قال الكاتب :

من الطبيعى أن موجته الكبري بدأت مع وقوع الإحتلال الإنجليزى فعليا عام 1882م ، وسيطر الإنجليز بعدها على التعليم والثقافة داخل مصر كأحد أهم الروافد التى يعتمدون عليها فى نشر سياستهم المعلنة (فرق تسد) ، ومنذ ذلك بدأت أفواج غفيرة من طلبة الجامعات تسافر لتلقي تعليمها الجامعى فى أوربا بدون أى ضوابط هذه المرة ..

فالطبيعى الذى حدث فى أيام محمد علىّ أن مصر كانت تستهدف من البعثات الأجنبية دراسة العلوم العملية فى الطب والهندسة ونحوها لتطوير الإقتصاد ، ولكن الوفود التى رحلت لأوربا بعد الإحتلال الإنجليزى أصبحت الغالبية العظمة منها تتجه لدراسة العلوم الإنسانية والإجتماعية كالقانون والفلسفة والإجتماع والآداب والفنون ، وكافة الرموز الثقافية والسياسية التى ظهرت فى بدايات القرن العشرين كلها تقريبا ذهبت وحصلت على شهاداتها من اوربا فى تلك العلوم ، ورغم أن هذا فى حد ذاته كمجال دراسي لا عيب فيه لكن العيب الرهيب يكمن فى أن العائدين من وفود الدارسين هناك عادوا بكامل الباقة الأوربية سواء فى التعليم أو الأخلاق والطباع أو منهج الحياة والموقف من الدين والتاريخ التراثي الحضاري للعرب والمسلمين وهذه ملحوظة تشي بسوء التدبير المتعمد إذ أنه لا يمكن أن نفهم ما هو السر خلف إصرار البعثات على جلب التقدم الأوربي مقرونا إقترانا تاما بأخلاقيات الغرب ومعتقداته والإيحاء بأن حضارة الغرب ما كانت لها أن تقوم إلا بالإنحلال الدينى والأخلاقي ؟! بمعنى أصح أنهم عادوا منتمين فعليا للحضارة الأوربية واكتسبوا كافة وجهات النظر المنحطة التى نشرها المستشرقون ضد حضارتنا وثوابتنا وتاريخنا وعقيدتنا ، فصار الحديث عن التطوير والتحديث منذ ذلك الحين منصب كليا على التخلى شبه النهائي عن كافة التقاليد أو الإنتماءات والغيرة على التراث العربي والإسلامى وهذه كارثة محققة حلت بتاريخنا وآدابنا بالذات عندما بدأ الجيل الأول المتمثل فى طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وغيرهم فى إسقاط نظريات الأدب والنقد الأوربي على مناهج وتاريخ وآداب العرب فظهرت المدارس الجديدة التى تنظر للقيم الأخلاقية على أنها تراث تخلف ، وتنظر للثوابت الدينية وتحريم الجدال العقائدى على أنه تحجيم لدور العقل ، كما ظهرت النظريات التى تشكك فى ميراثنا الأدبي نفسه ونسبته للعرب وهو ما فعله طه حسين عندما اسقط فلسفة ديكارت فى منهج الشك وأسقط نظريات (تين وبرونتير وسانت وستي) التى سادت فى فرنسا فى

القرن التاسع العشر واستخدمها لمعالجة تاريخ الأدب العربي بينما هى نظريات مادية بحتة تصلح لهم ولا يمكن تطبيقها على منهجنا فى تراثنا العربي المحفوظ بعلوم النقل والإسناد وهو الأمر الذى يفتقده الغرب الأوربي [٦٩]

قال الشاب: ولهذا قامت المعارك ضد طه حسين ؟!

أجاب الكاتب:

فى البداية وعندما ظهر الفكر التنويري الغربي على يد جيل طه حسين وغيره ، واجه مقاومة عتيدة من أساطين الشريعة والأدب بل ومن الشخصيات العامة وثار الناس بشدة على ما ينشرونه بين الناس لكن الجبهة التغريبية كانت تمتلك دعم السلطة إلى جوار القوة الإعلامية الضخمة فى الصحافة فضلا على أن الإحتلال وضع كافة أصحاب التغريب فى مناصب قيادية وأتاح لهم المجالات ليحصدوا المواقع القيادية والصدارة فى نفس الوقت الذى تم تهميش التعليم الأزهرى والعربي وتقليص رواتبهم ومميزاتهم بحيث أصبح الطموح منصبا على الأنظمة الجديدة القائمة على الثقافة الغربية وحدها وأصبحت الدراية بآداب وفنون ولغات الغرب هى طريق الشهرة ، كما هو واقع الآن أيضا

وما يخفيه أصحاب دعاوى التجديد اليوم أن الإعتراض على أفكار التغريبيين لم يكن فقط من أهل الدين والشريعة بل كان الإعتراض شرسا من شخصيات محسوبة على التيار المدنى والليبرالى ، وقد نقلت لك من قبل شهادة وقول زكى مبارك فى طه حسين وأنه يستغرب بشدة توليه عمادة كلية الآداب وهو غير متخصص فى دراسة الأدب العربي من الأصل وشهادة الدكتوراة الخاصة به فى مجال آخر تماما ، هذا قول زكى مبارك ولم يتوقف زكى مبارك عند هذا الحد بل كتب مقالات مسلسلة فضح فيها جهل طه حسين بأبجديات الأدب العربي وتاريخه ورواياته وكيف أنه وقع فى تناقضات فادحة لأنه اعتمد على مصادر المستشرقين كأساس لكتاباته وبالتالى وقع فى هذه الأخطاء التى يمكن فهم وقوعها من الغرب المستشرق لكنها تصبح فضيحة علمية عندما تأتى ممن يلقبونه بعميد الأدب العربي ! فضلا على أن أبو الليبرالية فى مصر سعد زغلول له أقوال علنية فى طه حسين شديدة وعنيفة إلى أقصي مدى حيث قال فيه أمام الجماهير الغاضبة من كتبه ..

(هبوا أن مجنونا يهذى فى الطريق فما ضر العقلاء من ذلك ، وماذا علينا إذا لم يفهم البقر ؟!) هذا كلام سعد زغلول نفسه وهو من هو عند أهل الليبرالية والتجديد،

---

(٦٩) محاكمة فكر طه حسين ـ أنور الجندى.

بخلاف عمالقة الأدب والفكر وأساتذة الأدب العربي الذين أعلنوها حربا ضروسا على أفكار مجموعة التغريب بأكملها كالرافعى وعبد القادر المازنى ومحمود شاكر والعقاد وغيرهم كثير ، ولكن لأن قوة الإعلام منذ ذلك الحين مركزة فقط على أنصار التغريب فقد اندثرت عند العوام معظم هذه الأسماء ليتبقي فى الصدارة والواجهة ومسلسلات التليفزيون وألقاب التفخيم فريق التغريب وحده ولو أنك تتبعت الشخصيات التى حظيت بنشر قصصها فى كتب المدارس وفى الأفلام والمسلسلات فستجد التركيز طافحا حول رموز التغريب وحدهم دون أقرانهم من الشخصيات المحافظة التى تم تجاهلها تماما

قال الشاب: كنت قد نوهت لى عن مقولة منسوبة لأحمد أمين صاحب كتاب فجر الإسلام يحرض فيها على اقتباس الأفكار من منهج الإستشراق.

قال الكاتب:

هذه شهادة فى منتهى الخطورة ينقلها لنا الدكتور مصطفي السباعى فى كتابه القيم (السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى) فقال:

(ولما ثار النقاش في الأزهر حول الإمام الزُّهْرِي عام ١٣٦٠ هـ قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبدالقادر وهو الذي أثيرت الضجة حوله:

إنَّ الأزهر لاَ يقبل الأراء العِلْمِيَّةَ الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسبًا من أقوال المُسْتَشْرِقِينَ أَلاَّ تنسبها إليهم بصراحة، ولكن ادفعها إلى الأزهريِّين على أنها بحث منك، وألبسها ثوبًا رقيقًا لا يزعجهم مسها، كما فعلتُ أنا في " فجر الإسلام " و" ضُحَاهُ " هذا ما سمعته من الدكتور علي حسن يؤمئذ نقلاً عن الأستاذ أحمد أمين) أى أن أحمد أمين أعطانا شهادة مباشرة عن منهج أهلً التغريب بأكملهم وهو المنهج الذى لاحظناه واكتشفناه فى خط سيرهم الفكرى من بدايات القرن العشرين وحتى اليوم ، نفس المنهج ونفس الخط بلا أدنى تغيير حيث يمكننا أنة نلخصه بالأمثلة عبر العقود المختلفة خلال القرن العشرين ، فهذا المنهج قائم على ما يلي:

أولا: الإعلان التام عن الإنتماء للحضارة الأوربية من الناحية الأخلاقية والدينية والإجتماعية ونشر ثقافة تعامل أوربا مع الأديان لإسقاطها على الإسلام رغم الإختلاف الفادح بين منهج الكنيسة الأوربية التى ثارت عليها جماهير الثورة الفرنسية وبين الإسلام وتجاهل الحقيقة التاريخية التى تعلن عن نفسها من أن الحضارة الإسلامية كلها هى نتاج الوحى الإسلامى والشريعة، بينما كانت سيطرة الكنيسة هى سبب تأخر أوربا فى عصور الظلام

ثانيا: تبنى كامل أفكار الإستشراق والإلحاد وإعلاء قيمة الفلسفة الدينية الغربية

ومعاملة التشريع الإسلامى بنفس الشكل الذى تعامل به المعتزلة قديما وأول مبادئه هى هدم علوم الدين تماما واستبدال الفلسفة بها.

ثالثا : التركيز التام على هدم علوم الحديث بالتحديد ، ليس لاستهداف السنة النبوية وحدها وإنما لهدم علم الحديث الذى انفردت به الأمة الإسلامية ونقلت به القرآن والسنة والفنون والعلوم والآداب نقلا أمينا وهو ما عجزت عنه أوربا.

رابعا: الهجوم على التراث العربي لأهل السنة بأكمله فى نفس الوقت الذى يوجهون فيه الإحياء والتعظيم لأفكار وكتب المبتدعة والملاحدة فى الزمن القديم ومنذ عصر طه جسين وحتى اليوم اتفق التغريبيون على تمجيد الشيعة الباطنية والفلاسفة وأفكار إخوان الصفا كما بذلوا جهدا كبيرا جدا فى الإشادة بالتراث المخجل لكتب البغاء وأدب الخلاعة والمجون واعتبارها من أرقي ألوان الأدب!

خامسا: اعتمد أهل التغريب من جيل طه حسين وأحمد أمين ووصولا إلى جيل محمد خلف الله وغالى شكرى وفرج فودة ونصر أبو زيد على سمات معينة انطبقت عليهم جميعا وهى السرقات العلمية المباشرة وغير المباشرة لبحوث الإستشراق وتقديمها على أنها نتاج بحوثهم وهذا أمر أثبت نفسه من خلال اعتراف أحمد أمين وأيضا من خلال استقراء كتبهم نفسها التى كادت أن تعلن صفحاتها عن النقل الكامل من مؤلفات المستشرقين حتى أن العلامة أحمد شاكر سخر من كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين وقال إن إضافات طه حسين على النص الأصلي للمستشرق مرجليوث أشبه بالحاشية على الكتاب الأصلي أى مجرد ملحوظات مضافة على نص مسروق بالكامل[٧٠] كذلك يجمعهم صفة عجيبة وهى الوقوع فى الجهل الفادح والفاضح أحيانا حتى فى مجال تخصصهم ، ولو طالعت كتاب الرافعى (تحت راية القرآن) وهو كتاب عملاق مؤسس فى نقد وتشريح كتاب الشعر الجاهلى ستكشف بسهولة أن هناك أخطاء علمية وتاريخية لا يمكن أن تغيب عن مثقف عادى فى الأدب العربي ورغم ذلك وقع فيها طه حسين بالمثل فضائح مماثلة تورط فيها نصر أبو زيد العلمانى المشهور والذى اتهم الإمام الشافعى فى أحد بحوثه بأنه كان عميلا للحكم الأموى وأنهم كافئوه بأنهم جعلوه حاكما على نجران ، وهذه فضيحة بالطبع لأن الإمام الشافعى كان ميلاده بعد انهيار الخلافة الأموية كلها بسنوات وقد ولد ونشأ فى خلافة العباسيين وهى فضيحة علمية تسقط أى طالب تاريخ عادى وليس أستاذا جامعيا

(٧٠) أباطيل وأسمار ـ محمود شاكر .

مثل نصر أبو زيد وهذه الفضائح لا يمكن أن تقع من أمثال هؤلاء ـ وبعضهم أساتذة جامعات ـ إلا لسبب واحد وهو أنهم ينقلون عن غيرهم ولا يبحثون بأنفسهم وهذا النقل يتم حتى دون مراجعة مما يسبب هذا الفشل الذريع !

أيضا تجمعهم صفة التطابق أحيانا فى منهج النشر وتحس أن كل جيل من أجيالهم يمارس دوره فى التغريب من نفس الكتاب والخطة المرسومة له، وهذا الأمر أصبح حقيقة واقعية بالصوت والصورة فى عصرنا الحالى، فقد نشر برنامج (قرار إزالة) المتخصص فى رد الشبهات حلقات متتابعة بها توثيق مدهش للغاية لمؤتمرات المجددين المعاصرين وهم يتلقون المحاضرات فى أوربا على يد شخصيات غربية وعربية تعطيهم برنامجا وجدولا واحدا ليثيروا نفس الشبهات ببلادهم فى نفس التوقيت ونظرا لأننا فى عصر الفضائيات فقد تم اكتشاف هذا بسهولة عندما خرج العلمانيون والتغريبيون فى أقطار عربية مختلفة بنفس الكلام ونفس الأفكار بلا أدنى اختلاف بل وبنفس العبارات دون تغيير ! ، وهذه مصيبة حقيقية فهم لا يبذلون أدنى جهد حتى فى إخفاء نواياهم ونشاطهم هذه الأيام اعتمادا على أن المتابعين من الناس قلة قليلة !

وبعد كل هذا التطابق فى المصادر والدوافع والأفكار والأهداف بل وحتى فى طريقة تقديم أفكارهم لا يمكن لعاقل أن ينكر ما يراه ، وأننا أمام صورة متكاملة من مؤامرة مستمرة منذ قرن كامل تمشي بنفس الوتيرة دون تغيير اعتمادا على الذاكرة الصفرية للشعب العربي.

قال الشـــاب:

لكن تبقي المعضلة كيف وقع هؤلاء فى فخ التغريب ؟!

أجاب الكاتب:

الإجابة بسيطة منذ وقوع التغريب فى الجيل الأول وقد سبق أن نوهت فى الفصل الأول عن ذلك ، فالغرب مع تقدمه التكنولوجى والعلمى فى ظل تأخر العرب والمسلمين كان ولا زال يمثل إغراء غير تقليدى لجحافل العباقرة والمتميزين من الشباب ، وهؤلاء بسبب جهل وضحالة الأنظمة الحاكمة فى أقطارنا ، هربوا إلى الغرب بكل بهرجته وإغراءاته

وعندما ذهبت الموجات الأولى من الدارسين للغرب حدث لهم ما يسميه المتخصصون (صدمة الغرب) ، وهى حالة تحدث لمن يخرج من مجتمع محافظ منغلق إلى مجتمع مفتوح دفعة واحدة ، وعندما يدرسون مناهج الغرب ويعتادون على التحرر الكامل من كل

شيئ فضلا على العامل الأخطر وهو الحصول على الشهادات الغربية والتقدير الباذخ منهم والجوائز والشهرة العالمية ، كل هذا يجعلهم يقعون فريسة للمنهج الغربي بالكامل دون بذل أدنى جهد، وعندما يعود هؤلاء إلى أوطانهم محملين بكم هائل من الغرور بالإحتفاء الغربي ويحاولون نشر هذه الأفكار فى مجتمعاتهم ، يصادفون اللوم والتقريع بالطبع ، وهذا لا يردهم عما يفعلون بل يزيدهم إصرارا فى الواقع ..

لأن المجتمعات العربية والإسلامية عندما تفاجئ بالهجوم على الثوابت بأبشع العبارات من هؤلاء التغريبيين يهاجمونهم بضراوة ، وعقول أهل التغريب تكون مبرمجة تلقائيا على أن الغرب الذى احتفي بهم وبعبقرياتهم هم الذين على حق بينما مجتمعاتهم التى تنتقد فيهم فكر الإنحلال ليست إلا مجتمعات منغلقة وحاقدة لا تستطيع تقدير عبقريتهم كما يقدرها الأوربيون وغيرهم !

وبالتالى تكون تلك النقطة هى المقتل الحقيقي لإنقلاب كل هؤلاء على كافة الثوابت الدينية والإجتماعية والأخلاقية التى تربوا عليها ويصبحوا منتمين لكل أهواء الغرب وسياساتهم حتى تلك السياسات التى تستهدف تفكيك الدول العربية والقضاء على ما تبقي فيها من مفهوم الدولة ومن العجيب أن هناك مشاهد ملفتة للنظر كان ينبغي أن ينتبه لها مثقفو عهد التغريب الأول ، فرموز التغريب الأوائل الذين قدموا أنفسهم على أنهم من مجددى الأدب العربي لا يعرفون عن الأدب العربي نفسه شيئا ولا يعنيهم ، وقد طالعت تسجيلا تليفزيونيا تم تسجيله فى الستينات لطه حسين مع عدد من رموز الأدباء الشبان وقتها والذين أصبحوا رموز الأدب العربي فيما بعد ، لاحظت فيه ملحوظة صادمة ، فاللقاء الذى تم بإدارة ورعاية أنيس منصور وكان الحضور جميعا من أساطين الأدب بزعامة عميد الأدب العربي ، اللقاء امتد لأكثر من ساعتين كاملتين ولم يكن فيه أدنى ذكر للأدب العربي من قريب أو بعيد ولم يتم ذكر شخصية أدبية عربية من التراث العربي الباذخ إطلاقا إلا شخصية أبي العلاء المعري ، وبالمقابل احتشد الحديث كله من طه حسين والحضور حول الأدب الغربي ورموزه بالأسماء والأعمال والمناهج !

وأحب أن أؤكد لك للمرة العاشرة .. أن طه حسين رحمه الله وعدد كبير من هؤلاء أدركوا فى مرحلة ما من عمرهم عمق الفخ الذى وقعوا فيه وصححوا بعض الأفكار بالتراجع ، ولكن مثقفي وزارة الثقافة المصرية الرسميون ، بالذات خلال عصر مبارك وحتى اليوم لا يزالون يتشبثون بتلك الأفكار ويحاولون نشرها بكل الوسائل ، ولا زالت

أجيال التغريب القديمة تفرخ كل يوم عبر الإعلام الموجه أفكار متجددة لنفس السياسة القديمة التى لم تتغير خلال قرن كامل من الزمان !

قال الشــاب :

بعد هذا الحوار العقلي الممتد أين يمكن لنا أن نجد الخطوة الأولى فى طريق العلم والثقافة اللازمة لرد الشبهات والتضليل عن طريق البحث العلمى هذه المرة ، بمعنى أوضح ما هى أول الطرق التى نتبعها لندرس الحد الأدنى من ثوابت الدين والتاريخ

أجاب الكاتب:

فى البداية ينبغي أن تعلم يقينا أن دراسة مبادئ علوم الشريعة ومنهج التاريخ الإسلامى ليست معضلة ، وأنت كمثقف مسلم لست بحاجة إلى الدراسة العلمية المتعمقة كمتخصص حتى يمكنك أن تجيد بنفسك رد الشبهات ، بل يكفيك المبادئ الأساسية لأكبر القضايا والإشكاليات حتى تصبح محصنا ضد كل تزييف أو تزوير أو فى الحد الأدنى يصبح من الصعب خداعك بشبهة ملفقة كالشبهات المنتشرة هذه الأيام ..

وأول الطريق بلا شك هو معرفة ودراسة أساسيات علوم الحديث باعتبارها هى المجال الأكثر أهمية وخطورة لنقل كل شيئ ، وكذلك دراسة منهج كتابة التاريخ الإسلامى وكيفية التمييز بين الصحيح والضعيف ، والأهم تمييز المراجع اللازمة للحصول على المعلومة الدينية والتاريخية بشكل سليم..

وما دام الحوار التقليدى قد أسس عندك الأساسيات فدعنا فى الفصلين القادمين نركز على الجانب العلمى المتخصص ولكن بطريقة مبسطة ومعاصرة قدر الإمكان تستطيع بها فهم الأصول الدينية لعلم الحديث والتاريخ بدون الحاجة للتعمق فى اللغة والمصطلحات الصعبة التى تأسست بها هذه العلوم ، وعليه فالفصلين القادمين من الكتاب أشبه ببحث علمى مختصر فى هذين الفرعين يصلح لأن يكون أساسا تنطلق منه إلى المراجع الأكثر شمولا وتخصصا ..

الفصل الرابع

علـم الحـديـث

أعظـم عمليـة مخابرات فى تـاريخ الإسـلام

من المعروف بالطبع أن مجال المخابرات ـ بسبب السينما والقصص ـ لحقه تشويه رهيب تسبب فى أن نظرة العامة للمخابرات ورجالها نظرة بالغة السطحية وفيها من إنكار فضل هذه الأجهزة الشيئ الكثير، فى الوقت الذى تمثل أجهزة المخابرات بالنسبة لكل دول العالم تقريبا درعا لا يُستغنى عنه ومجرد الخلل فيه يهدد الأمن القومى للبلاد بشكل يتفوق على سائر أنواع التهديد حتى التهديدات العسكرية ، يعود ذلك إلى أن أجهزة المخابرات هى العقل الإستراتيجى المفكر للإجراء السياسي بكافة أنواعه ، وهى وإن كانت هيئة غير سياسية إلا أنها هيئة تتحكم فى القرار السياسي عن طريق تقديم سبل اتخاذ القرار ونتائجه وتترك الخيار للقيادة السياسية وسبب الظلم والسطحية التى تتعرض لها أجهزة المخابرات يتمثل فى سببين :

الأول: طبيعة عمل المخابرات الذى يكون النجاح فيه قرين الكتمان التام ولا يكون الإعلان قرينا إلا للفشل.

الثانى : ما سبق بيانه من أن السينما والأقلام القصصية أعطت انطباعا للعامة بل ولبعض الخاصة أن عمل المخابرات عبارة عن رصاص يتناثر ، وطائرات تصطدم فى جو إثارة يمكن تصوره فى الحبكة الدرامية ، لكنه ليس كذلك فى واقع المخابرات فعمل المخابرات فى الأصل هو عمل هادئ بعيد عن سائر أنواع العنف وعندما يلجأ للعنف ـ لطبيعة بعض العمليات ـ فإن هذا العنف يتم تضييقه إلى أقصي الحدود ويتبقي العقل المفكر والمحلل والمعلومات الدقيقة هى صلب مجال المخابرات ، الذى يُخرج منها للقيادات السياسية نتائج مذهلة قد تغير مسار شعوب بأكملها ، أو تقلب ميزان القوى فى العالم كما حدث فى الحرب العالمية الثانية التى شهدت من الضحايا ما يفوق ستين مليون شخص ومع ذلك كان الفيصل فى النتيجة النهائية لعمل العقول الذى سقطت فيه المخابرات الألمانية أمام المخابرات السوفيتية والبريطانية ، وتغير مسار الحرب ضد الألمان والمحور رغم فارق القوة المذهل بين الحلفاء والمحور لصالح المحور، فألمانيا أسقطت أوربا بأكملها وحصرت بريطانيا داخل حدودها واستعدت لغزوها، كما ألهبت اليابان ظهر

الإتحاد السوفيتى وأسقطت مستعمراته ، بالإضافة إلى أن ألمانيا سبقت الولايات المتحدة وبريطانيا إلى السلاح النووى وكان سباق التسلح لصالح الألمان بفارق خطوتين كاملتين ..

ومع ذلك وعن طريق عدة عمليات مخابراتية رئيسية للإنجليز والسوفيات تمكن الحلفاء من تغيير نتيجة الحرب لصالحهم فى غضون شهور تعد على الأصابع ، وكان أخطر هذه العمليات عملية تجسس بريطانية ما زالت تفاصيلها غائبة حتى اليوم ، تمكنت فيها بريطانيا من إقناع هتلر ببدء عملية بارباروسا أو ذى اللحية الحمراء لغزو الإتحاد السوفياتى رغم أن هذا الأخير عقد اتفاقية عدم إعتداء وفرت لهتلر التحرك بحرية تجاه بريطانيا ، ولم يقتصر الأمر عند هذا فقط بل ورطت المخابرات البريطانية هتلر وعن طريق نفس الجاسوس المجهول بأن يوقف القتال فجأة وهو على بعد أربعين كيلومتر من موسكو مما كان له الفضل فى نهاية عملية غزو السوفيات بعد أن دخل فصل الشتاء وتكفل الجليد السوفياتى بتدمير الجيش الألمانى ماديا ومعنويا فى نفس الوقت وعن طريق عملية مخابرات لا تقل كفاءة أوهمت المخابرات البريطانية هتلر أنها لغمت شواطئها بغاز النابالم الحارق عبر براميل منتشرة بطول الشاطئ تحيله إلى جحيم لو حاولت البحرية الألمانية مهاجمة الشواطئ البريطانية[٧١] وارتعد هتلر للفكرة وعدل عن مهاجمة الشواطئ البريطانية رغم أنها كانت مجرد خدعة متقنة فلم تتمكن بريطانيا من تنفيذها لاتساع شواطئها وإستحالة توفير الطاقة المطلوبة لذلك، بعملية مخابرات أخرى متقنة وبأوامر شخصية من وينستون تشرشل رئيس حكومة الحرب قامت المخابرات البريطانية بتسريب معلومات غير صحيحة للمخابرات اليابانية عن نية الأمريكان الهجوم على اليابان فقامت اليابان وبمنتهى الحماقة بمهاجمة أسطول الولايات المتحدة فى بيرل هاربر كضربة وقائية كان من نتيجتها إعلان دخول أمريكا للحرب وهو الهدف البريطانى الذى عجز تشرشل عن تحقيقه دبلوماسيا فنفذه مخابرتيا بامتياز كان درة عمليات المخابرات البريطانية ما قامت به إحدى أشهر وحداتها من الإستيلاء على الأرشيف البحري الألمانى بالكامل وبالتزامن مع هذه العملية تمكنت من ضرب مصنع

(٧١) استلهمت إسرائيل هذه الفكرة الجهنمية ونفذتها بالفعل أمام شواطئ قناة السويس لمنع أى محاولة للقوات المصرية للعبور ، وقامت المخابرات المصرية بالحصول على عينة من سائل النابالم لدراستها وبعدها وبعملية معقدة تمكنت من الحصول على خرائط توزيع أنابيب النابالم من مكتب موشي ديان شخصيا ودون أن ينكشف أمر حصول المصريين عليها وقامت وحدة من الصاعقة المصرية فجر يوم المعركة بتعطيل تلك الأنابيب بربط الخراطيم المنفذة للسائل وسدت أفواه الخراطيم فى نفس الوقت بمادة لاصقة ، وعندما حاول الإسرائيليون إستخدامها عند العبور كانت صدمتهم مذهلة.

الماء الثقيل الذى يعد مكونا رئيسيا من مكونات القنبلة الذرية ثم أتبعت عمليتها بنسف القطار الذى تم تعبئة الماء الثقيل فيه لمنع وصوله ، وبهذا تأخر الألمان عدة خطوات فى سباق التسلح الذرى بعد أن كانوا على وشك تنفيذ القنبلة قامت المخابرات السوفياتية بتجنيد ريتشارد سورج أشهر الجواسيس فى العالم (٧٢) والملقب بالأستاذ والذى تمكنت شبكته من تغيير مسار الحرب اليابانية السوفيتية بمعلومة عدم وجود نية لليابان فى مهاجمة الحدود السوفياتية ليطمئن السوفيات فيقومون بنقل نصف مليون جندى من الجبهة اليابانية لمواجهة الألمان على الجبهة الأوربية وهكذا نكتشف أثر وخطورة ما تفعله المعلومات التى تجمعها أجهزة المخابرات وتضمها لبعضها البعض ثم تدخل مرحلة التحليل ثم أخيرا مرحلة القرار الذى غالبا ما يكون شديد التأثير على مصير الأوطان فى السلم أو الحرب(٧٣) ويمكننا تلخيص نقاط عمل أجهزة المخابرات فى النقاط التالية:

أنها عمل يعتمد فى المقام الأول على جمع المعلومات أيا كان نوعها ومهما كانت تافهة أو تبدو بسيطة غير مؤثرة ، فكل معلومة مهما كانت بساطتها هى معلومة بالغة الأهمية عندما يتم توظيفها فى مكانها الصحيح، تأتى بعد ذلك مرحلة فحص المعلومات القادمة من سائر المصادر الداخلية والخارجية لمراجعتها والكشف عن صحتها وتصنيفها بواسطة أقسام مختلفة فى أجهزة المخابرات بعدها تأتى مرحلة التجميع والتنسيق بين مختلف المعلومات وضمها إلى بعضها البعض للخروج بنتيجة أو معلومة جديدة يصل إليها رجال المخابرات بالتحليل العقلي للمعلومات وفقا قواعد معروفة وتبدو الحقائق التى تتوصل إليها الأجهزة كأنها ضربٌ من التنبؤ الخارق ولهذا السبب فإن معيار التميز الذى يميز جهاز مخابرات عن آخر هو الرجال ، وظل هذا العامل قائما بالرغم من التقدم التكنولوجى الساحق الذى ساد عالم اليوم ، وهو عامل مساعد نعم ، لكن العامل الرئيسي براعة وحسن تدريب العنصر البشري وسرعة تفاعله مع العمليات وفق ظروفها ، وقد رأينا ما فعلته المخابرات المصرية ونجحت فيه ببراعة كاملة فى خداع أقوى ثلاثة أجهزة مخابرات فى العالم، الأمريكية والإسرائيلية والسوفياتية عندما حققت مفاجأة

---

(٧٢) تم كشف شبكة ريتشارد سورج فى اليابان وحوكم وأعدم ولا زالت مراجع المخابرات فى سائر أنحاء العالم تمنحه مقعد أبرع الجواسيس جنبا إلى جنب مع عميل المخابرات المصرية رفعت الجمال الذى يتفوق على سورج فى أنه مارس عمله طيلة ربع قرن ولم يكتشف أمره قط ، وهذه حالة لم تتكرر إلى اليوم.

(٧٣) بسبب معلومة وصلت للمخابرات الأمريكية عن وجود أزمة قمح فى مصر فى الخمسينيات تمكنت الولايات المتحدة من إستغلالها لتهديد مصر بوقف تزويدها بالقمح كورقة ضغط تمنعها من بناء السد العالى ، وتم اكتشاف مصدر المعلومة ومحاكمته لمزيد من التفاصيل راجع ـ القضية رقم ١ ـ مخابرات عامة ، عبد الله إمام.

حرب أكتوبر كاملة رغم وجود تقدم تكنولوجى هائل بين وسائل جهاز المخابرات المصري والوسائل التقنية الممنوحة من المخابرات المركزية لإسرائيل وأخطرها خدمة مراقبة القمر الصناعى للحشود وتحركات وحدات القتال ، وهى حركة كان حتميا أن تظهر للقمر الصناعى الأمريكى قبل بدء الحرب مما يقلب ميزان المعركة لصالح إسرائيل ، فما كان من المخابرات المصرية إلا أن قامت بالحصول على مسار القمر الصناعى الأمريكى وتحديد ساعات وجوده فوق الجبهة وتم إصدار الأوامر لوحدات النقل بإتباع خط سير مدروس بعناية علمية عن طريق خبراء الرصد ، بحيث لا تتحرك الوحدات إلا فى فترات غياب القمر ! وهناك قسم يعد هو أخطر أقسام المخابرات الذى يقوم بفحص وتمحيص المعلومات ، فليس معنى وجود جاسوس أو عميل لجهاز معين فى بلد أخرى يقوم بإرسال المعلومات فيقبلها جهاز مخابراته على علاتها ، بل إنها تخضع لغربلة وفحص شديد الدقة والأساس فى تلك العملية أن كل معلومة مفترض فيها الخطأ وكل عميل يُفترض فيه الشك أو خطأ التقدير وقد رأينا ما فعلته معلومة واحدة مدسوسة من المخابرات البريطانية على المخابرات اليابانية أدت إلى اتخاذها قرار نسف بيرل هاربر على نحو أدى فيما بعد لضرب لهيروشيما ونجازاكى كرد فعل انتقامى من الولايات المتحدة لضحايا فى بيرل هاربر وعمل المخابرات بهذا التعريف معناه فحص المعلومات واستبعاد المدسوس والخاطئ منها وانتقاء الصحيح فقط ، هو عمل يمكننا أن نقول بإطمئنان أن الحضارة الإسلامية سبقت إليه أجهزة المخابرات الحديثة بعشر قرون على الأقل ، وفى عصر كانت وسيلة التنقل فيه هى قوافل الجمال ووسيلة التواصل هى الرسائل التى تظل شهورا قبل وصولها ووسائل الإتصال فيه معدومة تقريبا ، وفوق كل هذا كان العصر عصر صدق وحسن نية يصعب أن يوجد فيه من يتخذ الشك كقاعدة والثقة هو الإستثناء وهى قاعدة أساسية كما رأينا فى مجال المخابرات.

عملية فحص وتمحيص السنة النبوية

أكثر ما يستفز المرء فى هذه الأيام ، ما يتردد بين الفينة والأخرى من نظريات وأفكار يحملها بعض الجهلة ليطعنوا فيها على صحة بعض الأحاديث الثابتة فى السنة النبوية بمبررات مختلفة ، فتارة يكون الطعن بعدم اتفاق الحديث مع العقل ، وتارة أخرى لتضاد الحديث مع القرآن أو مع حديث آخر ثابت ..

وداعى الإستفزاز هنا هو الشعور الطبيعى بمدى حماقة الطاعنين إزاء إقرار صحة تلك الأحاديث الذى أتى من علماء ورجال الحديث السابقين بعد جهد يفوق طاقة البشر ووفق

قواعد يعجز عنها علماء العصر الحالى رغم توافر التطور التقنى والتقدم التكنولوجى ،

فعلماء السلف الذين تكفلوا بتحقيق الحديث وبيانه ، لم يتركوا شاردة ولا واردة تخطر ببال إنس أو جن إلا ووضعوها بأذهانهم وهم يمارسون عملهم وهى قدرة عقلية مذهلة على افتراض الإحتمالات لم نرها إلا بعصرنا الحالى مع تقدم الحضارة البشرية ونشأة مجال المخابرات التى تقوم على معالجة القضايا الوطنية من أكبر إحتمال لأصغر رد فعل ولا تترك شيئا للظروف وإزاء هذا الجهد الخرافي يستشعر المرء الكمد عندما يتصدى بعض المدعين فيهدموا فى لحظة واحدة كل هذا النتاج الفائق ولنعرض لمراحل تحقيق السنة بشكل مبسط عارضين جهد علماء الحديث المحدثون وطريقة تحقيقهم وتحريهم لصحة الحديث أو بيان حالته لنعرف أقل ما ينبغي معرفته من فضل هؤلاء العمالقة الذين أقر بفضلهم وبراعتهم الأمم المخالفة للإسلام من فرط الإنبهار[٧٤]

بداية الإنتباه لضرورة تنقية السنة الإسلام يقوم فى بنائه الأساسي على القرآن والسنة ومنذ بزوع فجر الدعوة الإسلامية وهى تتعرض للأعداء الذين تتنوع سبل عداءاتهم وتزداد كلما تقدم الإسلام بدعوته خطوة ،فبداية وقف كفار قريش بالمرصاد للدعوة وحاربوها بشتى السبل ، وعندما نجحت الدعوة فى الإنتقال الجوهرى للمدينة المنورة ظهر فى المدينة عداء اليهود والمنافقين ، ثم خطا الإسلام خطوته الأخيرة لاكتمال التشريع بفتح مكة ودانت جزيرة العرب عقب طرد اليهود من المدينة وإخراج المشركين من جزيرة العرب

وعندما انتقل رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ، ظهر العدو الثالث وهم بقية قبائل الشرك التى أرادت إستغلال وفاة الرسول عليه السلام لهدم الدولة الناشئة ثم توسعت الدولة الإسلامية فأسقطت الإمبراطورية الفارسية والرومية معا فظهر منهما العدو الخامس والسادس من أبناء تلك الإمبراطوريات التى رأت دولتها تنهدم على يد القبائل الوافدة بدين جديد ، ثم ظهرت الفتن وأصحاب الأهواء والطامعين ليظهر العدو السابع والثامن .. وهلم جرا ،وكانت مواجهة الإسلام لتلك العداوات على وجهين ، وجه القوة المسلحة والذى نجح فى إسقاط سائر الدول المناهضة ورد سائر الغزوات التى استهدفت الإسلام حتى اكتملت الإمبراطورية الإسلامية على رقعة هائلة

(٧٤) نشأت حركة الإستشراق الذى هدفت إلى دراسة الدين الإسلامى دراسة وافية لإستخراج شبهات تهدمه من داخله ، وبذل المستشرقون الأوربيون جهدا خرافيا فى ذلك وتصدى لهم علماء المسلمين واحدا بعد الآخر حتى أعلنوا يأسهم ، ومن أبرز مقولات الإنبهار التى شهدت بها ألسنة الغرب ما قاله المستشرق الشهير مرجليوث عن علم الحديث وقواعده وهو علم تفرد به العرب وحدهم على سائر الحضارات وحفظوا به دينهم وتراثهم ، قال ليهنأ المسلمون بعلم حديثهم.

من الأرض أيام الدولة الأموية الباذخة فحكم الوليد بن عبد الملك دولة تمتد من الصين شرقا حتى الأندلس غربا ، وكان موسي بن نصير على وشك أن يواصل إتمام ما فتحه طارق بن زياد فيفتح سائر بلاد أوربا حتى بلاد الترك ثم يعود لمقر عاصمة الخلافة الأموية دمشق من الناحية الأخرى ليصبح البحر المتوسط بحرا عربيا خالصا ، لولا عدة أسباب سياسية جعلت الوليد بن عبد الملك ثم خليفته سليمان يعدلان عن ذلك(٧٥) وعندما اتضح لمختلف أصحاب العدوات محاربة الإسلام بالقوة المسلحة ، حتى بعد الضعف الذى اعتري الخلافة العباسية فى العصر العباسي الثانى ، لجئوا إلى ابتكار هدم الدين ذاته من داخله لأن العقيدة السليمة هى التى وقفت خلف هذه الإنجازات التى ما تحققت لدولة على مدار التاريخ الإنسانى قط إلا للدولة الإسلامية (٧٦) وبدأت حرب هدم الدين من داخله مبكرا جدا ولم يكن مضي على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام إلا أقل من أربعين عاما عندما تدخلت اليهود برجلهم عبد الله بن سبأ لابتكار فتنة التشيع والقول بالرجعة والبداء(٧٧) وما إلى ذلك من العقائد الباطلة التى لم ينتبه إليها المسلمون إلا بعد أن أتت ثمرتها بالفعل وكان أخطر ما لجأت إليه مختلف الفرق التى تبطن الكفر وتظهر الإيمان ، هو وضع وتلفيق أحاديث منسوبة للرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن عجزوا تماما عن التشكيك بالقرآن الكريم المروى بالتواتر والثابت بمصحف واحد اجتمع عليه المسلمون فى عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه فكان الطريق مفتوحا أمامهم لرواية الأحاديث المكذوبة المنسوبة للنبي عليه الصلاة والسلام لتحقيق ذات الغرض وهدم أركان الشريعة الصحيحة ، ويكفي لإدراك مدى خطورة هذا الأمر أن نعرف وضع السنة فى التشريع ، وهو وضع مؤسس للشريعة يأتى بعد القرآن الكريم مباشرة كمصدر مفسر له بالإضافة إلى كون السنة مصدرا مستقلا مشرعا فى الأحكام التى لم يتناولها القرآن مفصلة ولم تكن كارثة تزييف الأحاديث فى بدايتها مؤامرة

(٧٥) تختلف مراجع التاريخ الإسلامى حول السبب الذى دعا الخليفة سليمان بن عبد الملك لرفض فكرة موسي بن نصير بافتتاح بلاد الغال « فرنسا الحالية « وبلاد الرومان « إيطاليا الحالية « ثم تركيا ، ويرجح المؤرخون أن السبب خشية الخليفة على جيش المسلمين من الدخول بأراض مجهولة وفى عمق الإمبراطورية الرومانية.

(٧٦) لم يعرف تاريخ البشرية المعروف دولة قامت وتأسست ومدت سيطرتها على هذه المساحة الرهيبة من الأرض خلال مائة عام فقط إلا الدولة الإسلامية ولم يعرف التاريخ البشري دولة تسيدت الأرض كقطب قوة مفرد لا يقابله قطب مقابل فى العالم إلا فى عصر الدولة الإسلامية ، كما لم يعرف التاريخ دولة نشأت وأسقطت قطبي العالم فى زمانها الروم والفرس معا وفى وقت واحد وعلى عدة جبهات إلا الدولة الإسلامية.

(٧٧) راجع الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ الجزء الثانى ـ بن حزم الظاهرى ، وأيضا ـ منهاج السنة النبوية ـ للإمام بن تيمية وأيضا مذاهب الإسلاميين ـ د. عامر النجار.

منسوجة ومنتظمة وإما بدأت بشكل محدود انتبه إليه التابعون فى حياة بعض الصحابة عقب تفجر الفتن فقرر الأئمة ضرورة التيقن من رواة الأحاديث جميعا قبل اعتمادها صحيحة ، وجاء فى مقدمة صحيح مسلم[٧٨] أن الإمام بن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما ظهرت الفتن قالوا سموا لنا رجالكم وكانت هذه الخطوة هى الخطوة الأولى للتيقن من صحة الحديث [٧٩]ثم تعددت الجهات التى تزيف الأحاديث وانتشرت كالنار فى الهشيم وتنوعت بين دس خارجى من اليهود والفرس، وبين دس داخلى من أصحاب المصالح والحكم، وكل منهم يضع الحديث يؤيد به فرقته أو طائفته ، ولأن الصحابة رضوان الله عليهم انتقلوا بين مختلف الأقطار فقد تعددت منقولات الحديث فى شتى أنحاء البلاد الإسلامية من اليمن للشام ومن خراسان للشمال الإفريقي ، فاختلط الصحيح بالزائف وأصبح الأمر كجبل يجثم على صدور العلماء والفقهاء إزاء مناخ شاسع الإتساع يبدو مجرد التفكير فى تنقيته ضربٌ من ضروب الوهم والمستحيل ، لا سيما مع ظروف العصر التى تجعل العالم المحقق ربما يقضي بضع سنوات راحلا بين أنحاء الخلافة ليتيقن من صحة حديث واحد !لكن من قال إن هذا الطراز من الرجال فى ذلك العصر الذهبي كان يعرف المستحيل ففور ظهور أبعاد الأزمة اجتمعت كلمة الأمة حكاما ومحكومين مع المحدثين فى سائر الأقطار ووضع كل منهم لبنة فى علم جديد مبتكر غير مسبوق إسمه علم الحديث وأخذوا فى وضع تصانيفه وأسسه وقواعده التى ساروا عليها فتحولت مع الوقت وجهد العلماء طبقة وراء طبقة إلى علوم متعددة للعلم الأم وهو علم الحديث واختص كل جماعة منهم بفرع أشبه بالأقسام الحديثة لأجهزة المخابرات ، فقسم يختص بالتحرى الشديد عن صفات وترجمة كل راوى أو ناقل للحديث ويضع آراء معاصريه فيه وهل هو ثقة يؤخذ حديثه أم لا وفق قواعد علم الجرح والتعديل الذى برز فيه وتألق يحيي بن معين والذهبي والرازى وبن عساكر والحافظ المزى والبخارى ، وقسم ثان اهتم بمصطلح الحديث حيث تناول فيه المحدثون شرح مدلولات الألفاظ فى رواية الحديث بمنتهى الدقة تحريا لعدم الخلط وأول من صنف فى هذا المجال القاضي أبو محمد الرامهرمزى فى كتابه (المحدث الفاصل بين الراوى والواعى) وقسم آخر اهتم بتصنيف الحديث نفسه وأفرد لذلك كتبا مستقلة تحوى الصحيح الثابت فقط من سنة

(٧٨) صحيح الإمام مسلم بن حجاج ثانى أشهر الصحاح النبوية قاطبة بعد صحيح البخارى وهم أصح كتابين اجتمعت عليهما الأمة وتعد شروطهما لقبول الحديث صحيحا هى أعلى الشروط دقة وحزما.

(٧٩) تيسير مصطلح الحديث. د. محمود الطحان.

النبي عليه الصلاة والسلام ، وهى كتب نشأت بجهد المحدث عن طريق تحريه شخصيا للحديث المروى والتيقن من عدالة وأمانة كل راوى فى سلسلة السند[٨٠] ومن هذه الكتب المرجعية صحيح البخارى وصحيح مسلم وصحيح بن حبان وصحيح بن خزيمة ..

ولم يكتف علماء الحديث بأن يصنف عالم الحديث الحافظ كتابه فى الصحيح ، ثم يعتمدون كتابه هذا بلا تدبر ، بل العكس هو الصحيح ، فرغم جلالة مقام البخارى ومسلم وغيرهم إلا أن علماء الحديث المعاصرون لهم ومن تلاهم تتبعوا كل حديث أورده أصحاب الصحاح وتأكدوا من صحته ولهذا جاء اعتماد علماء الأمة للصحيحين لا غبار فيه ، بينما لم يعتمد علماء السنة صحيحى بن حبان وبن خزيمة لأنهم حققوا الكتابين فوجدوا فيهما الأحاديث الضعيفة وغير الثابتة مما يعنى عدم استطاعة بن حبان وبن خزيمة أن يقيما شرطهما بتحرى الصحيح وحده ، وبالتالى نزلت مرتبة الكتابين إلى ما دون مرتبة كتابي البخارى ومسلم فضلا على الكتب الأخرى التى تناولت الحديث بأشكال معالجة مختلفة كالمسانيد وهى أن تسند الأحاديث إلى الصحابي الذى رواها فيفرد العالم فى مسنده الصحابة على شكل أبواب وفى كل باب يسجل أحاديث كل صحابي مع ذكر السند

وعلة ذكر السند أن يترك لمن بعده طريقة التحرى عنها بمصادر أخرى ، وأول المسانيد كان مسند مسدد بن مسرهد ، وأشهر المسانيد هى مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وقسم آخر اهتم بتصنيف الأحاديث على أبواب الفقه ككتب السنن وقسم ثالث جعل همه البحث خلف وضع القواعد التى تعالج أى تناقض أو غرابة تشوب الأحاديث النبوية ، لشرحها وبيانها فتفرع من هذا القسم علم غريب الحديث وعلم مختلف الحديث وعلم الناسخ والمنسوخ فى الحديث ، وأشهر من تصدى لمختلف الحديث كان الإمام بن قتيبة فى كتابه تأويل مختلف الحديث الذى اهتم بمحو التناقض الظاهرى بين دلالات الأحاديث النبوية وأشهر من صنف فى غريب الحديث هو الإمام بن الأثير ، بكتابه الشهير النهاية فى غريب الحديث والأثر ، وكان الإمام الشافعى هو أول من أسس وبين أصول الفقه كما بين أصول الحديث وبيان الناسخ والمنسوخ فيه [٨١] فوضعوا للتنسيق بين الأحاديث المتعارضة

(٨٠) سلسلة الإسناد هى ذكر رجال السند بصيغة من صيغ السماع المتعارف عليها وهى حدثنا فلان عن فلان أو أخبرنا فلان

(٨١) المقصود بالنسخ فى الحديث هو أن يرد الحديث بحكم معين يتغير بحديث آخر لاحق عليه كما حدث مثلا فى حديث قتل شارب الخمر العائد للمرة الثالثة فقد نسخه رسول الله عليه الصلاة والسلام بالفعل عندما جلد الشارب فى الثالثة ولم يقتله ويعد الشافعى هو أول من ابتكر التوفيق بين الأحاديث التى تغير حكمها بأحاديث أخرى وفى هذا يقول الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما عرفنا ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسنا الشافعى رضي الله عنهم جميعا.

مائة وواحد وجه للتوفيق بينها ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم قرنوه بمعالجة كل تناقض تمت إثارته وحتى التناقضات التى لم تظهر قاموا هم بابتكار ما قد يظهر من تناقضات وضعوا لها الحلول !

وقسم آخر اهتم بالأحاديث الموضوعة الشهيرة حيث تفانى بعض المحدثين فى تصنيف الكتب المحتوية على أشهر الأحاديث الموضوعة والمكذوبة ليقطعوا الطريق على انتشارها وأشهرها اللآلئ المصنوعة لابن الجوزى بالإضافة لعشرات الفروع الأخرى التى تأسست بمرور الزمن ، وكل جيل من العلماء يضيف لمن سبقه ضابطا آخر يزيد من دقة التحرى فى الحديث ويشدد فى قبول الصحيح ورد الضعيف ، حتى انقشع غبار الأزمة نهائيا وجاء العصر الحديث حاملا معه آثار جهد عملاق قلّ أن تجده مثيله فى إصراره ، فشربت الأجيال الجديدة السنة النبوية صحيحة لا تشوبها شائبة من لغط أو غلط، بعكس الحضارة الغربية التى فشلت فى الحفاظ على تراثها الدينى والتاريخى فورثته مشوها ومنوعا ليس فيه كتاب واحد صحيح ، بينما الحضارة الإسلامية قرآنا وسنة وتاريخا ليس فيها رواية واحدة ـ لا أقول كتابا كاملا ـ بل رواية واحدة ضعيفة أو موضوعة لم يتصد لها عالم أو أكثر بالبيان والتحقيق، وحفل تاريخ السلف بعشرات الإختلافات والمناقشات بين العلماء فى مختلف العصور على صحة رواية أو بطلانها ولم تنته المناقشات إلا بالوصول إلى القول الثابت فيها.

شواهد الدقة المذهلة فى تحقيق السنة

أورد هنا بعض شواهد الدقة فى التحقيق لبيان مدى الجهد والمعاناة التى تكبدها السابقون والتى لا زلت أصر على أنها جهد مستحيل حتى لو تم بعصرنا الحالى الذاخر بوسائل الإتصال العالمية ، ففي العصر الحديث وفى وجود أدوات الإتصال مسموعة ومرئية ووجود شبكة الإنترنت التى ربطت العالم من سائر أطرافه، لو أننا كلفنا باحثا للقيام بمهمة بحثية تخص موضوعا واحدا ـ كما يحدث فى الرسائل العلمية لدرجة الماجستير والدكتوراه ـ ووفرنا له سبل المعاونة الموجودة فإنه يستغرق فترة لا تقل عن أربع سنوات ليصل لنتيجة البحث ويقدمه كاملا ، وغالبا ما يكون البحث رغم الجهد قاصرا بموضع معين تبينه مناقشة الرسالة ، وهناك بعض البحوث النظرية فى كليات الحقوق استغرق فيها الباحثون ست عشرة سنة كاملة ليتقدموا ببحوثهم العلميةوهناك من أمضي عمره كله تقريبا فى البحث بالمراجع ليتمكن من إخراج كتاب واحد ، مثال ذلك المؤرخ المعروف محمد عبد الله عنان الذى قضي قرابة أربعين عاما ليتم مؤلفه الجامع عن الأندلس

(دولة الإسلام فى الأندلس)وفى الجانب الآخر قد يستغرق جهاز المخابرات قرابة ست أو سبع سنوات ليؤكد معلومة واحدة أو ينفيها ، وهناك بعض التحريات التى تتم للمرشحين للمناصب الحساسة تستغرق فترة من ستة أشهر لثلاثة أعوام لاتخاذ قرار نهائي بصلاحية هذا المرشح من عدمه ،كل هذا الوقت فى ظل خدمات التكنولوجيا ودعم العلم التقنى الخادم لتلك الأغراض فلنا أن نتخيل كيف قام علماء السنة فى العصور الإسلامية الأولى بتأليف كتبهم ووضع القواعد الموثقة لعلم الحديث ، لا سيما فى الفرع المسمى (علم الجرح والتعديل) والذى كانت مهمة العالم فيه أن يقوم بالتحرى الدقيق عن كل محدث أو راو أو ناقل لحديث أو قول صحابي أو تابعى[٨٢] ويسجل اسم الراوى وصفته وكنيته وما انتهت إليه التحريات بشأنه ليكون هذا الكتاب مرجعا لمن أراد التحقق من صحة أى رواية بمعرفة مستوى هذا الراوىونعطى فكرة عن أحد أهم المؤلفات فى هذا المجال وهو تاريخ دمشق للعلامة بن عساكر ، فقد تمت طباعة هذا الكتاب بأسلوب الطباعة الحديثة فى حوالى ٩٣ مجلدا ، حجم المجلد الواحد منها يتراوح بين ٥٠٠ و٩٠٠ صفحة تقريبا ، وقد احتوى هذا المرجع على ترجمة لشخصيات دمشق على ثلاثة مستويات:

الأول: ترجمة كل رجال دمشق المقيمين فيها.

الثانى: ترجمة كل من استقر بدمشق وكان وافدا إليها من بلد آخر ، عندئذ يقوم بن عساكر بالرحيل إلى بلده الأصلي والتحرى عنه ووضع صفته وحكمه عليه.

الثالث: ترجمة لكل من مر بدمشق مجرد مرور وهو فى رحلة إلى غيرها من البلاد وهنا نتوقف قليلا ونتأمل ، ونسأل الأسئلة التالية :

إذا كان متوسط عدد صفحات الكتاب بأسلوب الطباعة الحالية يتراوح بين ستين وتسعين ألف صفحة فى ٩٣ مجلدا ، فكم يكون حجمه بأسلوب الكتابة على المخطوطات والذى كتبه مؤلفه العملاق على شاكلته ، مع ملاحظة أن الصفحة الواحدة من صفحاتنا الحالية من الممكن أن تحتوى من المخطوطات بأسلوب الكتابة القديم على عدد عشرة مخطوطات كاملة تقريبا من أين أتى بن عساكر بالوقت الكافى لجمع مادة كتابه وهو حجم مهول يحتاج عمرا كاملا لمجرد تسجيله ، فكيف قام بن عساكر بالتحرى عن كل رجال دمشق وخارجها والسفر إلى مواطن المستقرين والمارين بها ثم تسجيل كل هذا فى

---

(٨٢) «ينقسم الحديث من حيث مصدره إلى ثلاثة أنواع ، الحديث المرفوع وهو كل حديث قاله أو أقره أو فعل فعله أو رواية ورد فيها ذكر النبي عليه السلام بأى وجه ، والحديث الموقوف وهو القول المنسوب للصحابي ، والحديث المقطوع وهو القول المنسوب للتابعي (راجع الباعث الحثيث فى علوم الحديث لبن كثير ـ تحقيق أحمد شاكر).

الحجم الرهيب من المخطوطات ؟!

وقد رأينا فى المثال السابق كيف أن محمد عنان استغرق أربعين عاما ليؤلف كتابه عن الأندلس البالغ ثمانية مجلدات فقط ومادته مجموعة من كتب مطبوعة ومتوفرة كيف خطرت فكرة هذا المرجع البالغ الضخامة بعقل مؤلفه، وهى فكرة لو خطر معشارها على عقل أنشط الباحثين اليوم لتوقف يأسا قبل أن يخطو فى مشروعه خطوة واحدة ؟!

قام بن عساكر بتصنيف مؤلفه هذا منفردا سواء بالتحرى وجمع مادة الكتابة أو النسخ والتسجيل، رغم أننا لو ألقينا نظرة على أحد مفكرينا المعاصرين العمالقة مثل محمد حسنين هيكل الذى تخرج مؤلفاته السياسية ضخمة وموثقة إلى أعلى درجة لوجدناه يستعين بفريق عمل كامل فى مصر وآخر فى لندن مهمتهم جمع المادة العلمية والوثائق وتصنيفها ومع هذا يستغرق لكتابة الكتاب الواحد من عام لعامين وقد أخرج موسوعته المعروفة (حرب الثلاثين سنة) من أربعة أجزاء فى عشر سنوات والمشكلة أننا تعرضنا لمؤلف واحد من هذه المؤلفات الضخمة التى تم تصنيفها لتسجيل التحريات عن رجال الرواية فى سائر الأقطار، وهناك على شاكلة مرجع بن عساكر مراجع لا تقل أهمية مثل تهذيب الكمال للحافظ المزى وسير أعلام النبلاء للذهبي ، وسلسلة تاريخ البخارى الكبير والأوسط والصغير، والطبقات الكبري لابن سعد الواقدى وهو أول مصنف فى هذا العلم، والأهم من ذلك أن قول العلماء فى شخص معين أنه ثقة أو أنه ضعيف أو كذاب لا يؤخذ من عالم واحد بل يؤخذ الحكم على الراوى من مجموع أقوال علماء الجرح والتعديل وهذه دلالة إضافية على دقة التحري ، فإن خدع أحد الرواة واحدا من علماء الجرح والتعديل بادعاء التقوى فلن يستطيع خداع بقية العلماء الذين سيتولون أمره ولو ألقينا نظرة على الأحوال التى يتم فيها جرح الراوى وعدم الأخذ بروايته لوجدنا حذرا بالغا غير مسبوق بالذات فى هذا العصر الذى لم ينتشر فيه الكذب أو النفاق ، فالراوى لا يتم رد روايته لمجرد إثبات كذبه فى رواية حديث ، بل يتم جرحه لمجرد التدليس ، والتدليس فى مصطلح الحديث ليس معناه الخداع والكذب بل هو مجرد أن يقول الراوى سمعت من فلان وهو شيخه الثقة ، بينما هو سمع الحديث من زميل له عن نفس الشيخ لا ندرى حال الراوى نفسه وإخفاء راوى الحديث للمنقول عنه هنا يعتبر تدليسا ، هنا يجرح الراوى بالتدليس لأجل هذا فقط بل إن أحد علماء الحديث لم يقبل حديث أحد الرواة عندما رآه يخدع بعيره فيضم ثوبه ويحركه للبعير حتى يظن أن ثوب صاحبه مملوء

بالشعير لكى يأتى البعير فلا يهرب ، فرفض العالم أخذ روايته لأنه ثبت له كذبه على بعيره فاعتبرها جرحا له ولم تقتصر العناية عند الوقوف على أحوال الرواة فحسب ، بل كانت أحوال الرواة مجرد فرع من فروع التحقيق التى امتدت إلى نصوص الحديث نفسه بمنتهى الدقة ، فلا يوجد عند أهل الحديث التسيب الذى نعرفه اليوم من نقل دون وعى أو ذكر دون تدبر ، بل إن الراوى إذا خلط حرفا بحرف وهو ينقل روايته وليس كلمة مكان كلمة ، جرحه علماء الرجال باعتباره ضعيف الحفظ حتى لو حافظ على معنى الحديث ومضمونه بل إنهم يتتبعون مراحل حياة الراوى أو العالم الواحد فيقال مثلا أن روايته فى سنه الصغيرة كانت أوثق من روايته بعد أن كبرت سنه ويسجلون هذا فى مراجعهم

ولكى يتم قبول الحديث صحيحا يجب فيه أن تتوافر شروط الحديث الصحيح وهو أن يروي الحديث الثقة العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه بسند متصل من غير شذوذ ولا علة فهذا التعريف البسيط أجمل شروط صحة الحديث بضوابط تعجز مباحث أمن الدولة الآن !

فإن سقط فرد واحد من سلسلة السند يتم تضعيف الحديث وإن كان أحد الرواة ضعيفا وباقي الرواة على أشد الثقة تم تضعيف الحديث أيضا ، إلا إذا كان الضعف ناجما عن قلة حفظ وتم ضم هذا الراوى لغيره فيتم وضع الحديث فى مرتبة وسطية وهى مرتبة الحسن أما عن طريقة كشف الخداع والتدليس والتحرى فيكفينا أن نعرف أسلوب عملاق من عمالقة الجرح والتعديل وهو يحيي بن معين رفيق وصديق الإمام أحمد بن حنبل ، وهو أسلوب يتضح من موقفين يظهر منهما مدى براعة هذا الرجل التى سبقت عصره بقرون فى فنون المراقبة والتحرى.

الموقف الأول : أنه كان يتتبع حلقات الدرس التى يعقدها المحدثون فى المساجد فيجلس مراقبا لكل الحضور من الرواة بعين الصقر ، ويتابع كل منهم فى مدى انتباهه للحديث المروى فإن لمح أحد الرواة وقد غفت عينه قليلا من أثر الجهد سجل اسم الراوى ونص الحديث الذى نام فيه ، فإذا انتبه الراوى من نومه أو نبهه أحد أصحابه يسجل بن معين الحديث الذى استيقظ فيه نفس الراوى ، ثم ينتظر نشاط هؤلاء الرواة فإذا لاحظ أن الراوى النائم روى حديثا عن شيخه ضمن مجموعة الأحاديث التى غفل فيها ـ حتى لو كان الحديث صحيحا ـ وكان قد أخذه عن زميل له وأسقط اسم الزميل قال له على الفور كذبت .. متى سمعت هذا لقد رأيتك نائما (فيسجل التدليس على هذا الراوى ويُجرح

لذلك الموقف الثانى : كان بن معين جالسا مرة يكتب شيئا ما فى ورقة وكلما دخل عليه شخص ـ أيا كان هذا الشخص ـ قام بطى الورقة حتى يقوم عنه مهما كانت ثقته به ، فلما جاء أحمد بن حنبل إمام أهل السنة فى زمانه لم يطو بن معين الورقة لأن مكانة الإمام أحمد كانت تعلو مكانة بن معين ذاته ، والأمر بينهما أشبه بالشك المتأصل فى نفس كل رجل مخابرات فيتخذ الحذر الغريزى تجاه إبداء أى معلومة ولو كانت معلومة عامة وتراه يتساءل فى شك ، لماذا يسأله فلان ؟!

لكن غريزة رجل المخابرات مع من فوقه رتبة تختفي ، فلا حرص مع أهل الإختصاص فلما لاحظ أحمد بن حنبل اهتمام بن معين سأله ماذا يفعل فأخبره أن يسجل صحيفة (أى محتوى رواية راو معين ولا تعنى أنها صفحة واحدة بل قد تمتد لعشرات الصفحات وتسمى صحيفة فلان) أبان عن أنس ، حتى إذا جاء مدلس فخلط إبان مع غيره قلت له كذبت من هذين الموقفين يتضح إلى أى مدى كانت عليه الدقة والتمحيص وراء معرفة الحديث ، بالإضافة لما هو أهم ، وهو أن المحدثين على مختلف طبقاتهم[٨٣] كانوا يتابعون فحص ما انتهى إليه سابقيهم من العلماء ، بمعنى أن كتب غيرهم ونتائج بحوثهم فى علم الحديث لم تكن تقبلها الأجيال التابعة من العلماء بل كانت تتحرى عنها بنفس الطريق أو بطرق أخرى ، ولهذا فإن كتابىّ مثل صحيح البخارى أو صحيح مسلم برز بروزا شديدا بين الصحاح لأن ثلاثة أجيال من العلماء على الأقل تعاقبت على فحصه بمنتهى الدقة فلم يتركوا فيه حديثا واحدا دون فحص جديد، وهذا رغم جلالة مقام البخارى كإمام أهل الحديث بلا منازع وما عرف الإسلام مثيله فى دقة الحفظ والوعى والتحرى حتى أنه كان لا يضع حديثا فى صحيحه قبل أن يصلي ركعتين عقب إتمام فحصه والتحرى عنه ، وقام بتصنيف أحاديث صحيحه البالغة نحو أربعة آلاف حديث من فحص ٦٠٠ ألف حديث كان يحفظها بأسانيدها وأحوالها عن ظهر قلب ! واختار أصح ما صح منها وترك أيضا من الصحيح كثير طلبا للإختصار أى أنه بعد استخدام خاصية الإستبعاد وضع بكتابه ما نسبته أقل من ١ ٪ مما جمعه ، وهذا يشي بالضرورة بمدى صعوبة شروطه لاعتماد الحديث إلى درجة دقة مستحيلة ، ولذا قبلت الأمة صحيح البخارى ومسلم وأجمعت على صحتهما عقب الحكم عليهما من أجيال العلماء المتتابعة[٨٤] ، ولذا عندما نجد من يطعن

---

(٨٣) المقصود بالطبقات هى الأجيال ، فكل جيل من العلماء أو الأدباء يسمى طبقة ، ويتم ترتيب الطقات بحسب قربها من العهد النبوى فتبدأ طبقة الصحابة التى تتفرع لطبقات متعددة حسب السبق فى الإسلام ثم طبقة التابعين فتابعيهم وهكذا

(٨٤) معظم الشبهات والإنتقادات الموجهة للصحيحين تناولها علماء الأمة بعد البخارى وفندوا الإعتراضات المثارة عليها ، وكان أبرز شراح البخارى ومسلم هما بن حجر العسقلانى والنووى الإمامان الجليلان.

فى صحة حديث بالبخارى ـ بعد كل هذا ـ يحق لنا أن نملأ صاحب الطعن سخرية ، فهو لا يشكك فى البخارى وحده بكل دقته وعلمه بل يتجاوز إلى قرابة سبعة أجيال من العلماء تتابعت على كتابه بالفحص واعتمدته لا سيما أننا لو عرفنا كنه الأحاديث المطعون فيها بين الحين والآخر بالصحيحين وغيرهما من الأحاديث التى أقر العلماء بثبوت نسبتها للنبي عليه الصلاة والسلام، هى كلها أحاديث توقف عندها العلماء وناقشوها بالفعل قبل قرون ، وليس في ما يذكر من طعون أى جديد يلفت النظر فقد استوفاها العلماء معالجة وردا ، لكن المشكلة الحقيقية أن من يطعن على تلك الأحاديث لا يكون جاهلا فقط بإجماع العلماء على مدى عصور بصحتها بل يكون جاهلا أيضا بأن شبهاته تلك تم الرد عليها فى كتب لم يكلف نفسه مطالعتها أو البحث فيها عند أهل الإختصاص[٨٥]

غير أن دواعى الإستغراب تنمحى مع تسليمنا المسبق أن الجهل العميم الذى ساد الآن لا شك أنه يمثل الوسط المنسب لجراثيم الفكر كى تعيث بالعقول فسادا ، والوسيلة المثلي لذلك تكمن فى إعادة الهيبة المفقودة للعلماء بين العامة والعمل على نشر سير علماء السلف وبيان فضلهم الذى لا يوفي مقداره قط .

---

(٨٥) يحتوى كتاب « تأويل مختلف الحديث « لبن قتيبة على مجموعة كاملة من الأحاديث الذى استنبط الناس الأقاويل حولها وقام بن قتيبة بمعالجتها معالجة كاملة وهو المتوفي عام ٢٣٠ هـ ، ورغم ذلك تثار نفس الشبهات حول نفس الأحاديث اليوم.

الفصل الخامس

أحـداث الفتنة الكبري (بالروايات الصحيحة فقط)

وهذا هو آخر فصول الكتاب الذى خصصته لبحث مختصر متعمق فى أهم أحداث التاريخ التى تم استغلالها لتشويه الحضارة الإسلامية بأكملها ، مع إبراز كيفية الأسلوب الذى تم اتباعه فى تشويه جيل الصحابة فى تلك الأحداث ولا شك ولا ريب أن أهم المطاعن التى حاول المجرمون النفاذ بها إلى مقدار وقيمة الصحابة ، والتشكيك فيهم وفى عدالتهم الثابتة بالقرآن والسنة ، لا شك أن أحداث الفتنة الكبري كانت مدخلهم الأكبر لتناول هذا الجيل بما ليس فيه ، وهذا عن طريق استغلال الفتنة بطريقين وهما :

الأول : الروايات الموضوعة المكذوبة المفتراة على الصحابة رضوان الله عليهم والتى تنال من عدالتهم وصدقهم .. وهى كلها روايات ساقطة أسقطها علماء التاريخ والنقل

الثانى : تأويل بعض الأحداث الحقيقية وحملها على محامل غير حسنة وبسوء ظن غريب يجعل القارئ يشعر أنه ليس أمام جيل ربانى اختاره الله وعدّله من فوق سبع سماوات ، بل تجعل القارئ يحكم على هذا الجيل كما لو كان يحكم على أجيالنا المعاصرة التى غرقت فى شهوات الدنيا وشهوات الحكم ، وليس لها قطعا تلك النفس المطمئنة التى تميز بها جيل الصحابة جميعا ، حتى أن كافة أفعالهم كانت مرهونة بالإجتهاد والسعى لطريق الله وحده ، وحتى لو أخطئوا فيها فهو إجتهاد ليس يلزم منه إسقاط العدالة لأن النية الحسنة ثابتة لهذا الجيل كله ، وهم ليسوا بمعصومين عن الخطأ ، وسنبين باختصار غير مخل ، مدى فضل هذا الجيل ، وكيف أن التشكيك به جاء من المغرضين القاصدين إلى هدم مصادر الدين الإسلامى عن طريق الطعن فى من نقلوا لنا هذه المصادر ، ومن هنا تأتى خطورة الأمر ، كما سنبين حقيقة ما جرى فى الفتنة الكبري ونميز سقيم الروايات من صحيحها لنقف على حقيقتها ..

نظرة إلى قيمة الصحابة:

من مصائب الأمة اليوم دون شك ، أنها استجابت نوعا ما لدعوة أهل الطعن فى الصحابة ونظرت إلى الروايات التاريخية المزيفة التى رواها رواة التاريخ غير العدول على أنها روايات صحيحة رغم أنها تحمل مطاعن فى أشرف جيل للإسلام وهو الجيل الذى حمل الرسالة وكان وسيلة إيصالها لأقطار الأرض وإيصالها للأجيال وراء الأجيال والأمر لا يخلو من حماقة وغباء مطلق ، ففي البداية مثل هذه

المطاعن كيف يمكن قبولها ومن رواها هم الكذابون المعروفون بحقدهم ضد هذا الجيل مثل رواة الشيعة ، بالإضافة إلى ما هو أطم أننا غفلنا عن القرآن الكريم الذى يمثل الثبوت المطلق والدليل المنفرد بذاته على تزكية هذا الجيل كله ، فأهملنا دليل القرآن فى تزكيتهم وقبلنا دليل الزنادقة ، والطعن فى جيل الصحابة قديم وموجود فى كتب التاريخ التى نقلت لنا الروايات جميعها ، وأخضعها أهل التحقيق لتحقيقهم وبينوا زيفها ، غير أن الجهل العام فى عالمنا المعاصر دفع العلمانيين والشيعة ومن تابعهم فى حرب الإسلام إلى استغلال رواج تلك الروايات ليصلوا إلى أغراضهم فى التشكيك بهم والتشكيك بهم يعنى التشكيك فى الدين الذى نقلوه ، وهذا هو الهدف الوحيد لكل طاعن بالصحابة لكن المشكلة أن بعض الكتاب والمفكرين ومعظم العوام ذهبوا إلى تلك المرويات فقبلوها وكتبوا عن تلك الاتهامات الموجهة للصحابة ونشروها وهم ليسوا من أهل الصنعة ولا الخبرة حتى يميزوا بين الروايات الصحيحة والروايات العرجاء والأهم من ذلك أنهم غفلوا عن جلالة هذا الجيل وتعاملوا معهم كما كانوا من أرباب هذا العصر الذى نعانى منه ، بينما الصحابة عاشوا فى عهد النبوة حيث كان ولا زال جيلهم بشهادة الله عز وجل ونبيه عليه السلام أفضل أهل الأرض بعد الأنبياء والرسل ، فلا يوجد مثيلهم أبدا لا فى الزهد ولا فى الإيمان ولا فى التقوى وأمثالهم تهرب منهم الذنوب وتتنافر مع طبيعتهم ، وهم وإن كانوا غير معصومين فهذا لا يعنى إطلاقا أن نتصور فى أحدهم إقدامه على ذنب عامدا متعمدا لأجل دنيا فلما نظر هؤلاء المفكرون إلى الصحابة نظرتهم إلى أى جيل وعالجوا عصرهم كما كان عصرا عاديا من السهل أن تجد فيه أطماع الحكم وشهوات الدنيا ، تسربت بناء على ذلك إلى النفوس تلك النظرة الخاطئة عن هذا الجيل الفريد فازداد تعلق العامة بهذه الروايات وأصبح من قبيل الثقافة العامة أن تجد تلك المطاعن منتشرة بينهم ، رغم أن فتن الحكم ومطالب الدنيا لم تكن تمثل فى عرف الصحابة شيئا يذكر ولا يوجد دليل أو شبهة دليل صحيح تقول بذلك و إذا نظرنا للقرآن الكريم وتأملنا بالعقل وحده كيف انتشر فى ربوع آياته تزكية هؤلاء الأطهار لعلمنا أن الأخبار المنقولة بخلاف ذلك إنما هى من الإفك المبين ، وهذا ما ينبغي لكل عاقل أن يدركه لأننا نقارن هنا بين الدليل من القرآن والدليل من مروجى الأخبار فكيف ندع الأول ونأخذ الثانى !

يقول عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الحشر:٨

والآية قطعية الوضوح والصراحة فى أن المهاجرين جميعا هم من نصر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وشهد لهم الله تعالى الذى يعلم سرائرهم أنهم هم الصادقون

فهل من الممكن أن نقبل بعد هذا بتشكيك مشكك فى عدالتهم ؟!

ويقول أيضا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾التوبة:١٠ وهذه الآية جمعت الجيل كله المهاجرون والأنصار ومن تلاهم من بعد الفتح فأسبغ عليهم الله تعالى الإحسان وشهد لهم بأنهم أصحاب الجنة والرضوان.

ويقول أيضا : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة:١١٧

وهذه الآية الكريمة تتحدث عن غزوة تبوك التى خرج فيها النبي عليه الصلاة والسلام بكل صحابته للقتال ، ولم يسمح لأحد بالتخلف ، فأنزل الله تعالى بحقهم هذه التوبة ومعنى هذا أنها شملت اثنى عشر ألف صحابي خرجوا مع النبي عليه الصلاة والسلام من المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح ولم يستثن القرآن الكريم أحدا منهم قط ، حتى الثلاثة من الصحابة الذين تخلفوا بلا عذر ، أنزل الله توبته ومغفرته عليهم لينضموا إلى إخوانهم فقال جل شأنه ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾التوبة:١١٨

ولم يقتصر القرآن الكريم على وصف هؤلاء الأطهار بل وصف حال من سيأتى بعدهم من أجيال وجعل الإيمان رهنا فقط بالذين اتبعوهم بإحسان فاستثنى بذلك الله عز وجل كل إنسان خاض لسانه فى هذا الجيل، حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾الحشر:١٠

أى أن وظيفتنا نحن الذين تبعناهم أن نقول ربنا اغفر لنا ولهم ولا نجعل فى قلوبنا غلا لأحد منهم قط ، وهذا هو الأمر الطبيعى البدهى لأن إيماننا ما كان له أن يتحقق لو لم يصمد هؤلاء النفر مع النبي عليه الصلاة والسلام ويحملوا أمانة الرسالة ويبذلون الدم والنفس والأهل والمال فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، وفى ذلك يقول الإمام علىّ رضي الله عنه مخاطبا شيعته من على منبر الكوفة كما فى نهج البلاغة [٨٦] :

(٨٦) ليس معنى استدلالنا بنهج البلاغة هنا أنه مصدر صحيح ثابت إلى الإمام علىّ ، ولكنه مصدر مختلف ومنحول عليه وما يوجد فى الكتاب من الأقوال الصحيحة النسبة للإمام لا يتعدى عشر محتواه ، والباقي موضوع ليس له إسناد أصلا

(ولقد رأيت أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم فما رأيت أحدا يشبههم منكم ولقد كانوا يصبحون شعثا غبرا ويقبضون على مثل الجمر من ذكر معادهم كأن بين أعينهم ركب المعزى ـ يعنى علامة السجودـ) فجاءت الأجيال بعد ذلك وتحت مختلف الأغراض تحمل هم الطعن والتشكيك فى هذا الجيل الفريد بل وفى حق أعلامهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضي الله عنهم ، والعاقل لا يحتاج ردا على تلك الشبهات التى يثيرها المغرضون، والذين ارتضوا لأنفسهم أن يقفوا فى خندق واحد مع العلمانيين والمستشرقين أعدى أعداء الإسلام لكى يمارسوا معهم نفس الفعل فى الطعن واللعن على أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فالعاقل لابد له أن يقرن هذه الأقوال بآيات القرآن الكريم لكى يطرح عن نفسه أى حاجة لتفنيد أى شبهة بحق أى صحابي ، فليس بعد قول الله قول بالإضافة لما هو أهم وهو أن النظر إلى هؤلاء الطاعنين ممن يدعون الإسلام يكفي وحده لاكتشاف هويتهم ، لأنهم ـ كما قلنا ـ وقفوا فى خندق واحد مع أعداء الإسلام ومجرد الاتحاد فى الغرض والفعل يكفي لرفض أى قول لهم بحق أى صحابي وما أصدق قول الإمام أبي زرعة الذى قال: (إذا رأيت الرجل يطعن فى أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فاعلم أنه زنديق، ذلك أن الدين عندنا حق وإنما أداه لنا هؤلاء الصحابة والذين يطعنون فيهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا والجرح بهم أولى وهم زنادقة).

وكعادة جميع الأفاكين يأتون بشبهات عرجاء وبأحداث ملفقة ليتمكنوا من التشكيك فى الصحابة، فيأتون لآيات القرآن الكريم التى نزلت فى المنافقين فيسقطونها على أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ؟!

﴿ومن ذلك وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾التوبة:١٠١

والسؤال المنطقي أين وجه الدلالة فى الآية لكى يطعنوا بها على الصحابة، فنعم كان هناك منافقون بالمدينة يعلم النبي عليه السلام بعضهم والبعض الآخر لا يعلمهم أما الذين علمهم فهم عبد الله بن سبأ وشيعته، وأما الذين لم يعلمهم فهؤلاء هم جيل المرتدين الذى منعوا الزكاة فحاربهم أبو بكر رضي الله عنه ، ونلفت النظر إلى أننا جئنا بآيات محكمات واضحات فى تزكية المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة فلو كان بينهم

إلى الإمام ، لا اسناد متصل ولا حتى منقطع ، ونحن نستشهد به على سبيل الإحتجاج على الخصوم الرافضة بكتبهم التى يعتقدون صحتها ، وعلى رأسها نهج البلاغة ، ونستدل على الرافضة بالذات لأنهم أكبر المشككين فى الصحابة وهم أصحاب الروايات الزائفة عنهم.

استثناء لبينه الله أو بينه النبي عليه الصلاة والسلام بينما نجد النبي عليه السلام شدد فى الوصية على مدح أصحابه سواء فرادى بأسمائهم أو بمجموعهم ومن ذلك قوله عليه السلام (الله الله فى أصحابي .... الحديث) وقوله عليه السلام (لعنة الله على من سب أصحابي وقوله عليه السلام (لا يدخلن النار أحد بايع تحت الشجرة .... الحديث)

بخلاف الأحاديث المستفيضة فى مدح أعيان الصحابة مثل العشرة المبشرين زعماء الصحابة وأيضا بقيتهم مثل جليبيب وعمار والمقداد وأبو ذر وأبو هريرة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية وعشرات غيرهم ومن الأدلة العقلية الصريحة أن الله عز وجل قال فى كتابه ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران:١١٠)

فهذا المدح العظيم للأمة الإسلامية ورد أول ما ورد فى حق الصحابة وجيلهم الفريد، وقد صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه مدح ثلاثة أجيال أولها جيل الصحابة وتابعيهم من بعدهم ومن بعدهم وهى القرون الثلاث الأولى خير القرون للأمة الإسلامية والتى صارت فيها كلمة الله هى العليا فلو لم تكن هذه الزمرة هى خير أمة فمتى كنا خير أمة إذا ؟! فإذا عجز الأفاكون أمام النصوص الصريحة الصحيحة ذهبوا سريعا إلى الروايات المكذوبة الموضوعة مستغلين جهل الناس بمصداقية الروايات وكيفية الكشف عنها وجهلهم بمنهج كتابة التاريخ الإسلامى فى المصادر الأصلية كما سنرى منهج كتابة التاريخ الإسلامى الجريمة الكبري التى تمت بحق التاريخ الإسلامى أن بعض المؤرخين والمثقفين المعاصرين أخذوا عن تاريخ الطبري ، واعتبروا مجرد ورود الروايات فيه معناها أن الطبري يعتقد صحتها وهذا غير صحيح حيث نص الطبري فى مقدمة تاريخه على أنه جمع كل الروايات التى أتت إليه وبين إسنادها ومصادرها وترك للمحققين من بعده النظر فى صحتها وتلخيصها وهذه جريمة تتابعت على مر الزمن لأن التاريخ مثله مثل الحديث النبوى خضع للتحقيق والتصحيح والتضعيف عن طريق تفنيد ونقد المصادر الأولى ولو أخذنا تاريخ الطبري مثالا وهو المرجع الأم الأكبر فى مجاله فإن مرويات الكذابين من الشيعة الإخباريين أحصاها الدكتور خالد كبير علال فزادت عن ثلاثة آلاف رواية باطلة سندا ومتنا وأصحابها أربعة فقط من رواة الشيعة المطعون فيهم

والمشكلة الكبري أن تلك الروايات تعالج الفترة الأكثر حساسية فى التاريخ الإسلامى وهى الفترة من وفاة النبي عليه الصلاة والسلام إلى استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه (٨٧) وانتشرت تلك الروايات المغلوطة بين العامة وبين أقلام المثقفين المعاصرين باعتبارها من المسلمات التاريخية رغم أن العلماء قديما وحديثا بينوا مدى بطلانها وما حدث فى الفتنة يمكن تلخيصه فى الآتى:

أولا : أجمع المسلمون بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام على تولية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لسابقته وفضله وولايته أمر الصلاة فى حياة النبي عليه السلام عند مرضه حيث أصر النبي عليه السلام على أن يتولى أبا بكر الصلاة وقال فى ذلك حديثا شهيرا ورد بعدة طرق منها كما فى البخارى (يأبي الله والمؤمنون إلا أبا بكر).

وقد روى البخارى حادثة السقيفة التى نجمت عنها مبايعة الصديق بالرواية الصحيحة حيث تم الاتفاق على البيعة بلا منغصات، وقبلها جميع الصحابة فيما بعد بالشورى حيث أن النبي عليه الصلاة والسلام ترك الأمر فى الحكم والخلافة شورى بين المسلمين وانتهى بذلك عصر النبوة والعصمة وعليه فالروايات المزيفة التى تروى عن رواة الشيعة كأبي مخنف لوط بن يحيي الأزدى أن هناك خلافا وصراعا دب على السلطة كلها عبارة عن ترهات دسها هؤلاء الإخباريون ولم تثبت قطعا بأى سند صحيح ، وقد لجأ المؤرخون لرواية الطبري ونقلها بعضهم وهى رواية منقولة عن الشيعي أبي مخنف الذى أجمع المحدثون على أنه من أهل الكذب(٨٨) والرواية الصحيحة الواردة فى البخارى تغنى كل طالب حق عما سواها وفضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه أكبر من أن يسعها مقام الكلام ، فيكفيه أنه كان ثانى إثنين إذ هما فى الغار وخصاله وفضائله التى بينها النبي عليه الصلاة والسلام لا تكاد تحصي وقد نصر الله به الإسلام أولا وآخرا ، حيث شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بأنه الوحيد الذى لم يكن فى إيمانه تردد ولا تلعثم ولقبوه الصديق يوم أن كان الذى بادر إلى تصديق النبي عليه الصلاة والسلام فى رحلة الإسراء والمعراج مع إنكار القوم لها ، وهو الذى دعا أساطين الصحابة فيما بعد للإسلام كما نصر الله به المستضعفين حيث بذل ماله كله فى سبيل الله وفى ذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام (ما نفعنى مال مثلما نفعنى مال أبي بكر) وعندما تولى الخلافة وبدأت أحداث الردة وارتجفت الأرض نارا من

---

(٨٧) روايات الكذابين فى التاريخ الإسلامى - بحث للدكتور خالد كبير علال.

(٨٨) مرويات أبي مخنف فى تاريخ الطبري - رسالة دكتوراة للدكتور يحيي ابراهيم - جامعة الامام بالسعودية.

حول المسلمين ما بين ردة القبائل داخل الجزيرة وبين طمع الروم فى حرب المسلمين أيضا ولكن كان هناك أبو بكر، صاحب العزيمة التى لا تلين والثقة التى لا تنضب فحارب المرتدين فى نفس الوقت الذى نفذ فيه أمر النبي عليه الصلاة والسلام فى إنفاذ جيش أسامة بن زيد إلى حدود الروم وردعهم ، رغم ما يعنيه هذا من خطورة عندما تبقي المدينة بلا جيش فى مواجهة المتربصين ، وقال فى ذلك كلمة تكتب بماء الذهب (والله لو لعبت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين فى المدينة ما تركت أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام) ثم شكل القيادات والسرايا والبعوث وأخمد نار الفتنة فى الجزيرة ولم يتوان بعدها أو يستريح بل شكل الجيوش الإسلامية لفتح فارس والشام ، فكانت البداية التى تواتر عقدها بعد ذلك فى عهد الفاروق وتوفي رضي الله عنه ودفن إلى جوار النبي عليه الصلاة والسلام طاهرا مطهرا ، وقد لعبت الروايات الشيعية دورا فى محاولة تشويه صورته بأسلوب ساذج فأثاروا الشبهات حوله وتكفل العلماء بالرد عليها تفصيلا[٨٩]

ثانيا: قبيل وفاة أبي بكر رضي الله عنه أوصي بعد استشارة أصحابه على تولية عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة للمسلمين فناقشه فى ذلك بعض الصحابة لما يعرفون من شدة عمر فى الحق فأقنعهم أبو بكر بأنه يترك عليهم خير خلق الله فى زمانه كما هو فى رواية بن سعد فى الطبقات الكبرى[٩٠] وخرج كتاب البيعة لعمر مع عثمان بن عفان رضي الله عنه وقرأه على الناس وهم جميعا حاضرون فقبلوه وتولى الفاروق أمر الأمة فكانت أزهى عصور الخلافة حيث سقطت فى عهده دولتى فارس والروم معا وكانت الجيوش الإسلامية تحارب على الجبهتين معا ، فسقطت فارس فى يد كبار مجاهدى الجبهة +سعد بن أبي وقاص قائد جبهة الفرس فى موقعة القادسية ونهاوند وسقطت الروم وافتتح بيت المقدس على يد مجموع الجيوش الإسلامية فى الشام بقيادة خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وزياد بن أبي سفيان ومعاوية شقيقه أما فى العدل فحدث ولا حرج حيث لا زالت سيرة عمر بن الخطاب تمس الأفق فى عدله وورعه، بل تجاوزت سمعته فى العدل والإنصاف حدود دولة الإسلام إلى لغرب حيث أنصفه الأوربيون فوضعوه ضمن أعظم مائة شخصية فى الإسلام[٩١] وفى التنظيم الإدارى قدم للخلافة الدواوين وأنشأ عدة أنظمة إدارية للعطاء والخراج

(٨٩) يراجع رد تلك الشبهات فى كتاب (حقبة من التاريخ - عثمان الخميس).

(٩٠) الطبقات الكبري لابن سعد - ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٩١) العظماء مائة أعظمهم محمد - مايكل هارت - ترجمة أنيس منصور.

فحقـق فيه قول النبـي عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح (لم أر عبقريا يفري فريه)وفضائلـه ومآثره كثيرة جدا وكلها تشي بفرط عدلـه وحياديته فى الحكم وتبجيله وتوقـيره للصحابة رضي الله عنهم ، وأيضا تناولته الروايات الشيعية بالتنقص وخصّته بكثير من هذا الغثاء والسبب الرئيسي إنما يعود لأنه كان الخليفة الذى فتح الله على يديه إمبراطوريـة فارس وأطفأ نار المجوس فلم تقم لهم قائمة بعدها ، ولا ننسي أن نشير إلى روايـة غير صحيحة تداولتها كتب التاريخ قديما وحديثـا وهى رواية لا تثبت ، وهى قصة إسلام عمر بن الخطاب حيث تقول القصة الشهيرة أنه أتى يريد قتل النبي عليه السلام فـى دار بن الأرقـم فسمع أن أخته فاطمة بنت الخطاب أسلمت وزوجها فحول وجهته إلى بيتهـا وضربها على وجهها فلمـا سال الدم رق لها وطلب منها أن يـري صحيفة القرآن ، وعندمـا رآها وقرأ ما فيها دخل فى الإسلام[٩٢]هذه الرواية لا تصح ولم تثبت سندا رغم شهرتهـا الواسعـة لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم ــ وفق الرواية الأكثر قبولا ـ فى بطحاء مكة عند الكعبة على يد النبي عليه الصلاة والسلام بعد حوار قصير بينهما

ونلفت النظر هنا إلى نقطة هامة للغاية وهى أن الشيعة استغلت هذه الرواية الشهيرة عن ضرب عمر لفاطمة شقيقته ، لكى تُسقط الرواية على فاطمة الزهراء رضي الله عنها فاخترعوا أسطورة أن عمر ضرب الباب على فاطمة رضي الله عنها وكسر ضلعها وذلك لإجبار على بن أبي طالب على البيعة لأبي بكر وكأن عمر وأبا بكر وغيرهما من الصحابة أعضاء فى حكومة ثورية كالتى يشهدها عالمنا المعاصر!

ونحن لا نحتاج قطعا إلى أن نثبت زيف هذه الأسطورة التى تمثل عارا على جبين الرافضة إلى اليوم حيث أنها أظهرت علىّ رضي الله عنه بصورة العاجز عن الدفاع عن زوجته أمام اعتداء مباشر، ! ومن الملاحظ أن عددا من مراجع الشيعة اليوم مثل محمد حسين فضل الله المرجع الشيعي اللبنانى شعروا بخزى هذه الرواية التى ينشرونها بين عوامهم لمجرد تشويه صورة عمر رضي الله عنه بما لا يقبله العقل ولا يقره النقل فأنكروها إنكارا شديدا وكما قلنا سابقا أن الحقد الشيعي على عمر متأجج بشكل فادح بسبب دوره فى إسقاط فارس ولهذا لعب الفرس الذين تستروا بالتشيع لعبتهم فى اختلاق هذه الروايات التى تناسب طبيعتهم ومجتمعهم ولكنها تتنافى حتى مع أخلاق العرب فى الجاهلية فضلا عن الإسلام.

ثالثـا: بعـد اغتيـال عمـر بن الخطـاب واستشهـاده رضـي الله عنه بيـد أبـي لؤلؤة

(٩٢) السيرة النبوية الصحيحة ـ د. أكرم ضياء العمرى ـ طبعة مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة.

المجوسي الفارسي لعنه الله ، أوصي قبيل موته بأن يكون الأمر شورى فى الستة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة، يتداولوا الأمر ويرتضون الخليفة الثالث فيما بينهم ومن فرط عدله رضي الله أبي أن يدخل فى الشورى صهره سعيد بن زيد رغم أنه من العشرة وذلك تلافيا للمجاملة التى قد تكون نظرا للقرابة بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فتخيلوا أى حيادية وأى عدل كان يمثله الفاروق رضي الله عنه ، فرغم أن سعيد بن زيد من العشرة وفضله معروف ويحق له الدخول فى الشورى والاختيار إلا أن مجرد قرابته من عمر وشكه أن الناس قد تجامله لذلك قام باستبعاده على الفور ومن الإشاعات المغرضة التى روجتها الروايات الباطلة أنه أمر بقتل أصحاب الشورى إذا لم يتفقوا وهذا مما يدل على الغباء فى التزوير قبل أن يدل على خبث الطوية ، فكيف يجرؤ عمر رضي الله عنه على هذا الأمر بحق كبراء الصحابة ، وما هو هدفه من ذلك وهو على فراش الموت والرواية الصحيحة الثابتة أنه اختار أهل الشورى وأمرهم أن يجمعوا أمرهم بينهم على خليفة قبل مضي ثلاثة أيام درء للفتنة وكان أصحاب الشورى ستة هم عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف ، وفى أول اجتماع تنازل عبد الرحمن بن عوف وفضل أن يكون حياديا دون تزكية أحد ، فارتضي به الخمسة حكما بينهم وتنازل طلحة والزبير وسعد لصالح الصحابيين الجليلين عثمان وعلىّ وبقي الخيار بينهما ، فقام عبد الرحمن بن عوف بأوسع استفتاء شهدته الخلافة التى ما رأت من قبل انتخاب خليفة على مستوى القاعدة الشعبية بأكملها قبل ذلك ، لأن الخلافة كانت تتم بالتشاور بين أهل الحل والعقد فى المدينة ثم تطرح هذه الزمرة الفاضلة - التى كانت تشكل مجلسا أشبه بالمجلس التشريعي - اسم الخليفة وتعلنه بين العامة فى المدينة وباقي الأمصار فيتولى الخلافة أما فى أمر أصحاب الشورى فقد جاب عبد الرحمن بن عوف بيوت أهل المدينة جميعا لثلاثة أيام يستفتى الناس ويري اختيارهم فاختاروا عثمان بن عفان رضي الله عنه إجماعا ، فكانت بيعته البيعة الأولى من نوعها فى شعبيتها وذلك لأنه ما من أحد اختلف على تقديمه لسابق فضله وبايع الإمام علىّ مع المبايعين ولا إشكال وعمل كعادته وزيرا مع الخليفة الراشد عثمان كما كان من قبل وزيرا لأبي بكر وعمر وأصبح من المتعارف عليه بين الصحابة والمجتمع الإسلامى أن العشرة المبشرين هم أسياد الصحابة وأفضلهم الأربعة الأوائل بالترتيب ثم يتساوى الستة الباقون ثم يتبعهم فى الفضل أصحاب بدر ثم أصحاب أحد ثم بقية المشاهد ثم يتساوى الميزان مع سائر الصحابة

وفـى هـذا المعنـى قـال عبـد اللّه بـن مسعـود فـى روايـة السيوطـى بتاريـخ الخلفـاء (كنـا نفضـل النـاس بأبـي بكـر ثـم عمـر ثـم عثمـان ثـم علىّ ثـم سائـر العشـرة ثم أهـل المشاهـد ثـم نـترك النـاس لا نفاضـل بينهـم) وكانـت سنـوات خلافـة عثمـان امتـدادا للعظمـة الراشـدة التـى أقرهـا أبـو بكر وعمـر رضـي اللّه عنهمـا فاستمرت الفتوحـات شرقـا وغربـا واتسعت إلى مـدى هائل شمـل سائـر إفريقية وبلـغ خراسان وتوسعـت المعيشـة وازداد الرغـد بسبـب تدفـق الغنائـم، ومضـت السنـوات علـى عهـد النبـي عليـه الصـلاة والسـلام واتسعـت دائـرة المسلمـين فشملـت أقوامـا مـن العجـم فيهـم مـا فيهـم سـواء مـن النفـاق أو الصـلاح وافتعـل عبـد اللّه بـن سبـأ وبعضـ أقرانـه مـن الفرسـ فتنـة عميـاء فـى مصـر والعـراق تهتـف ضـد الخليفـة الراشـد وتدعـو للثـورة عليـه وخلعـه فـى مفاهيـم كانـت جديـدة علـى العـالم الإسلامـى الـذى كان لا يـزال يعيشـ مشـكاة النبـوة، ومارسـ رواة الشيعـة دورهـم المعتـاد فألفـوا عشـرات الروايـات عـن مطاعـن تمسـ عثمـان رضـي اللّه عنـه وتـروى الفتنـة بوجهـة نظـر لم تكـن واقعـا ملموسـا وأثبـت المحدثـون وعلمـاء الأخبـار كذبهـا جميعـا[٩٣] ولم تكـن الثـورة علـى عثمـان ثـورة كمـا صورهـا هـؤلاء المؤرخـون، بـل كانـت شغبـا قادتـه شـراذم تعـد بالعشـرات وتتبعهـا طبقـات مـن الجهـلاء والعـوام اجتمعـوا فـى المدينـة المنـورة وتجمعـوا حـول دار الخليفـة مطالبـين بعزلـه هنـا ثـار الصحابة إلى السلاح لتطهير المدينة من تلك العصابات والدفاع عن الخليفة لا سيما وأن شيئا مما عابه الثوار على عثمان لم يكن أثر واقع ، ثم تطورت الأمور بعد رحيلهم واستجابتهم لتهديد الصحابة ليعودوا مرة أخرى إلى المدينة زاعمين أن عثمان أرسل لعامله على مصر عبد اللّه بن سعد بأن يقتل هؤلاء الثوار وأبرزوا كتابا مفترى على عثمان لا أصل له واتضحـت أبعـاد المؤامرة عندمـا سألهم الإمام علـى بن أبي طالب كيـف اجتمعتم مرة أخـرى وقـد ذهب أهـل العـراق باتجاه العـراق وذهب أهـل مصر باتجاه مصـر ، كيف عـرف أهـل العـراق بحكايـة الكتاب حتى يعـودوا فـى نفس التوقيـت مع أهـل مصر ؟! وكان واضحـا للجميـع أن الأمـر مدبـرا بليـل فلبسـ الإمـام علـىّ سلاحـه وطلـب مـن عثمـان أن يمنحـه الإذن بالقتـال فأبـي عثمـان بإصـرار شديـد

(٩٣) تحقيق موقف الصحابة من الفتنة ـ د. محمد أمحزون.

تورعـا مـن تبعـات الدمـاء وراجعـه جميـع الصحابـة فأصـر علـى الرفض ثـم طلـب عثمـان مـن أولاد الصحابـة الذيـن يبيتـون حولـه يحرسونـه أن يخرجـوا إلى منازلهـم وأقسـم عليهـم بطاعتـه، فاستغـل الثـوار الفرصـة ووثبـت شرذمـة منهـم إلى دار الخليفـة فقتلـوه وهـو يقـرأ فـى المصحـف وكانـت حادثـة الاغتيال غير متصـورة فى عقول سائـر أهل المدينة ، لكونهـم لم يفكروا فـى أن الأمـر سيصـل بهـؤلاء إلى مثـل تلـك الجريمـة لكـن مـا لم يحسبـه الصحابة أن قـادة الفتنـة كانـوا قـد انتظمـوا وصـارت لهـم أتبـاع بـالآلاف وكلهم مـن الغوغاء واهتزت المدينة للحادث الجلل وكاد زمام الأمور يفلت لولا أن استجاب الإمام عليّ للبيعة فخـرج للمسجد وبايعه النـاس وأولهم الصحابـة،. أما الإفك المبين فكان متمثلا فى عدة روايات اختلقها الرواة الشيعة وكلها مطعون فيها بلا جدال ، ومنها على سبيل المثال :

أن الصحابة رضي الله عنهم من ثاروا على عثمان لإنكارهم عليه بعض تصرفاته وهذا من الكذب بلا جدال فلم يكن بين المشاغبين صحابي واحد ولا حتى عامى من أهل المدينة ، ومن أكبر الإفك أن من روجوا هذه الشائعة جعلوا سبب ثورة الصحابة أن عثمان رضي الله عنه ساوى بين الصحابة فى العطاء وكان عمر رضي الله عنه قد فرق فى العطاء بين الصحابة القدماء وبين الذين أسلموا بعد الفتح، وهذا المطعن يسقط بمجرد النظر إليه لأنه يتنافى وأخلاق الصحابة فى ذلك العهد وهوان شأن الدنيا عليهم إلى الحد الذى جعلهم يبذلون ما يأتى إليهم من أموال فى سبيل الله ولا يحتفظون لأنفسهم بشيئ ! فكيف يثور أمثال هؤلاء على المال ، هذا بالإضافة لخلو كتب التاريخ الموثقة من أى ذكر صحيح لو برواية واحدة تشير إلى اشتراك الصحابة فى هذا الأمر بل الروايات تجزم بأن من وقف للفتنة دفاعا عن عثمان هم الصحابة أنفسهم وعلى رأسهم على وطلحة والزبير وبن عمر وغيرهما[٩٤] والفتنة كانت سببها المؤامرات التى قادتها تلك الشراذم بعد أن انتشرت أموال الفتوحات وعاش الناس فى رغد ، فاستغل مروجوا الفتنة غوغاء العوام فى تأليبهم على الخليفة تطبيقا للنظرية الواقعية وهى أن انتشار المال يكون سببا فى البطر وعدم الرضا ،[٩٥] وقد روى عن عروة بن الزبير قال :

(أدركت زمن عثمان وما من نفس مسلمة إلا ولها حق فى مال الله) [٩٦]

(٩٤) المرجع السابق - خلافة عثمان رضي الله عنه.

(٩٥) عصر الخلافة الراشدة - د. أكرم ضياء العمرى.

(٩٦) مصنف بن أبي شيبة - الجزء الثالث.

ومن المطاعن الساذجة أيضا أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ضعيف الشخصية وهذا قول استغل المرجون له ما اشتهر عن حياء عثمان رضي الله عنه ولم يفرق هؤلاء بين خلق الحياء وبين الضعف، والثابت من قراءة تاريخ خلافة عثمان رضي الله عنه أنه كان لا يقل حزما وقدرة عن عمر بن الخطاب وأول مظاهر حزمه نجاحه فى الوقوف أمام انقلاب الروم والفرس على الولايات التى فتحها المسلمون ، فثارت بعض ولايات العراق وكذلك عاد الروم مرة أخرى لمصر بعد أن أخرجهم عمرو بن العاص وتعرضت الخلافة لهزة مشابهة لتلك التى حدثت فى عهد أبي بكر فقام عثمان رضي الله عنه بتجهيز الجيوش ووجهها لنقاط التمرد وقضي عليها جميعا وأحكم قبضة الخلافة على أراضيها ، ولم يكتف بذلك بل قام بإنشاء أول أسطول بحري للمسلمين رغم أنهم كعرب كانوا منعدمى الخبرة فى قتال البحر ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالرغم من قوة قلبه لم يتخذ قرار تكوين أسطول بحري للمسلمين وغزو الروم من البحر لخوفه من هلاك الجيوش أمام خبرة الروم فجاء عثمان وبشجاعة القائد كون الأسطول ووجهه إلى المعركة الشهيرة (ذات الصوارى) وكان انتصار المسلمين ساحقا بكل المقاييس كما أنه كان حازما فى حسابه للولاة والعمال على عكس ما نشره الأفاكون فقد بلغه أن الوليد بن عقبة وهو أحد ولاته شرب الخمر وجاء للشهادة شاهدين فعزله عثمان على الفور وأقام عليه الحد بلا تردد رغم أنه من أقربائه إلا أنه لم يحابيه فى دين الله ، بالرغم من أن تهمة شربه للخمر لم تثبت أصلا بشاهدين عدل لأن الشاهدين كانا من المطعون فيهما من أهل الكوفة كما بين ذلك القاضي أبو بكر بن العربي فى كتابه الهام (العواصم من القواصم[٩٧]ومن أشهر ما اشتهر عن عثمان رضي الله عنه هو موضوع توليته لأقاربه وردته الألسنة بغير تحقيق للأمر، فإذا نظرنا إلى أقارب عثمان رضي الله عنه فهم معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح والوليد بن عقبة وسعيد بن زيد وعبد الله بن عامر أما بقية ولاة عثمان فهم من باقي الصحابة وبلغ عددهم ١٧ واليا ، بينما أقاربه خمسة فكيف يمكن أن نعمم الإتهام عليه رضي الله عنه ومن تولى من أقاربه خمسة فى مقابل ١٧ واليا من غيرهم وحتى هؤلاء الذين ولاهم عثمان رضي الله عنه لم يحابيهم لأنه ببساطة وضعهم فى نفس الأماكن التى وضع فيها النبي عليه الصلاة والسلام وعمر وأبو بكر رضي الله عنهما أمثالهم من بنى أمية لأنهم أهل عزة وكرم وشرف وسؤدد ولم يتول منهم أحد الإمارة إلا أدى حقها ، فلم يبتدع شيئا جديدا وهؤلاء كانوا أكفاء للولاية وسبقه

---

(٩٧) العواصم من القواصم ـ القاضي أبو بكر بن العربي.

إلى ذلك من سبقه للحكم هذا فضلا على أن هؤلاء الخمسة لم يولهم عثمان فى وقت واحد بل ولاهم على مراحل وعزل منهم الوليد بن عقبة كما تقدم وعندما توفي عثمان لم يتبق من أقاربه أحد فى سدة الإمارة إلا ثلاثة فقط وهم معاوية وعبد الله بن سعد وعبد الله بن عامر والثلاثة قاموا بواجب الإمارة على أحق ما يكون ، فمعاوية رضي الله استقر له أمر الشام رغم مجاورته للروم وعبد الله بن سعد هو الذى فتح إفريقية بالإضافة لما هو أهم وهو أن على بن أبي طالب ولى أقاربه أيضا لأنهم استحقوا التولية ، ولم يكن بين ولاة على رضي الله عنه من هو أفضل من ولاة عثمان إلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وكما سبق أن بينا أن هذا الجيل لم تكن فيهم المحاباة والدليل على ذلك ما فعله عثمان مع الوليد بن عقبة رغم أنه من أقاربه أما فضل عثمان بن عفان ففيه من السيرة العطرة ما يشرف أى أمة تنتسب إليها مثل الشخصية الفريدة ، فيكفيه شرفا قول النبي عليه الصلاة والسلام أن عثمان تستحي منه الملائكة كما ثبت فى الصحيح ، ويكفيه أنه كان زوج ابنتى النبي عليه الصلاة والسلام رقية وأم كلثوم وهذا نقطة تشير إلى مكانته الفريدة حتى يرتضيه النبي عليه السلام زوجا لبنتين من بناته وأعز الله به الإسلام سواء فى بداية الدعوة أو فى المدينة أو بعد خلافته ، ففي خلافته أشرقت البلاد بالرغد وانتشر الإسلام إلى مزيد من أقطار الأرض ، وقبل الخلافة كان مناصرا للنبي عليه السلام بنفسه وماله وكان هو الذى اشتري للمسلمين بئر رؤمة التى كانت ملكا ليهودى بالمدينة استخدمها للضغط على المسلمين وابتزازهم فاشتري عثمان منه نصف البئر ثم اشتراه كاملة بعد ذلك ووهبها للمسلمين بلا أجروفى أحد أعوام المجاعة بالمدينة أقبلت إحدى قوافله التجارية للمدينة تسد البصر، فهرع إليه التجار من كل ناحية يرغبون فى شراء بضائعه فأبي بيعها ووزعها كاملة فى سبيل الله وأعلن أنه لا يتاجر فى القوت والناس على جوع وفاقة ، وفى غزوة العسرة تلك الغزوة الشريفة التى قال الله عنها فى كتابه ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّه عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾التوبة:١١

لما حفلت به تلك الغزوة من مشقة فى التجهيز ، فجاء عثمان رضي الله عنه فجهز جيش العسرة كله من خالص ماله وانبهر به النبي عليه الصلاة والسلام فقال (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) كما شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة وبشره بها على بلوى تصيبه وهى الفتنة ، وبسبب هذه البشارة وهذا العهد امتنع عثمان

رضي اللّه عنه من فض الثوار والغوغاء بالقوة وأمر أصحابه بترك السلاح وفدى الأمة بنفسه رضي اللّه عنه ولم يقبل أن يقتل بسببه صحابي واحد فى الدفاع عنه

رابعا : تولى الإمام علىّ فى ظل ظروف الفتنة القائمة وكان أهم ما يشغله أن يطهر المدينة من الشراذم التى شاركت فى القتل ثم يبدأ فى البحث والتحقيق عن قتلته للقصاص ، لا سيما أن الفاعلين كانوا مجهولين بأعيانهم وكل ما عرفه الإمام علىّ أنهم شراذم من البصرة والكوفة ولكن الرأس المدبر لم يكن واضحا وأرسل الإمام علىّ بولاته للأمصار طامعا أن تستتب الأمور أولا قبل الشروع فى تحقيق القصاص ولكن طلحة والزبير طالباه بسرعة القصاص خوفا من أن يتكرر انفلات الأمور ويفلت الجناة بفعلهم أو يحتموا بقبائلهم كما حدث فعلا بعد ذلك. فرفض الإمام علىّ التعجل لا سيما وأنه كان يفتقد القوة العسكرية اللازمة لتطهير المدينة ، فاستأذن طلحة والزبير رضي اللّه عنهما للخروج إلى مكة وخرجا فعلا وهما ينويان تشكيل جيش يأخذون به القصاص من الذين فروا بفعلتهم إلى الكوفة والبصرة وهناك التقوا مع أم المؤمنين عائشة التى وافقتهم الرأى على ضرورة الأخذ بثأر الخليفة الشهيد بعد أن تزلزل كيانهم من الفعل الشنيع ، وبعد أن زج المنافقون بأسماء الصحابة فى مؤامرة تشويه الخليفة الراشد فزوروا خطابات بأسماء على وطلحة والزبير وعائشة تدعو الناس إلى قتال عثمان ، وهذا مما زاد من غضب الصحابة رضي اللّه عنهم وخرج جيش طلحة والزبير والسيدة عائشة إلى العراق بهدف إدراك حق عثمان من الذين فروا ولم ينتبهوا إلى أن رءوس الفتنة لا زالوا مندسين بالمدينة وفى قلب الجيش الذى شرع الإمام علىّ فى تشكيله ووردت أنباء جيش طلحة والزبير للإمام علىّ فشد الرحال إلى العراق ليري الأمر وأدركهم هناك بعد أن خاضوا جولة أو جولتين وتفهم الطرفان الموقف واتفقا على اتحاد الجيشين والعمل تحت قيادة واحدة ومن أعظم الإفك ما رددته الروايات المألوفة من أصحاب الفتن من أن جيش أم المؤمنين خرج بنية الخروج على الإمام علىّ ونقض بيعته وكيف يكون ذلك وقد خرج الجيش إلى العراق أساسا ، بينما الإمام على فى المدينة !

وبالإضافة لتلك الروايات زاد الرواة إشاعة شهيرة وهى أن طلحة والزبير شهدا شهادة زور أمام أم المؤمنين عند ماء الحوأب وهذا من الإفك المبين الذى لا أصل له فى

نقل ولا عقل(٩٨) ونعود للقصة الحقيقية حيث التقت أطراف التفاوض لتسوية الأمر وهو ما تم فعلا وكما يقول بن كثير (بات المؤمنون بخير ليلة وبات المنافقون بشر ليلة) (٩٩) فعندما بلغت أنباء التفاهم بين الطرفين آذان عبد الله بن سبأ وزمرته أدركوا على الفور أن هذا التصالح سيمنح الفرصة للإمام عليّ فى كشف الأمر واستخراج القتلة من جيشه بسهولة بعد استقرار الأمور فما ضيعوا وقتا، وعملت كتيبة منهم على اقتحام جيش طلحة والزبير ليلا وهم نيام وأعملوا فيهم طعنا وقتلا ونادوا بأن جيش عليّ غدر بهم وفى جيش الإمام عليّ فى نفس التوقيت فعلت كتيبة أخرى المثل واشتعلت المعركة على حين غرة وهذه كل الروايات المثبتة فى شأن وقعة الجمل من كتب التاريخ المحققة يقول الباقلاني (التمهيد فى الرد على الملحدة ـ٢٢٣) وقال جلة من أهل العلم إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم وتم الصلح والتفرق على الرضا، فخاف قتلة عثمان من التمكن منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت أراؤهم على أن يفترقوا ويبدؤوا بالحرب سحرة في العسكرين ، ويختلطوا ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، ويصيح الفريق الآخر الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي، فتم لهم ذلك على ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق منهم مدافعاً لمكروه عن نفسه، ومانعاً من الإشاطة بدمه، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى إذا وقع، والامتناع منهم على هذا السبيل، فهذا هو الصحيح المشهور، وإليه نميل وبه نقول يقول ابن العربي فى (العواصم من القواصم ص١٥٩) وقدم علي البصرة وتدانوا ليتراؤوا، فلم يتركهم أصحاب الأهواء، وبادروا بإراقة الدماء، واشتجر بينهم الحرب، وكثرت الغوغاء على البغواء، كل ذلك حتى لايقع برهان، ولا تقف الحال على بيان، ويخفى قتلة عثمان، وإن واحداً في الجيش يفسد تدبيره فكيف بألف يقول ابن حزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢٣٨/٤-٢٣٩) وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة - رضي الله عنهم - ومن كان معهم فما أبطلوا قط إمامة علي ولا طعنوا فيها... فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب علي ولا خلافاً عليه ولا نقضاً لبيعته ... وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا

(٩٨) المصدر السابق.

(٩٩) البداية والنهاية لابن كثير .

تحاربوا، فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة والتدبير عليهم، فبيتواعسكر طلحة والزبير، وبذلوا السيف فيهم فدفع القوم عن أنفسهم فرُدِعُوا حتى خالطوا عسكر علي، فدفع أهله عن أنفسهم، وكل طائفة تظن ولا تشك أن الأخرى بدأتها بالقتال، فاختلط الأمر اختلاطاً لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان، لعنهم الله لا يفترون من شب الحرب وإضرامها ويقول ابن كثير (البداية والنهاية ٥/٧.)واصفاً الليلة التي اصطلح فيها الفريقان من الصحابة: وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون، وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس ويقول ابن أبي العز الحنفي ـ شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٢٣) فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين أما القول في أنها خرجت من بيتها،وقد أمرها الله بالاستقرار فيه في قوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ فالرد عليه: أن عائشة -رضي الله عنها- إنما خرجت للصلح بين المسلمين، ولجمع كلمتهم، ولما كانت ترجو من أن يرفع الله بها الخلاف بين المسلمين لمكانتها عندهم، ولم يكن هذا رأيها وحدها ،بل كان رأي بعض من كان حولها من الصحابة الذين أشاروا عليها بذلك يقول ابن العربي:) وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح وطمعوا في الاستحياء منها إ ذا وقفت للخلق، وظنت هي ذلك، فخرجت مقتدية بالله في قوله:لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس وبقوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين أقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ هذا والآية نفسها ترد على من اتهم أحد الطرفين بالخروج عن الإسلام أو الفسق حيث أن نص الآية يقول ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾الحجرات:٩

أى أن القتال بين طوائف المسلمين لا ينفي عنهما الإيمان فضلا عن الإسلام وهذا أمر منطقي فى حالة اقتتال طائفتين تحسب كل منهما باجتهاد المخلص أنها على الحق وقد صرحت عائشة نفسها بأن هذا هو سبب خروجها، كما ثبت ذلك عنها في أكثر من مناسبة وفي غير ما رواية. فروى الطبري أن عثمان بن حنيف – رضي الله عنه –

(وهو والي البصرة من قبل علي بن أبي طالب أرسل إلى عائشة -رضي الله عنها- عند قدومها البصرة من يسألها عن سبب قدومها، فقالت: (والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ولا يغطّي لبنيه الخبر، إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين، ولا يقدرون على امتناع ولا يأمنون، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأت: لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس فنهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره وهكذا ومن خلال اتفاق أهل التحقيق نفهم أن القتال شجر على غير إرادة الطرفين فيه وعبثا حاول عليّ وطلحة والزبير تدارك الأمور فلم يفلحوا حتى انتهت المعركة بسقوط عشرات القتلى بين الفريقين وسيطر الإمام عليّ على الأمور بصعوبة وقام بتأمين أم المؤمنين عائشة وردها سالمة إلى المدينة المنورة ثم التفت إلى جيشه واتخذ الكوفة عاصمة له فى أكبر خطأ ارتكبه الإمام وندم عليه فيما بعد لم يكن جيشه يحوى من الصحابة الكثير بل كانت الغالبية العظمى منه من أهل الكوفة وفيهم من شارك بنفسه فى قتل عثمان رضي الله عنه وهؤلاء مثلوا صداعا فى رأس الإمام عليّ لكونهم أهل نفاق فضلا على أن رءوس الفتنة بينهم تقوم بواجبها على أكمل وجه فعاش الإمام عليّ بينهم أسوأ سنوات عمره وقد تشوهت وقائع معركة الجمل وحملت اتهامات عديدة لأم المؤمنين وطلحة والزبير وكلها من روايات الشيعة الباطلة وثبتت أقوال الإمام على بحق الكوفة وأهلها وسبه لهم لعصيانهم له وخذلانهم لأمره وهم يزعمون أنهم شيعته وأحبابه فى تلك الفترة بالذات بدأت جذور فكرة التشيع الفارسي العقدى حيث

أعلن بن سبأ أن الإمام علىّ كانت له الخلافة حصرا بعد النبي عليه الصلاة والسلام وأنه وصيه كما كان يوشع بن نون وصي موسي عليه السلام كما كان بن سبأ أول من أظهر السب والطعن بحق أبي بكر وعمر ونشره بين أهل الكوفة فبلغ هذا الكلام مسامع الإمام علىّ فصعد المنبر وهو يقبض على لحيته ودموعه تسيل على خديه وتبللها وقال خطبته الشهيرة التى بدايتها (ما بال أقوام تتناول حبيبا رسول الله عليه وسلم وصاحباه ورجلىَ الإسلام) كما ثبت عنه من ثمانين وجها أنه قال على المنبر (من يفضلنى على الشيخين جلدته حد المفترى) وهم بقتل عبد الله بن سبأ لولا أن أقنعه بعض أصحابه أنه من قال ذلك عن طيش فتركه ، فذهب هذا الملعون ينشر أول أقوال عقيدة التشيع وهى عقيدة الإمامة والوصاية بالوراثة على الدين وأن الأئمة محددين نصا وأنهم معصومون إلى غير ذلك من الأفكار التى وجدت فى البيئة الفارسية مرتعا كبيرا ثم دخل الإمام علىّ فى أمر معاوية رضي الله عنهما ، وهى المسألة التى حظيت بأكبر قدر من التشويه على مدى التاريخ الإسلامى حيث حفلت بالأكاذيب التى حققها المحدثون وبينوها وأصل الخلاف بينهم لم يكن على الخلافة من قريب أو بعيد ولم يجرؤ معاوية طيلة حياة الإمام علىّ أن يطلب لنفسه الخلافة بل وضع شرط القصاص أمام قبوله بيعة الإمام علىّ ورفض الإمام على هذا الشرط وأصر على أن يبايعه أولا ثم يطلب القصاص باعتباره ولى دم عثمان، وكانت وجهة نظر واجتهاد الإمام على هى الصواب وكان معاوية أيضا مجتهدا فيما ذهب إليه وإن لم يكن الحق معه كما كان مع علىّ والقتال بينهما احتوته الآية الكريمة ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات:٩ فليس معنى وقوع القتال بين جبهتين أن أحدهما فاسق أو كافر بل جعل الله الوصف للفرقتين هو وصف المؤمنين والبغي المذكور فى الآية لا يعنى التكفير من قريب أو بعيد يدل على ذلك أيضا ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام عن الإمام الحسن الذى صالح معاوية فيما بعد فبشر النبي عليه السلام بذلك وقال: (إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) وقال النبي عليه الصلاة والسلام عن الفئتين أيضا :(تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق)

والفرقة المارقة المقصودة هى الخوارج الذين خرجوا على الإمام علىّ فى حرب صفين فقاتلهم علىّ فى معركة النهراون وهزمهم والنبي عليه الصلاة قال أن الذى يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق معنى هذا أن كلا الطائفتين على ومعاوية كان يجتهدان لبلوغ الحق لا الحكم والدنيا وأن اجتهادهما مأجور والأقرب للصواب هو جانب الإمام علىّ فأول التزوير والتلفيق : كان فى اتهام معاوية أنه سعي للحكم وهو ما يثبت من أى وجه وفى أى رواية أنه سمى نفسه أميرا فى مواجهة على بن أبي طالب بل ثبت العكس وهو إقراره بفضله ولكنه طلب دماء عثمان أولا وثانى أوجه التزوير : تمثل فى أن رواة الشيعة أوضحوا أن الطرفين كانا يلعنان بعضهما وهو كذب وزور مفضوح حيث رفض الإمام علىّ سب الخوارج أنفسهم رغم ظهور فسقهم فكيف بأهل الشام، وكان يراهم متأولين وينهى أصحابه وجيشه عن سبهم وكان يقول (قولوا اللهم أصلح ذات بيننا وبينهم) وثالثة الأسافي فى التزوير: هى انتشار قصة التحكيم المكذوبة الشهيرة التى تداولتها الألسن وهى من رواية لوط بن يحيي الكذاب المشهور وتحمل طعنا فى معاوية وأبي موسي الأشعري وعمرو بن العاص وما جرى منها فى الواقع شيئا فقد نادى معاوية فريق علىّ بالاحتكام لكتاب الله فقبل علىّ على الفور ولم يجادل كما صورته كتب الشيعة وأرسل لهم أبا موسي ومعه عبد الله بن عباس وتقابل عن جبهة الشام معهم عمرو بن العاص ولم يستغرق النقاش طويلا حتى اتفق الطرفان عمرو وأبو موسي على أن يكون أمر قتلة عثمان ـ لا أمر الخلافة ـ فى يد جبهة مستقلة من الصحابة الذين لم يشاركوا فى القتال وهذه هى الرواية الصحيحة التى رواها الدارقطنى ونقلها عنه القاضي أبو بكر بن العربي فى (العواصم من القواصم) وبين مدى الافتراء فى الرواية الباطلة للتحكيم والتى قالوا فيها أن عمرو خدع أبا موسي وأنه كان مغفلا وأنهما كان يناقشان أمر الخلافة إلى غير ذلك من الأكاذيب المشتهرة[١٠٠] وقبل عمرو بن العاص بقرار أبي موسي ، ولكن الطرفان على ومعاوية لم يقبلا بالحكم وتجدد الخلاف بينهما ولكن الخلاف لم تنشأ عنه معركة أخرى حيث استشهد الإمام علىّ بيد عبد

(١٠٠) مرويات أبي مخنف فى تاريخ الطبري ـ مصدر سابق.

الرحمن بن ملجم الخارجى وتولى بعده الإمـام الحسن الـذى كـان حاضرا مع أبيه تلك المشاهد ولقي من أهـل الكوفة الإيـذاء بما فيه الكفاية فرفض القتال وأرسل لمعاوية للصلح ، ولما علم الشيعة من حوله بذلك طعنوه فى فخذه وأهانوه وسموه مذل المؤمنين فصمم على البيعة لمعاوية وهو ما تم بالفعل بعد ذلك لتجتمع الأمـة فى عام الجماعة على البيعة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعا وقد راجت عدة أكاذيب حول موقعة صفين وبحق الصحابيين الجليلين عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان منها أن عمرو بن العاص تحالف مع معاوية فى طلب الخلافة مقابل ولاية مصر ، وهذا من الكذب الغير سائغ لأن أصل مطالبة معاوية بالخلافة ما ثبت من أى وجه فكيف يتفق معاوية مع عمرو على شيئ لم يتحقق أصلا ولا كان معاوية طالبا إياه فى حياة الإمام على أبدا وعن أبي مسلم الخولانى أنه دخل على معاوية فقال له (أنت تنازع عليا أأنت مثله)

فقال معاوية (لا والله إنى لأعلم أن عليا أحق وأفضل بالأمر ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما وأنا بن عمه وأنا أطلب بدمه فاتوا عليا فقولوا له أن يدفع لى قتلة عثمان وأسلم إليه الأمور) وتكمل الرواية (فأتوا عليا فكلموه فأبي عليهم - أى رفض عرض معاوية - ولم يدفع القتلة)[١٠١]

هذا مع ملحوظة أن معاوية لم يبدأ بقتال أبدا ولم يخرج على الإمام علىّ بسيفه ولكن رهن البيعة بتنفيذ مطلب القصاص وهو حق مشروع كفله الله تعالى لولى الدم فى قوله تعالى

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾الإسراء:٣٣

أى أن لولى الدم سلطان فى مطالبته بحق القتيل ، وهذا ثابت بحق معاوية ولم يجادل به أحد .أما إن قيل أن معاوية ليس هو ولى دم عثمان على اعتبار أن أبان بن عثمان على قيد الحياة وهو أحق بدم أبيه فيرد عليه بأن التشريع الإسلامى فى القصاص جعل ولاية الدم رهنا بالقدرة لا بقرب القرابة ، وبالتعبير الدارج أن ولى الدم هو كبير العائلة التى ينتمى إليها القتيل وهذا باتفاق الفقهاء كما نقل بن قدامه وغيره أما بشأن عمرو بن العاص رضي الله عنه فهو أحد المهاجرين وأسلم طوعا وينسحب عليه من الفضائل ما ينسحب على سائر المهاجرين ، وقد مدحه النبي عليه الصلاة والسلام فى قوله (نعم المال الصالح للعبد الصالح) وقال فيه وفي أخيه سعيد بن العاص (ابنا العاص مؤمنان)

فهذا شهادة المعصوم عليه الصلاة والسلام بالإيمان والصحبة والفضل لعمرو بن

---

(١٠١) رواها الذهبي فى تاريخ الإسلام باسناد صحيح.

العاص فاتح الشام ومصر ، وتلك الشهادة لا تنقضها روايات الكذابين التى ادعت أنه باع دينه بدنياه ومن المختلقات والكذب أيضا أن على بن أبي طالب طلب من معاوية المبارزة فأيهما قتل صاحبه صارت الخلافة إليه، وهذا طعن فى على رضي الله عنه أنه ينازع بالقتال على الخلافة ، فواضعو هذه الروايات من الزنادقة لم ينتبهوا أنهم يسيئون إلى على بأكثر مما يسيئون لمعاوية حيث جعلوه فى معرض المنافسة الدنيوية على الخلافة ،

وتكمل الرواية المختلقة أن عمرو بن العاص هو الذى برز للإمام على وقاتله الإمام وهزمه فلما أحس عمرو بالهزيمة كشف عن عورته أمام على ليتركه ، وهذا كله كذب صراح وتلك الروايات تناسب أخلاق الأعاجم الذين وضعوا أمثال تلك الأساطير دون أن يدركوا طبيعة المجتمع العربي والذى كان فى الجاهلية فضلا على الإسلام يموت دون كرامته ولا يفقدها فلما جاء الإسلام تمم تلك الأخلاق والمكارم ، ولو جاز لنا أن نتصور حدوث مثل هذا الفعل من محارب عتيد مثل عمرو بن العاص لكنا بذلك نطعن فى شهادة النبي عليه الصلاة والسلام فيه ، بالإضافة إلى أن هذا الفعل ما كان ليفعله عبد رقيق وليس رجل بمروءة عمرو بن العاص وكرامته واعتزازه هذا فضلا على أن الإمام على لم يطلب مثل هذه المبارزة من الأساس وهى من مختلقات أبي مخنف من المختلقات أيضا أن معاوية بن أبي سفيان أمر بسب علىّ بن أبي طالب على المنابر وزادوا فى الرواية أن بنى أمية ظلوا مدة خلافتهم يسبون عليا رضي الله عنه سبعين عاما حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبدل ذلك الأمر وهذا من ناحية السند ساقط لا أصل له وأورده الشيعي المعروف أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى ، وهو كتاب مسامرات لا كتاب تاريخ يعتد به فضلا على خلوه من الأسانيد المتصلة أو الصحيحة بالإضافة لشيعية صاحبه أما من ناحية المتن، فمشكلة تلك الروايات أنها تتفق جميعا فى ضحالة فكر من ألفها فالذى ينظر إلى صحاح السنة يجد فضائل على بن أبي طالب رضي الله عنه ملئ السمع والبصر وهى مكتوبة ومروية فى العهد الأموى فكيف يسبونه على المنابر ويشجعون العلماء على إبراز تلك المرويات هذا فضلا على أن الطاعنين بتلك الروايات يتجاهلون أن الإمام الحسن بايع معاوية بالخلافة راضيا وعهد إليه معاوية بولاية العهد فكيف جاز للحسن أن يسلم أمر المسلمين لرجل غير صالح فضلا على أنه يسب أباه ؟!

وثبت حتى من كتب الشيعة أنفسهم أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا يفدان على معاوية كل عام فيستقبلهما بالإعزاز والإكرام ، فكيف يستقيم هذا مع أمره بسب

أبيهما ، [١٠٢] ثم أين بنو هاشم وأين الصحابة من هذا الفعل وهم الجيل الذين امتدحهم الله تعالى لأنهم يأمرون بالمعروف وينكرون المنكر !

إنما الثابت الصحيح أن السب كان من جهة الخوارج ومن جهة النواصب الذين تخلفت عنهم الفتنة أما ما يستشهد به الشيعة اليوم من رواية صحيح مسلم أن معاوية أمر سعد بن أبي وقاص بسب عليّ فهذا كذب والرواية فى صحيح مسلم لا تحمل أمرا من معاوية بالسب بل تحمل استفسارا حيث يقول معاوية لسعد (ما منعك أن تسب أبا تراب)

فأجابه سعد بترديد فضائل على بن أبي طالب وانتهى الحوار إلى هذا الحد فالأمر كان استفهاما من معاوية عن إنكار سعد لسب السبابين فجاء جوابه بالسبب ، تماما كما نسأل نحن فى عصرنا الحالى أى داخل جديد فى الإسلام :(ما الذى دفعك للإسلام ؟)

فالغرض معرفة السبب وإلا كان هذا السؤال بناء على مقاييس الرافضة يحمل أمرا للمهتدى بالردة عن الإسلام !

ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه صحابي ثابت الصحبة ويثبت بحقه من الفضائل ، ما يثبت لسائر لصحابة فضلا على أنه كان من كتبة الوحى بين يدى النبي عليه الصلاة والسلام وصح عنه أنه قال عن معاوية :(اللهم اجعله هاديا واهد به) [١٠٣]

وقد حكم بلاد المسلمين عشرين عاما تمر كالبلسم فى تاريخ الإسلام ازدادت فيه الفتوحات واستقر أمر الدولة ، وقد قيل لعبد الله بن المبارك (من أفضل معاوية أم عمر بن العزيز) فقال بن المبارك (تراب فى منخرى معاوية مع رسول الله عليه الصلاة والسلام خير من عمر بن عبد العزيز)وهذا لما فى فضل الصحبة من مكرمة جعلها الله سبحانه وتعالى حقا لهذا الجيل الفريدأما أخطاؤه ، فكان منها أن أخذ البيعة ليزيد من بعده وكان يظنه صالحا وكفؤا للأمر ، ولكنه ما أجبر مخلوقا على البيعة لولده ، بل عرض البيعة له فقبلها من قبلها ورفضها من رفضها وكان الرافضون أقل فانعقدت ليزيد ويزيد كان فى حياة أبيه يختلف عن فترة حكمه كما ثبت من شهادة محمد بن على بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، حيث كان يُظهر التقوى والصلاح وله سداد رأى ، بيد أنه بعد توليه الخلافة ظهر منه نزوعه للدنيا ، وهو من ولاة الأمر الفاسدين فى الخلافة

بعكس أبيه الذى ثبت فضله من أكثر من وجه ، فهذه هى قصة الفتنة من وقائع مصادرها المحققة ، بعيدا عن روايات التزييف المعهودة ،وموقف أهل السنة والجماعة

---

(١٠٢) الشيعة وآل البيت ـ إحسان إلهى ظهير.

(١٠٣) فضائل معاوية ـ للشيخ محمد أمين الشنقيطى.

من خلاف على ومعاوية رضي اللّه عنهما هو الموقف الواضح أن ما جرى بينهما قتال بين طائفتين من المؤمنين ، كان الحق فيه لعلى بن أبي طالب ومعاوية كان مخطئا فى اجتهاده

وأصل عقيدة السنة أيضا هو السكوت عما شجر بين الصحابة ، ووضع ما بدر منهم فى الفتنة من أخطاء موضعها الصحيح ، فنحن لا ندعى فيهم العصمة لكن بالمقابل نرفض تلويث هذا الجيل بروايات مختلقة تخالف الواقع وتخالف صريح القرآن وولايته ضمن الفترة التى امتدحها النبي عليه الصلاة والسلام فى حكم المسلمين حيث كان معاوية أول ملوك الإسلام فالحديث الصحيح يقول:(تكون الخلافة بعدى ثلاثون عاما ثم تكون ملكا ثم تكون حكما وجبرية) فالممدوح هنا كان الخلافة الراشدة والملك والذم ألحق فقط بالحكم التالى على ذلك ..

هذه باختصار حقيقة الفتنة الكبري ..

وحقيقة أحداثها التى ينبغي لأى مسلم اليوم أن يعيها وأن يعي من قبلها فضل هذه الزمرة التى جعلها اللّه سبيلا إلى بلوغ دينه إلى كافة أقطار الأرض ..

والحمد للّه وكفي ..

تمت فصول الكتاب بحمد اللّه وتوفيقه

كتــب للمـؤلف

الإســـم / **محمد جاد الزغبي**

- شاعر وباحث فى التاريخ الإسلامى والمعاصر.
- ماجستير الشريعة والقانون وباحث دكتوراة بكلية الحقوق ـ جامعة عين شمس.

الإقـامـة / **مصر - القاهرة**

الإيميل / gadelzoghaby@hotmail.com

كتب مطبوعة :

- ديوان شعر مطبوع بعنوان "**التراتيل الأولى**" صدر عن دار إشراقة للطبع والنشر عام ٢٠٠٠ م بتقديم ودراسة الشاعر والناقد شوقي أبو ناجى وتمت مناقشته ضمن فعاليات دار الأدباء بالقاهرة برعاية الشاعر الإسلامى محمد التهامى .. وكتب عنه عدد من النقاد الكبار بمصر مثل الأستاذ الدكتور بدراوى زهران ـ رحمه الله ـــ والشاعر مؤمن الهباء والناقد حزين عمر والدكتور فتحى عبد الفتاح والشاعر الوردانى ناصف والشاعر شوقي أبو ناجى رحمه الله.
- الخريف الثانى (قصة الثورة المصرية من خريف الغضب عام ١٩٨١م وحتى خريف الغضب الثانى ٢٠١١) **تحت الطبع.**
- حدائق الإيمان فى حرب رمضان.
  (حرب أكتوبر بتحليل وتوثيق ونظرة جديدة) **تحت الطبع .**
- إبليس أعلن الإعتزال **(ديوان شعر)**

  بالإضافة إلى عدة مقالات وقصائد وتحليلات سياسية وتاريخية منشورة بالجرائد والمجلات التالية "جريدة الأخبار ـ جريدة الأهرام المسائي ـ جريدة المساء ـ جريدة الدستور ـ اليوم السابع ـ. جريدة الوفد ـ جريدة صوت الأمة ـ جريدة المصريون ـ مجلة صوت فلسطين الفلسطينية ـ مجلة الكويت الكويتية ـ جريدة الأنوار التونسية ـ مجلة الواحة المغربية ـ"
- **كتب إلكترونيه** صدرت عن وكالة العز للنشر الإلكترونى وتم نشرها فى عشرات المواقع والمكتبات الإسلامية مثل موقع صيد الفوائد وطريق الإسلام والمكتبة الإسلامية الشاملة وموقع البرهان وموقع صوت السلف وشبكة أخبار السنة:

ـ شرح تلبيس إبليس لابن الجوزى ـ الجزء الأول (شرح تلبيس إبليس على المعتزلة والشيعة)

ـ الخومينى (كبيرهم الذى علمهم السحر)

(قراءة جديدة فى فكر الزعيم الشيعي الخمينى)

ـ المناظرة الكبري مع الشيعة الإثناعشرية (مناظرة مكتوبة استمرت شهرا كاملا بين الكاتب وأحد باحثي الشيعة فى قضية الإمامة)

ـ يالثارات الحسين (بحوث في العقيدة الشيعية وموقفها من أهل السنة)

ـ السيدة عائشة (نورانية العفاف وقرآنية الإنصاف)

ـ ستون سؤالا بستين قضية .

ـ سفراء جهنم (الحقيقة وراء المرجعيات الشيعية المعاصرة) الجزء الأول

ـ " فن الإشراف وإدارة المنتديات الثقافية " دراسة من ثلاثة فصول بحثية تعد هى الأولى من نوعها فى هذا المجال خاصة بمعالجة سائر ما يتعلق بتنظيم المنتديات الثقافية على الإنترنت فنيا وإداريا تم اتخاذها كأساس للهيكلة الإدارية لعدد من منتديات الشبكة العنكبوتية.

ـ تعلم كيف تكون مثقفا ـ بحوث ثقافية متنوعة تضمها سلسلة (تعلم كيف ... ؟) وهى سلسلة شهيرة للكاتب على شبكة الإنترنت وتضم ١٢ بحثا يعالج مختلف المشارب الثقافية والفكرية.

ـ كتب إليكترونية تحت الإعداد.

ـ كتاب أولياء بلا مريدين (يضم الكتاب السيرة الذاتية لأهم شهداء مصر فى الحرب على الإرهاب فى سيناء ويعرض أهم بطولاتهم)

ـ "المخابرات المصرية ــ قصة معجزة على النيل" دراسة مسلسلة تشرح تاريخ جهاز المخابرات المصري ودوره فى حماية الأمن القومى العربي من مصادر معتمدة وذكر سائر المعلومات الحقيقية الصريحة المتاحة لمن تولوا إدارة الجهاز وأشهر ضباطه وأشهر عملياتهم.

ـ كتاب صقر سيناء (يروى قصة الشهيد البطل النقيب عبد الله الجندى أحد أبرز ضباط الجيش الثانى الميدانى فى سيناء وصاحب أطول مدة خدمة بها منذ تخرجه)

ـ سفراء جهنم ـ الجزء الثانى (يسلط الضوء على تاريخ جماعة الإخوان وإبتكارهم

لجماعات الإرهاب المتطرف وعلاقتهم التاريخية بالشيعة وفرقهم خلال بدايات القرن العشرين وحتى سقوط حكمهم فى مصر).

ــ شرح تلبيس إبليس لابن الجوزى ـ الجزء الثانى.

ــ فبُهت الذى كفر (كتاب يضم مناظرات منوعة للكاتب مع الجانب الشيعي والجانب العلمانى فى قضايا العقيدة).

ــ الإعجاز العلمى والعجز العلمانى.

(كتاب للرد على العلمانيين فى إنكارهم لوجود الإعجاز العلمى بالقرآن الكريم)

ــ شخصيات مصرية أسرت النبوغ

(كتاب للأثر الفكرى والوطنى لأشهر الشخصيات المصرية فى العصر الحديث من العلماء والمفكرين والأبطال العسكريين).

ــ معلومات ثقافية خاطئة ... ومنتشرة

(كتاب يطرح أكثر من مائة معلومة تعتبر من المسلمات لدى العامة وهى خاطئة جملة وتفصيلا مع إيراد كافة الأدلة العلمية على خطئها).

ــ نظرات فى التاريخ السياسي لقضية الأقصي.

(كتاب يؤسس لقراءة جديدة فى القضية الفلسطينية سياسيا وتاريخيا منذ أواخر عهد الدولة العثمانية وحتى حرب غزة).

الفهـرس